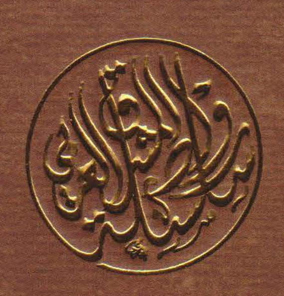


البوّابات الجنوبيّة لجزيرة العرب

رحلة إلى حضرموت عام 1934 م

تأليف: فريا ستارك

ترجمة: وفاء الذّهبي

تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش



رّواد المشرق العربي

البوّابات الجنوبيّة لجزيرة العرب

رحلة إلى حضرموت عام 1934

للرّحالة البريطانية

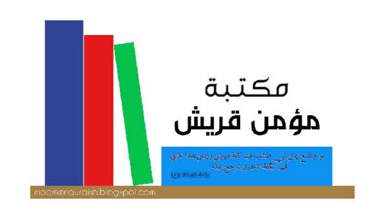
فريا ستارك

ترجمة

وفاء الذّهبي

تحرير وتعليق

د. أحمد إيبش



© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.
DS94 .B412 2013
Bell Gertrude Lowthian 1868-1926.
[desert and the sown]
البوابات الجنوبية لجزيرة العرب: للرّحّالة البريطانية: فريا ستارك ترجمة: وفاء الذّهبي تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش. ط. 1.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2013.
ص. : سم.- (رواد المشرق العربي)
ترجمة كتاب : The desert and the sown
تدمك : 978-9948-17-164-5





الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

البوّابات الجنوبيّة لجزيرة العرب

رحلة إلى حضرموت عام 1934

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسّياحة والثّقافة» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من هذه السّلسلة الثّقافيّة التّراثيّة تحت عنوان: «روّاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشّرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثّقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشّريف، الفقه، التّاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نؤكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلات هيرودوتوس ونيارخوس، ورحلة الأناباسيس لكسينوفون الأثيني)، وكذلك في عصر الرّومان (كرحلة إيليوس غالوس، وتطواف البحر الإريثري). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطّمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشّام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها أخفقت وارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثّقافيّة والحضاريّة من علاقات الشّرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثّمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تتابع «هيئة أبوظبي للسّياحة والثّقافة» اليوم نشره بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطّباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسّياحة والثّقافة

هذا الكتاب

فريـا سـتارك كاتبة بريطانيـة مثقفة وجريئة، يغلـب عليها الطّابع الإنسـاني العاطفي ورهافة الحسّ واللّباقة، زارت حضرموت في ثلاثينيات القرن العشـرين برحلة شائقة، يسـرّنا أن نضيفها اليوم إلى ما سـبق أن نشـرناه لمغامِرات من النّساء: الألمانيّة دوروتيّا فون لينكِه (الكونتيسّة مالـمينياتي)، والبريطانيّات ماري تْشَب، مارغريت مَري، غرترود بِـل، مابِل بِنت. كما سـوف نرى منهنّ المزيد قريبـاً: اللّيدي آن بلَنت، دورين إنغرامز، روزيتا فوربز.

أبحـرت الرّحّالـة البريطانيـة المثيـرة للجدل في البحـر الأحمر فـي نوفمبر 1934، ونزلـت في عَدَن المرفأ الرّئيسـي للمحميّة البريطانية فـي جنوبي جزيرة العرب. كانت المكتشـفة النّشـيطة الجذّابة الصّغيرة قد حازت على شـهرة، واختارت اليمن وبشكل خاص وادي حضرموت النّائي مسرحاً لمغامرتها التالية. وكم ثار من جدل كبير حولها في لندن، فتوقعوا أنها سـتهبط بطائرتهـا الخاصّة، أو ربما تأتي وهي تقود قافلة جِمال. كان بعضهم على ثقة من أنّ وصولها لم يعنِ أيّ شـيء سـوى المتاعب، ولكن مع ذلك احتشد الجميع للقائها في مقرّ الإقامة البريطاني.

كان هدفها أن تجد مدينة «شَبوة» الخفيّة، عاصمة مملكة حضرموت القديمة (حبس الموت) كما تسمّى في الأسفار، شَبوة التي ذكرها پلينيوس باسم «سابوتا» المدينة التي زوَّدت بالمـؤن قوافـل البخـور التي تمرّ عبرهـا، وكتب أنها احتوت على سـتين معبداً وثـروة لا توصـف. لم يحصل أن بلغ مستكشـف أوروپـي تلك الواحـة المفقودة منذ

عهـد بعيد في رمال البادية، وكانت نيّـة فريا أن تكون أول من يصل إليها. كانت خطتها أن تتسـلّق الجُول العالي، وهو جُرف فسيح يفصل سـاحل المحيط الهندي عن وادي حضرمـوت، وهـو الأطـول والأخصب في جزيرة العـرب، تطوِّقه جُـروف نمت على جوانبهـا نباتات البخـور. فكانت حصيلة ذلك كله مغامرة ممتعة شـائقة، لم يكن أقلّها وقوع فريا في عَدَن بحبّ تاجر فرنسي ستذكره في كتابها مراراً وتكراراً.

* * *

ولدت فريا ستارك عام 1892 وعاشت عمراً مديداً ترتحل بين المدن والحضارات.. أبصـرت النـور فـي پاريس ونشـأت فـي إيطاليـا والتحقت بالحـرب العالميـة الأولى كممرّضـة على الجبهة النّمسـاوية، لكن ولعاً خفيّاً وفضولاً نحو المعرفة والاكتشـاف قاداهـا الـى تعلّم اللغـة العربيّة وهي فـي الثّامنة والعشـرين من عمرها علـى يد راهب إيطالـي من الكپوچيين عاش في بيروت قرابة ثلاثيـن عاماً. كما تتلمذت على يد اثنين من المستشرقين الكبار هما توماس آرنولد وهاملتون غِب.

تخرّجـت فريا من مدرسـة اللغات الشّـرقية في لنـدن وقرأت القـرآن الكريم، وفي العـام 1928 بـدأت رحلتها الى الشّـرق لاكتشـاف قيمـه الرّوحيـة والانسـانية، وأثناء الحـرب العالميـة الثانية عملت في العديد من المدن العربية مثل القاهرة وبغداد وعَدَن على شـرح مواقف بريطانيا. كانت فريا ابنةً روحيّة لكلّ المدن في الهند، كندا، الصين، أفغانسـتان، كشـمير، إيران، أميركا.. تزور وتجول وتدوّن ما يلفت نظرها ثم تعود إلى بيتها في مدينة أسولو Asolo (تلفظ آزولو) في شمال ايطاليا، لتسجّل خبرتها الحيّة في كتب ومقالات بأسلوب يتّسم بالواقعية وروعة التّصوير وصدق العاطفة.

أثنـاء وجودها في حضرمـوت وبكونها امراة، اسـتطاعت ان تخـترق كل الحواجز المقامـه حـول نسـاء العرب هنـاك، وتعمّقت فـي هذا المتجمـع ناقلة لنا صـوراً كثيرة ومختلفـة مـن جوانب عدّة عـن المجتمع النّسـائي الحضرمي قبل ما يزيد عن خمسـة وسـبعين عامـاً. وتكلّمت عـن أمور كثيرة فـي حضرموت ابتـداء من السّياسـة وانتهاء بالاحاديث النّسـائية في داخل البيوت الحضرميّة العادية. وأسـلوب هذه الكاتبة ممتع

وتفاعلي تغلب عليه رهافة الشّعور مع تعاطف محبّب مع النّاس الذين قابلتهم وعاشت بينهم فترة خمسة أشهر من الزّمان، وتُشعرك بأنها فعلاً استطاعت فهم هذا المجتمع وتعاملت معه بكل محبّة ومودّة.

وعدا عن المحور الإنساني الذي اهتمّت به فريا في حضرموت، انصبّ تركيزها أيضاً على تاريخ طريق اللُّبان (أو البخور) الذي كان في العصور القديمة بمثابة ثروة نادرة اختصّت بها هذه الزّاوية من العالم في جنوبي جزيرة العرب، وكانت مادّة ثمينة للتّجارة والتّنافس الدّولي، وحتى أثارت أطماع روما القديمة فقامت من أجلها حملة كبيرة بقيادة القائد الرّوماني الشّهير إيليوس غالوس، كما أثارت انتباه واهتمام جميع من تعاطوا التّجارة آنذاك، كما نجد في كتاب «التّطواف في البحر الأريثري» الذي ألّفه ملّاح يوناني مجهول في القرن الميلادي الأول، وهو قيد الإعداد أجهّزه حالياً للنّشر في هذه السّلسلة.

* * *

أول طبعة صدرت للكتاب كانت في لندن عام 1936 عن دار جون مَري John Murray ورافقتها طبعة دار دَتون Dutton النّيويوركيّة، ثم تلتها طبعة ثانية عام 1946 وثالثة 1957. رجعنا أولاً في ترجمتنا هذه إلى طبعة حديثة صدرت بنيويورك عام 2001، ثم قمتُ بمراجعتها على طبعة لندن 1957 من نسخة الجامعة الأميركيّة في بيروت، وأخذت عنها الصّور التي أقدّمها في نهاية الكتاب. ولكن مع إعداد هذه المقدمة وتجهيز الكتاب للطباعة وصلتني من أميركا نسخة نادرة جداً لطبعة نيويورك الأولى 1936 فوجدت بها صوراً أكثر بكثير من الطبعة الثّالثة تتجاوز المئة، فضلاً عن ملحق وتعداد لمراجع قيّمة، لعلّي أستدركها في طبعة قادمة. والواقع أنّ فريا كانت بارعة في فنّ التّصوير، وتستعمل كاميرا لايكا Leica الألمانيّة الشّهيرة (من الطراز القديم المعروف بالرِّكاب اللّولبي Schraubgewinde)، وزيّنت كتبها بالكثير من الصّور النّفيسة.

أخيراً، أودّ الإشارة إلى أنّ الأغلبيّة السّاحقة من المصادر المرجعيّة التي تذكرها فريا

في نصّها قد حصلتُ عليها، مثل كتب هيرش وفون ڤريدِه وڤان دِر مولن وفون ڤيسمان وهانز هِلفريتس وتطواف البحر الإريثري، أمّا كتاب ثيودور ومايبل بِنت الثّمين فقد نشرناه في أواخر العام الفائت وكذلك رحلة الإيطالي رِنزو مانزوني، ونعد بتقديم عدد أكبر من فرائد نصوص الرّحلات عن اليمن، ضمن السّياق التّالي: لودوڤيكو دي ڤارتيما، جون جوردين، كارستِن نيبور، يوزف ڤولف، توما جوزيف آرنو، أيليز إروين، هنري روك، أولريخ ياسپر زيتسِن، حاييم حَبشوش، أدولف فون ڤريدِه، ليو هيرش، إدوارد غلازَر، هِرمان بورخارت، هاينريخ فون مالتسان، مايبل بِنت، ڤان دِر مولن وفون ڤيسمان، والتر هاريس، جورج وايمَن بُري، آرثر جون واڤِل، هارولد إنغرامز، هانز هِلفريتس، واثنين من بقيّة كتب فريا هما: «مشاهدات في حضرموت»، «شتاء في جزيرة العرب»:

Seen in the Hadhramaut (1938), *A Winter in Arabia* (1940).

نرجو أن يكون في عملنا هذا ما يفيد ويمتع. والحمد لله على ما وفّق وأعان.

جبيل، 19 فبراير 2013

د. أحمد إيبش

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والاسـماء الأجنبيّة، يواجه القارئُ العربي دوماً خللاً كبيراً لم تتمكّـن مجامعنا اللغويّة من حسـمه إلى اليوم. لكن بمـا أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقتصر هنا على ذكر سبع نقاط:

1 - بخصـوص حـرف الجـرّ الفرنسـي de أو du لا أتّبع أبـداً طريقـة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتّباع طريقة اللغة التّركيّة العثمانيّة القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسـماء الفرنسـيّة، أمّا في الاسـماء الإيطاليّة والإسپانيّة فأتركه: دي.

2 - الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسـم: چركس، لاچين، سَـلچوق. وهو ليس بحـرف عربـي، ويماثله فـي الإنكليزيّـة ch كقولـك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسپانيّة كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يماثله في الإيطاليّة حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويماثله في التّركيّة حرف ç كقولك: çay, çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسـماء: چِسـتر، فرانچيسكو، چيكو، بحرف (چ) فثمّة أسـماء تسـتعصي لشـهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشـارلز، تشرشـل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّچ، شلونچ، پاچِة. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرقّقة، التي يُعبّر عنها في التّركيّة العثمانيّة والفارسـيّة والأورديّة بحرف: ژ، ويماثلها في الفرنسـيّة والپرتغاليّة j والإنكليزيّة zh والرّوسيّة ж والپولونيّة ż والچيكيّة ž.

3 – أمّـا عقـدة التّرجمة الكبـرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسـم Google يُكتـب بمصـر: جوجـل، وفـي الشّـام: غوغـل، وفـي العراق: گـوگل، وفي السّـعوديّة: قوقل، وفي المغرب بكاف موسـومة بثلاث نقاط، وفي تونس: ڨوڨل، وفي فلسـطين: چوچـل، إذ يعرّبون لوحات الطّرق: چلعاد، چدعـون، چَدُول، رامات چان (علمـاً أن גנה هـي ذاتها جَنّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شـبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسـم Lady Gaga: أهي ليـدي غاغـا أم جاجا أم قاقا؟ وكم أشـعر بالغرابـة عندما أقرأ: لقـزس، قوديز، كِلوقز، قَلـف. ومـن مظاهر التّشـويش الذي يفرضـه الأمر أن بعـض الكلمات صـارت تُلفظ مغلوطة بجيم شجريّة: جَلَنط Galant، كتالوج Catalogue جَندول Gondol.

هذا الحرف تصنّفه اللسـانيّات العربيّة باسـم (الجيم اللهويّـة) تمييزاً له عن (الجيم الشّـجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق (فـي الوقت الحاضر) اتّباع أسـلوب أجدادنـا العرب في الأندلس بترجمتـه غيناً، كما عرّبـوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. لكن على أن نَسِـمَه بثلاث نقاط: (ݝ) تمييزاً له عن الغين العربيّة المُشبعة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: أي جيم موسـومة برمـز مميّز: وليكن بقلم المُسـنَد الحِميَـري اليماني، أو جيماً كنعانيّـة، تحتها أو فوقها علـى طريقـة حروف لغـة الأُردو. لكن متى ترانا نفعـل؟! ولماذا الجيـم دون الغين أو الـكاف؟ لأن «اللّسـانيّات التّيمانيّة» تحتمل الإقلاب بين الجيم المشـبعة وهذه الجيم اللّهويّـة، التـي حافظت عليهـا القبطيّة بمصـر كاليونانيّـة γ المفتقرة إلى جيم مشـبعة، وبقيـت فـي لهجـة اليمن عـن أصل العربيّـة الجنوبيّـة القديمة، ومـا زالت فـي العبريّة والسّريانيّة كالجيم المصريّة.

الواقع أنّ الفرنسـيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما

في اسم: Guillaume (غيّوم). وكذلك حلّ الطّليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الاسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلّة e أو i، أما عندما يتبعه حرفٌ ساكن أو حرفا العلّة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطاليّة فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كييڤو).

وأمّا الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانيّة القديمة تُكتب الجيم الشّجريّة كالعربيّة ج، وأمّا اللهويّة فاستعاروها من الفارسيّة گـ. وفي التّركيّة الحديثة بالأبجديّة اللاتينيّة جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصّصوا حرف g للجيم اللهويّة، كقولهم: gerçek (غِرچك)، وحرف c للجيم الشّجريّة، كقولهم: geceler (غِجِلار)، Avcı (آوجى)، Cem (جم).

أمّا الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجريّة أصلاً بل لهويّة فحسب، كما في: Gewehr (غِڤير)، وإن أرادوا رسم الاسماء العربيّة لقوا التّباريح، كقولهم في «جبل»: Dschebel، حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمُطلق. وأمّا لدى الإسپان، فحرف G له أحكام يطول شرحها، فالأصل في القشتاليّة أن يُلفظ جيماً لهويّة (غ)، وإن تلاه e أو i يلفظ خاءً، ولذا يضيفون u عند اللزوم كما في: Miguel ميغيل. ومن الناحية الصّوتيّة اللفظيّة ثمّة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسمعتُ بأذني في غرناطة مَن يلفظ اسم Aragon: «آراغون»، وليس آراغون. هذا عدا عن أنّ حرف G يلتبس لفظياً مع J الذي يُلفظ أيضاً خاءً مع كل حرف صوتي، كقولك: Jerez, Jiménez, Jaén, Juan, Jordi.

لكنّ التّعبير في العربيّة عن حرف الجيم اللهوي بكتابته جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السّعوديّة) يمكن حسم بُطلانه بلحظة واحدة: احتكِموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقلة. ثم إنّ الجيم لا تصلح للتّعبير عن جميع الكلمات الأجنبيّة، وحتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، بُرتُجال،

بلجاريا، مجنطيس، إجريق، شيكاجو.. أم هل نسمّى البُرغُل مثلاً: بُرجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التّركيّة bulgur).

4 – ثمّة أسماء في اللغة الفرنسيّة تنتهي بكسرة مُمالة ممدودة، على غرار اسم: Colet أو René أو Garnier أوGervais ، ونظراً لانعدام وجود الكسرة المُمالة في العربيّة (كما هي في السّريانيّة والعبريّة مثلاً) فإنّ التباساً ينشأ في طريقة نقل الاسم إلى العربيّة. وفي المغرب العربي تشيع طريقة غير صحيحة البتّة باستخدام الياء وحدها كقولهم: لويز كولي (وهي أديبة ورحّالة فرنسيّة)، رغم أنّ اسمها هو: Louise Colet والياء هنا لا تؤدّي المنطوق الصّحيح أبداً. كذلك نلاحظ في أسماء الأرمن مثل: Vahé, Shahé أنهم يكتبونها بالعربيّة في لبنان وسوريا: واهي، شاهي.

فإذا عدنا إلى عهد عظماء كتّاب العربيّة في العصر العبّاسي، نجد أنّ هذه المعضلة التي واجهتهم في الأسماء الأعجميّة قد حلّوها على نحو أدقّ باستعمال ياء وهاء، كقولهم: سيبويه، خسرويه، خُمارويه، خالويه، نفطويه. وهذا يضارع أسلوب زمرة اللّغات الكنعانيّة باستعمال الكسرة والهاء، كقولك: أرييه، موشيه. وهو قطعاً الحلّ الأمثل للمعضلة، وسنتّبعه فنكتب الأسماء الفرنسيّة: كوليه، رُنيه، غارنييه، جِرڤيه. والأسماء الإسپانيّة: خوسيه، پيكيه.

أمّا في الأسماء الإنكليزيّة، فرغم تشابه حرف a أو ثنائيّة ay مع الكسرة المُمالة، تبقى مَدّتها طويلة، ولذا نكتب Gray: غراي، Mabel: مايبل.

أمّا في الأسماء التي تنتهي بكسرة مُمالة قصيرة، فتكفي بالعربيّة كسرة وهاء، كما في الاسم الإسپاني Condé كوندِه، أو Enrique إنريكِه، والألماني Porsche پورشِه، أو Pritzke پريتسكِه، والهولندي Goeje خوْيِّه، والپولوني Tyskie تيسكِه، والإيطالي Simone سيمونِه، أو Michele ميكيلِه.

5 – نصرّ في هذه السّلسلة على كتابة الأسماء الأجنبيّة كما ترد في لغاتها، لا كما تمّت قولبتها بالإنكليزيّة والفرنسيّة. فالأصح بالألمانيّة: مدينة لايپتسيك وليس

لايبزغ، زولنغِن وليس سولنجن، كولن وليس كولونيا، ڤِلهِلم وليس وليَم، ريخارد وليس ريتشارد. ثم نكتب أميرِكا وليس أمْريكا، ڤارشاڤا وليس وارسو، پراغا (پراها) وليس براغ، بيجينغ وليس پكين. وفي البرتغاليّة الأصح لفظ: كريشتيانو، كوشتا، جوزيه، جُواو. ولكنّ ثمّة أسماءً رسخت بشكل مغلوط في الأذن العربيّة مثل: برشلونة (وصوابها بالقطلانيّة: بارثيلونا)، دون كيشوت (وصوابه بالقشتاليّة: دون كيخوتِه)، باريز أو باريس (وصوابه بالفرنسيّة: پاري)، لويس (لوي)، ملك القدس جاي أوف لوزجنان (غي دى لوزينيان)، وليَم الصُّوري (غِيّوم)، برج إيڤِل (وصوابه: آيفِل).

لكن أعجب ما أسمعه هنا في لبنان، أنّ أحفاد كنعان العاشقين للفرنسيّة يصرّون على لفظ الكنى الأرمنيّة المنتهية جميعها بلاحقة: ian بلفظ فرنسي فيه غُنّة، كما لو كانوا يلفظون اسم Evian أو Christian، حتى لم يسلم من ذلك الاسم التّركي إردوغان Erdoğan الذي بات وكأنه فرنسي ابن فرنسيّ، علماً أنّ ثمّة شيئاً في التّركيّة يسمّى: Yumuşak Ge أي الجيم الطريّة، تلفظ كمَدّة مكبوتة لا كغين، كقولك: Doğan دوآن، أو: Ağaç آآچ.

6 - حرف H يُكتب ولا يُنطق بجميع اللغات اللاتينيّة: الإيطاليّة والإسپانيّة والپرتغاليّة والفرنسيّة والرّومانش والرّومانيّة، ما خلا حالة في الپرتغاليّة بآخر الكلمة مع الألف والواو فيُلفظ ياءً، مثل: Covilhã كوڤيليا، filha فيليا، ilha إيليا، Mourinho مورينيو. وعلى ذلك، فمن الخطأ لفظ الاسم الفرنسي Henri هنري بل أُنري، وهو بالإيطاليّة إنريكو، والإسپانيّة إنريكِه. وأيضاً ڤيكتور أوغو Victor Hugo وليس هيجو أو هيغو.

7 - وأغرب الأمثلة هي الأسماء العربيّة التي ترد على ألسنة المسلمين من غير العرب، فنستوردها بصيغ لفظيّة مختلفة دون انتباه لأصولها العربيّة، كالاسم التُّركي ميرڤَت Mervet الذي ترنّمت به الأسماع دون إدراك أنّ أصله: مَروَة. أو اسم فتاة الشاشة التّركيّة Tuba الذي يُكتب لدينا بالعربيّة «توبا» على أنّه اسم تركي فريد، وما هو إلا اسم من القرآن الكريم: طوبَى.

وثمّـة كنية عريقة في لبنان: جانْبَيْه، يطيب للنّاس أن يلفظوها بلكنة فرنسـيّة: -Jean Béy بينمـا الاسـم تركي قديم يعود إلى عصـر المماليك، ولفظـه بالتّركيّة: Can-Bey (جـان بيـه)، ومعنـاه: رُوح أو نّفْس. وكذلك اسـم قَبَـلان، وصوابـه: Kaplan ومعناه بالتّركيّة: نمر.

والأعجـب من هذا وذاك اسـم سـوريا، الذي هو صيغـة هيلّينيّـة (إغريقيّة) Συρία (سُوريّا) مقولبة لاسم «آشور» الدّولة العظيمة في بلاد الرّافدين، سُمّيت بها بلاد الشام الواقعة على البحر الأبيض بما يشمل اليوم سوريا ولبنان، على اعتبارها كانت في وقت مضى تتبع لها. غير أنّ المضحك أنّ حرف الشّين لا يوجد في الألفباء اليونانيّة، فأُقلب سـيناً ومـا زلنا إلـى اليوم نلفظه مغلوطـاً بعد 27 قرناً مـن الزّمان. وكذلـك فمن الخطأ كتابته: سورية، لأن الهاء بآخر الكلمة ترد بالتّسميات العربيّة والكنعانيّة، لا اليونانيّة.

وللبحث صلة..

د. أحمد إيبش

FREYA STARK

THE SOUTHERN GATES OF ARABIA

A Journey in the Hadhramaut

E. P. DUTTON & CO., INC.

نموذج عنوان طبعة نيويورك الأولى، 1936

THE SOUTHERN GATES OF ARABIA

A JOURNEY IN THE HADHRAMAUT

FREYA STARK



LONDON
JOHN MURRAY, ALBEMARLE STREET, W.

نموذج عنوان الطّبعة الثّالثة، لندن 1957

CHAPTER XII

KHURAIBA AND ROBĀT

عجبت من منع امرئ جاهه   ما منع مَن يجتدى ولم يغرم

يثلم وفر المال اعطاؤه لكن   وفر الجاه لم يثلم

(ابن الرومى)

"*I wondered that one so noble as he should withold;*
Why should he withold who, by giving, loses nothing?
The money-hoard is diminished by its gifts:
But the store of honour is not diminished." (Ibn er-Rūmi.)

The two governors used to come to eat in my room, fluttering the ladies in flight before them. They would come in without ceremony, Muhammad with a straw table-mat, and Ahmad with a plate or two in his hand, and settle down while Ghaniya did the rest, overcome in the face of so much condescension and as nearly speechless as was possible. She brought us rice, piled high, with fat and peppers; meat cooked in excellent gravy, and the local dish called harisa, of meat and flour pounded smoothly together like a gruel, with a cup of melted butter in the middle to dip each handful in as one took it.

Ahmad and Muhammad meanwhile talked pleasantly, and I liked them more and more. They brought with them the Sayyid Muhammad ibn Iasīn, a charming old merchant who dealt in cotton on the Red Sea coasts and wrote in Arabic to Liverpool. He too had the long face and large pleasant mouth typical of the settled people of these valleys; and their delightful good

I   115

نموذج مطلع الفصل 12 من الطّبعة الثّالثة، وبه شعر بالعربيّة



فريا ستارك بالثّياب العربيّة، عام 1928



المؤلفة فريا ستارك عام 1934 زمن رحلتها

فريا ستارك ورحلاتها

فـي نوفمبر 1934، أبحرت الرّحالة البريطانية المثيرة للجدل فريا سـتارك في البحر الأحمـر عبـر مضيق باب المنـدب، المضيـق الضيّق الـذي يفصل جزيـرة العرب عن أفريقيا - ونزلت في عدن مرفأ المحميّة البريطانية الرّئيسـي في جنوب جزيرة العرب. وإبّان ذلك كانت المكتشفة النّشيطة الجذابة الصّغيرة قد حازت على شهرة لا بأس بها يجدر بها المحافظة عليها، واختارت اليمن، وبشـكل خاص وادي حضرموت النّائي، مسـرحاً لمغامرتهـا التّاليـة. توقـع الموظفون في مركـز الحدود الخلفي هـذا وصولها بمشـاعر مختلطـة، وقد ثار جـدلٌ كبير عنهـا في لندن حيـث أنّهم توقعوا أنها سـتهبط بطائرتهـا الخاصـة، أو ربما تأتي وهي تقـود قافلة جِمال. كان بعضهـم على ثقة من أن وصولها لم يعنِ أي شيء سوى المشاكل، لكن مع ذلك احتشد الجميع للقائها في مقرّ الإقامة البريطاني.

كانت فريا سـتارك في ذلك الوقت تبلغ من العمر 42 سـنة، وسـوف تمنحها الملكة لاحقـاً رتبة Dame (المكافئ الأنثوي لرتبة فارس) بسـبب إسـهامها في أدب الرّحلة، وكانـت قد أصبحت شـخصية بارزة منذ أن نشـرت في تلك السّـنة كتاباً اسـتثنائياً، هو «وُديـان الحَشيشـيّة» الـذي وصف رحلاتها فـي أماكن لم تكن معروفـة حتى اليوم في بلاد فارس بوصف حي مع قطاع الطّرق والدّراويش، وعبدة الأوثان، والكنز المدفون. وقامـت الجمعيّة الجغرافيّـة الملكيّة كذلك بمنحها منحة تعويض كتقدير لمسـاهمتها فـي رسـم خرائط حكومـة صاحبة الجلالة فـي تلك المنطقـة النّائيـة. كان هدفها الآن

أن تجـد مدينة «شَـبوة» الخفيّة، عاصمة مملكـة حضرموت القديمة، المشـار إليها في سـفر التّكوين باسم Hazarmaveth أو (حبس الموت) وقد ذكر پلينيوس شَبوة باسم: سـابوتا Sabota وهـي المدينة التي زوَّدت قوافل البخور التـي تمرّ من خلالها، وكتب أنها احتوت على ستين معبداً وثروة لا توصف، لم يحصل أن وصل مستكشف أوروبي لتلـك الواحـة المفقودة منذ عهـد بعيد في رمال الصّحراء، وكان لـدى فريا نيّة تامّة بأن تكون هي أول من يصل إلى هناك.

لم تبدُ الحياة دوماً مبهجة لبطلتنا على الإطلاق، وكانت في الواقع قد بدأت السّـفر فـي بدايات الثّلاثينيات مـن عمرها، عندما قررت أخيراً أن تنفصل عن حياة اشـمأزّت منها، حيث تورطت بعمل شـاق في إدارة مزرعة زهور على جروف شاهقة في ليغوريا Liguria فـي جنـوب إيطاليـا، وأتاحت لها هدية نقدية في عـام 1927، بأن تقوم بزيارة مطوّلة إلى لبنان لممارسة لغتها العربية.

ولقـد نشـط اهتمامهـا بتلك اللغـة من خلال حدث هائـل في مدينة سـان ريمو St. Remo القريبـة في 1920 في نهاية الحرب الكبرى. كان رئيس الوزراء البريطاني داڤيد لويد جورج David Lloyd George قد وصل لاجراء محادثات مع جورج كليمنصو الفرنسـي الأول لتقسـيم الانتداب علـى مناطق الدّولـة العثمانية المهزومة بين فرنسـا وبريطانيا. وقد فكّرت فريا بأنها إذا اسـتطاعت أن تتقن اللغة العربية فإن ذلك سـيحقق بكل تأكيد فرصاً جديدة لشخص مثلها، امرأة ذاتية التّثقيف ومتحفّزة، عزباء لها اهتمام فـي الكتابة والصّحافة، حسـب اسـتطلاعات رأي تـم أخذها بأن المطلوب كان رسـم الخرائط والإدارة. كان هناك في أوروپا جمهور متشـّوق توّاق لمعرفة المزيد عن عالم غريب من مساجد ومآذن ومعين لا ينضب لسلعة النّفط شديدة الأهمّية.

ولدت فريا عام 1892، وهي ابنة علاقة قامت بين أمريكي هو أوبِدايا داير Obediah Dyer من نيو أورليانز وامرأة إنكليزية أنيقة فنّانة هي فلورا سـتارك كانت قد نشـأت في إيطاليا. كان زوج فلورا هو ابن عمها البكر روبرت سـتارك من بلدة ديڤون في انكلترة، الذي كان بدوره فناناً وقد عاشـا معاً تعيسـين لمدة خمس عشـرة سـنة دون أبناء، ومن

الواضـح أن روبرت أعتقـد بأنّ الطّفلة كانت ابنته، وقد أحبّها على هذا الأسـاس تماماً كأختهـا، التـي ولـدت لاحقاً بعد سـنة ونصـف، ولـم يُعـرف إن كانت فريـا قد علمت بأصولها الحقيقية، ولكن حاجتها الماسّة للشّرعية واندفاعها للظّهور والتّميّز أوحيا لها بأنّ الأمر لم يكن طبيعياً بالنّسبة لها.

قابلـت فلورا سـتارك عندما كانت فريا في العاشـرة مـن عمرها، كونتاً إيطالياً شـاباً سحرها تخطيطه لفتح معمل سجّاد في بلدته الأم درونيرو في سفوح الجبال الإيطالية، وقال إنّ ذلك من أجل تأمين العمل لفقراء المنطقة، وانطلاقاً من طبيعة فلورا المندفعة، وضيـق ذرعهـا بزوجهـا فقد تركـت روبرت على نحـو مفاجـئ وأخذت معهـا ابنتيها لتلتحـق بالكونـت فـي إيطاليا، ناقلـة إياهما من حيـاة مريحة في ديڤون حيـث تنعمان بخدم وحيوانات أليفة، لتدفعهما إلى حياة الفقر - بشكل مأساوي بفرص قليلة لتعليم مناسـب لطفلـة ذكية مثـل فريا. وممّـا زاد الأمر سـوءاً، الحادث الـذي تعرّضت له في معمل وهي في الثّالثة عشـرة من عمرها، وقد تأذّى الجانب الأيمن من رأسها، وتمزّق جزء من فروة رأسها، عندما علقت ورفعها دولاب الموازنة. كان من الممكن أن تُخفى آثار الجرح العادية بإضافة قطع شـعر، وعصابات ملونـة، وقبعات رائعة، ولكن جرحاً قاسياً وعنيفاً وواسعاً كهذا في عمر المراهقة المبكر قد خلّف ندبات نفسية أيضاً. ولقد شـعرت طوال حياتها بالحاجة للتّغلّب على الخوف عن طريق وضع نفسـها في طريق الخطر، ولكن لـم يستطع أي شيء تهدئة القلق الكامن في نفسها، وهو ألا تكون جذابة للجنـس الآخر. ولكـن، ومن طرف مغاير، كانت في نظر الآخريـن امرأة كاملة الأنوثة إلى أبعد حد، صغيرة جداً، بأنف مقوّس وبشـرة جميلة وعيون ضاحكة وكانت جذابة (مغناجـة) - رغـم حذرهـا - للرّجال المعجبين بها حيث انتزعـت إعجابهم بجاذبيتها الهائلة وحوارها المتألق وثقافتها الواسعة.

تمكّنـت فريا أخيـراً في أواخر عقدهـا الثّاني من إقناع روبرت سـتارك بأن يخصّص لها مبلغـاً من المـال لتلتحق بكلية بدفورد في لندن. وعلى أية حال فلم يكن أسـرع من إمكانية حصولهـا علـى منحة بجـدارة، إلا نار المدافع التي دوّت في أغسـطس لتعلـن بدء الحرب

العالمية الأولى، وتغلق كلية بدفورد. وبدل أن تحقّق حلمها في الدّراسة، فقد واجهت شبح حرب مريع من خلال التّطوّع كممرضة وشاهدة على التّقهقر الإيطالي الدّامي في كاپورّيتو Caporreto؛ وعادت معيلة لنفسها لينبذها زوجها المستقبلي، الذي كان يعمل طبيباً في المشفى حيث كانت تتدرّب، ولقد عزّز الرّفض مخاوفها العميقة.

باشرت فريا العمل المتعب في مزرعة أزهار لتعيل نفسها وأمها، بعد أن حلّ السّلام الذي تبع النّصر، وظلّت تعمل لمدة عشر سنوات مقيتة، بينما استمرّت تتدرّب على اللغة العربية في الليل، وتقرأ لشيكسبير ولجون مينارد كينز John Maynard Keynes وهي تحرّك قدر طعام العشاء، وهي تمنّي نفسها بأحلام اكتشاف «مدن مدفونة في الرّمال».

بدأت برحيلها إلى لبنان، بواسطة المال الذي قدّم لها - على الأرجح - من قبل والدها الحقيقي في وصيته، بانطلاقة رائعة من السّفر في مناطق بعيدة في الشّرق الأوسط. وقد انسلّت إلى سورية عبر حامية عسكرية تحيط بطائفة الدّروز المتمرّدين في المرتفعات في الجنوب الغربي، وقبضت عليها السّلطات الفرنسية. أثارت هذه المأثرة حدثاً دولياً، ولكن عندما كتبت فريا حول سوء إدارة الفرنسيين في مسؤلياتهم الانتدابية فازت المقالات بملاحظة إيجابية في دوائر إنكليزية مهمّة وأثبتت لفريا بأن الكتابة والرّحلة يجب أن يكونا حياتها. بعد فترة قصيرة، في بلاد فارس، قامت بالتّعرّف إلى بعض القلاع الجبلية للحشيشيّة القدماء، وهي طائفة متطرّفة مارست الاغتيال الطّقوسي بحقّ المجتمعات السّنّية البارزة، ولقد أنعش الكتاب الذي كتبته عنها اهتماماً بالمجتمعات الإسلامية السّرّية، وكان تشريفها من قِبل الجمعية الجغرافية الملكية هو الأول من بين عدّة جوائز وأوسمة ستنالها لاحقاً.

عمّرت فريا مئة عام وعاماً واحداً، وتمّ تكريمها كمكتشفة وعالمة أعراق بشرية (أنثروپولوجيا)، وعالمة في فن رسم الخرائط ومصوّرة فاتنة، الأطول عمراً والمؤلفة لثلاثين كتاباً، من بينها أربعة أجزاء من السّيرة الذّاتية، وثمانية مجلدات رسائل مختارة. فقد كتبت عن القلاع الصّليبية في سورية والمدن المقدّسة في بلاد ما بين النّهرين، وقد أبلت بلاءً حسناً لاحقاً خلال فترة الحرب العالمية الثّانية وتميّزت كخبيرة في الشّرق

الأوسـط تعمل لصالح وزارة الإعلام. وفي تركية كانت كتبها في العقود اللاحقة تزوّد عـدداً لا يحصى من السّـياح في طريقهم إلى الأناضول، ولا يـزال الوصف التّالي باقياً لبـرّ اليمـن المؤثر لتتبّع طريق البخور إلى شَـبوة في عام 1934، كواحـد من كتبها التي لا تُنسـى. كانـت كُتب فريـا بارعة دوماً، وواسـعة المعرفة، ولكن كان سـرورها عارماً منـذ اللحظة التي شـقّت فيها طريقها للمـرة الأولى في هذا العالم الملوّن من الشّـيوخ والرّجال المقدَّسين، والحريم البدو ذوات الصّباغ الأزرق:

«لقـد فكّـرتُ بسـواحل جزيرة العـرب الممتدّة علـى الجانبين – علـى بُعد ثلاثمئة ميـل إلـى عدن، فكم سـتكون المسـافة نحو مسـقط فـي الاتجاه الآخـر؟ وضمن هذه الحـدود الهائلة، حيث المحيط الهندي قبالتي كانـت الصّحارى الدّاخلية في الخلف. كنتُ الأوروبية الوحيدة... ولقد لف مشـاعري النّاعسـة شـعور مبهم قليلاً وتسـاءلتُ لبرهة ماذا يمكن أن يكون قبل أن ألاحظه: هل كان سـعادة نقية وروحانية؛ أم استقلالاً لعواطف ومشـاعر، أم الجوهر الأثيرى للسّـعادة والبهجة النّادرة جـداً والمجرّدة جداً بحيث تبدو غير دنيوية عندما تأتي؟».

وبالنسـبة لفريـا فهـي لـم تفقد أبـداً إدراكاً جذلاً بـأن الأرض وكل شـيء عليها كان مدهشاً. كتبت: «تشير كلمة النّشوة دوماً إلى نوع من اكتشاف جديد، وحداثة للمشاعر أو الرّوح، وهي تبحث عن تلك الكلمة في الحب وفي الدّين وفي الفنّ أو في السّـفر، المغامرة التي تكون جاهزة لمواجهة المجهول».

وقـد قدّمت هـذه الأرض القديمـة تحدّياً رائع لمؤرخة ورومانسـية مثـل فريا، فقد عُرفت للمصريين بأرض پونت Punt، وللعبريين بأرض أوفير Ophir وللملك سليمان كموطـن لملِكة سـبأ. وقـد حضّرت بشـكل دقيـق، من خـلال قراءتهـا لهيرودوتوس Herodets، وسترابو Strabo، وكتاب «تطواف البحر الأريثري» *The Periplus of the Erythræan Sea* للمؤلّف المجهول الذي كشف الأسرار لرياح الرّحلات التّجارية، بالإضافـة إلى پلينيوس وبطليموس وديودوروس سـيكولوس والقرآن وأسـفار العهد القديم. وسـافرت إلى لنـدن وإلى معهد ميونيخ في ألمانيا للبحـث عن المدن القديمة

التي نافست شَبوة وهي مَعين ونجران وسبأ وأوسان وقَتَبان وحِمْيَر، ودرست لعدّة أشهر ما كان متاحاً لها من الكتابات القديمة.

لقد كانت خطّتها أن تتسلّق الجُول العالي، وهو جُرف فسيح يفصل ساحل المحيط الهندي عن وادٍ بطول 350 ميل، دُعي باسم وادي حضرموت، هو الأطول والأكثر خصوبة في جزيرة العرب، وقد مُلِئ بحقول خضراء من نخيل التّمر والبرسيم، وطوِّق بجُروف نمت على جوانبه نباتات البخور. كانت مدن حضرموت التي ستقوم فريا باكتشافها مبكراً، تقع تحت سلطة أسرتين متنافستين، هما أسرة القعيطي Qu'aiti وأسرة الكثيري Kathiri اللتان ضمّتا عدداً قليلاً من الموظفين البريطانيين في عدن وكانتا مشغولتين بحفظ السّلام - واللتان ستتعثّر فريا على نحو بريء في حروبهما القبليّة. وعلى أيّ حال فالشّيء الذي لم تكن تتوقعه في هذه المغامرة اليمنية، هو أن تقع في الحب.

كانت فريا قد وصلت مع بعض معارف مهمّين سرّعوا في عجلات مغامرتها، ولكن الأكثر أهمية كان تعرّفها إلى وجيه فرنسي في عَدَن، هو أنطونان بيسّ Antonin Besse الذي امتدّت إمبراطورية تجارته من الحبشة إلى شرق آسيا. زوّد بيس فريا باتصالات جعلت رحلتها ممكنة، وكان تأثيره مهمّاً بشكل حاسم على حياتها لعدة سنوات، عاطفياً وفي عدّة نواحٍ أخرى. كان بيس المتألق، المسيطر، والذي يكبر فريا بستة عشرة سنة، قد تزوّج مرتين، ونال إعجاب عدة نساء مثل زوجته الحالية المتسامحة. وبما أنه تهيّأ الآن ليفوز بقلب فريا، فمن الممكن أن يؤدّي ذلك لآثار مثيرة حتى بالنّسبة لهذا الرّجل المسيطر الجذّاب.

وفي النّهاية، وعلى الرّغم من أنها حازت على عدّة مغامرات مفعمة بالحيوية في هذه الرّحلة، فإنّ فريا لم تصل إلى شَبوة مطلقاً. وبدلاً من ذلك، فقد جلبت مرض الحصبة الذي انتشر بين نساء شيخٍ محلي. وقد قام بيس بإرسال سلاح الجوّ الملكي لإنقاذها، فقامت فريا بإهداء رجال سلاح الجو الملكي هذا الكتاب.

وعادت، بعد عدة سنوات، إلى حضرموت كرئيسة لحملة تنقيبية، ولكن في غضون

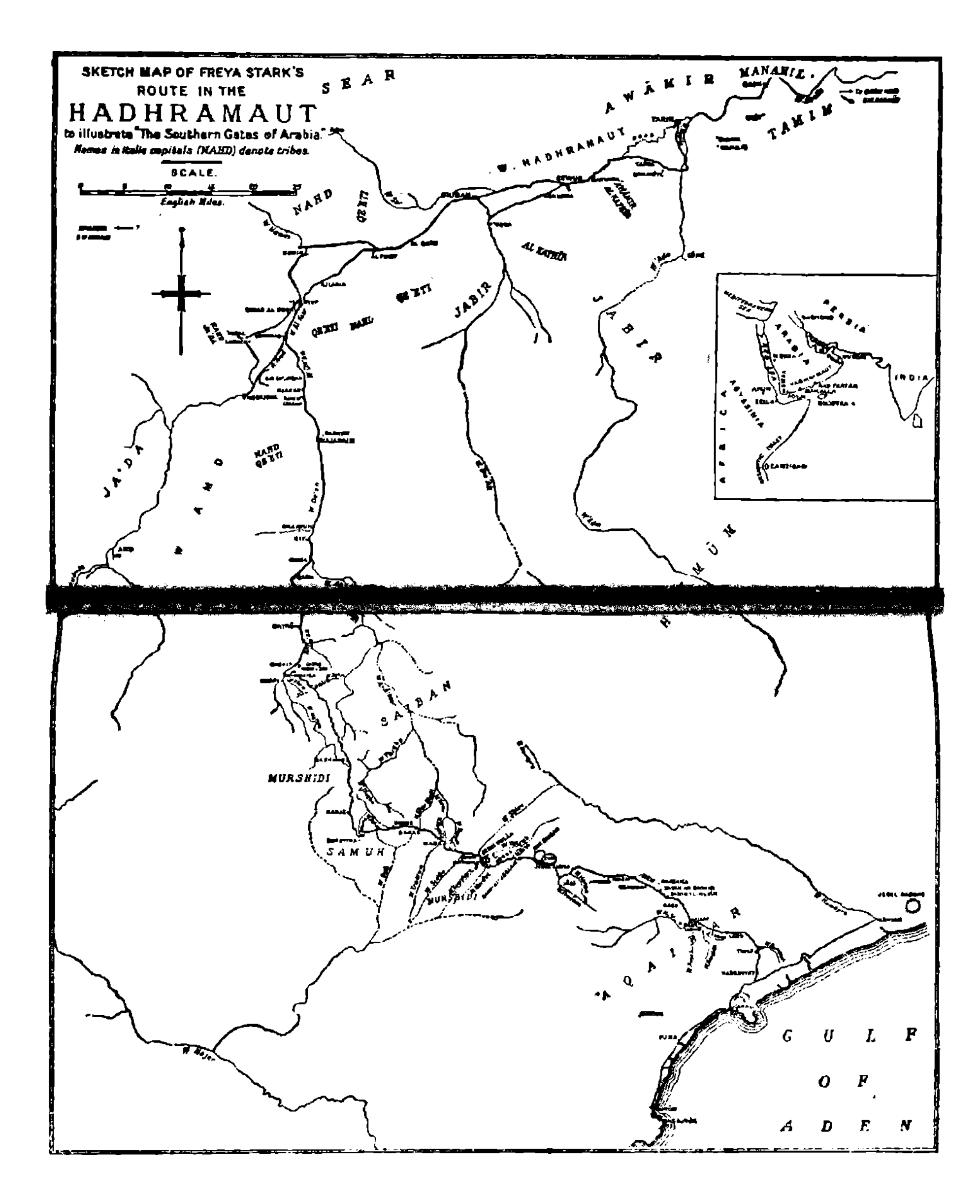
ذلك، فاز مصور ألماني يُدعى هانز هِلفريتس[1] Hans Helfritz بسبق الوصول إلى شَبوة، التي قام برحلة إلى ضواحيها قبل أن يطرده البدو منها بينما كانت فريا تُعالَج في مشفى في عَدَن. وبعد مرور عام، قام المستعرب العظيم هاري سنت جون فيلبي بتحديد وتوثيق موقع المدينة المتهدّمة، تحت حماية صديقه الملك سعود، الذي كان قد وحّد وسط جزيرة العرب مؤخراً. كانت فريا مغتاظة بشكل عميق عندما سمعت الأخبار، ملاحظة أن فيلبي «كان قد ذهب وأخذ شَبوة في طريق عودته إلى موطنه من نجران وقد قام بذلك بواسطة السّيارة!» وعلى الرّغم من ذلك، فإن النّصر كان حقاً حليف فريا. وعلى الرّغم من أنها لم تكن قد زارت تلك المنطقة مطلقاً، فإنّ بحثها ونجاتها المثيرة قد ساهما بتصوير شَبوة بصورة حيّة للعالم؛ فقد كانت تخصّها روحياً، حيث يمكن للاسم أن يرتبط دوماً بها. وسيقدّم فيلبي تقديراته لجهدها في تقرير 1940، كان بعنوان «بنات سبأ»، في حين أصبحت رواية فريا الخاصة والتي هي بعنوان «البوّابات الجنوبية لجزيرة العرب»، التي نُشرت عام 1936، الأكثر مبيعاً، ولفتت انتباه إليزابيث الملكة الأم، فغدَت المرأتان صديقتين.

أخيراً، ستنفصل فريا عن بيس في جدال عنيف، وتتزوّج بعد الحرب العالمية الثّانية من زميل شرق أوسطي كانت قد عرفته في بغداد وعملت معه خلال الحرب. ولقد كانا ملائمين في جميع النّواحي، عدا ناحية واحدة: فقد كان ستيوارت پيراون Stewart Perowne مِثلياً. أقلق الزّواج أصدقائهما، ولمّا لم تستطع فريا أن تغيّر طبيعته فقد أصبح كارثة لكليهما. وبقيت وجهتها العالم الإسلامي، وتابعت التّرحال خلال عمرها الطّويل عبر العالم الإسلامي على قدميها أو على الجِمال أو الحمير أو بالسّيارات حتى أواخر الثّمانينات من عمرها، وهي تكتب خلال هذه المرحلة للقراء كتابة صادقة ومسلّية.

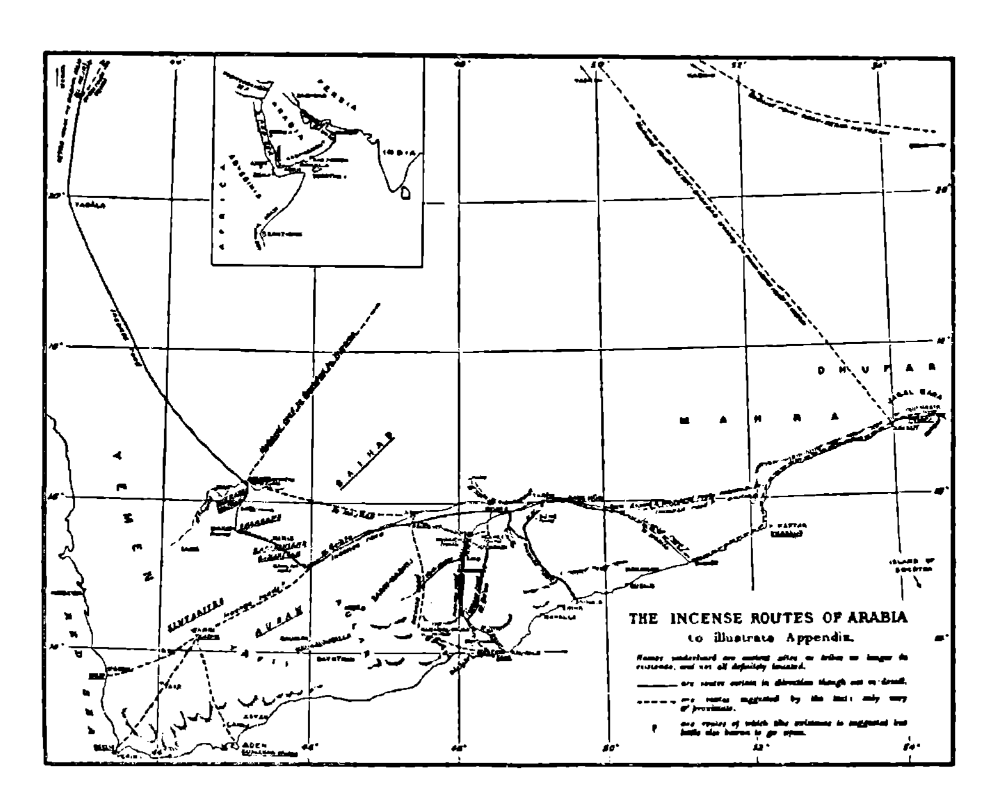
عندما وافى فريا الأجل، صرَّحت مجلة التّايمز (لندن) عنها: «آخر الرّحالين الرّومانسيين»، بينما أسمتها النّيويورك تايمز (رحّالة من الطّراز الأول).

---

(1) حصلت على كتابين له يخصّان وصف رحلاته في اليمن: *Land ohne Schatten* «بلدٌ بلا ظلال»، والآخر: *The Yemen: a secret journey* «اليمن: رحلة سرّيّة»، وهما كتابان مهمّان ممتعان.



خارطة تمثّل مسار رحلة فريا ستارك في حضرموت



خارطة تمثّل طريق البخور في جزيرة العرب

أهدي هذا الكتاب إلى

سلاح الجوّ الملكي

The Royal Air Force

وبشكل خاص للمقيمين منه في عَدَن

الذين بفضلهم كان إنجاز الكتاب متاحاً

من خلال حملهم لي بأمان من شِبام

شكرٌ وعرفان

سيجد القارئ أنّه قد بُثّت في صفحات هذا الكتاب، أسماء العديد من الذين أدين لهم بدين من العرفان: السّيد هاليفاكس Halifax، سير أكبر حيدري Akbar Hydari، مستر مارمادوك پيكثول Mr. Marmaduke Pickthall، صاحب السّموّ سلطان المُكلّا - الذين بمساعدتهم حظيت بالتّرحاب عندما وطئت حضرموت للمرّة الأولى.

الأمير سالم بن أحمد بن عبد الله القعيطي، حاكم المُكلّا؛ سمو السّلطانين علي بن منصور الكثيري حاكم سيئون، وعلي بن صالح القعيطي في القَطْن؛ السّادة الأشراف آل الكاف في سيئون وتَريم؛ حسين وسعيد العجم من شِبام؛ الحاكمان محمّد وأحمد باصُرّة في دَوعَن؛ وأعيان آل العَطّاس في عَمد وفي المَشهَد؛ من خلال مساعدتهم المجتمعة ومودّتهم لرحلاتي التي جعلتها ممكنة ومحبّبة.

وفي عَدَن علي أن أشكر المندوب السّامي، السّير برنارد رايلي Sir Bernard Reilly والكولونيل لايك Colonel Lake وكومودور الجو پورتال Air Commodore Portal لتشجيعهم اللطيف من البداية وحثّهم ومساعدتهم السّخية في نهاية رحلتي؛ أنطونان بيسّ Mr. A. Besse لمساعدته القيّمة وحتى نصيحته الأكثر قيمة في كل نوع؛ وكذلك قائد السّرب هايثرون ثوايت Haythrone Thwaite واللفتنانت الطيّار غِست Guest لعنايتهما المخلصة في الإنقاذ من شِبام. والأطباء، القيّمة والممرّضات في المشفى الأوروبي العام فيما بعد.

كما عليّ أن أشكر الجمعية الجغرافية الملكية وأمناء جمعيّة پيرسي سلادِن Percy

Sladen Trustees فـي لنـدن لمسـاعدتهم وتشـجيعهم: ومسـتر روفون غِسـت Mr. Rhuvon Guest لمساعدته القيّمة أثناء تأليف كتابي - وقد شملت مساعدته ما يتعلّق بالعلوم الإسلامية التي تظهر في صفحات كتابي بشكل أساسي.

* * *

مقدمة

طريق البخور

«من هذه الطّالعة من البرّيّة كأعمدة من دُخان، معطَّرة بالمِرّ واللُّبان، وكلّ أذرة التّاجر؟»
(نشيد الأنشاد لسليمان الحكيم، 8: 5)

كتب رُبّان يوناني مجهول الاسـم في القرن الأول من تاريخنا كتاب «تطواف البحر الأريثـري»[1] *Periplus of the Erythræan Sea*، لم يكن مثقفاً ولا أديباً ولكنه كتب معلومـات عن البحّـارة والتّجّار، وقد بـدأ بمرافئ البحر الأريثري فـي زمنه واحداً تلو الآخـر وأسـواقها وصادراتها، متّبعـاً أولاً السّـاحل الغربي ومن ثمّ الشّـرقي، للمناطق قرب زنجبار ومن هناك «المحيط غير المكتشـف الذي ينحني باتجاه الغرب» وشـرقاً نحو مَلاكّا Malacca «القسـم الأخير في العالم المأهول بالسّـكان... تحت الشّـمس السّاطعة».

هنـاك الكثيـر من الكتب المضلّلة أكثر من كتاب هذا القبطان المُسـنّ، وأعتقد أنه - ككهل - من المفترض أنه نال قدراً من معرفة عميقة بالرّحلات التي قام بها.

يبـدأ مـن مصر شـرقاً، بعد رحلتـه الأفريقية إلى أراضـي البخور التـي امتدّت قرب

---

(1) عنوانه باليونانيّة: *Periplus Thalassa Erythra* (پيريپلوس ثالاسا إروثرا)، انظر حوله كتاب داڤيد جورج هوغارث: «ارتياد جزيرة العرب»، في هذه السّلسلة. هذا ولقد حصلت على طبعته الأصليّة النّادرة المنشورة على يد ولفريد شوف بنيويورك ولندن عام 1912 وقمت بترجمته للسّلسلة وسيصدر في هذا العام، وهو يضمّ معلومات مهمّة عن الخليج العربي وبحر العرب.

Cape of Spices (رأس التّوابل) والذي هو الآن رأس قصير Cape Guardafui. ويعبر أرض التّجّار في بترا (البتراء) Petra حيث جمع ملك الأنباط الثّروات، ويبحر على طول ساحل جزيرة العرب، مخبراً كيف «ترقّشت الأرض على حافّة البحر هنا وهناك بكهوف آكلي السّمك، ويسكن داخل المدينة رجالٌ عُتاة يقيمون في قرى ومخيمات بدوية، كانوا يسلبون المُبحرين خارج المسار المتوسّط، وقد تم أخذ هؤلاء النّاجين من حطام السّفن كعبيد. ولذلك فقد أبقينا طريقنا في وسط الخليج، وعبرنا بأسرع ما يمكن قرب أرض جزيرة العرب، إلى أن أتينا إلى البرّ المحترق (Jebel Tair 15° 35' N. 41° 40' E.) متجهين إلى أسفله حيث توجد مناطق من النّاس المسالمين، بدو ومراعي ماشية وأغنام وجمال».

ويصل هنا إلى مملكة اليمن الحِمْيَرية، آخر الإمبراطوريات المستقلّة لجزيرة العرب، والتي ازدحم مرفأها Muza (والذي هو الآن المُخا Mokha أو Mauza) بمالكي السّفن العرب، والملّاحين، والمشتغلين بشؤون التّجارة...».

توجد هنا جبال اليمن العالية، وهي مظلمة وفيها جُروف هارية وهوّات، وقمم سامقة مشرفة، خلف واجهة صفراء من الرّمال تستغرق رحلة يومين. وقد تكتّلت الرّؤوس المستوية المحتشدة على مسافة بعيدة إلى إحدى سلاسل الجبال العظيمة، ولذلك، وكما يقول الهَمداني[1]: «ليس هناك كثير من الجبال، بل جبل واحد يسمّى السَّراة، يمتدّ من اليمن إلى مكة». ولم يكن لون هذه الجبال، التي تُرى من البحر، كلون غيرها من ألوان الجبال المألوفة على وجه الأرض، بل هو دُخاني وقاتم كما لو أن النّقاط البركانية السّوداء قد اكتست برمال صحراء، وغُطِّيت حجارة الصّحراء الحمراء برماد البراكين - كحجرات من الفحم الحجري تخمد في أديم الأرض.

ومن هنا أبحر الملاح القديم جنوباً بين مجمع السّواحل. ودخل مضيق باب المَندِب،

---

(1) أبو بكر شهاب الدين احمد بن محمد بن اسحاق بن ابراهيم الأخبارى الهمدانى وشهرته ابن الفقيه الهمداني (القرن الرابع الهجري / العاشر ميلادي)، أشهر مؤلفاته: «صفة جزيرة العرب»، و«كتاب الإكليل».

حيث تصبح الموجات التي عتّمتها أشعة الشّمس أقلّ تكراراً قد «أجبره البحر على التّجمّع وأغلقه في مضيقٍ ضيّق، هو مدخل انقسام جزيرة ديودوروس Diodorus (تسمّى الآن بريم Perim)». وهناك أعلى منها «مباشرة على المضيق عند الشّاطئ قرية العرب تسمى Ocelis... عبارة عن مرفأ ومكان شرب الماء، وتعتبر المرسى الأول لتلك السّفن التي تبحر الى الخليج من الجنوب، فقد كان المرفأ الأكثر قُرباً من الهند للعرب الذين دافعوا عن أسرار تجارتهم لقرون قبل مجيء الرّومان». ولم يكن يُسمح للمراكب الهندية في الشّمال منه. ويأخذ مرفأ أحواض بريم Perim وShell مكان Ocelis؛ ولكن العرق الحالي حول الزّاوية الحادة وسلاسل الجبال الملساء، ومقدمة الأرض التي لا أشجار فيها مازالت توجد هناك دون أن تتغير؛ وفي الخلف «يمتدّ البحر مرة أخرى باتجاه الشّرق ليعطي مباشرة مشهداً للمحيط الفسيح». وتابعنا المسير، كما فعل البحّار القديم، على ساحل اليمن الجنوبي، وألقينا المرساة في «إنديمون[1] Endaemon Arabia وهي قرية قرب الشّاطئ، من مملكة كَرب إيل Caribael (الملك الحِمْيَري في اليمن) وأصبح لدينا مرافئ قريبة وأماكن شرب ماء، أفضل وأعذب من تلك التي في Ocelis». كانت تلك عَدَن، مكان التقاء الشّرق مع الغرب.

يوجد خلفها شرقاً «امتداد مستمرّ لساحل وخليج قارة كاملة على طول مئتي ميل أو أكثر، في المكان حيث يقطن البدو وآكلو السّمك في قرى؛ وهناك خلف الرّأس (الأرض الدّاخلة في البحر) البارز من الخليج، مدينة تجارية أخرى عند الشّاطئ، مدينة قَنا مرفأ اللُّبان Frankincese. ويمتدّ من هذا المكان نحو الدّاخل مدينة شاباتا الكبيرة Metropolis Shabbatha [تسمّى الآن شَبْوة] حيث يقطن الملك. كان جميع البخور الذي نتج في المدينة قد أُحضر على الجمال إلى ذاك المكان ليتم تخزينه، وحُمِل إلى قَنا على طوّافات جلدية بواسطة أشخاص ضخمين وفق عادة المدينة، وفي الزّوارق... وفي المكان أيضاً تجارة مع المرافئ الأفريقية، مع باريغازا Barygaza [Broach in India] وعُمان وإيران».

---

(1) المقصود بها عَدَن.

وهكـذا، فقـد كتب الملاح القديـم - وافد جديد إلى تلك البقعة التـي حظيت ذات مرة بلقب الأغنى وكانت الأكثر حماية وربما الأقدم بين جميع طرق التّجارة في العالم القديم.

ولقـد تم الكشـف عن سـرّها قبـل سـنوات قليلة من زمنـه. وفي عـام 45 ق.م كان هيپّالوس Hippalus، الملّاح اليوناني الأوروپي الأول الذي اكتشـف كيفية الاستفادة مـن الرّيح الموسـمية (فـي المحيط الهندي وجنوب آسـية). وقد قاد تجارة متوسّـطية عبـر المحيـط الهندي. وجـاء بعده الرّومـان، فاتحو طـرق القوافل الشّـمالية، ومصر، الذين أُرهقوا بدفع الرّسـوم العربية، وقاتلوا شـيئاً فشـيئاً من أجل الحصول على طريق بحـري خاصـة بهم، ودُفِعوا في المياه المضطربة في مراكب جديدة وبأحجام أكبر، تم تحصينها بواسطة النّبّالة.

ولكـن لا أحـد يعلم كم مـن الزّمن مـرّ قبلهم، وفي أي يـوم من أيـام التّاريخ بدأت تلـك التّجارة، ولا متى بدأت القوارب الدّراڤيديّة Dravidian رحلتها الفردية، وعبروا فـي البداية المحيط الهندي بكوثل عالٍ ومنقوش في ربعه ودفة في المركز، والشّـمس والرّيح من خلفهم في الفصل الموائِم، ومن ثم أفرغوا حمولتهم على شاطئهم العربي.

هنـا «أحيطت مدينـة البخور، الجبلية والوعـرة، بغيوم كثيفة وضبـاب، تنتج البخور من الأشـجار»، ولقـد انتظر رعـاة الإبل العرب تحت غبـار خيمهم كما يفعلـون الآن، وربطوا البخـور العربـي والأفريقـي معاً في بضائعهم مـع اللؤلؤ وقماش الموسـلين المجلوب من سـيلان Ceylon والحريـر من الصّين، وعصيّاً مصنوعة من عظم ظهر السّـلحفاة، ومرهم النّارِدين من الغانج Ganges وأوراق قرفة هيمَلايا Himalayan، المسمّاة Malabathrum *"coronatus nitentes*
malobathro syrio capillos."

ومن الهند، الألماس والصَّفّير (الياقوت الأزرق)، العاج والقطن، النّيلة، اللازورد، وفـوق كل ذلـك القرفة والفلفل. ومن الخليج العربي التّمـر والخمر، الذّهب والعبيد، ومن السّـاحل الشّـرقي لأفريقيا، قائمـة طويلة لتجار جزيرة العـرب، البخور، الذّهب، والمِرّ، وريش النّعام والزّيت.

وأُخذت بضائع من محطات الشّريط السّاحلي الرّملي للبدو والجمال، عبر شُعَب الهضاب، على السّهب الواسع إلى وديان داخلية وإلى الأراضي الشّرقية من اليمن، إلى أن وصلت إلى أسواقها عبر صحارى شمالي مكة، وكان البخور العربي يشتعل على مذابح كنائس دمشق، وفلسطين، وطيبة Thebes، ونينوى، أو روما.

لقد كان هذا طريق البخور العظيم الذي ما تزال ذكرى بعيدة باهتة منه تعطي لجنوب جزيرة العرب اسم السّعيد، الذي سيكون وجوده تهيئة لمكانة ومآثر الإسلام اللاحقة. وسيسافر على خطاه أغنياء آسيا، وظهرت على طول مجراه المتواصل البطيء الإمبراطوريات العربية وسقطت: المَعينيّة، والسّبئيّة، والقتبانيّة، وحضرموت وحِمْيَر. فقد نمت الواحدة تلو الأخرى على خط طريق السّفر الهائل؛ ولقد نوقشت سياستهم من خلال الرّغبة في السّيطرة على أكبر قدر منها، وعلى الأخص السّيطرة على مناطق البخور من الجنوب والمنافذ إلى البحر: وقد أصبحوا بنّاءين أرستقراطيين وإمبراطوريين لمدن ضخمة (شاهقة)، واستعمروا أرض الصّومال وإثيوبيا، وجعلوا أنفسهم سادة غابات أفريقيا تماماً كما هم سادة الغابات العربية.

ويمكننا بصعوبة ملاحظة حجم الثّروات التي ساهم احتكارهم بمنحهم إياها في الأوقات عندما كان كل مذبح وكل جنازة يتم تعطيره بالبخور. وقد حُفِظت الغرف المقدسة لتخزنه في هيكل القدس. ولقد تمّ في عام واحد نقل 2,159 جرّة و 304,093 مقدار إلى هيكل آمون في بداية القرن الثّاني عشر قبل الميلاد، ولقد قام الكهنة الكلدانيون بإحراق ما قيمته عشرة آلاف طالن سنوياً على مذبح البعل في بابل Babylon وحدها. واستخدمت عشرات الآلاف من الطّالنات لتدفع كجزية من العرب إلى داريوش. وقام الإسكندر الكبير بعد احتلال غزّة Gaza، بإرسال خمسة آلاف منها إلى معلّمه الذي كان قد أنَّبه في مقدونيا بسبب غلوّه للآلهة.

«دعونا فقط نأخذ بالحسبان الكمية الكبيرة للجنائز التي يتم تأبينها في كل مكان من العالم كل سنة، والأكداس من العطور التي جُمعت في تشريف الأجساد الميتة». لذا فقد كتب بلينيوس (Pliny (VII. 42 واستنتج: «إنها رفاهية الإنسان التي عُرضت

في ممتلكات الموت والتي وصفت جزيرة العرب بـ «السّعيدة» ». فهو يصف التّدابير الوقائية التي أُخذِت لحماية السّلَع النّفيسة، وقد فُرضت عقوبة الموت على حامليها فيما لو انحرفت عن الطّريق العام بين البحر وشَبْوة؛ «تُركت بوابة واحدة مفتوحة من أجل إدخالها» داخل تلك المدينة؛ ووفقاً للدّستور في متاجر الاسكندرية يُجرَّد العمال قبل مغادرتهم، لذا تشُدّ مآزرهم ويوضع قناع أو شبكة على رؤوسهم. ويبرهن الكلّ على قيمة هذه الحمولة، التي أرسلها التّجّار من بحر إلى بحر لمسافة ألفي ميل عبر جزيرة العرب، وبيعت أخيراً في روما، «بمئة ضعف من تكلفتها».

ولا بدّ أن تكون قد أضيفت لعظمة هذه التّجارة، ثرواتٌ متراكمة عبر الأيام، فالمواصلات لم تكن معلومة بشكل تام في الأيام المبكرة. كانت الحضارة المَعينيّة أولى الأمم التي سمعنا عنها، «التي كانت مدينتها الممرّ الوحيد للبخور، على طول طريق ضيّق وحيد» والتي لديها قوائم ملكية ومن المحتمل أنها تعود إلى القرن الثّالث عشر قبل الميلاد على أبعد مدى. تعرضها النّقوش بشكل ظاهر للعيان مثل منيرڤا Minerva، مسلّحة بشكل كامل متحضّرة، ومزدهرة في ذلك الحين غير محققة من خلفية جزيرة العرب، ومن أبجدية تُعتبر جذورها هي جذورنا. أيُّ مغامرات من ما قبل التّاريخ أحضرتها لهذا البزوغ، أيّة هجرات تقبع خلفها، حيث ومن قِبل من اختُرعت الأبجدية، كل هذا لم يُكتشف. وما من أحد أبداً ما عدا يوسف هَليڤي Joseph Halévy الذي تنكّر بهيئة يمني يهودي، زار مَعين، العاصمة المَعينيّة في نجران.

وازدهرت لاحقاً مملكة سبأ، جنوباً – the Sheba of Solomon – بعاصمة في مأرب، وعلى طريق البخور أيضاً وقام بزيارتها كلّ من آرنو Arnaud، وهَليڤي[1] Halévy، وغلازَر Glaser. وينتقل مركز القوّة باستمرار نحو الجنوب. وعندما توسع

---

(1) يعود إلي هَليڤي دور كبير في جمع وترجمة الكتابات السّبئيّة القديمة، حتى عُدّ مكتشف رموزها، رغم أنّ أول من حلّ رموزها كان علّامة اليمن ابن الفقيه الهَمداني في القرن الرّابع الهجري (العاشر الميلادي). وحول هليڤي انظر كتابنا الأول في هذه السّلسلة: «ارتياد جزيرة العرب»، للبريطاني داڤيد جورج هوغارث. ومن جملة الكتب التي سنضيفها إلى السّلسلة كتاب دليل هَليڤي في اليمن حاييم حَبشوش.

السّـبئيّون امتصّـوا جيرانهم القتبانيين، الذين كانت مدينتهـم «تمنع» لـم تكن قد عُرفت بعـد - التـي يجب أن تكون قـرب مصنعهم فـي حَريب، وكذلك علـى طريق البخور؛ ويؤكّـد پلينيـوس Pliny أن «من الممكن أن يكون تم اسـتيراد البخـور عبر المدينة من القتبانييـن[1] Gebanitae فقـط»، الذين كانوا أحفاد القتبانييـن في تمنَع. وحكمت بعد سـبأ، حِمْيَر - آخر الممالـك العربية القديمة، من ظَفار Tzafar قرب يَريم واسـتمرّت في الأزمنة المسيحية. وكان إمام اليمن لتلك الأيام ينثر غباراً أحمر على رسائله ليُظهر انحداره من قبيلة حِمْيَر.

ولكن مفتاح التّجارة يقع شـرقي كل هـذه الأمم في الوادي الجُرفي الحدودي وفي ممرّات حضرموت الضّيقة، التي «شاهد سكانها شجرة البخور، وسكانها فقط من بين سكان جزيرة العرب»؛ هم الذين سيطروا على مرفأ قَنا والأراضي السّاحلية حتى ظُفار؛ والذين كانت عاصمتهم شَبْوة، التي يذكرها پلينيوس باسم «سابوتا» Sabota «في جبل شـامخ» مع سـتة هياكل داخل جدرانها من الممكن فتحها أو إغلاقها عن طريق بوابتها الوحيدة وهي السّد الذي زوّد طريق التّجارة الهائل.

لا تزال شَبْوة حتى السّـنة الماضية لم تُزر بعد. ولقد عُيّنت على الخرائط على بعد 60 ميلاً تقريباً غرب شِبام. ودمّرت في اجتياح مبكر، لبني كِندة، وفقاً لما ذكره ياقوت، فقد قام السّكان بالتّخلّي عن شَبْوة، وأوجدوا شِبام.

وعلـى أية حال فإنه من الممكـن أن تكون هذه، بعض قبائل قليلة بقيت تقطن هناك حـول آبـار مالحـة، ورغـم بعدها عـن الموقع القديـم؛ يقـال إنهم يعيشـون عن طريق اقتلاع الملح الصّخري، ويقيمون من القرن العاشـر على أقل تقدير عندما رآهم العالم الجغرافي الهَمداني هناك.

وتبعـاً لولـع كان لـدي دوماً للطـرق أو للأنهار، فقد فكرت السّـنة الفائتـة بمحاولة الوصول إلى شَبْوة عبر طريق حضرموت. ومن ثم فيمكن أن أتّبع إما الطّريق الأساسي

(1) أجمع المؤرّخون في عصرنا على أنّ تعبير القتبانيين ينطبق أيضاً على Gebanitae الواردة في المصادر اليونانيّة القديمة.

عبر حَريب ومأرب إلى مَعين في نَجران – وهو «الطريق الضّيّق الوحيد»، الذي يمرّ كما رأينا، عبر عواصم إمبراطوريات جزيرة العرب الأربع؛ أو إذا ثبت أن ذلك مستحيل، فمن الممكن أن أفعل ما أستطيعه بالالتفاف حول شَبْوة وأعود إلى المرفأ القديم لقَنا – في مكان ما قرب بير علي على السّاحل – على طول الطّريق الذي يفترض أنه كان ذات مرة الطّريق الرّئيسي عبر الهضاب.

لم يتحقق شيء من تلك الخطط. فقد كانت شَبْوة، ما تزال على بعد ثلاثة أيام بشق الأنفس ولا يوجد حدّ ليحول دون الاقتراب، عبر القدر غير اللطيف، ليكون بعيد المنال كالقمر، وقد مشيت في طريقها الإمبراطوري الفارغ في الأحلام فقط. وعلى الرّغم من أنّ وديان حضرموت التي تقود إليها، والمدن الدّاخلية تمّت زيارتها عدة مرات منذ العام 1843، عندما غامر فون ڤريدِه Von Wrede، للمرة الأولى هناك متنكراً، فهي لا تزال تغري المرء لتسجيل بعض أعجوبة جمالها، حتى لو أنه غالباً سيكون تسجيلاً لإخفاق.

* * *

ملاحظة – أنا آسفة جداً لأن أسماء النّباتات في حضرموت لم يتم مقابلتها بأسمائها الإنكليزية المرادفة. وذلك لأن الصّحيفة التي تمّ بها جمع النّباتات لمطابقة لاحقة تلفت بالمياه المالحة في المنزل البحري، وفسدت العينة. فلذلك، ولمعلومات دقيقة كثيرة أخرى، أُحيلُ القارئ إلى كتاب السّيد إنغرامز[1] Ingrams الذي سيصدر حول هذه البلاد.



(1) هارولد إنغرامز Harold Ingrams (1897-1973) عسكري وإداري ورحّالة بريطاني شهير، خدم في عدن بمثابة ضابط سياسي 1934–1937 ومستشار للمقيم البريطاني في المُكلّا 1937–1940، ثم أضحى حاكماً لعدن عام 1940 ووزيراً أول 1940–1942. وخلال هذه الفترة قام ومعه زوجته دورين برحلات متعدّدة عبر حضرموت، فكانا أول أوروپيين يستكشفان مناطق قبيلة الصّيعر والبرّ الدّاخلي لقبيلة المَهرة. حصلتُ على أحد كتبه بعنوان: *Arabia And The Isles* (1942).

الفصل الأول

السّاحل العربي

«رأيتُها ، ترمي ظلالها البهيّة في السَّحَر،
صورتها تهتزّ على خليج متّشح باللون الوردي
سفينة مترنّحة من أيام قديمة خَلت».

(«السّفن القديمة»، تأليف فليكر Flecker)

لطالما كنت أتساءل لماذا تظهر سفينة لتكون بمجملها مُلْكاً أثيراً، أكثر من امرأة. من المحتمل أن هذا بسبب كونها شيئاً ضعيفاً تتوازن بين أجزائها بشكل محفوف بالمخاطر، ويدرك حتى أكثر الرّجال بلادة الحاجة للحذر والبراعة في التّعامل مع دفّتها. ولكن النّساء، على الرّغم من أنهن رفيقات مثلها إلى حدّ بعيد، فقد جثمن على حواف أشبه بموسى الحلاقة إلى حدّ بعيد، على الرّغم من كونه دقيقياً إلى درجة لا تُلحظ، بين أبديات أكثر خطورة، لا بدّ أنها تقدم بشكل واضح انطباعاً مزيفاً عن الاستقرار، وبما أنّ أشخاصاً أغبياءً متأخرين وشاردي الذّهن غالباً ما يأخذون اليد النّاعمة على ذراع الدّفّة التي تحافظ على مسار السّفن والبشر على حدّ سواء. ولهذا السّبب كانت السّفن هي التّفضيل الطّبيعي غير المنطقي للرّجال المحبّين للسّلام.

ومن المفترض أن تكون تلك الظّاهرة ملاحظة بشكل أكبر في المحيط الهندي عنها في أي مكان آخر، حيث تهبّ الرّيح الموسمية المفيدة من هنا في الاتجاه نفسه بشكل

ثابت بعدد الأشهر نفسها من كل سنة لتضيف تعويلاً أكثر على الأشياء العامة؛ والتي هي أكثـر ما يمكن أن يقال عن أي ريح تُخضع المراكب المحلية المتوسـطة، ولذلك فعند المقارنة اليقينية فقد أبحرت الأسـاطيل الصّغيرة من دون شـك من الشّواطئ الأفريقية وجنـوب الجزيـرة محمّلة بخـوراً ومرّاً، كما كانـت عبر القرون، وتفـرغ حمولاتها في مخازن عَدَن من التّوابل باقتراب موسم عيد الميلاد.

تـم تصديـر ما يقارب 1,200 طناً من ظُفار في العام 1934، و 800 طن من الأراضي الصّومالية. حيث يستنبت جميع البخور في العالم في هاتين المنطقتين. وتُنتج الأراضي الصّومالية الإنكليزية بمعدل 400 إلى 500 طناً والأراضي الصّومالية الإيطالية من 500 إلـى 600 طنـاً. ولكن تعتبر النّوعية مـن جزيرة العرب أفضل، ويصدّر سـاحل ظُفار ما يقـارب 1,000 طـن، وهـي المقاطعة الوحيدة التـي لا تزال تجمع الحصـاد مرتين في السّـنة، كمـا كان الحـال في زمن پلينيـوس Pliny حين تميّز جمـع البخور الأبيض في «الصّيف» و«الأحمر» في الرّبيع بشكل عام.

المرافئ والقرى الرّئيسـية لساحل ظُفار هي: السّودة Saudah التي تصدّر ما يقارب 250 طنـاً من البخـور؛ ومِرباط Mirbat مـن 150 إلى 200 طناً، ورخيـوت، 200 طناً؛ Jadib مـن 100 إلـى 150 طنـاً، Hadhbarm، وDamghat، Dhabut، وكل واحـدة منهـا تصـدر 100 طن، والغيضة AlGhaidha 50 طناً، وقِشـن مـن 200 إلى 250 طناً. وتأتي النّوعية الأفضل من السّودة Saudah، وحضبرم Hadhbarm، ومِرباط Mirbat، والأسوأ يأتي من قِشن. ويجمع الحصاد القديم من أشجار من مجموعة متنوعة تنتمي إلـى فصائـل Boswellia Carteri، Burseraceae، و Boswellia Bhuadajiana، ويقـوم العـرب بتقسـيمها فـي أربعة أصنـاف، منتجات الصّمـغ الأفضل مـن Hoja'i، وتعتبر أنواع الشِّحري، Samhali، والرّسمي Rasmi النّوعيات الأدنى.

يقول القبطان المسـنّ: «لا تعدّ أشـجار البخور من الأشـجار العالية أو ذات الثّخانة الكبيرة، وهي تحمل البخور ملتصقاً في قطرات على اللحاء، تماماً مثل الأشـجار التي لدينـا فـي مصـر والتي يقطر صمغهـا». وينمو أفضل أنـواع البخور في مـكان يبعد عن

الشّـاطئ ثلاثة أيـام على ظهر الجمـل؛ والنّوعيات المتوسـطة من المنحـدرات وقمم الهضاب، ويُجمع النّوع الرّديء قرب شاطئ البحر.

وتحـدّد الشّـروط الأخرى أيضـاً قيمة الصّمغ: لونه الذي أشـير إليـه فيما مضى في مخـزون رعمسـيس الثّالث، والذي يتنوع بيـن قطرات داكنة مـن الكهرمان، أو أخضر مائـل للزّرقـة باهت ومضـيء كضوء القمر، إلـى خليط حصى بلون بنـي مختلط كقاع جـدول دارتمور Dartmoor؛ وبالنّظر إلى حجمه، ونسـبة الحصـى المتلألئة الصّغيرة معها والتي حاول العرب وبشكل غير واضح زيادة وزن بضاعتهم بها، فكل هذا يحدد قيمة البخور، والتي تتراوح بين 80 جنيهاً و10 جنيهات للطّن الواحد.

ويقوم العرب بثلم أشجارهم ما بين شهر مارس إلى أغسطس بشقوق صغيرة تُقطع فـي اللّحـاء: وتأخذ العصارة اللبنية ما بين ثلاثة إلى خمسـة أيام كـي تجفّ وذلك تبعاً لحالة الطّقس؛ فإذا لم تكن الشّمس حارّة كفاية، فإن الصّمغ يجب أن ينهي جفافه على الأرض. ويُحفـظ الجُمع في زمن پلينيـوس Pliny في طبقة صغيرة؛ «ولا يتجاوز عدد العائـلات التـي تمتلك حـق هذا الامتياز من قِبل سلسـلة متوارثة الثّلاثـة آلاف. ولهذا السّـبب يُدعى هؤلاء الأشـخاص مقدّسـين، ولا يُسـمح لهم، في فترة تقليم الأشـجار أو جمع الحصاد، أن يتعرّضوا لأي تلوث إما عن طريق أيّة علاقة مع نسـاء أو ملامسـة أجسـاد الموتى؛ وهذه الطّقوس الدّينية هي التي زادت في سعر البضاعة». وفي الوقت الحالـي يؤجّر حق الحصاد هذا غالباً للصّوماليين الذيـن يأتون من أفريقيا لهذه الغاية. ولقد وُجد الوصف المقدس القديم للشّجرة ذاتها لدى عدة كتّاب: يشير هيرودوتوس Herodotus إلى أفاعٍ مجنَّحة تحميها وتطير إلى مصر كل ربيع - تتبعها أرواح الشّـجر التي فصلت عن جوانبها الحيّة القطرات الثّمينة.

ولكـنّ طريق القافلة مهجـور الآن، وتضاءلت منطقة البخور مـن حدودها العربية، وهـذا علـى الأغلب بسـبب نقـص في الطّلبـات أكثر مـن أيّ دافـع طبيعي. ومـا تزال الأشـجار تنمو وتُحصد بشـكل محلّي في قرى منعزلة من حضرمـوت، وتظهر النّقطة الغربيـة الأكثر مـن التّصدير أنها الغيضـة؛ واختبأ المرفأ القديم من قنـا، على بعد 160

ميلاً أو أكثر نحو الغرب، ضاع في الرّمل. وتمرّ أساطيل العرب المبحرة، والتي تشبه هياكلها القديم كقدم تلك الآثار المطمورة غير المرئية، دون رغبة من سوق الأشباح التي تعانق الشّواطئ البركانية عندما تنسحب الرّياح الموسمية في فترة هدوء الشّتاء في طريقها إلى أرصفة ميناء عَدَن.

وهنا في ظلال معتمة مع غبار معطّر، وعطر التّوابل الرّقيق، حيث تنتشر أشعة باهتة من ضوء شمس على أصماغ نصف شفافة، تحني النّساء رؤوسهن المغطاة على السّلال المسطحة، ويفرزن بأصابعهن الصّغيرة المحنّاة مستويات متنوعة. بينما تقوم الأساطير البحرية، قاصدة الوطن، بتحميل عنابرهم القديمة مع براميل الكازولين.

غرق أحد هذه القوارب الدّاو من الكويت، في يناير الفائت تماماً خلف جُرف بير علي. وقد تم إنقاذ معظم كمية الكازولين، ونظر سلطان بير علي إلى تلك الحادثة على أنها هدية من الله، حيث قام البدو بسحب البضاعة إلى الشّاطئ بشكل عفوي، ولا يتمّ تسليمها إلا بدفع النّقود. وليس عندنا هنا في عَدَن معاهدة مع بير علي في موضوع غرق السّفن ولكن لدينا معاهدة مع السّلطان المجاور الذي يحتفظ بثلث القيمة من أيّ شيء يرسله له عرض البحر. ولم يكن سلطان بير علي قد حاز بعد هذا المستوى الرّاقي للقرصنة، فطالب بربع القيمة. وتحت تلك الظّروف، فقد وصل A.B.[1]؛ الذي حاز على الحمولة، إلى القرار بأنّه من الممكن أن تثبت المفاوضة الخاصة أنها تكلّف أقل من المعونة الحكومية، وأخبرني بأنه يمكن لسفينته التّجارية «الأمين» أن تنقلني إلى المُكلّا في طريقها إلى الشّحر، وذلك بعد أن تُودِع سفيره على رمال قَنا المنسية، حيث يبذل قصارى جهده هناك.

ذهبت في مساء الثّاني عشر من يناير على متن سفينة A.B.، وأخذتني مريم إلى الخارج: تأرجحت أضواء السّفن مثل النّجوم في شريط البحر الواسع الضّحل لخليج عَدَن. ولقد أعطت الصّداقة الدّافئة التي كنت أتركها عند حلول الليل، حدّة

---

(1) ترمز ستارك بهذا الاسم إلى التاجر الفرنسي أنطونان بيسّ Antonin Besse، الذي أحبّته واعتمدت عليه في كثير من شؤونها في رحلتها باليمن.

لتلك الرّحلة القصيرة، كما لو أنها رحيلٌ عن الوطن. فقد كانت عَدَن لطيفة. ولم أتأثر بتلك الإشاعة الشّريرة عنها بين رحّالي حضرموت الأوائل والتي لم تؤيَّد من قِبلي، فقد وجدت ودّاً ومساعدة من المقيمين فيها في كل مكان. وقد فكّرت بتلك الأشياء في قمرتي المريحة، بخلاف الدّاو الذي استخدمته في البداية لأتجول في السّاحل الجنوبي، واستيقظت في السّاعة الثّانية صباحاً، لألاحظ أننا أصبحنا بعيدين، بسبب هبوب الرّيح، وتضيء المنارة الجنوبية لنا، بنظرة مشؤومة متقطعة عبر مياه منحدرة، كانت تلك «الأمين»، التي كانت مؤخّرتها المرتفعة تشبه فرس البحر، وكانت قمراتها على كل قمّة فيها، ذاهبة لتمضي أتعس وقت مع المحيط الهندي.

واجهنا طوال ذلك اليوم موجة قصيرة، وشعر كل واحد منا فيها بنسب متفاوتة. صعدت على سطح المركب في فترات متقطعة، وشاهدت الشّاطئ الصّحراوي المستوي ذاته، وخط الجبل خلفه - خليج آكلي السّمك، على الرّغم من أن أكواخهم لم يكن من الممكن مشاهدتها. وجاء السّفير من الباب المجاور، يترنّح في مواجهة الرّيح، كان شاله وغطاء رأسه ينتفخان في دوائر حول وجه مستدير مماثل مبتسم هادئ مزيّن بسنّ ذهبية؛ وصدح صوت ثرثرة نسائية من مقصورته فأوضح أنها عمّة أرملة عائدة إلى المُكلّا. قمتُ بزيارتها فوجدت امرأة جميلة على نحو استثنائي لِتكون عمَّة، التفّت بأغطية رقيقة من قماش الشّيفون المزهَّر، وقد استلقت على أريكة ضيقة من الواضح أنها وجدتها أقل راحة بكثير من أرض عربية.

كانت لها ملامح وجهٍ مألوفة في حضرموت، وجه طويل جداً ودقيق، وفم كبير ولكن دقيق ويبتسم بسهولة، وعينان بنّيتان متألقتان كبيرتان غامقتان، عنق طويلة وقلادة من خرزات ذهبية. رحَّبت بوجودي كأخت في هذا العالم الواسع وغير الماتع من المياه، وكانت تحاول تلطيف نتائجه عن طريق فطيرة بالزّبدة؛ قالت بأنها شعرت بالحاجة لشيء ثقيل في داخلها ليحفظ الأشياء من أن تدور وتدور. وشعرت بالتّأكيد بأن الفطيرة ستدور في الحال مع شاهدة القبر المتحرّكة، وغادرت قبل حلول الكارثة، بعد إقناعها بالمخاطرة بالحشمة عن طريق فتح إنش من كوّة السّفينة. مشيتُ

فـي مقصف نظيف مفتـوح في الهـواء الطّلق الخارجي أفكر في المفهوم الأنثوي الرّائع للسّـفر فـي صناديـق مغلقة عبر العالـم، لترى هي ويراهـا أقلّ عدد ممكن مـن النّاس. وتبـدو تقريباً أنها تعصب عالمـي ولكن يختلف هنا وهناك في الدّرجة، كانت السّـيدة X تخشـى أن تخرج لدقيقة واحدة خارج دائرتها، والتي تشمل أقل من عشر من مليون جزء من عدد سـكان كوكبنا السّـاحر المثيـر للاهتمام، يتصرّفون وفـق المبدأ ذاته مثل العمّة العربية، في مقصورتها المعتمة والضّيقة.

خيّـم في الصّبـاح التّالي هدوء وصمـت مفاجئان حيث أننا كنا في المرسـى. وكان الذّراع الشّـرقي للخليج الواسـع المهجور قرب المقدّمة، وافتـرض بعضهم أنه خليج قَنا القديم. تلمع كثبانه ومروجه المنحنية في أشـعة شـمس الصّباح التي غطّت سـفوح الهضـاب البركانيـة الصّغيـرة السّـوداء المغبـرّة، التي بلغت متـون الجبال المسـتوية، وتلاشـت في وادٍ فسـيح متجه شمال الطّريق العام إلى شَبْوة، وحتماً إلى مكان واحات غيـر مرئيـة، لعـدم وجود إشـارة للزّراعة في أرض واسـعة ومتنوعة في مجـال الرّؤية. وتوجـد هناك فقـط ثلاث أعمدة متهدّمة وحصن مربع أو برج تـدلّ على ماهيّة المكان الموحش قديماً. رسـا مركب الدّاو في المرسى، وهو المرتحل وحيداً كرفيق وحارس لحطام السّـفينة التي أتينا لزيارتها، عكسـت صواريه وزخرفته المشجّرة الدّقيقة بشكل مرتجـف أكاليل أزهار نُقشـت على كوثله العالي، وبان علـم الكويت المنقط بالأحمر والأبيض المتدلّي بوضوح كروسم في الجو المضاء.

يوجـد هناك شـيء أكثر إثارة مـن مجرد عزلة طبيعيـة في الآثار المهجـورة للنّاس: وكان الموضوع الأكثر عزلة في ذلك الشّاطئ هو حمولة A.B.[1]، وهي رابية مهجورة غطيـت بقمـاش التّربوليـن والحبال، سُـحبت عليها إلـى ارتفاع رملي بعيـد عن خطر البحر، وتبدو أشبه بمغامرة تجارية تساوي ألفي باوند يمكن لشخص أن يتخيلها.

لـم نشـاهد كائناً بشـرياً، ولا أيّ شـيء نهائيـاً فيما عدا بهجـة فرح النّهـار الصّامت لعالَم غير مسـكون. ولكن كانـت هناك عيونٌ فوقنا، وتوّاً بـدأت ترتفع على قمّة البرج

(1) أنطونان بيسّ Antonin Besse.

المربع مثل كثيب نحل لأشخاص وشالات سوداء رفرفت على المتراس في إشارة سلام. وعندما نزلنا بقاربنا، ومعنا القبطان وموظف، وسفير وكاتب وثلاثة من العرب مسافرين، وهياكل أسرّة وأطفال بدينين بأقراط في آذانهم، متّجهين إلى حبّان في الدّاخل وأنا - ومع وقت حدوث كل هذا كان حرّاس حطام السّفينة قد جاؤوا لتوّهم لمقابلتنا في قارب مجوّف من خشب وفي قارب هوري[1] طويل كان يقف فيه أربعة أو خمسة منهم. وللهوري نهايتان حادّتان، لذا فبإمكانه الإبحار في الاتجاهين على حدّ سواء، ويرتفع في الأمواج مثل عروس، بينما يقف طاقمه في مؤخرة السّفينة، ويجرفون المياه بأقراص خشبية مثبتة على سوارٍ تعتبر أجداد المجاذيف. وقد انزلق قاربنا مثل سنونو حول ذبابة، عندما وصلنا مياهاً ضحلة، انقض في الحال: لقد اختار كل عربي راكبه، أمسك به دون كلام زائد، وحمل الأقدام والأذرع في حزمة محكمة خبيرة، وأسندها على اللون النّيلي والزّيتي من صدره، وأودع الحزب المفاوض على الرّمل.

ينتمي سلطان بير علي إلى قبيلة الواحدي التي يعود نسبها إلى قبيلة قريش، وفقاً لروايتهم الخاطئة بشكل جلي. ويعتبرهم وايمان بُري[2] Wyman Bury من ضمن عرب الجنوب ومتميزين بشكل صرف عن مهاجري الشّمال، وهكذا بدا النّظر إليهم. كان تعدادهم حوالي أربعة آلاف، ولقد أُخبِرت أنهم قرّروا مؤخراً، وربما بشكل غير نهائي، بأنّ التّجارة أكثر ربحاً من القتل، وأن الطّريق عبر مدينتهم، الطّريق المباشر إلى شَبْوة، التي قطعها فون ڤريدِه Von Wrede في منطقتها المنخفضة في العام 1843، ما تزال غير معروفة بشكل كبير وتعتبر خطيرة وفاسدة.

---

(1) الهوري من أبسط أنواع القوارب في اليَمَن والخليج العربي، ولا يعدو كونه مجرد جذع شجرة منقور بشكل قارب.

(2) جورج وايمان بُري (1874-1920) ضابط بريطاني قام بمحاولة جدّية لاكتشاف المناطق الدّاخلية لجنوبي جزيرة العرب. ويعدّ أول أوروبي يشاهد أجزاء كثيرة ممّا أصبح يُعرف فيما بعد بمحميّة عدن الغربية، وقد سافر تحت اسم عبد الله منصور. قمنا بترجمة كتابه *Arabia Infelix* (اليمن غير السّعيد) وسننشره قريباً.

بَـدَوا هم أنفسـهم خطيرين فيما لو وضعوا فيها، لكنهـم ملائمون. جاء ثلاثة زعماء أو أربعة من مجموعتهم ليصافحوا بلطف مهيب بغير ابتسام. وقليل منهم فقط يلبسون عمامـة، ويلبس معظمهم مآزر وحزام ملتفّ، أُحكم بشـكل جيد وتميمة مملوءة تماماً حـول العنـق - وعصابـة رأس مدهنة لتربط الشّـعر وفق زي عارضـة الأزياء الأحدث وسـوار مجـدول من الفضّـة، فوق المرفق الأيمـن. كان معهم بنـادق مرصّعة بالفضّة، وخنجـر حضرمـي جميل أو اثنـان، بغمد يلتف تقريباً على شـكل حـرف U، مزخرف بعقيق خام، وضع في المئزر في زاوية ليكون في متناول يدهم. كان جَمالهم يتمثل في الجذع العاري، وعضلاتهم متموّجة بحرّية تحت الجلد الذي أعطاه معالجته المستمرّة بالنّيلة، مع الشّـمس والزّيت تورّداً لا بنياً ولا أزرق، ولكن شـيئاً ما أشبه بلون أرجواني داكن. ولقد بدوا أسـياد الموقف بشـكل كبير، وكان قبطاننا في عجلة، ولم يكونوا هم كذلك، وذلك دائماً موقف قوي في الدّپلوماسية. وعندما سُئلوا قالوا إن سلطانهم كان في الدّاخل في بير علي عبر الخليج. جال قبطاننا بعينيه الزّرقاوين المستديرتين برُعب، عبر ذلك الاتسـاع الممتدّ دون أية وسـائل للسّـفر. فقام أحد مضيفينا، بطمأنينة إنسـان متحرّر من الأدوات، بتطويق خواصره، وذلك بعقد المئزر وبدأ السّير.

سأل القبطان: «كم من الوقت سيستغرقه كي يصل إلى السّلطان؟».

التفـت أبناء قبيلة الواحدي وقـد قاطعهم بفظاظته غير الملائمـة، في بداية ثرثرتهم المؤدّبة مع السّـفير، لينظر إلى منظرهم الطّبيعـي برؤية جديدة، ولـم يتأكّد فيما لو كانوا قد فكّروا من قبل كم استغرق منهم السّير عبر خليجهم.

اقترح أحدهم ولكن دون قناعة قوية. «ربما سيأتي السّلطان اليوم بعد ساعتين».

بَـدا ذلـك كل ما أهمّهم، ولقد عادوا إلـى مواضيع أكثر متعة تاركيـن القبطان لينظر بعينيـن أوروپيتيـن حائرتيـن إلى المنظر الطّبيعـي الجامح وليتكهّن كيـف أن «الأمين» تكلف في اليوم 75 $ عندما تقف ساكنة.

كان من المفترض أني وددت تفحّص الحصن، والأعمدة الثّلاثة التي تعود إلى جامع

خَرِب استُخدم قبل تلاشـي الماء من الرّعـن[1]، ويدفع أواخر السّـكان نحو الدّاخل. فـي الحقيقـة، من المفترض أنـي وددت أن ننزل جميعـاً ونأخذ الطّريق العـام القديم، علـى الرّغم مـن الكلمات المقيتة لكتاب «التّطواف» *Periplus*، التي أقرّها مسـافرون متأخرون: «لأن تلك الأماكن خطرة إلى حدّ بعيد، ومهلكة حتى لهؤلاء الذين يبحرون على طول الشّاطئ، ولكنها في الغالب مميتة دائماً لهؤلاء الذين يعملون هناك، والذين يهلكون أيضاً بسبب الحاجة للطّعام غالباً».

كانت رسائلي إلى المُكلّا، ومع ذلك لم يكن القبطان ميالاً لسماع اقتراحات للتّمهل في الطّريق. قال: من الممكن أن نعود إلى «الأمين» على أمل أن نرى السّـلطان يخرج من خلف كثيب رملي عندما يحين الوقت.

وهـذا مـا فعلناه، حصرنـا مناظيرنـا لسـاعات باتجـاه ذاك الخليج الصّامـت، بينما تزايدت عتمـة هضابها وقطعانها ووديانها المغطاة بأشـجار خفيضة وتزايد بياضها في حرارة الصّباح المتزايدة.

كان اثنـان أو ثلاثـة من قبيلة الواحدي قـد جاؤوا على متن السّـفينة وتجوّلوا بحذر شـديد حول ظهر المراكب، وهم يلمسـون الصّباغ الأبيض مع تساؤل مشوب بالشّك، كما لو أنها يمكن أن تعود للحياة تحت أيديهم. خطا واحد منهم عبر باب قمرتي، وجثم بطلاقـة العرب الطّبيعية، مطلِقاً عينيه تطوفان بصمت حـول التّجهيزات الغريبة للغرفة والمراوح الكهربائية والمغسـلة والمرآة والنّور وستائر الغرفة، واستقرّتا أخيراً بارتياح علـى لحاف سـريري الأبيض المفهوم نسـبياً، وبـدأ يضرب عليه بأصابـع مُعجبة. كان شـخصاً طويل القامة، أسود تقريباً، مع مزيج أفريقي فيه، قسمات وجهه صغيرة مألوفة ولحية قصيرة مجعدة، وشعر مزيّت بشكل تام، مربوط خلف أذنيه. «وشدّ خصل شعره بعصابـة رأس مثل امـرأة» مثل بطل ملحمة جلجامش. كان الانسـجام الجميل لجميع أطرافه قد فسـد بإبهامين ضخمين. شـاهد بعد دقيقة أو أكثـر، إبريق الماء، ووصل إليه ليرفعه، وبدأ يشرب.

---

(1) قُنّة الجبل الخارجية منه والدّاخلة في البحر.

علّقتُ قائلة: «مياه جيدة».

«الحمد لله، لم أذق مثلها أبداً، إنها عذبة».

سألتُ: «هل آباركم مالحة؟».

«أجل».

«بالكاد يمكننا تخيل ماذا يعني شرب المرء طوال حياته من آبار مالحة. شخصياً لم أعانِ أبداً من ظمأ شديد وما زال لديّ حسب ما أذكر، متعة طبيعية، وإقرار بالفضل لأنهار جارية ونقية». قلت: «ليس هناك شراب يعادل ماء نقياً».

قام خمسة أو ستة أشخاص من قبيلة الواحدي الذين اجتمعوا حول رفاقهم الذين كانوا يجثمون عند الباب المفتوح، بإدارة رؤوسهم فجأة بموافقة متحمّسة؛ يكمن سحر البدوي في فهمه للحقائق، وانعزاله الأصيل عن زخارف الحياة:

وعلى الرّغم من العالم الغريب المتحضر الذي تقابلنا فيه، فقد وجدت أنا والواحديّون قاسماً مشتركاً. ابتسم صديقي الأول، وقد جلس الآن بشكل مريح على اللّحاف الأبيض، الذي يمكن أن يصبح أزرقاً بسبب النّيلة عندما ينهض عنه وهو مبتسم.

قدَّم اقتراحاً: «لماذا لا تأتين وتبقين في بير علي؟».

«ربما أفعل ذلك في طريق عودتي».

قال أحدهم - وهو رجل مضيء البشرة بعمامة صفراء مُترفة من الكشمير على رأسه: «لكنك نصرانية، وستُحرقين في نار جهنم».

كان واضحاً، أن الجميع لم يستطع إلا الموافقة على صحّة هذا التّصريح، ولكنهم استنكروا بشكل قاسٍ طريقة التّعبير عنه. لم أكن مستعدّة لأوافق على ذلك، ونوّهت إلى أن النّصارى هم أهل الكتاب. قلت: «سيجتمعون يوم القيامة مع نبيّهم، يسوع الإله؛ وسيتم جمع اليهود مع موسى؛ وسيجمع رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، المؤمنين

وسيذهبون جميعهم إلى الجنة. إنها حقيقة بأن تعاليمكم تقول بأن نبيّنا سيدخل متأخراً قليلاً عن رسول الله – ولكن الخلود طويل جداً، وأرى أنه ليس هناك اعتراض كبير في أن أبدأ متعتي به متأخرة قليلاً عنكم».

استقبل الجميع هذا الاعتذار العقلاني بارتياح باستثناء الشّخص ذي العمامة الصّفراء، الذي استمرّ يدمدم وبصوت منخفض مع نفسه، عندما طرد خادمٌ مرتاع ضيفي بعيداً عن اللحاف كما لو كان خنفساء، وفرَّق الاجتماع إلى سطح أخفض بطريقة أيّدت، بلا شك، رأيهم حول مصيرنا النّهائي. حضر القبطان في الوقت نفسه وأخبرني بأن السّلطان قد أرسل مراسيلَ، وقد أخبره الحرّاس عن وصولنا فجاء مسرعاً نحونا على جمل؛ ولكن ما يزال لا وجود لإشارة عن أي شيء يتحرّك، ولو انتظرنا أطول فالمفروض أن نصل المُكلّا في وقت متأخر جداً للرّسو في تلك الليلة.

لقد كان ذاهباً كي يودع السّفير على الشّاطئ، تاركاً إياه للقيام بأفضل ما يمكنه فعله، ثم يُقلّه في طريق عودته بعد يومين.

وبناءً عليه فقد أُنزِل السّفير في القارب، مع الموظف الرّئيسي وبرميل ماء صغير وبرميل ويسكي ولفافة فراش وبعض حقائب الطّعام. تفاجأ البدو الواحديّون لنفاد الصّبر هذا، ولكن استقرّوا بصمت في قاربهم الهوري لمرافقته في عودته إلى الحصن. وعندما سحبتْ سفينة «الأمين» مرساتها واتجهت إلى جزيرة البركة في الشّرق، كان آخر ما رأيناه من خليج قَنا هو فرقتنا المفاوضة متروكة على شاطئها والحصن المربع الصّامت، حيث لا حياة ولا نوافذ فيه خلفهم، والخليج الكبير، ببراكينه التي تكاد تُطمر، وأسواقه المطمورة، وحكاياته الدّفينة، لا يظهر للخارج أكثر من واحدة بين عدّة مراحل من الوحدة على طول شواطئ جزيرة العرب.



الفصل الثّاني

رسوّ السّفينة

«كذلك بالنّسبة لأولئك الذين أبحروا، إلى ماوراء رأس الرّجاء، وأصبحوا الآن مقابل موزمبيق، وتهب ريح الشّمال الشّرقي في عرض البحر محملة بالعطور السّبئيّة من شاطئ التّوابل في جزيرة العرب المباركة».

(الفردوس المفقود، الفصل الرّابع، 156)

أصبح مقابلنا الآن، على يسارنا، السّاحل الجبلي المقفر لأرض البخور، ذاك «الخليج شديد العمق الذي يُدعى ساخاليتيس Sachalites» - الكلمة نفسها مثل الشِّحر وسواحل Sawahil وصيغة من عبارة سهل العربية Arabic Sahl، أو أرض السّهل. ولا يزال بخور السّاحل يُسمى الشِّحري[1]، وتخلّد مدينة الشِّحر الاسم الذي يبدو أنه استُخدم دوماً عبر القرون الوسطى للشّريط السّاحلي غرب عُمان كشيء واضح من داخل حضرموت إلى الشّمال منها.

سميّت هذه البلدة كلها بين قَنا و«النّتوء الكبير مواجه الشّرق المدعو راس فَرْتَك Syagrus (15 36' N. 52 12' E) وكانت ذات مرة جزءاً من أرض البخور.

وكان هناك حصن على الرّعن ذاته، ميناء ومخزن، وحُمل اللُّبان من هنا على الأرجح إلى قَنا على «طوافات عُوّمت بجلود منتفخةً وفي قوارب»، أو أُخذت عن طريق وادي

(1) يشتهر الاسم لدى العطارين بصيغة: لُبان شِحري، ومن أنواعه الأخرى: لُبان ذكر، ولُبان مستكا.

عَدم، أو من سيحوت عن طريق وادي حضرموت، إلى تَريم وأخيراً إلى شَبْوة - الممرّ الطّبيعي حتى هذا اليوم. ومع ذلك فلم تُذكر الشِّحر كمدينة من قِبل أي من الشّعوب القديمة، ولكن جاءت لتحلّ مكان قَنا فيما بعد، وذكرها الرّحّالة البندقي ماركو پولو Marco Polo باسم «الشِّيَر» Escier وكذلك ذكرها ياقوت. ولا تقع المُكلّا على أيّ منفذ سهل طبيعي نحو الشّمال، ويبدو أنها جاءت إلى الوجود في وقت متأخر أكثر. كان الذّكر الأول لها أورده ابن المُجاور في القرن الرّابع عشر، وبقيت غالباً في إغفال متواصل حتى 1829، عندما جاء البريطانيون بعد هجرهم عَدَن، وحتى 1834 عندما اختبر هاينز Haines بدقة كلاً من المُكلّا وسُقطرى وهو يبحث عن قاعدة بحرية.

وتُظهر إشارات مبهمة وقليلة لتلك المدينة كم تُركت لوحدها عبر قرون الإسلام كلها. فقد حمل ملوك وسلاطين اليمن سيادة اسمية في فترات منفصلة، ولكن وصلتنا مرّة واحدة لمحات مشرّفة عنها، عندما انتقل السّلطان المظفّر مع ثلاثة جيوش من الغرب لاجتياحها في القرن الثّاني عشر. ولقد كان سلب السّفينة من قبل رجال ظُفار وهي مبحرة على طول شاطئهم غير المضياف سبباً أو ذريعة للحرب، مثل الاحتلال البريطاني لعَدَن لاحقاً. وقرّر السّلطان المظفّر الذي كان أحد حكام اليمن الأقوياء أن يستولي على المدينة وحدّد ملتقى لجيوشه الثّلاثة عند رَيسوت في ظُفار. وللأسف فقد وردت تفاصيل قليلة جداً عن الجيشين، حول محطاتهم والتي كانت دون أي شك، واحدة من طريق البخور القديم، وكان من الممكن أن ينقذ وصفهم الشّك الذي استمرّ يحجب الأرض بين حضرموت وظُفار. كل ما أُخبرنا به هو أن ذلك الجيش الشّمالي استغرق خمسة أشهر من صنعاء في اليمن إلى ريسوت، وهو يتقاتل على طول الطّريق مع أبناء المنطقة الإباضيين Habudhis.

سار الجيش الثّاني على طول السّاحل، تعترضه عقبات طبيعية هائلة، ولكنه استمرّ على اتصال مع الأسطول، الذي شكّل القوة الغازية الثّالثة، متبنياً نفس الدّرب الذي سار عليه ابن سعود في حملته الأخيرة من الحجاز إلى اليمن. كانت مؤن كل يوم تُنزَل ويُقام سوق على الشّاطئ، إلى أن تم الوصول أخيراً إلى الهدف، وتقاتلت الجيوش الثّلاثة في سهل

ظُفار، وأقاموا هناك الدّولة المظفّريّة ذات السّيادة. وبات الطريق مفتوحاً للمظفّر ليشرف على إخضاع حضرموت الشّاق وينتزعها بالتّدريج. ولقد استغرق ذلك منه شهراً ليصل إلى شِبام من ظُفار، ولكن لم يتم تسليم الطّريق، حتى ظهور دليل آخر إلى المدينة، واتجهتُ إلى التّفكير بأن الطّريق الطّبيعي لا بدّ أن يمتد داخلياً عند وادي حضرموت إما من سيحوت أو الشِّحر وكانت تلك المنطقة الواقعة بين سيحوت وظُفار تقطع بواسطة البحر. كان البخور في الحقيقة قد تمّت حمايته بشكل قوي جداً في مستودعات في قَنا و Syagrus، حيث تخرج الطّرق البرية، كان يُترك بأكوام في جميع أرجاء الأرض السّاحليّة في ظُفار وفقاً لرواية كتاب «التّطواف» *Periplus* مكشوفة وغير محمية، كما لو أن المكان كان تحت حماية الآلهة؛ إذ لا يمكن تحميله، لا بشكل مكشوف ولا خلسة، على ظهر سفينة من دون موافقة الملك؛ وفيما لو حدث وحُمّلت حبة واحدة دون هذه الموافقة، فإن السّفينة لن تستطيع الخروج من الميناء». ويسهل العمل بهذا النّظام في المرفأ البحري حيث يمكن فحص كل مركب مغادر، ولكنه يكون متعذّراً تقريباً على الطّريق البري، حيث يمكن أن تُنهب في أيّة ليلة مظلمة بعض حمولات الجمال دون أن يلحظها أحد.

كنا في أيامنا الأولى هذه، قد غادرنا منطقة قَنا، وسافرنا شرقاً واستمرّ الموج يتقاذف السّفينة بشكل عنيف، ونظرنا خلال فترة بعد الظّهر إلى الحواف البركانية لخليج الحلّانيّات[1] Sachalitic. استطعت هناك وفي مخيلتي، رؤية جيش القرون الوسطى، حفاة الأقدام، داكني البشرة، ذوي العمائم الزّاهية، مبعثرين بحرّية قرب تلك المرتفعات الصّخرية غير السّالكة المشرفة على البحر. ولا يمكن تخيّل ساحل أكثر وعورة منه. فالجبال حادّة مجردة بشكل واضح في لفائف سوداء من ظلمة الأرض، وحيدة قاسية كالموت بجَمالٍ ملتوٍ مُهمل. كانت وجوه جروفها تندفع واحدة تلو الآخرى باتجاه البحر، الذي بدت موجاته المتحرّكة الوضاءة تعيد فوضى انعزال صدوعها وسلاسلها بشكل أكثر انسياباً وأكثر حيوية.

---

(1) تقع جزر الحلّانيّات ضمن محافظة ظُفار بعُمان، واسمها السابق: «جزر خوريا موريا»، وما تذكره فريا ستارك هو اسمها اليوناني القديم: Σαχαλίτης κόλπος «ساخاليتيس كولپوس».

بـدا القبطـان قلقاً مـع انقضاء فتـرة ما بعـد الظّهر، وأصبـح توقع بلوغ المُـكلّا قبل الليـل أضعف أمـلاً. أقبل الغروب وألقى تألقـاً وردياً على المنحـدرات الغربية للبحر والشّـاطئ، وألقـى ظـل «الأميـن» أمامنـا علـى المـاء. وقامـت جارتي التـي كانت لا تـزال ملتفّـة بطرحتها فـي قمرتها، بالضّرب بشـدة على جدارها في فترات الاسـتراحة المتكرّرة، تطلب صحبة، وجلسـتُ معها، طالما اسـتطعت مقاومة تحمّل الجو العام، وأنـا أنظر بإعجاب إلى العقـد الذّهبي المعقود حول رقبتها. تـمَّ صنع العقد في دَوعَن وقـد وضعـتْ في المنتصف منه نـوع من حجر مخطط وأخبرتني بـأن البدو يحضرونه «من الصّحراء»؛ ويدعى «الصّوّانة» Sawwama، وتحبّ كل امرأة من تلك الوديان أن تلبس واحداً، ويمكن أن تدفع ثمناً له ما يعادل 100 روبية، معتبرة إياه كنوع من تعويذة.

انتشـر الليـل في السّـماء مثل ذيل طـاووس مفتوح، وتلاشـى الضّوء الأخضـر الغربي، مروحـي الشّـكل مـن الغروب، شـفافاً كماء بهـت ليصبح لونـه الأزرق بارداً فـي أعلى قبة السّماء؛ وتحوَّل خط السّاحل إلى صورة ظليلة، وكذلك تحوّلت صورة مدير الدّفّة الهندي الواقـف عنـد العجلة. يوجد هؤلاء الأشـخاص السّـود مـدوّرو الرّؤوس، من سـورات[1] Surat في معظم سـفن السّـاحل البخاريـة، متحفظيـن ومبتهجين، ينتقلون مـن هنا وهناك بأرديـة زرقاء من صنعهم، مطرّزة بأزهار وأعلام تقليدية تنفذ حسـب نموذج بشـكل موجة بيضاء، ويضعون على خصورهم أحزمة حمراء. اشـتريت واحدة بروبية واحدة، بينما كنت منحنية على ظهر المركب بإرهاق مضني، حتى ظهرت أخيراً حوالي السّـاعة الثّامنة مسـاءً أضواء قليلة خافتة في الجدار الأسود للسّاحل وأظهرت لنا المُكلّا.

وانسـللنا فوقها بالكاد على حين غرّة ورسـوينا في انتفاخ مضطرب، وذلك بسـبب عـدم وجود مرفأ هنا لأي شـيء أكبر من قوارب الـدّاو؛ وبدت المدينة بالفعل في ذلك الظّلام أنها سـتلتصق مثل البرنقيل[2] barnacle بسطح جرفها. وامتدّ فوقها كتفا هضبة

(1) سورات (تعرف قديماً بسورياپور) هي العاصمة التجارية لإقليم گوجرات في الهند، وثاني أكبر مركز تجاري في غربي الهند من بعد مومباي.

(2) البرنقيل حيوانات بحريّة قشريّة من رتبة هُدابيّات الأرجل تعلق بالصّخور.

أجـردان غيـر مسـتويين نحو ضوء القمر، مع سلسـلة صخور في الأسـفل، لم أسـتطع رؤيـة إن كان فيـه خضرة أم كان مجرد ظلام، وكانت تحمـي الحَيد أربعة أبراج مربعة، مهجورة الآن. وسـطعت في الأسـفل، في ظـل عميق، أضواء هنا وهناك؛ ليسـت مثل الأضواء المكشوفة المرحّبة في مدننا، ولكنها أشياء عابرة، نصف مخبأة، حيث يمكن لأحدهم رؤيتها، عبر مصاريع النّوافذ والأسوار عالية، ولقد أعطى تنوّعها هذا للمدينة غموضها، انفجار نار مضيئة هنا، وضوء ساطع قليل هناك، دون وجود صفوف لأضواء الشّـارع في الطّرقات، ولكن كان حول المئذنة وميضٌ خافتٌ يُظهر زخرفتها البسـيطة في الأسفل. كان الطّبل يقرع؛ وتحرّك مصباح في فترات متقطعة، يحمله عبدٌ أمام سيده عبر شوارع متعرجة. ساد ظلامٌ دامس خارج الأسوار، وإلى اليسار وادٍ منخفض باهت في ضوء القمر؛ وشـاطئ متألق من الرّمال. تأرجحنا ونحن مقيّدون في مياه متلاطمة. وقـد طغى علينا انطباع انعزالها في المسـافات المحيطة أكثر من المرفأ الغريب وسـرّه والحياة غير الواعية أمامنا بانعزال غير محدود في الليل الهادئ.

اتخذت آراء القبطان منحىً آخر.

قـال مكـرّراً مـرات ومـرات، وقد وقـف ينتظـر ليؤخذ إلى الشّـاطئ: «إنهـم رجال همجيـون». كان عليـه إيجاد قـوارب داو لإنقاذ حمولة حطـام A.B. [1] عندما تمكنوا مـن حثّ سـلطان بير علـي للتّخلي عـن الحمولة، وعندمـا يعلم مالكو مراكـب الدّاو بأهمّيتهم لمرة واحدة فسـوف يساومون بقوة قدر استطاعتهم، كانت عينا القبطان أكثر انفراجـاً وزرقـة عـن ذي قبل حين تنبأ بما يمتـدّ أمامه فتذمّر قائلاً «إنهـم يثرثرون عنك بلغتهم العربية» ففكّرت مع ذلك بأن تفكيره غير منطقي لأن اللغة العربية هي لغة الدّاو العربي. وكانت فكرة إنزالي وحيدة على شـاطئ غيـر انكليزي غير مقبولة لديه، ولكنه وعد أنه سـيفعل أفضل ما لديه ليرحلني تلك الليلة، ضد كل تنظيمات الغروب، وشـق طريقه في الماء في زورقه من سفينتنا المُنارة بضوء القمر ودخل في ظلّ المدينة.

بقي بعيداً لسـاعات، وانطفأت أضواء المُكلّا واحداً تلو الآخر. تأخر الليل وقوي ضوء

---

(1) أنطونان بيسّ Antonin Besse.

القمر وظهر شكل المدينة الذي يشبه الشّبح - طويلاً، تجمّعت الجدران المستقيمة مع بعضها، مبنيّة مثل حصون ماء بيضاء. وظهر خلال السّكون الشّديد صوت قعقعة خشب من الظّل في المرفأ؛ نشر قارب داو أشرعته. كان يظهر بصعوبة مقابل المياه المضيئة، حيث انتفخ مثلثٌ جميل باهت بيننا وبين المدينة، وتحرّك بهدوء في ظلمة البحر.

ثم اقتربت الشّرطة في قارب هُوري يهسهس مثل سمك قرش أسود في طريق ضوء القمر، وقدّموا أنفسهم - موظف جواز السّفر ببدلة بلون كاكي وأربعة زنوج بثياب نظامية زرقاء بياقات خمرية اللون، وطربوش على رؤوسهم، وبندقية على أكتافهم. سألوني إذا كنت أرغب بالنّزول إلى اليابسة. قلت لقد فعلت، وسببتُ ذعراً واضحاً. يمكن أن يمنحوني زورقاً، أشرت بأن هُوري الشّرطة كان جيداً بما فيه الكفاية. ولكن كان هذا أمراً مستبعداً. قالوا بأنه يجب أن أُمنح زورقاً أكثر جودةً.

لقد كان تخيلاً لطيفاً، ولكن لم يكن هناك شيء لي سوى الإذعان؛ اختفى الشّرطي: وعاد خليج المُكلّا إلى الهدوء في ضوء المقمِر، إلى أن جلب اضطراب أضواء وأصوات القبطان المنهك إلى البيت.

«رجال همجيون، يتكلّمون جميعهم العربية»، لا يزال عبء محنته. كان أصحاب مركب الدّاو يطلبون مبالغ هائلة؛ ومن الممكن ألا يسمح لي أمير البحر؛ أو بعبارة أخرى سيّد الماء، بالنّزول إلى اليابسة بوقت متأخر في الليل. كان الحاكم في قصره بعيد المنال، وكنا ذاهبين مباشرة نحو السّاحل إلى الشِّحر، ومن الممكن أن نغادر المُكلّا ومشاكلها إلى حين عودتنا غداً.

لقد كنت مرتبكة جداً بسبب المحيط الهندي، وهذا ما جعلني لا أبدل ثيابي تلك الليلة، كنت قادرة على التّجوّل خارجاً بشكل ثابت تقريباً في الصّباح التّالي وأرى سفينة الأمين تفرغ حمولتها من الأرز في الصّباح الباكر. لقد تغيّر السّاحل إلى أرض مسطّحة رملية، مع تلال بعيدة وغائمة، أما الشِّحر فهي مدينة واسعة الامتداد، بيضاء ورملية اللون، بأربع مآذن وخمس قباب، وفي وسطها ساحة متواصلة لقصر السّلطان،

كانت تُرى خلف خط الموج المتكسّر وشاطئ القوارب. ينتصب جبل ضبضب[1] شرقه، وأخبروني أن فيه مدينة برتغالية (؟) قديمة مع أبراج وكهف، من المفترض أنه ما يزال يموت فيه المغامرون كما في أكثر الكهوف الشّرقية.

لم نرسُ بعد وكانت السّفن تذرع المكان جيئة وذهاباً، وقد ربطت مع بعضها بليف جوز الهند من دون استخدام مسامير، بطريقة رواها ابن بطوطة وماركو پولو Marco polo اللذان يصفانها على أنه لا يوجد لها ظهر مركب، ولكن فقط غطاء من جلود اعتادوا نقل الخيول عليها إلى الهند. تلك هي زوارق الشِّحر اليوم، عريضة مدبّبة في مقدمتها وخلفيتها، ويوجد قَطعٌ تحت مقدّمتها، عليه نموذج بألوان خضراء وسوداء وبيضاء، وتصميمات لأسماك، وشيء يبدو كالقناع، وعظام متصالبة رسمت عليهم، ورصفت بعبيد أفارقة كان النّظر إلى أجسادهم مفتولة العضلات ووجوههم المنبسطة أقل لطفاً من النّظر إلى هزال أهل بير علي الواحديين.

استغرق من وقتي أربع ساعات لأُبحر من الشِّحر إلى المُكلّا، وكنا عائدين إلى مرفئنا القديم باكراً في فترة بعد الظّهر، كانت البيوت المقابلة الآن مبهرة في نورها مقابل جدار الجُرف الأحمر، والأربعة حصون البيضاء في الأعلى. يحظى بياض المُكلّا بنوعية مميّزة جميلة، رائعة وتشبه حمامة السّلام مقابل خلفيتها الحارّة، فلها فخامة مزخرفة حولها، تبدو عظمية من البحر، ولكن إلى حدّ ما متهدمة في الأماكن قريبة.

كانت الآن تئزّ بوصولنا، وتجسّد الآن قارب المرفأ خارجاً من اضطراب يشبه فوضى النّمل، مع عامل A.B. ومندوب الحاكم في الكوثل، بطرابيش تحت مظلة سوداء. كان طربوش العميل أحمر اللون؛ وظهرت عباءة فضفاضة من الصّرج الأزرق وظهرت في الأسفل خدود ممتلئة على المستوى الغزير المتطابق ذاته وسنّ ذهبي،

(1) يقع جبل ضبضب إلى الشّمال الشّرقي من الشِّحر على بعد نحو 4 كم، وعلى قمة هذا الجبل توجد آثار لبقايا مباني الحصن، يعود تاريخها إلى الفترة الإسلامية ولم يتبق من هذا الحصن سوى بعض الأساسات لمبانيه وصهريج كبير كان يحتفظ بمياه الأمطار، وفي أسفل الجبل توجد مغارة وقبر إسلامي.

وكان يحمل عصا فضية الرّأس مثل صولجان، إنه هندي يعيش مع مجلس باعة حوله قرب المرفأ. تعرّفت بعلي حكيم مندوب الحاكم بشكل أفضل، وأصبحت ملتصقة به خلال فترة إقامتي، لقد كان في ما مضى صيدلانياً في عَدَن، ولكنه استقرّ الآن كنوع من A.D.C. في المُكلّا ويتبختر حول أعمال الحاكم التّجارية حاملاً مقدمته البدينة أمامه، مزرّرة بشكل ناقصٍ في معطف بني فوق عباءة قطنية مخطّطة، يسير بصعوبة شديدة مثل إله الفيل الذي أُجبر على المسير، عانت عيناه مرضاً جعلهما بلون أبيض تقريباً؛ في صوته بحّة عميقة عندما يتكلم بالعربية بسرعة، ولقد كان الألطف، والأبسط والمراقب الأكثر تدقيقاً لراحةٍ يمكن أن يرغب أيّ شخص بها. وقد اعتذر الآن خمس مرات من دون فاصل بسبب التّأخيرات في الليلة الفائتة.

قُدِّم لنا الطّبيب، وهو شاب هندي يرتدي توبية[1]، مع جامعة خلّفها وراءه، ثم ضابط الشّرطة ببدلة عسكرية أنيقة، كان قد تعلّم بعض المهارات العسكرية مع قوات عَدَن المجنَّدة، تدبّر أمر صناديقي الاثني عشرة بيد بينما في اليد الأخرى تعامل مع أمير البحر، وهو رئيس المرفأ، الذي يرتدي عباءة خضراء وعمامة صفراء، وكان يطالب بأسبقية من نوع خاص.

حصل خلاف على الممرّ، وكانت أمتعتي تنزل بسرعة من خلال تشابك أذرع وأرجل سمراء أفعوانية. صُبغت المياه في الأسفل باللون الأخضر، وانطلقت قوارب هوري صغيرة خشبية داخلة وخارجة بمجاذيف مدوَّرة: جلستُ في زورق ضحل بين حُماتي الجدد، مستظلّة بحذر تحت المظلة السّوداء، بشعور بهيج لكوننا في البيت وسعيدة في هذا الصّخب كله. بينما كان القبطان، يتكئ على متراس السّفينة، ووجهه صورة من الأسى والأسف، قال لي بصوت واضح: «ليحمكِ الله بسلام»، مع دعوات يمكن ألا تفاجئ أحداً بشكل كبير كما فعلت بالحشد الودود والمضياف من «الرّجال الهَمَج» الذين كانت أجسادهم البنّية، وهم يصيحون وينحنون على مجاذيفهم، تنزلني على برّ موطئ جزيرة العرب.

---

(1) قبّعة هندية من فلّين.

الفصل الثّالث

معسكر البدو عند بوابة المُكلا

«كم هو جميل السّير من الآبار قُدُماً في المساء
عندما تمرّ الظّلال العملاقة على الرّمال
وتتردّد عبر السّكون ضربات الأجراس
طوال الطّريق الذّهبية إلى سمرقند».

(«حَسَن»، تأليف فليكر Flecker)

يوجد قصر سلطان المُكلّا عند النّهاية الغربية للمدينة، قرب البوابة المحصّنة التي يتوجّب على جميع القوافل أن تعبرها سواء أكانت من الشِّحر أو من الشّمال. ويقع القصر ذاته الأبيض الجديد على البحر وله زجاج ملون يشبه مقصورة برايتون Brighton ويحظى بأفضل مشهد في ضوء القمر. تقع ثكنات قصر الحاكم كلها وأبنية متعدّدة خلف القصر، طوّقت كلها في مساحة مسوَّرة حيث نمت بعض أشجار النّخيل - الشّيء الأخضر الوحيد في المُكلّا. وبيت الضّيافة داخل السّياج ذاته، المبني إلى سور المدينة؛ يتسكّع القليل من الجنود اليافعيين، ويدخّنون في بيت الحراسة في المدخل، ويستمرّون في مراقبة المجمّع كله.

أمضيتُ هنا خمسة أيام، ونظرت من نافذة غرفتي التي تقع في سور المدينة إلى مكان مخيّم القوافل خارج البوابة.

يمتـدّ السّـاحل في الـوراء إلى امتداد الهضـاب، حيث يندفع راس بْـروم بعيداً نحو البحر. يمسـك الغروب تموجات الخليج، فهي ترتطم في منحنيين طويلين من أمواج مرتـدّة. يمتـدّ «شـاطئ مرتفع» مـن رمال بيضـاء تجمعت بفعـل رياح موسـمية مقابل التّلّـة، حيـث أن كثبانها باهتة في ضوء الليل مثل الغيوم، ويتألّق الغروب بأشـعة تشـبه انحنـاءات الصّدفة على الدّخان الذي يرتفع من الأكواخ، والتّلال البعيدة عن المكان، وللميـاه لـون الحمامة ذاته، منير فقط. وكل ما عدا ذلك بني وقاتم: كتلة التّلّة؛ الأكواخ الخيزرانية مقابلها بمسجد ومئذنة مثل كنيسة قروية في إنكلترا؛ ثلاث أكوام من سمك صغيـر مجفّـف ارتفاعها بطول رجل، تسـمّى العيد Aid' أو الوزيـف Wuzif. وبيعت سـلة ممتلئة لعلف جمل؛ كانت ألوان طليعة الرّمال الواسـعة عند مصبّ النّهر معتدلة، تجمّعت بتحفّظ في صورة سمر حي وحلقات لجمال منيخة.

هنـاك ما يقارب سـتة من هـذه القوافل الهاجعـة، تتألف كل واحدة من عشـرين أو أكثر من الجمال والبشـر. وحمولتها (التي تبدو بشـكل رئيسـي) موجـودة في الدّاخل بينهم، وأشـخاص هنا وهناك، وحمير برؤوس متدلية تشـكل دائرة خارجية؛ وتسـتمرّ الحيـاة العائلية فـي الدّاخل بين حيواناتها الكبيـرة والصّغيرة. كان مصـبّ النّهر ممتلئاً بالنّاس بالكامل تماماً مثل الازدحام في «هايغايت هيث» Highgate Heath في صباح مشـمس؛ ودائماً عندما ينظر أحد ما باتجاه البحر، فإن شـخصاً ما يكون قد حدّد بشكل قاتم اللون مثل شـجر الأبنوس مقابل المياه السّـاطعة، يعتبر النّظر إلى مشيته المتحرّرة متعة، وقد ربط شـعره المجعّد بعصابة حول الجبهة، والمئزر القطني الرّقيق قد تشرّب لون النّيلة بشكل كبير، حيث صُبغ هو نفسه بلونها بحيث لا يحدث تغيّرٌ في اللون يشوّه تناسق الحركة.

أمضيـتُ عدة سـاعات عنـد نافذتي علـى الجدار أراقب هـذا اللون مـن الحياة في الأسـفل؛ حتـى أن بنيّـات البدويـات اللواتي يملأن جلـود الماعز من النّبـع لوّحن لي مبتسمات، وقد أخفين وجوههن وهنّ يرحلن بحمل على ظهورهن بعباءاتهن الصّفراء أو السّوداء، التي تصل إلى الرّكبة في الأمام وتتدلّى خلفهن.

ويمكن لأي شخص مشاهدة سيل متواصل من النّاس عبر البوابة، وخاصة عند المساء، وبدا البدو عندما أحضروا عشاءهم من المدينة؛ ودخلوا عبر البوابة الواحد تلو الآخر، ومؤنهم في أيديهم، أشبه بموكب الأضرحة في مصر، حاملي الطّعام للميت: ثلاث سمكات على خيط، أو شريحة من سمك قرش أحمر بزعانف سوداء، أو سلّات تدلت برباط في نهايتي نير من خشب حملوه من كتف لآخر من أكتافهم. تبدو أيّة قطعة صغيرة واضحة عندما لا تلبس أيّ شيء من الثّياب إلا مئزراً، وسوار ذراع فضي، وخصلة من صوف تربط أسفل ركبة واحدة أو الرّكبتين كليهما لجلب الحظ.

يوجد لباس أكثر تعقيداً لشباب المدينة عندما يرتدون ثياباً كاملة، حيث يطرحون شالاً من الكشمير بشكل أنيق على كتف واحد، ويضعون النّهايتين إلى الأسفل في الخلف. وعندما كانوا يأتون ليلعبوا كرة قدم خلف البركة حيث تشرب الجمال، أو ليتمشوا يداً بيد في طريق الوادي في برودة المساء، كانوا يلبسون مآزرهم، التي طولها بطول الوزرة Kilt أو حتى تنّورة ملونة بحاشية متباينة، وفوقها معطف من طراز أوروبي، وبعض الألوان الأخرى الزّاهية على حد سواء - أو ثوب قطني قصير، من النّوع الذي يمكن أن نصنّفه كثياب داخلية. وبين حين وآخر يمكن أن تقعقع شاحنة آتية من الشِّحر، أو يهرول حمار تحت أجمة (أغصان مقطوعة)، وشخص عجوز عارٍ خلفها، أزرق اللون بشكل كامل بالنّيلة، وكذلك لحيته القديمة. حملت النّساء رزمهن على رؤوسهن، ومشين مثل دليلة Delilah عليها كل شجاعتها، وعدّة الحبال.

مُلئت بالأشرعة، والأعلام المرفرفة في أقمشة متموجة ولكن بحرّية في الحركة محسوسة تحت طياتها الكثيرة، إذ لا يلبس أحد في ذلك العالم المتحرّك المشغول أحذية أو مِشَدَّات، واستنتجتُ أن هذا هو الذي منحهم هذا التّناسق وخفة الحركة مثل السّنونو، وجمالاً هلّينياً مُفعماً بالحياة.

أذكر بوضوح رجلاً، وقف ليصلي بعد أن قرفص على الرّمال بجانب جِماله من أجل أن يغسل ذراعيه وقدميه ورأسه وفمه. لا يمكن لأحد أن يرى أنه يرتدي شيئاً على الاطلاق في عتمة الليل (على الرّغم من أنه في منتصف الصّلاة أتى بحركة كما لو

أنه في الحقيقة يفك مئزره ويربطه). وقف هناك بوضعية جميلة وواثقة، وتحدّد قوامه ولحيته وشعره مقابل الصّحراء والبحر - مجرد رجل، بوقار لا يوصف لرجولة يافعة في هيئته. وعندما انحنى ليضع جبهته على الأرض، انتصب مرة أخرى بانطلاقة واحدة لجسده، كما لو كان قد صُنع من معدن.

حلّ الظّلام في هذه الأثناء؛ كان اللون الأحمر الأخير لغروب الشّمس مثل لون نار المعسكر الأولى ذاته؛ وأصبحت الجماعات المتفرّقة عند الوادي والشّاطئ أقل؛ واجتمعت القبائل في دوائر جِمالها من أجل الليل. كنتُ قد جلست لمدة طويلة جداً ولبثت صامتة عند نافذتي حيث دخل عاوز مع مصباح دون أن يراني، وكان قلقاً لأن الأمير طلبني وقيل له بأني كنت في الخارج.

كان عاوز قد قُدِّم لي كخادم. كان وجهه مثل الأبنوس، بملامح حادة - وبشكل رئيسي نتيجة الجدري؛ خصلة شعر أسفل ذقنه مع عينيه لوزيتين أعطته شكل المثلث، وقد اتّسع وأصبح فجأة فاتناً عندما ابتسم.. ونادراً ما كان يفعل ذلك عادة، وعندما سألته أشياء حول الوديان الدّاخلية التي جاء منها، قال إنه كان خادماً لأكثر من عشرين سنة لدى البيت الملكي، وزارهم مرة ثانية، مرّة واحدة، عندما اجتاز السّلطان في الخريف الماضي وادي حضرموت.

تتذمّر النّساء الأوروبيات اللاتي يعشن في الشّرق غالباً من الخدم العرب ويمكن أن يفاجأن من سماع النّبرة المخلصة التي يكنّها هؤلاء النّاس لسادتهم المحليين. فهم يدخلون منزل الأسرة ويصبحون جزءاً منه، ولا يفكرون بأية حياة خاصّة فيما عداه؛ وإذا حصل وكان سيئاً في أشياء مثل المساعدة في ارتداء الثّياب أو الخدمة على الطّعام، فإن هذا يؤخذ وكأنه تدبير رباني، وكأنه ابن أو ابنة ولد وفيه النّقص المؤسف، ولا علاقة له بتعاطف القرابة.

لم أسمع أبداً بعربي يتكلم بفظاظة مع خادمه، حتى تحت تأثير المحن التي تتطلب الصّبر. عندما كنت في العراق، كان لدى ملكة العراق، طباخٌ سيئ، إلى حدّ أن الملك فيصل عرض إرسال طباخه الخاص الممتاز بدلاً عنه، ولكن الملكة رفضت المبادلة،

وهي امرأة لطيفة وساحرة، كان قد تعلقت بزوجة الطّباخ واعتادت على الذّهاب معها إلى السّينما بين حين وآخر. وفي حضرموت، يعطى رفيق صغير أو خادم لكل عضو صغير من أيّة عائلة غنية، ويشبّون معاً بإخلاص.

كان عندي بالإضافة إلى عاوز نوع من كبير خدم، وهو شيخ جليل ملتحٍ من حُريضة اعتاد أن يأتي كل صباح، ينظر إليّ بلطف بعيني عجوز فخورتين، من تحت عمامة حمراء وبيضاء ويضع قماشه القرمزي بشكل ملكي فوق كتفه، ويسأل ما الذي أرغب في تناوله على الغذاء.

لقد تمّ الاعتناء بي بشكل ساحر في منزل ضيافة السّلطان. تم إحضار الماء من قناة من الوادي الغربي، لتتدفّق في حمّام أوروبي. كان لدي سرير وله ناموسية، ومِزيَنة مع مرآة. كان في غرفة الطّعام طاولة طويلة، وستة كراسٍ مصقولة، وأفضل كرسيين في النّهاية منجّدان بنسيج فاخر بورود زهرية اللون. تمرّ عبرها إلى غرفة الاستقبال التي هي أشبه بغابة مخططة بتنجيد بالأحمر والأصفر، بأهلّة منجَّدة من اللون البهيج ذاته، تساعد على تثبيت ظهر من يجلس عليها. ومنفضة السّجائر من عرق اللؤلؤ وتمثال فارس من البرونز، وجمّلت الجدران صور لحفلات ملكية - وولي العهد الألماني السّابق في مقدّمة إحداها - أو برزت على طاولات إضافية. ونشر الشّرق فوق كل ذلك ستاره غير الرّسمي؛ طرح الغبار وأعقاب سكائر هناك، تركها ضيوف سابقون؛ ورفرفت خفافيش داخلاً وخارجاً؛ وقرضت فأرة ثياب أحدهم في خزانة الأدراج. إنّ الشّرق فسيحٌ وتلك التّوافه الصّغيرة تغوص في صدره الواسع ولا تُقلق إلا الأوروبيين المنمّقين.

عندما حلّ المساء، وتوقفت صرخات الطّيور الجارحة العذبة التي ملأت وضح النّهار، ظهر عاوز ومعه ثلاثة فوانيس نفط بيضاء، وزّعها على الأرض في عدّة أماكن، وأعطاني عشائي، وغادر إلى بيته. زُرعت ساحات أرض التّجمّع الرّطبة ذوات الجدران الدّاكنة، بالخضراوات وبعض الأشجار، ونمت وفيرة وجميلة في سكون القمر. أُغلقت بوابة المدينة الآن؛ وشوهد وهجٌ ضعيف في بيت الحراسة الذي أمضى

فيه الحرّاس حراستهم ومعهم نرجيلة؛ وضربوا في فترات تكاد تكون متواصلة جرساً تدلّى بين عمودين، وأعلنوا بهذه الطّريقة عن الوقت. وعندما شعرتُ بالتّعب، انسحبت من الشّرفة، جمعتُ المصابيح غير الضّرورية وأطفأتها، واختليت بنفسي في غرفتي. لم أهتمّ بإغلاق الأبواب التي لم يكن سهلاً إغلاقها؛ ورفضت عرض حارس في أن ينام عند عتبة غرفتي، كان الحذر غير ضروري بشكل واضح.

فكّرتُ عندما أغلقت عيني في هذه الطّمأنينة والسّكون، بالسّواحل العربية التي تمتدّ على كل جانب: ثلاثمئة ميل إلى عَدَن؛ وكم من مئات الأميال إلى مسقط في الاتجاه الآخر؟ المحيط الهندي أمامي، الصّحراء الدّاخلية في الخلف، وفي تلك اللحظة وداخل هذه الحصون الجبّارة كنت الأوروپية الوحيدة. ولكّني شعور غامض قليلاً تسلّل عبر مشاعري النّاعسة، تساءلت للحظة ما الذي كان يمكن أن يكون قبل أن ألاحظه.. لقد كان شعور سعادة، صافياً غير مادّي، مستقلاً عن المشاعر والعواطف، هو جوهر أثيري من السّعادة، بهجة نادرة جداً ومجهولة إلى حدّ بعيد، حيث أنها عندما تأتي لا تبدو دنيوية أبداً.



الفصل الرّابع

الحياة في المدينة

«تجّـار شَـبا Sheba ورَعْمَـة Raameh هم تُجّـارُك: بأفخر كلّ أنـواع الطّيب وبكلّ حجر كريم والذّهب أقاموا أسواقك...».

(سفر حزقيال، 27، أصحاح 22)

لم يفعل الوكيل الهندي الذي عُهِد بي إليه الكثير لمصلحتي. قابلته قرب مكتبه عند بيت الزّبون بعد يوم أو يومين من وصولي، وبرّر سبب عدم مجيئه.

قال: «مات لي طفل».

حزنتُ لسماع هذا، لكنّه دفع الموضوع بعيداً غير مبالٍ بعكازه فضي الرّأس.

قال: «لا يهمّ، لقد كان صغيراً، وعندي الكثير. تهتاج النّساء حول ذلك».

بـدت التّعزيـة في غيـر محلها. تركتُـه وتابعت لاكتشـاف المدينة مع سـائق أفغاني وضعـه كـرم الحاكم في خدمتي هو وسـيارته. اعتـاد أن يقود ببطء على طـول الطّريق الرّئيسـي، ويقـف ليتيـح لـي الفرصة كي أنظر فـي الأبـواب المظلمـة للمتاجر، حيث عُرضت بضائعها مقابل الجدار الخارجي.

لم يكن هناك أشـياء كثيرة تُشـترى في المُكلّا، أغلبها طعام من صنف ما، عُرض في سـلال مكشوفة أصبحت مختفية عن الأنظار بالذّباب. لا توجد صناعة محلية باستثناء الخناجر المنقوشة وسلال كبيرة مصبوغة بشكل زاهٍ. تتألف صناعة المدينة من تجفيف

السّـمك، بزّاقـة البحر (رخوية البحـر)، Holethuria edulis وزعانف سـمك القرش للصّيـن، والصّبغ بالنّيلة، وعصر زيت السّمسـم. إنّ طريـق المحيط الهندي طريق عام جيـد، وتأتي معظم الأشـياء عبر البحر؛ وتتمركز الأعمـال الصّغيرة هناك حول المرفأ، حيث تعرض مراكب الدّاو تجهيزاتها وكواثلها العالية مقابل خلفية الجُرف، ويسـتلقي العبيد السّود بأطرافهم الضّخمة العارية نائمين على رزم الجمرك ينتظرون تحميلها.

المدينة كلها عبارة عن شـارع واحد مزدحم متوازٍ مع البحر، نهايته الغربية سوف تصبح شـارعاً عريضـاً تكتنفه الأشـجار، ولكنه مـا زال لا أكثر من طريق عقبات مـن الحفر وكتل حجـارة علـى طول واجهـة البحر. ترتفـع الشّـوارع الجانبية بزوايـا قائمة إلى هذا الشّـارع الرّئيسي وتنتهي في الغالب مقابل الجُرف مباشرة. تلتصق المنازل هناك واحداً فوق الآخر، بيضاء ورمادية، بأبواب ونوافذ منحوتة، ولكنها متهدّمة غالباً عند معاينة أقرب.

هنا معاصر الزّيت، بُنيت حوالي اثنتي عشـرة سقيفة من أجل تأمين ظلّ، حيث تقوم جِمالٌ معصوبة العيون - بسـلّة صغيرة تغطي كل عين - بالمشـي ببطء في دوائر لعشـر سـاعات كل يوم، وتسـحب عموداً حُمّل بصخور مدوّرة، ويقوم حجر الرّحى الأعلى بطحـن البذور بواسـطته. توضع البذور في قمع في المركز، التـي تحمل ما يقارب 36 ليبـرة وتعبأ خمس مرات في اليوم. يواصل الجمل مهمّته الدّائرية الكئيبة ببطئه المعتاد وخطوته الثّابتة ورأسـه المتوازن بشـموخ، كما لو كانت أمراً طقوسـياً أسـمى من فهم الرّعاع؛ وهو يريح نفسه من دون شك من ملل الحياة بإحساس الفضيلة، مثل الشّكليات المتعدّدة الأخرى بجانبه.

يقـع قصـر السّـلطان القديم قـرب المرفأ، وهـو الآن بنـاء حكومي حيث يعقـد الحاكم اجتماعه، ويعطي القضاة حكمهم، وتودع فيه وزارة المالية ومكاتب مشـابهة. يأتي الدّخل الحكومـي مـن جمارك وضرائـب الأرض في الدّاخـل، ولا توجد في المُـكلّا ذاتها أرضٌ خاضعة للضّريبة. أمّا القانون فهو شريعة الإسلام، والسّلطان هو مرجعيته المطلقة.

قمـت بزيارة السّـجن حيث تنكشـف المدينة إلى الشّـرق على جـرف صغير خلف المقبرة. لقد كان بناءً عادياً مألوفاً مطلياً بالكلس في الخارج، وله باب منقوش، وباهت

اللون بفعل الشّمس. عندما طرق سائقي الأفغاني الباب فتح لنا حارسٌ عجوز أدْرَد، ظلّل وجهه النّحيل بعمامة كبيرة، ووضع مفتاحاً في حزامه. كان مسروراً لأنه سيرينا سجنه، على الرّغم من أنه لم يستطع أن يتذكر كم كان عدد السّجناء فيه. قال لي إنه لم يدخل بينهم. كان طعامهم يُدفع عبر فتحة تحت الباب، ويمكن لشخص أن يراهم من السّطح في الأعلى. صعدنا، ونظرنا من على متراس منخفض داخل ما يشبه نوع من حفرة، مدعّمة ومظلمة، حيث يجثم عشرة أو اثني عشر بدوياً وعدّة أطفال وسط أكوام الكدر. قفزوا عندما ظهرت أشكالنا مقابل مساحتهم الزّرقاء من السّماء.

قلنا: «السّلام عليكم».

ردّوا كلهم في آن واحد معاً، وبدؤوا يتجادلون بصخب لدى رؤيتهم الكاميرا في يدي، بين مؤيّد للصّورة ومعارض. شوهدت أشكالهم السّوداء بصعوبة مقابل الخلفية المعتمة، ووثب الأطفال هنا وهناك مثل عفاريت الظّلام يصيحون: «خذي، خذي صورة!» مدّ بعضهم أذرعه وتظاهر بأنه يوجه إلينا بنادق. قالوا «أطلقي الآن»، وأخذت صورتي دون انتظار أكثر. كان جميع الأطفال ومعظم الرّجال رهائن، أُخذوا من قبائل سيئة السّلوك؛ ويتم تبديلهم كل شهر أو شهرين. ووضعت حالات المرض (التي يمكن للمرء أن يتخيل أن يكون مستمرّاً تحت تلك الظّروف) في مشفى. مرة في الأسبوع تُقتاد جميع المؤسّسة لتغتسل في البحر قبل أن تؤدّي صلاة الجمعة. لا تعتبر المُكلّا إحدى الولايات التي ترسل مندوبين إلى مؤتمر السّجن الدّولي، وربما تكون كذلك أيضاً، لأني شعرت بالتّأكيد أن هؤلاء البدو يفضّلون بؤسهم غير الصّحي المشترك، عن راحة منعزلة في زنزانة حديثة.

بالنسبة لنظام الرّهائن أيضاً، فليس من السّهل اقتراح بديل في مدن حيث يجب أن تطبّق إرادة الحكومة عبر القفار. قبل أربعين سنة، عندما سافر هيرش Hirsch في حضرموت، اعتاد البدو فرض ضريبة لبوابة المُكلّا ذاتها وكسبت ما يقارب 550 دولاراً في السّنة؛ أمّا الآن فإنّ تباين النّظام والتّجارة المسالمة كبير جداً. ولكني تأثرت بقية النّهار بذلك المشهد من الظّلام والكدر وأرسلت اقتراحاً ليتم توزيعه في الصّباح

التّالـي - تم التّرحيب بالمحاولة مع الاستحسـان من قبـل أصدقائي في المُكلّا، الذين يعتبرون أن آلام الفقر هي جزء من المتاع الضّروري للعالـم، نوع من مبنى ألعاب مستمرّ حيث يمكن للأغنياء ممارسة الفضيلة عندما يشعرون بميل شديد لذلك.

بدأ الأشخاص المختلطون من الطّريق العام، عند نهاية إقامتي في المدينة، من البدو والعـرب والزّنـوج، بالاعتياد على رؤيتي بشـكل أكبـر، لكن حتى ذلـك الوقت كانت الإثارة هائلة تكفي لجمع حشـد كلما ابتعدت عن حماية السّـيارة. لقد كانوا ودودين، ولكـن طولي لا يتجاوز خمسـة أقدام وإنشـين، ويجب أن يكون الطّريـق مفتوحاً كلما رغبت في رؤية أي شـيء خلف ملامح وجوههم الشّـديدة الحـادّة. ذهبت مرة واحدة فقط إلى المدينة سيراً على الأقدام، ثم تخلّيت عنه كعمل سيئ وعدت إلى الجُرف في بحـث عن العزلة؛ لحقني ما يقارب خمسـين طفلاً، وهم يصيحـون «نصرانية» بطريقة رتيبة ولكن ليسـت مهينة، إلى أن قطع التّسلّق أنفاسـهم. كان الجُرف شديد الانحدار؛ وعنـد وصولنـا الحَيْد، حيث يوجد أربعـة حصون، تخلف ضعيفو البنيـة بعيداً، وطوّر الذين بقوا صداقة الشّركاء بعمل جريء.

قدمنـا إلـى أحـد الحصون الصّغيـرة، قربه مدفع صغيـر غير ذي جـدوى. فُتح باب منحوت في منتصف الطّريق إلى الأعلى، انتهت جدرانه الهرمية المائلة بشرفة مزخرفة فـي كل زاوية. تدعى أبراج المراقبة هذه «الكوت» (بصيغة المفرد) Kuts. صُفَّت كلها علـى حَيدٍ مسـتوٍ لا بدّ أنه كان مسـكوناً لفترة قريبة جداً، لأنه مـا زال يحمل آثار حقول مربعة وقد غطيت قمم الهضاب فوقه بحفر مهملة، ليست قديمة جداً. لقد تطلّب الأمر بعـض البراعة والإقنـاع لجعل العبد الصّومالي الذي كان يخدمني يصل إلى أعلى هذه التّلّـة، ومن الأحد عشـر صبيـاً الذين ما زالـوا ملتصقين بنا لم يكـن أيّ واحد منهم قد وصل لهذا البعد من قبل؛ على الرّغم من أن التّسـلق كله يسـتغرق ساعة ونصف فقط. والحقيقـة لـم تبدُ رياضة تسـلق تلـك الجبال كمتعـة على طول سـاحل جنوب جزيرة العرب - فهناك الكثير من قمم التّلال الفارغة في القرب منتشرة حولنا.

كان لدينا من الأعلى مشـهدٌ جميل، ولكن قاحل على تموجات بلون الصّدأ لمنظر

طبيعي، يذهب أهل المُكلّا في الصّيف إلى قرى صغيرة إلى الشّمال منا فيها نخيل من أجل برودة الصّيف، وإلى الوديان التي تؤدي عن طريق سلسلة جبال طويلة إلى دَوعَن. وهناك إلى الشّرق منا تلّة تشبه رابية من الشِّحر، ووادبا بواش ورُكب في الوسط؛ وإلى الغرب منا فُوّة، حيث يوجد في أرض مهبط سلاح الجوّ الملكي، وأسفل منا البحر، حيث تلعب الدّلافين فيه. كانت تلّتنا ذات قمة عريضة مستديرة؛ بدا السّطح القرنفلي المتعرج لصخرّها كما لو أنه صُقِلَ بمسحاج ضخم فقد كانت حواف التّجويفات الشّبيهة بقرص العسل حادة جداً؛ ومع أني لست جيولوجية، فإني أتخيّل بأن هذا السّطح الغريب هو من صنع رياح دوامات رمل قوية تجرف وتحتّ الصّخر مثل ورق الزّجاج. وهي على أية حال قاسية شديدة الصّلابة، وقد أصبح جماعتي الحفاة متعبين بسبب ملاحقتنا أخدوداً صغيراً أجردَ أسفل المنحدر الشّمالي، وأتينا إلى الطّريق الدّاخلي حيث يقوم حصنان بحراسة الطّرق إلى البحر ويظهران بشكل جيد في الممرّ المتعرّج للتّلال، حيث لأسوارهما لون الهضبة ذاته. وفوقهما خزان مياه القرية وحديقة السّلطان، وسياج أخضر وحوض بارز في الوسط منها وقصر صيفي خرِب.

سرت هنا في يومي الأول في المُكلّا، وتجولت تحت الأشجار بين ساحات من خضار - باذنجان، بامية، فلفل، أشجار البدن بأوراق كبيرة وفاكهة تشبه البندقة التي يأكلون اللّب الأحمر منها وشجر الرّمان والموز والكرمة وأشياء أخرى لم أتبيّنها - ولكن لا وجود لأزهار. تبعني بستانيان صغيران داكنا البشرة في عدة مواطن، مثل أشباح لا تزال تمارس براعة ما قبل التّاريخ، والتي مارسها السّكان الأوائل لهذه البلدة - ربما بالطّريقة ذاتها تماماً، بالتّسلّق بأقدام حافية في الأراضي المرتفعة الصّغيرة من الأرض التي تفصل جدول مياه عن الذي بجواره.

وعندما ابتعدنا التقطنا راكباً شيخاً شاباً طويلاً وهزيلاً خارجاً للتّنزه وكان سعيداً لتوصيله معنا: قال بإنه كان يدعو كي يعثر على سيارة.

قلت معلقة: «لا بدّ أن الله أرسلنا»..

وافـق متـردّداً، فهولـم يكن واثقاً جـداً بامـرأة غير مؤمنة كواسـطة من اللـه. ولكنه استرخى تدريجياً، وأخبرني أنه يرغب في السّفر، ولكنه كان فقيراً.

قلـت: «هذا، لأنك تعلّمت. فكل المتعلّمين فقـراء. ولو لم يكونوا فقراء، يمكن أن يمتنعوا عن كونهم متعلّمين».

وافقني على هذه الفكرة أيضاً، ولكن على مضض وبحزن. ولم يكن مؤهلاً للكتب، ويمكـن أن يكـون أكثر سـعادة لو عمـل جنديّاً. أشـرت بأني زرت الجامـع الأزهر في القاهرة وأن مدة الدّراسـة هناك هي ثلاث عشرة سنة - حيث صرّح بشكل واضح جداً بأنها مدة طويلة جداً.

سأل: «لقد درست، وحياتك - أين هي؟».

شـدّ انتباهنـا بعيداً عن هذا الاسـتعراض الحزين نسـبياً بحصّة التّلميـذ منظر ثعلب كثيـف رائـع تحت الصّخرة؛ لم يتحـرّك، ولكنه انتظر، وراقبنا ونحـن نعبر، جاهزاً لأن يركـض، كان جسـده متيقظـاً وذكيـاً - إنّه مخلوق محظـوظ، لم يخلق ليتّبـع حياةً ضد إرادته. وضع الشّـيخ الشّـاب شـاله القطني بشـكل مُحكم حول كتفيه في برد المسـاء البسـيط، كان ضعيفاً وشـاحباً. تركني عنـد بوابة المدينة، متلهفاً حتى لا يعرّض نفسـه للشُّـبهة بمثل هذه الصّحبة المريبة. ثم اختفت الومضة البشـرية الصّغيرة، وعاد أسلوبه المشـايخي ومضى بعيداً بخطى واسـعة مع كلمات رسـمية ووجه يشبه القناع، نموذج ديني بكلّيته باسـتثناء طريقة مشـيه التي مـا زالت حرّة جامحة كطريقة سـير حيوان فتيّ تحت رداء أخرق.

أخذنـي خادمي الأفغاني ذات يوم إلى فُوّة لأرى أرض مهبط طائرات سـلاح الجو الملكـي R.A.F.، وهي واحدة من عدة أشـياء حدّدناها حول سـواحل جزيرة العرب، وهي تقع في مكان طبيعي واسع مكشوف يؤدي إلى وادي الخربة والحَجَر في الشّمال. كان ركام الحجارة البيضاء غير الثّابتة التي تميّزه قد توضح داخل المنظر الطّبيعي العام ذي اللـون الأحمـر والبني، وسـتصبح فـي النّهاية من خـلال التّطور الطّبيعـي للتّاريخ

أضرحة مقدسة لإحياء ذكرى ثواب سماوي، بعد أن تنسى الطّائرات الحقيقية بمدة طويلة. يقع المكان على مسافة ثلاثة عشر ميلاً من المُكلّا، ويمتدّ الطّريق بشكل جزئي عند حافة الماء على الرّمال وجزء آخر داخلي في وديان حجرية، جرداء وحمراء، حيث نمت أشجار سَمْر مروحية الشّكل في الأماكن المستوية، رمادية مثل الأشنة أو الغرانيت، ومزركشة بطريقة قاحلة. ونمى هناك أيضاً نبات euphorbias, statice جاف ومغبرّ، وأجمة متشابكة من أشواك، ولكن لا وجود لشيء بشري باستثناء بيت صغير واحد وحديقة محتضرة، والنّساء اللائي أتين من المُكلّا - مسافة ثمانية أميال أو أكثر - ليجمعن الأشواك بأفخاذ عارية وعباءات مثنّاة، وعيون تلمع أعلى غطاء الوجه السّميك الذي يسترهنّ.

لا يوجد بين المُكلّا وبير علي على مسافة تقارب 70 متراً - أيّ شيء إلا هذه، وقرية بْروم على السّاحل. إنه مكان صغير فقير لا توجد فيه بيوت جيدة، طُبع السّكان على الكرم بسبب التّأثير اللطيف لسلاح الجو الملكي R.A.F. وقد بَدوا أكثر اختلاطاً مع الأفارقة، وتجمّعوا حولنا، ولم يستطيعوا التّفكير بأي شيء يمكن أن يرونا إياه في منطقتهم ما عدا المدرسة - وهي عبارة عن قبو ترابي دون شبابيك حيث جلس اثنا عشر صبياً في ظلمة جزئية يقرؤون بشكل عشوائي من مُصحف أحمر. بعضهم يقرأ، وبعضهم تظاهر بالقراءة، بضجيج رتيب (بصوت دندنة رتيبة)، وجسد يتمايل، كان معلمهم الزّنجي يقف عند الباب يهوّي جذعه العاري ولحيته البيضاء القصيرة، وهو فرح وسعيد بدندنة التّعلّم. وعندما سألته أيّ طالب هو الأفضل، أشار في الحال إلى الأقبح من بين الكل.

في عودتنا على طريق البحر، على طول أرض من رمال رطبة على حافة الأمواج، ارتفعت طيور نورس مثل شريط رمادي خفّاق أمامنا وغاصت مرة أخرى خلفنا، وهي تعيش هنا بأعداد لا تحصى، وتظهر عندما تحلّق مقابل المياه بلون أبيض وأسود مثل قطرات المطر. وتبدو على الرّمال البيضاء مثل اللؤلؤ الأبيض، ومثل اللؤلؤ الرّمادي على الرّمال البنية، وتسبح وقد انتظمت على شكل سلسلة مثل اللؤلؤ على الأمواج.

وشكّلت الآن، وقد ارتفع وابلها وانخفض، مظلّة من ظلّ بأجنحتها، فقد ارتفعت قليلاً فقط بما يكفي لتفسح لنا، تدور وتكاد أن تلمسنا؛ وأخطأ واحد منها مسافته وارتطم بي وسقط فاقد الصّواب في حجري. التقطُته، منقبضاً من الخوف؛ وعيناه فقط هما اللذان تحرّكتا، محاطتين بزخرفة سوداء دقيقة مثل نظارة منمنمة؛ كان منقاره أحمر اللون، وقسمه العلوي منحنٍ فوق السّفلي؛ كانت قدماه ذواتي أغشية وشاحبتين، وعندما تركت جسده يتحرّر، بدا ريشه الرّمادي بارداً وناعماً، مثل البحر الذي يعيش عليه.

وقبل أن أغادر قمت بزيارة ثلاث مدارس أخرى في المُكلّا. تمّ تمويل المدرسة الجديدة والكبيرة، التي بُنيت قبل خمس سنين فقط، من قِبل السّلطان وتوفّر ست سنوات من الدّراسة مجاناً لكل من يرغب بذلك؛ وأخبرني الأساتذة أنهم نادراً ما يستطيعون إقناع أولياء الصّبي بأن يتركوه لأكثر من أربع سنوات، بسبب عدم وجود فائدة مادّية من الثّقافة (العلم).

كان الأساتذة شباباً ومتحمسين بحب التّعلّم لذاته الذي لم يخجل الشّرق منه بعد. كان يوجد منهم ثلاثة عشر، لما يقارب ثلاثمئة صبي في ستة صفوف. جلس الصّفان الأصغر حجماً على الأرض متربعين؛ وكان لدى الطّلاب الأكبر مقاعد، واستطاع الكل - من الأصغر - تقديم قصيدة ترحيب تلفّظوها مع ايماءات مناسبة وإشارات حادّة تدل على البؤس، ولكن بإحساس يدلّ على الالتزام الاجتماعي خلفها. كان الأطفال شُعث الهيئة، وغير أذكياء في هيئتهم، كما هي طريقة المدن غير الصّحية، وكانت الكتب التي تأتي من مصر قليلة. كانت الثّروة العظيمة عبارة عن مجسّم كرة أرضية على حامل، حُفظ في حقيبة لمناسبات عظيمة؛ وخريطتين كبيرتين، وعدد قليل من قرّاء، وعدّة مصاحف تم توفيرها؛ كانت خمسة من المواضيع التي دُرِّست لجوانب متعدّدة من القرآن، والبقية كانت: قراءة، قواعد، إملاء، إنشاء، رسم، حساب، هندسة، جغرافيا، تاريخ، وعلم الإشارة بالأعلام - وهي ذروة التّعليم، وتُركت إلى الصّف الأخير والأكثر تقدماً، بمثابة ذُروة يتطلّعون إليها بلهفة لاجتياز مسافات قاحلة من خمس سنوات تمهيدية. كان السّيد عمر، المدير المساعد، والذي أخذني هنا وهناك،

لطيفاً ودمثاً ومغرماً بأطفاله. وهو ذو وجه طويل، وذقن صغيرة ملتحية، وعينان لوزيّتا الشّكل وكبيرتان وفم كبير حسن الشّكل هو نموذجي في حضرموت - نموذج أرستقراطي من الممكن أن يكون قد رسمه ڤان ديك Van Dyck؛ وقد أعطى شعوراً ساراً للمكان بفضل حماسه هو والشّيخ عبد الله، الذي عمل أمين سجلّ للمدرسة، على الرّغم من فقر الطّلاب والمهمّة الهائلة الملقاة على كواهلهم بوسائل ضئيلة وغير وافية.

كانت مدرسة الحكومة القديمة على الخطط ذاتها، ولكن الثّالث كان مشروعاً خاصّاً يديره مبشّر مسيحي هندي، وكان لديه خمسة وخمسون تلميذاً، وكانوا أنظف وملابسهم أفضل من مجموعة سيد عمر، وتأثروا كلهم تقريباً على نحو بالغ بذاك المرض من الاعتداد بالنّفس، والذي غالباً يبدو أن المسيحيين الشّرقيين يتبنونه من دون قصد من الفَريسيين Pharisees.

لم يرغب أحد بالتبشير في المُكلّا، التي تفتخر بعدم السّماح لليهود وبالكاد للمسيحيين، وكان عليه أن ينتظر عدة أشهر قبل أن يُسمح له بالإقامة هناك بأية حال؛ وكان هنا الآن بوجه مؤدّب لطيف وأسنان صفراء ونظارات، وبراتب 60 روبية في الشّهر من السّلطان من أجل إدارة مدرسته، وهو يمدّ طلابه بالقرطاسية وكل ما يمكن أن يحتاجوه، وبكل ما يبقيه هو وأسرته بصحّة جيدة. وكان لديه في مسكنه في الطّابق العلوي صفّان من الكتب بليت تماماً لترشده في طريقه، وله زوجة نحيلة صغيرة حاولت ما أمكن أن تستغلّ الأشياء على أفضل وجه ولا تأسف على عَدَن بشدّة، وبنات صغار قالت الزّوجة أنهن نسين دروس البعثة في التّطريز بشكل كامل. رأيتُ التّطريز ولم أفكر أنّ هذا سوءٌ محضٌ، فنسيان بعض الأشياء يكون أفضل. ولكني أكبرت البطولة التي غذّت روح التّحدّي، بصراع وحيد لنقل حضارة غير مفهومة في أرض غير مستعدّة. قامت الصّفوف المتجمّعة بالغناء لي «حمى الله الملك» بالإنكليزية، ثم بالعربية. استمعت مع بعض الرّيبة، متساءلة ألا يمكن تكون هذه واحدة من فنون الدّعاية البريطانية اللطيفة التي أسيء تفسيرها والتي نسمع دوماً عنها - ولكني تعلّمت

بعـد ذلـك بأن جملة «حمى الله الملـك» God Save the King عبارة عن مأثرة يفخر كل أهل المُكلّا بها، ولا تحوي أي معانٍ ضمنيّة إقليمية.

كانـت أكثر فعالية مسلّية في المدرسة هي الحوار بالإنكليزية بيـن اثنين من أصغر التّلاميذ، حول كرسي. قال أحدهم: «لقد اشتريتُ كرسياً».

سأل الآخر: «كيف يبدو؟».

«مصنوعٌ من الخشب»..... الخ الخ.

بـدا حـواراً هادئـاً ودّيـاً، ولكن احتدم الغلامـان فيه كما لـو كانا في معركـة، بأعلى صوتيهمـا وبعنـف لا يُصـدّق، يميلان باتجاه بعضهمـا كما لو أن الحاجـز المكوّن من ثلاثين تلميذاً ونيّف هو وحده ما منعهما عن الانقضاض على رقبة بعضهما، ولم اتأكد من أنّ الأمر مجرّد وصف للكرسي إلا بعد الانصات باهتمام.

لقـد أتيتُ من تلـك الواحات الواقعة تحت تأثير غربي حزينة قليلاً، أشـعر بشـعور نصيـر حيـادي يرى فقر آرائه الخاصة التي تعتبر مثل الذّهب الخالص ويهتم بها بدرجة ثانية ولا يسـتطيع التّدخل لصالحها، وكنت سعيدة عندما وقف سائقي الأفغاني خارج نوع من سـرادق صُنِع من سطح من قصب وسألني إذا كنت أرغب في النّظر إلى عُرس يقـام داخلـه. أخذني إلى الباب وتركني، وانسـللت إلى الدّاخل بيـن جماعة ووجدت نفسـي فـي فوضى نسـائية، ازدحمن في وقت الغَسَـق الحـار والكثيف، وفـي حالتهن الممكنة قد ابتعدن عن أي شيء يتعلّق بالثّقافة العصرية.

وقفت النّسـاء الرّقيقات في حشـد خارجي؛ بينما قرفصت السّيدات على كعوبهن فـي الوسـط ملاصقات ركبهـنّ بينما كانت تقـرع الطّبل إحداهنّ. دُفِعتُ إلى الوسـط، وارتفعت جَلَبة.. ووجدت نفسي مقابل سيّدة ساخطة ذات شفاه زرقاء وطرحة صفراء سـألت يُمنـة ويُسـرة ما الذي جـاء بالنّصرانيـة إلى هنـا. تكلمتُ معها بطلاقة وبشـكل مباشـر، وبكل الأدب في مفرداتي. توازن الوضع لبضـع ثوان؛ ولكن الوضع كان أكبر مـن أن تسـتطيع التّعامل معه، لأنها كانت تحاول التّكلّـم بأدب معي وهي غاضبة مني،

وتنحّت مختنقة، وجلست القُرفصاء مرّة أو اثنتين، بين فضول ولُطف، وبدأت تبدو أكثر ودّاً، واستطعت تفحص غرابة التّجمّع.

لقد كانت حديقة روضة مؤنثّة داخلية متألقة ورائعة، تحلّق فيها حشدٌ من عبدات سود. كانت الثّياب مقصّبة أو لماعة، مقسّاة بصفائح صدر مزيّنة بالفضّة وصفوف قلادات أساور ذراع ثقيلة، وأساور وأطواق، وستة أو سبعة حلقات في كل أذن. جاءت السّيدات للدّاخل بوشاح أصفر رُبط على رؤوسهن، ولكن تم نزعة في الحال، ثم عرضن الأعمال المتقنة من الفن - وأبدين وجوههن وأيديهن وشعرهن. ولقد وضعن ما يقارب المئة ضفيرة صغيرة شُدّت إلى الرّأس من فرق مستقيم أملس بلون برتقالي من الحنة؛ وكان الشّعر ملتصقاً على جبينهن في نقطة تلمع بالزّيت.

كانت ذقونهن صفراء زاهية؛ وراحات أيديهن بنّية اللّون ضاربة إلى الحُمرة بحنّة معطرة بشكل كثيف وزيت، ورُسمت من الخارج بنماذج مزركشة بنّية اللون، تشبه قفازاً. كانت حواجبهن قد رُسمت بلون بنّي وزركشة بنّية مجعّدة حادّة خرجت من كل صدغ؛ وامتدّ خط بين أسفل الجبين والذّقن. كان البعض منهن جميلات جداً، بوجوه دقيقة وذقون طويلة وصغيرة؛ لم يكن كباقي البشر ولكنهن كن أثريات؛ ولسن نساءً عاديات بل تجسيداً غريباً للمرأة، بدائياً وثابتاً. وأكثر من ذلك عندما وقفن للرّقص، واحدة أو اثنتين في وقت واحد لم يحرّكن أقدامهن، ولكن ألقين رؤوسهن والقسم الأعلى من أجسادهن بتصنُّع إلى الأمام، وقمن بحركات مثل دواليب في الهواء بضفائرهن. وانتشرت رائحة نفّاذة من أجسادهن؛ وقُرعت الطّبول، وجلجلت الأساور والأحزمة؛ وكان الحرّ لا يُحتمل. وعندما تظهر إحداهن، مثل زهرة خُزامى متعدّدة الألوان، تتفتح وهي تنسلّ من شارعها المظلم بعد أن كانت مغطاة وتقف لتعرض ملابسها وحليّها المبهرجة، بلا مبالاة ولكنها كانت تصغي لهمهمة المديح المتميّز.

بالطبع كانت العروس محجوبة في غرفة علوية. تابع المزيد من الضّيوف بالتّوافد، وبدا من المستحيل للمكان المهيأ أن يستوعبهن. استمرّ الطّبل بقرع إيقاعه المثير

الرّقيـق الرّتيـب؛ وقامت المزيد مـن الرّاقصات، وركبهن غارقات فـي البحر الأنثوي. وانسـللتُ خارجـة بهدوء قدر ما اسـتطعت، مثقلة بلغز قديم جـداً وجوهري، جذوره العالمية المبهمة متشـبّثة حتى الآن، أكثر من الجهود العابرة لذلك المخلوق التّربوي، الإنسان.



الفصل الخامس

مغادِرةً إلى البرّ الدّاخلي

«سأصل بنفسي إلى جبل المرّ، وإلى هضبة اللبان»

(أناشيد سليمان)

ينقسم جيش سلطان المُكلّا إلى حرس خاص من العبيد يسمى النّظام، ومن العسكر الذين هم جنود نظاميّون تطوّعوا من قبائل يافع التي تنتمي إليها سلالة القعيطي عندما نزل رجال القبيلة للمرة الأولى منتصرين في السّاحل قبل بضع مئات من السّنين، يوجد ثلاثة إلى أربعة آلاف منهم متفرقون في السّلطنة، ويُدفع لهم عشرة إلى خمسة عشر طالراً في الشّهر (أي ما يقارب خمسة عشر إلى عشرين شلناً)، وقد كُلِّفوا بتأمين طعامهم.

كانوا رجالاً حسني الهيئة، عضلاتهم قوية مثل الأفاعي، ووجوهم طويلة نحيلة، وثيابهم مختلفة الألوان ويضعون على رأسهم أيّ غطاء رأس يفضلونه، لباسهم النّظامي الأساسي عبارة عن حزام ملفوف وبندقية. وهذا ما جعلهم يقضون صباحهم بالتّدريب العسكري، ويقومون به مرتين في الأسبوع خلف معسكر البدو في الوادي، مرحين مثلهم كمثل مسكبة نبات زينة في الصّيف. راوحت السّيقان العارية في مكانها؛ ورفرفت التّنانير القصيرة التي تشبه تنانير راقصي الباليه في تشكيلة زاهية. واستعجل أفراد الفرقة الموسيقية التي عزفت لهم طوال الطّريق من البوابة بنغمات أوروبية على ثماني آلات موسيقية نحاسية، ليضعوا آلاتهم على الأرض قرب بُرك الجِمال

ويشـاركوا بالمرح؛ بينما قام أربعة ضباط نشيطين تدرّبوا في القوات المجندة في عَدَن بتوجيـه العمليات، كانوا شـديدي الأناقة بثيابهم العسـكرية، وسـوط الرّكوب بأيديهم ويردّدون كلمات حيّرتني: لِفراي «LefRy, lefRy» إلى أن اكتشفتُ معناها.

كان «النّظام» السّـود يسيرون، وتسير جماعات أخرى باتجاه مضـاد لاتجاههم، ولكـن ليـس بالاندفـاع والانضباط نفسـه تمامـاً. إنّهم مُلك السّـلطان الخـاص، كانوا عائلات مستعبدة في أفريقيا، لكنها استقرّت من عدة أجيال في القصر الملكي، وكانوا يشـكّلون منظّمة اجتماعية في القصور العربية منذ فترة ما قبل الإسـلام، ولذلك عُرفوا في مكّة إبّان العصر الوثني باسـم Ahabis. شـكّل أفرادهم الأصغر سناً، عشرة أو اثني عشـرة صبياً صغيراً، فيلقاً صغيراً بعلم أحمر في كل يد، وأدّوا ما يشـبه رقصة المُرِّيسـة في إحدى الزّوايا.

تحرّكـت الجِمـال وسائسـوها المصبوغون باللّـون الأزرق النّيلي ببـطء عبر أرض الموكـب، نحـو الدّاخـل والخارج فـي طريقهم الصّباحـي باتجاه الهضـاب، بين هذه المجموعات الموّارة من الألوان زاهية؛ وانتشـرت الرّائحة اللاذعة للمعسـكر ومياهه الملوثـة فـي السّـاعة المبكـرة الرّطبة الكئيبـة. عدتُ إلـى بوابة المدينة لأشـاهد عودة الجيش إلى موطنه. وجدت هناك مدفعية السّـلطان، مدفعين وأربعة سُرُج جمال مبطنة لحملهـا، تـم إخراجهـا إلى الهـواء الطّلق. ونظفت مـن الغبار بمرأى من ضابط مُسـنّ مهيب بعمامة صوفية خضراء، وسلسلة ساعة تزخرف مقدّمتها المستديرة جداً.

عندمـا انتهـى تنظيـف الغبار اسـتقرّت المدفعيـة هنا وهنـاك: تظاهـرت دجاجات الحاميـة الفضوليـة بأنها تبحث على حبـوب بأقرب مكان ممكن مـن فوهتي المدفعية اللتيـن كانتا تسـخنان في الشّـمس؛ وقادت الآلات الموسـيقية النّحاسـية الثّمانية التي تعـزف بشـدّة، الجند فـي عودتهم إلى الثّكنات عبـر مدخلهم ذي الشّـرفات المفرَّجة، بعقصات شـعورهم الملتفة وطرابيشـهم أو عماماتهم وبندقياتهم المائلة بمتعة ظهرت لكل المهتمّين، وحتى النّاس المسالمون اندمجوا في ذلك الجو الحماسي من المفخرة العسكرية.

كان هـذا صباحـي الأخير في المُـكلّا. أُحضر لي في اليوم السّـالف رجلان بدائيان قصيـرا القامـة من عالـم أقـدم من عالـمنا كمرشـدين وحّمالين. بديـا كأنهما في قفص، مثـل مخلوقـات يمكن أن تضرب نفسـها بالأثاث كـي تخرج. كان كلاهمـا بلون نيلي تمامـاً، والقطعة القصيرة حـول خصريهما باللون ذاته، ومهمـا كان ذلك ذات مرّة فقد برزت منه قبضة خنجر معقوف قرب الزّاوية اليمنى، حتى لا يضيع الوقت في سـحبه. كانت بعض هذه الخناجر جميلة جداً، بقطع نقود ذهبية بندقيّة (ڤينيسيّة) قديمة غُرزت عليهـا عند المقبض وعقيق أحمر مغروز في الفضّة، والتفّت عصا الغمد إلى ما يقارب ارتفـاع المقبض، مع عقدة مفلطحة عنـد الطّرف. ولكن بدا هذان الرّجلان فقيرين إلى حدّ ما، على الرّغم من أن خنجريهما كانا متينين، مع سكين تامّة ثُبّتت في الخلف وإبرة ربـط إلى جانبها. كان لديهما سـوار ذراع على المرفـق الأيمن، ووُضع عقيق أحمر في خيط من الفضّة ورُبط بحبل أسـود حول رقبتهما، قالا إنها توقف نزيف الجرح؛ ورُبط سـلك مجدول من صوف داكن أسـفل كل ركبة. كانت شـفاههما، وكذلك وجهاهما، زرقـاء بفعل النّيلة، وتجوّلا حول غرفتي بأقدام حافية راقصة، وهما يحملان صناديقي بصمت ولُطف ليقدّرا وزنها.

قالا إنه من الممكن أن تكون هناك حاجة لثلاثة حمير، وواحد لي لأركبه. طلبوا مني أن أخفّف صندوقاً واحداً وأقصّر لفة فراشـي، ثم أمسكا الصّناديق الصّغيرة القصديرية التي وجدتها مريحة للسّفر، وكنت قد اشتريتها من سوق عَدَن وقد تم صنعها في باڤاريا Bavaria، وقاما بإقحامها في خُرجٍ من خيش. وافقنا على بدء رحلة الأسبوع بعد ظهر الغد إلى وادي دَوعَن، مقابل مبلغٍ خمسين روبية، وخمسة إضافية لطعامهم.

وقام واحد منهما، لدى المغادرة، بقرع الأهلّة الحمراء والصّفراء المنجّدة في غرفة الاسـتقبال، فعـل ذلك بلطـف بأصابع متعجّبـة - كأنك تتلمس مظهراً هشّـاً لعالم غير مألوف.

دُعيت في الصّباح التّالي لأشـكر الأمير سـالم بن أحمد بن عبد الله القعيطي الذي يحكـم الآن نيابـة عن ابن أخيه السّـلطان الذي كان وقتها في حيـدر أباد. كانت رحلتي

ممكنة في البداية من خلال رسائل السّلطان، التي تمّ الحصول عليها بمكرمة من اللورد هاليفاكس Lord Halifax بواسطة سير أكبر حيدري Sir Akbar Hydari والسّيّد مارمادوك پيكثول Mr. Marmaduke Pickthall وجعلت ضيافة الأمير الكريمة في المُكلّا إقامتي هناك ومشروعي في الدّاخل ممكناً وسعيداً. ولقد جاء ليزورني، فأخفى بلطفه المفاجأة التي لا بدّ أنه أحسّ بها من طريقة سفري دون خادم. وبالنّسبة لعائلة القعيطي فتقريباً غلبت عليها الصّبغة الهندية Indianized بكل معنى الكلمة، وفقدت ذاك الفهم للعوز المستقلّ والذي يجد دائماً صدىً في قلب العرب، مهما كان معقداً.

يقود السّلاطين من آل القعيطي النّظام لحرّاس حيدر أباد، الذين تطوعوا لعدة سنين وحتى الآن يتطوّعون من حضرموت. وفي الأغلب فإنهم يقضون أوقاتهم، وزيجاتهم تعقد غالباً في الهند، وحتى الأمير سالم لم يكن مستثنى بشكله وسلوكه، يداه الصّغيرتان النّحيلتيان وأصابعه الدّقيقة اللاتي لعبت بعصا ملتوية من العاج، وشاربه الطّويل الذي لفت نظري حيث لم ألتفت إلى بقية تقاسيم وجهه، كل هذا كان هندياً أكثر من كونه عربياً. ولكنه كان محتفظاً بالبساطة اللطيفة لعرقه؛ أخبرني بأنه فضَّل المُكلّا عن حيدر أباد، بسبب قلّة الحياة الرّسمية هنا؛ وتكلّم بقبول عن رحلتي المستقبلية، مع علامات من الاستغراب والأسى فقط عندما اعترفتُ بأني أحببت المشي لعدة ساعات كل يوم. أخبرني بأن السّلطان كان قد ركب إلى وادي حضرموت لأول مرة في حياته في الخريف الماضي؛ وما زالت متاعب الرّكوب تسبّب له المرض. شرحتُ معتذرة بأننا نشأنا لتحمّل الجهود المؤلمة من زمن طفولتنا.

تأمّلتني زوجة الأمير بعيون ناعمة (مخملية) ممتلئة بالجمال، وكانت جميلة ممتلئة الجسم ولطيفة مثل الزّغبة وخجولة جداً من أن تتكلّم كلمة بحضور زوجها؛ أعتقد أنها لم تنل تعباً جسدياً طوال فترة حياتها القصيرة. نظرنا إلى بعضنا بلطف عبر هذه الفجوة التي يستحيل التّغلّب عليها أو شرحها.

ذهبت أمتعتي مسرعة في اليوم التّالي عند السّاعة الثّالثة من بعد الظّهر على ظهور ثلاثة حمير. وكان عليّ اللّحاق بها بالسّيارة إلى مكان الاستراحة الأول.

وقد وفّر لي شيخي المسن مؤونة في حُريضة:

3 ليبرات من الأرز.. 4 أنّات

4 شرائح من الخبز.. 4 أنّات

5 ليبرات من التّمر.. 5 أنّات

ليبرة ونصف من السّكر.. 2 أنّة

4 ليبرات من الشّاي.. 8 أنّات

دستتان من البيض.. 9 أنّات

دستتان من الموز.. 8 أنّات

18 ليمون حامض.. 4 أنّات

4 طيور حيّة.. 24 أنّة

بلغ الإجمالي ثلاث روبيات ونصف، وأضاف إليها عاوز قدراً للطّبخ وإبريق شاي. كان ينبغي أن تبقى هذه الأشياء معي لمدّة أسبوع، إلى أن أصل دَوعَن.

جاء عدة أشخاص لوداعي. وقف الأمير على سطح الدّرجات وأعطاني يده تحت شال قطني وليس بالضّرورة بسبب عدم رغبة خاصة لكوني امرأة، ولكن ربما لأنّه قد توضّأ لتوّه لصلاة العصر، ومصافحة عرضية يمكن أن تجعله يعيد الوضوء مرة أخرى.

تركته وتركت بيت الضّيوف الأبيض عند الجدار بمشاعر الامتنان، وفكّرت بأني إذا كنت سأقوم بشهر عسل، فمن دواعي سروري أن أقضيه على شواطئ المُكلّا المتعرّجة، حيث يندر الإحساس بدوران العالم، مع قارب خشبي يحملني طوال اليوم مع أيّ كان في الخارج بين الدّلافين وطيور النّورس.

* * *

الفصل السّادس

مَنْسَب ثِلَة

طريق عام وطريق، ليس من الصّعب عبورهما؛

لا يخطئ فيهما المسافر المغرم بالمسير.

(دبليو. پ. كِر)

تأثّرت حكومة المُكلّا برغبتي بالسّفر دون خادم أو مرافق. وكان السّبب الذي قدّمتُه، بأنّ الأمن والسّعادة مع البدو تعتمد على كونك وحيداً معهم، ولست مُداناً بشيء. كنت المرأة الأوروپية الثّالثة التي تزور داخل البلاد، والأولى التي تذهب هناك لوحدها - أيّ اختلاف كان ممكناً لا بل وحتى محتملاً، لكن كان من الصّعب التّعامل مع تلك الاختلافات لعدم حدوثها قبل ذلك. ولم يكن علي أن أمتلك طريقتي في مسألة المُرافق، فقد سلّموني لجندي عبد نظامي أسود، حمّلوه مسؤولية حياتي، وأن يوفّر لي راحة وسلامة تامتين.

كان الرّجل مثلي متردّداً تجاه تلك المهمة ومضطرباً، ولكنه كان أكثر عناية بالتفاصيل. كانت عيناه صغيرتين، مسطحتين وحمراوين عند طرفيهما، وله عظام خدّ عالية في وجه مسطّح. ظهر في لحظة المغادرة، مرتدياً فوطة قطنية أرجوانية اللون، وصُدْرة وعمامة حمراء اعتاد أن يبدّلها في مناسبات رسمية بقبعة بيضاء مُحاكة من نوع يستخدم لرياضات الشّتاء.

كان حـزام الخرطوش هو الشّـيء العسـكري الوحيد لديه، الـذي عُلِّق وهو ممتلئ تماماً، ومنحلّ عند وركه. اسـتقرّ هو وبندقيته على مسـند السّـيارة التي كنت فيها سلفاً أنـا وعلـي حكيم وصديقان آخـران أتيا لأطول من أبعد مسـافة في الطّريـق. كان ذلك على بعد عشـرة أميال أو أكثر، في قرية ثِلَة، إلى الخلف من جبل المُكلّا، وتلوّينا حول منحنيات حُتت بفعل الرّياح، شـمالاً ومن ثم شـرقاً بين وديان منعزلة، يذهب سـكانها في الصّيف ليجلسوا في مساحات صغيرة من أشجار النّخيل المطوّقة بالصّخور.

اجتزنـا أسـفل حديقة السّـلطان، بعيـداً نحو اليسـار، وقطعنا حصنين بلـون التّراب يسيطران على الطّريق، والحرشيات، وهي خيط أخضر في وهدة - وحصون أخرى، قـلاع مربعة «بقايا»، قال علـي حكيم «إنها من أيام الخوف»، ولكنها لا تزال تستخدم مـن قبـل العسـكر. كان المنظـر الطّبيعي كله عبارة عن حجارة مع شـجر سَمْر نما في شـقوقها. وفـي حال نظر أحـدٌ ما عن قرب، فسـتظهر لـه براعـم أوراق خضراء خلف غشـاوة من أشـواك تحاول غصونها عبثاً حماية نفسها ضد شـفاه الجمل التي تلتهمها؛ ويشـاهد بصعوبة على بعد مسـافة هياكل أشـجار رمادية؛ وإذا نظر الإنسـان إلى الأفق تمكن من مشاهدتها على الهضاب فقط، حيث تقف أشكالها الصّلبة جاهزة لأن تصبح فوراً خضراء بعد المطر.

عبرنا في الجهة اليسرى طريقاً يؤدي إلى دَوعَن قافلة من الجمال المحمّلة بالقصب مـن تلـك المدينة؛ ثم التفقنا حول كتلة الجبل، وأتينا إلى منظر طبيعي متموّج منخفض للشِّـحر، غادرنا طريق الشِّـحر وعلامـات الدّواليب، ووصلنا سلسـلة جبال منخفضة تطل منها منازل ثِلَة الطّينية على بحيرتها من شجر النّخيل.

انتصبـت منازل ثِلَـة الثّلاثة الجيدة معاً أعلـى من بقية القرية في موقع اسـتراتيجي، وهـي تعود إلى المَنْسَـب وعائلته. لم تكـن الجدران مطليّة باللـون الأبيض مثل بيوت المُكلّا الغنية، ولكنها بُنيت من الطّين وثُبّتت بمتانة على علو خمسة طوابق.

وقفتْ على سـطح أقرب البيوت امرأة وراقبت مجيئنا؛ كان ذراعاها ووجهها سوداً مثل عباءتها، وتتمتع بوقار بيزنطي في الخطوط الضّيقة التي لفّتها. لاحظتُ كم أضيف

لجمال صورتها بسواد الوجه والذّراعين، كما لو أنه تمثال منحوت بشكل كامل من قطعة أبنوس واحدة، كل واحد لا يتجزأ في جماله، بدلاً من الظّهور، كما يفعل غالبيتنا، بقطع هنا وهناك من خلال أغطيتنا. ما الذي يمكن أن يكون أقل تناسقاً من نصف ساق تظهر في لون متباين تحت تنورة حديثة الطّراز؟ - أو ذراع ثوب، قام الخياطون بقطعه من الكتف، وتركه ليتدلّى وكأنه موضوع مستقل خارج التّصميم العام لإبداعاتهم؟ لم يكن لدى تلك المرأة مثل هذا التّنافر.. لقد كانت كلّاً واحداً، ووقفت مقابل السّماء مثل عذراء تورچيلّو Torcello مقابل الفسيفساء الذّهبية لقبّتها.. إلى أن شاهدتنا وصرخت، مصفقة بذراعيها السّوداوتين بطريقة متهتّكة، غير لائقة بفسيفساء بيزنطية.

يعتبر مَنْسَب ثِلَه، الشّيخ محمّد بن أحمد باعُمر، واحداً من أكثر النّاس الموقّرين في حضرموت، و كلمته مُطاعة بين قبائل منطقته وأبعد. وهو من أحفاد الشّيخ سعيد بن عيسى العَمودي المدفون في قيدون بين الهجرين وصِيْف، وتعتبر الزّيارة إلى قبره الاحتفال الدّيني في أربعة أيام من رجب أحد أهم الأحداث في المدينة. كاد هذا الاحتفال الدّيني أن يتسبّب بمقتل فون ڤريدِه[1] Von Wrede، الرّحالة الأوروبي الأول في حضرموت؛ فقد بلغ قيدون في اللحظة الخطرة، حيث اشتُبه به على الرّغم من تنكّره، وكان من الممكن أن يُقتل من قبل بدوي ثائر، لولم يقم أحد رؤساء القوم المهمّين بالتّوسط وإرساله آمناً إلى السّاحل ولكن لا يملك فلساً.

عندما أرسلنا إشعاراً بوصولنا كانت سلالة هذه الولي المشهور، المَنْسَب Mansab الحالي، أي الزّعيم الدّيني للعشيرة، في بستان نخيل في الأسفل. جاء رجلٌ مسنّ ليحيّينا ذو وجه طويل حسّاس قد زادت من وقاره التّجارب والسّلطة، كان ذا فم كبير لطيف توارثت شكله جميع العائلة. انضمّ إليه ابناه، ثم صهره مجعّد اللّحية، لابساً مئزراً وقلادة من العقيق الأحمر، متباينة مع ثياب السّادة الأشراف الطّويلة. انتقلنا

(1) البارون أدولف غوستاف فون ريدِه (1807-1863) رحّالة ومستكشف ألماني شهير، كان أول رحّالة أوروي يجول في حضرموت حيث كاد يلاقي حتفه عند قبر هود، وكان في عام 1943 قد أبحر من عدن إلى المُكلّا وسار براً في البرّ الدّاخلي لحضرموت. حصلت على كتابه: *Reise in Ḥadhramaut* المنشور في براونشڤايغ عام 1870.

جميعنـا إلى المنزل، عبـر درجات طينية أصبحت ناعمة ولامعة من كثرة الاسـتعمال، وجلسـنا في غرفة مفروشـة بالحصير، بينما شرع بمهمّة تسـليمي علي حكيم من فوق قرقرات نرجيلتين خشنتي الصّنع. لم يستغرق العمل وقتاً طويلاً فقد قارب العصر على الغروب، وكان على أصدقائي أن يعودوا.

وصل البدو في الأسـفل عند مأوى جدار المنزل واسـتقرّوا لمبيت الليلة. قال علي حكيم وداعاً، كانت عيناه ذواتا الأطراف البيضاء مليئتين بالقلق، وأملى علينا شلالاً من النّصائـح بصوتـه الأجشّ وتوكيداً واعتذاراً. قام بكل مـا يمكن أن يمليه اللطف عليه.. وحـزم قامته داخل السّـيارة، التي بدت نوعاً ما أنها موضـوع منفصل عنه وضخمة إلى حدّ ما بالنّسـبة لإدارته. أما الاثنان الآخران فقد ركبا إلى جنبه، صافح السّـائق الأفغاني بالأيدي كصديق وباشـر القيادة.. واختفوا في المشـهد الصّخري، وعدت إلى مضيفيَّ الذين قبلـوا بحضوري غير المتوقع بالمجاملة الطّبيعية المقصورة على العرب كريمي الأصل.

* * *

كان ذلك دخولي الأول في بيوت حضرموت هذه التي بدَت أنها تتداعى، وتعوزها الفخامة ولكن لم تتغيّر بشكل أساسي، من أيام السّبئيين القدامى. نُقّب عن تصميمات صغيرة من هذه البيوت، وطرأ عليها بعض التّغييرات.

يصفهـا الشّـاعر عَلقمة[1] في الأيام الأولى من الإسـلام حيـث كانت لا تزال عظمة آثارهم على قمم تلال اليمن تملأ خيال النّاس:

مـن بعد غـمـدانَ المنيفِ وأهلِه وهـو الـشّـفـاءُ لقلب مَـن يتفكّرُ

(1) هذا غلط فادح، فالأبيات المشهورة لعلّامة اليمن في القرن الرّابع الهجري أبي محمد الحسن ابن أحمد المعروف بابن الفقيه الهَمْداني، وهي ترد في كتابه الجليل «الإكليل» الذي لم يصلنا منه مع الأسف سوى أربعة أجزاء من أصل عشرة، هي: 10، 8، 2، 1، وبضياع أكثره فقدنا جزءاً مهماً من تاريخنا وتراثنا في اليمن العزيز على قلب كل عربي. وله كتاب آخر مشتهر ومنشور مراراً هو «صفة جزيرة العرب».

يَسمو إلى كَبِدِ السّماء مُصعّداً عشرين سَقفاً سُمكُها لا يقصُرُ
ومن السّحابِ مُعصَّبٌ بعَمامةٍ ومن الرّخام مُنطَّقٌ ومؤزَّرُ
متلابكاً بالقَطر منه صخرُه والجزعُ بين صُروحِهِ والمَرمَرُ
وبكلِّ رُكنٍ رأسُ نسرٍ طائرٍ أو رأسُ لَيثٍ من نُحاسٍ يزأرُ
مُتضمّناً في صدره قطّارةً لحساب أجزاء النّهار تُقطّرُ

مهما يكن مدخل الحكام القدماء، فهو مستحيل للمسافر الحديث بغير مُرشد؛ وبالنسبة للطّابق الأسفل للبيت فهو غير مزوّد بنوافذ للحماية. وغالباً ما يمتلئ بالماعز والحمير، ويتفرّع في منعطفات وسلالم مُربكة كمتاهة، إلى أن يبلغ المرء الأقسام العلوية عبر ممرّات ملتوية وزوايا مفاجئة لشقق متنوعة، زوّدت كل واحدة منها بتنظيمات صحّية خاصّة بها، تصرِّف المياه عن طريق أنبوب واسع إلى أي شارع أو مكان طلق يقع في الأسفل. تبقى جميع هذه الشّقق مقفلة بمفاتيح خشبية، علِّقت في أحزمة ربات المنزل وعُملت من أوتاد تمر عبرها قضبان صغيرة متسلسلة متطابقة غير محكمة من خشب ضغطت في تجاويف داخل قفل منقوش بإتقان؛ ويحتاج حتى الخبير عادة ليتصارع مع بابه الأمامي؛ وليمرّ عبر شقق متعدّدة لزوجات وأرامل وبنات وحموات حُبِسن بين جدران بيوت حضرموت، وتعتبر هذه مهمة لا يمكن مباشرتها بسهولة.

لا تزال الأسوار البرونزية ورؤوس النّسور الطّائرة التي يذكرها الشّعراء في زوايا القصور القديمة، موجودة على شكل قرون وعل، ثُبّتت كل اثنين معاً أسفل الدّرابزين الأعلى، ولقد شاهدتها للمرة الأولى في ثِلَة.

كان البيت هنا مكاناً قديماً وضيعاً، يستضيف البدو الذين يأتون عند قائدهم الرّوحي للمساعدة أو المشورة؛ كان كل شيء بالياً وفي استخدام متواصل. أعطيت الغرفة العليا لي، بحصير من النّبات على الأرض وعدّة نوافذ منحوتة؛ وكان المَنْصَب وابناه، وحفيده الصّغير تتمتّع وجوههم جميعاً بنفس التّعابير السّاحرة من اللّطف، جلسوا وتكلموا وهم يشربون القهوة الممزوجة بالزّنجبيل في أوانٍ من الصّلصال.

جاء الصّهر أنيق الملبس يتمشى في الحال متمايلاً. التف قماش أحمر وأصفر حول ردفيه، وألقي قماش أحمر وأسود مثل رداء بلا مبالاة على ذراع وكتف عار. كانت لحيته المجعّدة وشعره يلمعان بالزّيت. وربما في الواقع، كان رومانياً قديماً، غليظ الرّقبة وقصيرها وشهوانياً. جلس قرب الآخرين، متصالب الرّجلين، تلعب إحدى يديه بخنجر فضي يلمع في ثنايا ثوبه الأحمر والأصفر؛ كان قد اعتاد أن يجلس ويكون محترماً، وكان من المسلّي مشاهدته إلى جانب نقاء وتهذيب أقاربه غير المقصود، الذين لم تنقص ثيابهم الرّثة من تأثير وجوههم الهادئ الذي حمل آثار عدة أجيال من السّلطة والتّعلّم.

مرّ كل من السّيد والسّيدة إنغرامز[1] Ingrams، الذين اكتشفا وادي حضرموت حتى مخرجه في سيحوت قبل عدة أشهر عبر ثِلَة ولكنهما لم يتوقفا؛ وعلى الرّغم من أن الأخبار حولهما قد جعلت عقول الرّجال تعتاد على حقيقة أنّ المرأة الأوروبية يمكنها السّفر في هذا المكان، فقد كنتُ الأولى حقاً التي شاهدتها عائلة المَنْسَب.

حاولتُ أن أفسّر أن وجودي هو بسبب اهتمامي بالتّاريخ، ووجدت - كما كان عليّ أن أفعل بشكل متكرّر خلال الأسابيع السّتة التّالية - بأنّ الفضول حول السّبئيين القدامى يعتبر نوعاً من العبث الأوروبي، وهو اضطراب فكري ولا يتلقى تأييداً محدّداً؛ ودخل الجميع بحماس في أحاسيسي تجاه تعاليم الإسلام في القرون الوسطى القديمة، واعتبروها سبباً معقولاً للرّحلة.

تركوني في الحال، وجاءت سيدات المنزل يمشين خلف ابنة المَنْسَب. كان لها هي أيضاً فم مثل عائلتها كبير ورقيق، بوجه طويل ساحر، شاحب إلى حدّ ما.. كانت عيناها جميلتين، وديعتين ومثيرتين. حلّ الانسجام بيننا بسرعة منذ منحني الله تعالى متكرّماً بهجة حقيقية في الملابس - وهو استعداد في عدة تجارب من الحياة، ولكنها هبة خاصة في السّفر، فهي تزود الشّخص بمادة حوار لا ينتهي الاهتمام الدّنيوي بها.

---

(1) هما هارولد ودورين إنغرامز اللذان تقدّم ذكرهما أعلاه في آخر مقدّمة المؤلفة عن طريق البخور.

كانت الغرفة قد انتثرت فوراً بأقمشة حرير مزهَّرة، وكلها للأسف حرير صناعي من عَدَن.. وبينما كنت أتعلّم الفرق بين «العباءة» الهندية المنخفضة خصر والقرطي Kurti العربي جاء المَنْصَب بذاته، يحمل مصباحاً ليشرف على تقديم طعام عشائي لي، وفوجئ عندما وَجَدنا قد اكتسينا بالحلي التّافهة، فانصرف مبتسماً.

بيّنت لي السّيدات تسريحات شعرهن المختلفة. فيُعدّ الفرق في الوسط دون جدائل نموذجاً هندياً، يكثر استخدامه على السّاحل أو لدى نساء شرق الهند اللاتي تزوجن من حضارمة خارج حدود البلاد. وتوضع ضفائر صغيرة مستقيمة على الجبهة في المُكلّا، بينما تنحدر ضفيرة شعر بين الحواجب تخرج من نقطة من الدّاخل. يستغرق عمل عدد لا يحصى من الضّفائر نهاراً كاملاً من الصّباح إلى ما بعد الظّهر، وتبقى لمدة عشرة أيام فقط من يوم صنعها.

دخلت امرأة في الحال وجلست قربنا، كان وجهها مخططاً بشكل بشع بصباغ بني يسمونه hudar امتدّ في ثلاث خطوط عريضة، واحد فوق العينين، وواحد عبر الأنف والخدود وواحد أسفل الفم والفك، وأخبرتني بأنه يصنع يومياً لمدة أربعين يوماً بعد الولادة، ويغسل كل مساء. كانت هذه المرأة عبدة. جلس ابنها، وهو صبي في حدود العاشرة من العمر، على الحافة الخارجية للحفلة. وصُدم الجميع فجأة بهمهمة كلمة ندّت: «بخشيش».

لم أقل أيّ شيء، ولكن ظهرتُ شاحبة ومصدومة.. أما بقية الجمع فقد رُوِّعوا بعد سماع الكلمات.

وأخيراً قالت ابنة المَنْصَب: «من أين تعلّمتَ أن تقول مثل هذه الأشياء للضّيف؟ لا بدّ أنك مجنون!».

وسُرعان ما أُنهك الصّبي الصّغير لتوّه تحت ثقل الاستهجان الجماعي.

تمتم: «نصارى، كلهم يعطون بخشيش، النّصارى الذين أتوا من قبل أعطوا بخشيشاً للجميع».

أعتقِد أن عادة تبديد النّقود هذه هي واحدة من الأشياء السّيئة التي يميل الرّحالة الأوروپيون لفعلها.. ويهينون بها أفضل النّاس ويفسدون البقية.

اقترحت: «ربما أعطوا بخشيشاً في طريقهم للفقراء، ولكن يمكن أن لا يفعلوا هذا كضيوف في منزل».

قالت ابنة المَنْسَب: «إيّاكَ أن أسمع هذه الكلمات مرة أخرى»، في حين أظهر صمت فوري لعشرة نساء أو أكثر فداحة جريمته. اختفى في الظّلام الخارجي. عادت حلقتنا لتآلفها، وتابعت الحديث حول هذا وذاك، إلى أن دخل جنديٌّ ومعه فانوس ووضع سريري النّقّال في زاوية من الغرفة.

أخذ مسؤولياته بجدّية وفكر بالنّوم أسفل السّرير لحمايتي. ولكنني كنت حازمة وكانت السّيدات إلى جانبي. احتشدن خلفه، وتركوني مع حفيد المَنْسَب الصّغير وفتاة بدوية يتيمة فقط، التي بقيت مفتونة على أمل رؤيتي وأنا أدخل السّرير. كانت الفتاة الصّغيرة تبتسم مبتهجة إلى أن أخبرني الصّبي بأنها كانت يتيمة.

قال بصوت فيه شفقة واحتقار: «مسكينة، شيء مؤسف. فهي لا تملك شيئاً»، وشرح بلطف توازن الشّفقة والاحتقار في الموقف تجاه الفقر في الشّرق. تجّهم وجه الطّفلة في تعبير عن حزن.

سألتُ: «هل هي عبدة؟».

قال أحمد: «لا، فقط يتيمة»، وظهر أنه يفكر بأن هذا أسوأ، ولا شك أنه كذلك. قال معلقاً: «يمكن شراء العبيد من شِبام، ويكلف الصّغير منهم خمس مئة طالِر» (37 جنيهاً).

أشرت بأني أرغب الآن في النّوم، فذهبا، وتركاني وحيدة في الغرفة مع فأرة. خرجتُ إلى الشّرفة ونظرت إلى بيوت ثِلَة في الأسفل وأعالي شجر النّخيل البيضاء في ضوء قمر ضبابي. كان المَنْسَب هو الوحيد الذي يملك بيوتاً سُمِحَ ببنائها على القمة، وأخبرني ابنه «وسبب ذلك أنّه لا يمكن لأحد أن يصوِّب على نوافذنا». ولكن

لا يوجد تصويب الآن: سلام الليل الغائم فقط، وهمهمة الأصوات فوق غلايينهم على تراس أخفض. كان الجو لطيفاً 79 فهرنهايت. وأظهر توهّجٌ خافت حول زاوية الجدار أين خمدت نار البدو.

كانـت الواحة في الأسـفل قد حُجزت في قاع الوادي مثل صـورة في إطار؛ وهجع خلفهـا - إطـار أكبر - لسـكون ممتد. كـم هو قليل عـدد الأوروپيين منـا الذي يعرف سـكوناً في الليل.. حتـى ولو نمنا لوحدنا في مرعى في جبال الألپ سيواسـينا صوت خرير الجداول. ولكن لا يوجد شـيء هنا بين قرية وأخرى، سـوى صوت الرّيح عندما تهب، وصمت الليلة الهادئة التي لا صوت ماء فيها سـاكن جداً، حتى أنك تتوهّم أنك تسمع في هدوءه القاحل صوت احتكاك الصّحراء تحت الأشواك المنخفضة.



الفصل السّابع
الطريق إلى الجُول

«حـريٌّ بالرّحّالة أن يعوّد نفسه على طريقة حياة سكّان البلاد الأصليين، فهذا أمر ضروري ومفيد إن هو رغب بالسّفر بمتعة في جزيرة العرب».

(نيبور: رحلة في جزيرة العرب)

أيقظني في الصّباح التّالي صوت قوي وجميل جاء من أسفل نافذتي يدعو للصّلاة الأولى. وجاء الجندي في غضون ذلك ليحزم السّرير، وظهر المَنْسَب بنفسه ليودّعنا. لم يبدُ أن هناك من سيغادر، لذا تركتُ في يديه مرآة صغيرة كهدية لابنته، وقبِلها متفاجئاً ورضي بسرور لأجل ابنته ولكن على مضض لأنه لم يتوقع شيئاً كهذا. استغرق في النّظر إلى الصّندوق الحريري الأحمر وشرّابته بفضول، وبدا بأنه لا يزال يملك مشاعر لطيفة نحو حلي الأشخاص الآخرين التّافهة؛ ولقد كان حقاً من أكثر النّاس سحراً وإنسانية بين الزّهاد. ولكن لم يكن عقله من ذاك النّوع الدّنيوي الذي يطيل التّفكير في قضية الإفطار، وعندما سرنا في نسيم الصّباح العليل كنت سعيدة باقتطاع مقدار وافر من خبز المُكلّا.

كانت السّاعة السّادسة وكان البدو قد بدؤوا لتوّهم بإسراج الخيل، وقد تركناهم ومشينا أسفل طريق جُرفي قصير إلى مكان حيث تبدأ حدائق ثِلَة وتزدهر في نبع من مياه دافئة تسقي الوادي بأكمله.

كان الصّهر في ذلك الحين هنا، يغسل جذعه المزخرف، والذي لربما يعود الى أحد الآلهة الوثنية. تجعل رؤيته المرء يتعاطف مع الزّوجة المخلصة، التي تجاوزت متحف الفاتيكان Vatican، قالت: «إنهم يتحدثون كثيراً عن هرقل Hercules وباخوس و Bacchus، ولكن أعطوني Jones». ربما كان هذا لأنه هو نفسه كان سعيداً جداً بمظهره، وكانت عدم رغبتنا بإضاعة إعجابنا على أولئك الذي تزودوا بتلك السّلعة بجهودهم الخاصّة هو جزء من قسوتنا، أو ربما هو حاسّة فطرية للاقتصاد لدينا.

استأذنتُ هنا بالانصراف، من الولي العجوز السّاحر ولحقت بالجندي بين حقول زراعية رطبة، بشكل مستقيم عبر الوادي وفوق الجُرف المقابل لأراضٍ واسعة، تنحدر انحداراً غير ملحوظ نحو الشّمال، على طول امتداد رحلتنا. وفي الواقع هي وديان واسعة جداً ومنخفضة حيث أن حدودها لم تكن محسوسة عندما انحرفت داخل السّهل السّاحلي. ولكن أنارها ضوء النّهار الباكر بسحر شاحب معيّن، وقام شجر السّمْر الرّمادي برشاقة هنا وهناك، وظهرت قافلتنا المجدّة بعد مسيرة ساعة خلفنا، فقعدنا ننتظرها عند قبّة السّقاية البيضاء الصّغيرة أو خزّان ماء يُملأ كل يوم للمسافرين العطشى هبةً من بعض المحسنين.

كنت حتى الآن قد قابلت ثلاثة فقط من البدو التّابعين لي: سعيد وسالم ابن أخيه، ومحمّد شقيق سالم ذا العشرة أعوام، وهو صبي صغير نحيل بشعرٍ يشبه أذناب الجرذان وابتسامة جاهزة دائماً في وجهه الصّغير الشّبيه بالضّفدع. كانوا جميعهم بدواً من قبيلة المرشدي، تقع بيوتهم وأراضيهم الرّعوية حول كور سيبان في أعلى قمة في حضرموت. كان سعيد رجلاً مرحاً ودوداً ذا لحية صغيرة، له شفاه ممتلئة وأنف مستقيم وجبهة منخفضة، متجعّدة بخطوط أفقية، ربطت عقصات شعره الصّوفية من الجبهة إلى الخلف بطريقة البنات مع شريط ممزّق عريض حول رأسه. كان نشيطاً وحكيماً، مثل بعض آلهة قليلة الأهمية عند الرّومان وليس من الزّمن الأفضل، ولكن يوحي بالزّمن الباروكي.

كان له طريقة مرضية في الكلام حين يميل برأسه إلى جانب واحد، وله عينا كلب كبيرتان، ودودتان جداً وبنّيتان في وجهه النّيلي. وعندما يقوم بشرح أيّ شيء يمد يديه

كلتيهمـا، ويديرهما إلـى الخارج قدر المسـتطاع، بكل كفيه وأصابعـه وإبهاميه. وكان لابن أخيه سـالم أجفان سـميكة، تشـبه أجفان قطة عندما تتظاهر بالنّعاس، وشـفة عليا ممتلئـة ومبوّزة؛ كان فتياً ولديّ انطباع أنه يصعـب التّعامل معه، ولكنه في الواقع أظهر قمة التّفاني الشّهم، ولم يدع حماري يغيب عن نظره أبداً، يوقفه عشرين مرّة في السّاعة لـو أردت أخـذ لقطات فوتوغرافيـة، ويندفع هنا وهناك ليقطف كل مـا يمكن لعينيّ أن تقعا عليه من زهر الصّحراء، حتى قبل أن أتكلم بطلب ذلك.

كان هـؤلاء الثّلاثـة مع السّـلطان في الخريـف الماضي. لقد كانوا معروفيـن في المُكلّا وكانـوا هـم كل المجموعة، عدا اثنين آخرين - غلام سَكوت يدعى أحمـد باقرط والثّاني سـعيد، ابن عمه، أضافا نفسـيهما للمجموعة. وظهر سـعيد الآن بحـزام خراطيش وبندقية فرنسـية، أضيـف إلى طرفها الغليظ قطعة مسـتديرة من خشـب غُطي بجلد غـزال، كما هي طريقـة حضرموت في كل أسـلحتهم. عند النّظر إليه تراه شـاباً عابسـاً، بوجـه طويل نحيل وخصلة شعر سوداء أسفل الذّقن مثل تمثال صغير من قبر مصري، ولُفّت خِرقة نيلية اللون بين تموّجات شعره اللولبية. ضُربت العقصات مع سوار ذراع فضي بشكل أفعواني، ووُضع خاتمـان من الفضّة فـي إصبعه الصّغير، ممّا أعطـاه مظهراً أنيقاً، وكان لديه، بالفعل، شـيء مـن النّزعة البايرونيّـة Byronic إذ يمكن أن يتجوّل وحده علـى الصّخور بعيداً عن الطّريق المألوف للقافلة، أو أن يُخرج فجأة مزماراً من مئزره ويمشي أمامنا وهو يعزف ألحاناً بدوية رتيبـة. اختفى عبوسـه مع نهاية اليـوم، بما يتعلّق الأمر بي، عندما شـاركتُ بالقهوة البدوية، واكتشـفتُ لاحقاً أنه لم يكن هناك شـيء أكثر إزعاجاً من أن تقوم بحماية النّصارى «الذين كانـوا مغرورين جـداً لدرجة أنهم لم يأكلـوا معنا»، هذا لأنهم كانوا من قبـل مع أوروپيين، وبدا أن أكلهم وحدهم قد حرّك الضّغينة في صدرهم.

قـام هـؤلاء الأربعة الآن بتجاوزنا مع سـتة حميـر مهرولة، محجوبـة تقريباً، تحت تـلال مـن أمتعة، كانت بدورها مغطاة بغطاء مزدوج من خيـش وذباب. التصق الذّباب مثل غبار أسود على كل جزء لم يكن مرتفعاً بشكل كبير، ولـم نتخلّص منه إلّا في اليوم الثّاني من رحلتنا، عندما أصبح هواء النّجد أكثر برودة.

كنا نرتفع الآن تدريجياً باتجاه مجمع الأمطار، تلك الأرض الصّخرية التّابعة للجول التي تستغرق الرّحلة إليها عدة أيام بين الصّحراء الحقيقية والبحر. ورتابتها الممتدّة هي فقط بداية رتابة أعظم في نجد جزيرة العرب، الذي ينحدر إلى الأسفل من يترا إلى عُمان. وهذا الجُول الخارجي صدعٌ وثلم يشبه قاع الطّين الجاف لبركة في الصّيف، وهذه الشّقوق هي وديان، وأحياناً منازل المدن القديمة أو أحياناً ليست إلا بيوت أشجار وطيور في قفرها وضيقها إلى جانب جداول الصّيف النّشطة. وما يزال الجُول منذ الأزل ملعباً للرّيح والشّمس والبدو الأحرار في تنقلهم، معروفاً قليلاً ومحبوباً قليلاً من قِبل أهل المدن الدّاخلية، الذين يعبرونه لأنه يجب عليهم قطعه محتجزين فيه كما هو حالهم في رحلة لمدة ستة أو سبعة أيام عند قدومهم من البحر. وبدأنا الآن نرى في البعيد موجاتٍ مستوية ونجوداً من حجر كلسي في الشّمس، هي الخطوات الأولى، ولكنها - قال سعيد - ليست الجُول الحقيقي، ولذلك لم نستطع الوصول حتى المساء من اليوم التّالي، وعند رأس وادي حِمِم الذي كنا سنتتبعه.

أسرعنا إلى الأمام بابتهاج، وكانت جوانب الوادي البعيدة الضّحلة تنحسر تدريجياً معاً لتشكل وادياً يمكن تمييزه. وهناك نوعية مبهجة في صوت ناعم رشيق لقوائم حمار يهرول على أرض قاسية. وقد كان من السّارّ أيضاً، الجلوس على ظهر حمار، إذا كنت تجيد ذلك، دون تصلب، وتقابل نخعات وصدمات رفيقك بمزاج مرن ومقدرة على التّوازن؛ في الواقع كما يركب الإنسان عبر الحياة بعيون رصينة عند الحوادث وميل للمتعة في الوقت ذاته. كان حماري يدعى «سويدي»، وهو حيوان صغير قوي البنية بأذنين مكسوّتين بالشّعر ورقبة ثخينة ورمادية مثل سماء مرقّطة.

وعندما سألت عن اسمه، أخبروني بأنه ليس لديه اسم، هو مجرد حمار "himar". قلت: «لا يمكن، يجب أن يكون له اسم، وإلا كيف يمكن مناداته من بين الحمير الأخرى؟» وقام عندئذٍ محمّد الصّغير الذي كان يقفز مع عصا بجانبي بالابتسام لي وأخبرني الاسم، وقد بدا أنّ والديه اعتقدا أنه تحت ملاحظتي.

تبِعنا طريقاً مستوياً تقريباً إلى لصب Lasb، التي تبعد ساعتين عن ثِلَة. يوجد هنا

بضعـة بيوت طينيـة وبيت مطلي باللون الأبيض، وينحدر الطّريق من السّـقاية Siqaya إلـى قاع الوادي، حيث تبدو بـرَك ونخلات مقابل جدار الجُرف كما لو أنها نُظمت من قِبـل مصمّم حدائق لتعطـي تأثيراً جميلاً. وكان هناك رقع خضار رطبة، وخصوصاً نبتة زهر اللبلاب منخفضة النّمو التي يدعونها بطاطا – وسـمك صغير وضفادع في البِرَك، مـع يعاسيب حمراء فوقها. وبدأنا هنا في الواقع نتبع قـاع الوادي الجلمودي الأبيض، نصادف بركاً متفرقة حيث نما شـجر السّـمْر طويلاً وشـكّلت أشـجار nathb أجمات جميلة من عشـب مع أوراق طويلة، ونمى شـجر العَشْـر في أماكن مكشوفة – وغطّيت أوراق شـاحبة، كبيـرة وبيضوية بزَغَـب ضارب للبياض، وحملت فـي الأعلى زهرات بنفسجية صغيرة، يسكنها الجنّ، كما يقول المسلمون.

نمـت النّباتـات في أجمات قرب الماء، وتنوّعت عندمـا أصبحنا محاطين بجدران الجُرف، ولا تزال مع ذلك بعض نباتات الأرض المكشـوفة باقية، مثل الحرمل السّـام بزهرته البيضاء، الضّارة للإنسان والحيوان، قد انتشرت في كل مكان لما يقارب ارتفاع قدمين. ونمت هُنا أيضاً شـجيرة تشبه الدّفلى بأزهار مخملية أكبر، galaigula صفراء، مـن فصيلـة الأقاقيا ولكن منخفضة النّمـو، والتي تؤدّي – كما قال سـالم – إلى فقدان عقلـك فيما لو قمت بغليها وشـربها. تدلّت المجموعات الخضراء بشـكل رومانسـي فوق الأحواض في المدخل الأبيض. وقد احتُجزنا الآن بين جانبي جرف مرتفع جداً، لدرجة أني ميّزت بصعوبة الحمَامات البرية التي رفرفت في نور الشّمس بأعلاه.

تشـكّلت دعامات سميكة وواجهات أسطح صخرية بشـكل جزئي بفعل الرّياح ثم ذهبـت، وظهـرت هـذه الجروف من حجر كلسـي كأنّ أيـاديَ عملاقة قـد صنعتها من حجر كلسـي فوق أساسـات من حجر رملي. ظهرت هياكل أجمـات مقابل خط أفقها الصّخري؛ حيث يمكن للشّـخص تخيل سـطحها الأخضر الباهت في موسم الأمطار. يطوف هناك في الأعلى نسـيم الصّباح وضوء الشّـمس، ولكننا مشـينا في هواء ساكن، يسـخن ببطء، ووجدتْ الحميرُ التي تحرّك آذانها ورؤوسـها متدليـة، أماكنَ لحوافرها بين الجوانب البيضاء المستديرة للأحجار.

سحب سعيد الثّاني مضروفه madruf، وعزف بمزماره القصبي، ورقص من جلمود إلى جلمود بأقدام حافية. وسحب الثّلاثة الآخرون سكاكينهم فجأة باندفاع جماعي. ظننت أن ذلك كان لنخس مؤخرة الحمير الرّمادية، التي تظهر تحت الأمتعة مباشرة، ولكنهم أرادوا الرّقص على أنغام العازف ليس إلا، بخطوات قصيرة خفيفة، ظهر المكان المنحني من السّكاكين من تحت أيديهم، قليلاً فوق مستوى أعينهم. بَدَوا سعداء، على عكس أعضاء عَدَن الذين وُصِفوا لي كـ «حكومة نظامية ومحافظة» كما يمكن للشّخص أن يتخيل تماماً.

وصلنا عند السّاعة التّاسعة إلى جزء متدلٍ لصخرة، نوع من كهف مكشوف، مع ماء يتقاطر لا بدّ أنه جعله مكان استراحة لعدة قرون قبلنا. مكثنا هنا في ساعات النّهار الحارّة. هيّأ جنديّنا سريراً لي بكل شيء ناعم استطاعت يده أن تصل إليه، بينما تفرّق البدو إلى أعمالهم، وجمعوا حطب الوقود، وسخّنوا قهوة قبل أعمال الغذاء الجادّة التي كان من المفروض أن تبدأ.

جاء الغذاء متأخراً وطبخ سعيد في قدري الجديد، وذلك بمقدار من أرز ومسحوق فلفل أحمر بِسباس (bisbas). وعندما نضج تقريباً فتّت سعيد فيه قليلاً من سمك القِرش المتعفن جعل كل القافلة في حضرموت تشمّ رائحة كما لو أن هناك بينهم شيء ميت، من فترة ليست بالقريبة جداً.

وأضاف زيتاً مستخرجاً من مرتشح جلد ماعز، حرّكه بقطعة من عصا التقطها من الأرض، وملأ طبقي الذي أحضره الجندي لي على حافة صخرة منعزلة، بينما انحنى هو وأربعة بدو فوق القدر بأصابعهم.

استرحنا هنا حتى السّاعة الثّانية. كان الظّل لطيفاً من النّوع الذي يجعل الشّخص لا يتحرّك حوله، وحيث انتهى على طول الطّريق الذي أتينا منه، لمعت أرض حجرية ناعمة في الشّمس بين صخور عالية، مثل طريق إلى معبد، وكان سالم هناك يعيد الحمير من البركة. استلقى سعيد الثّاني، العازف، على صخرة على ظهره، ممسكاً ومحدقاً بوَجْدٍ بخنجره فخر حياته. استلقى بدوي ضال على صخرة أخرى مع قطن

طبـي ومـاء كولونيا على عينيه، وهـو رجلٌ طويل ملتـح تعثّر فوقنا وهو يشـعر بالدّوار ويشتكي من وجع رأس. وكان العبد الأسود، في زاوية، يلاطف طيورنا التّعيسة بحفنة من حبوب الذُّرة.

كان روتين رحلتنا قد بدأ، غير متوقع في حوادثه الصّغيرة، ثابت في خطوطه الرّتيبة. عمل هذا التّفاعل بين الصّدفة والقانون واتخذت المفاجآت اليومية نمطاً مستقرّاً بسبب الضّرورات المادّية، فتخضع النّاس للطّرق ذاتها لقرن بعد الآخر – وهذا من دون ريب هو سـحر السّـفر في العراء. وعندما تكون وسـائط النّقل مثالية جـداً بحيث لا تتحكم القوانين الطّبيعية برحلاتنا عبر البرّ أو البحر أو الجو، فلماذا إذاً سـنكون قد تفوّقنا على كوكبنا في النّمو، وسوف يختفي من تنقلاتنا إلى الأبد هذا الشّعور المبهِج بالتّوحّد مع حيواناته ونباتاته وأحجاره، التّوحد في الاستحواذ على الدّافع ذاته.

بدأنا من جديد عند السّـاعة الثّانية، وأسرج سعيد وسالم الحمير بنغم صغير محدّد خصّصوه بهذه المناسبة. "*Habbali, Habbalit Habbali*"، كانت نغمته رتيبة، كلما اسـتمرّت أكثـر وأكثر في نغمـات متنوعة إلى أن أُنجز العمل؛ ولكـن بدا الحمار وكأنه يحبّها واستمع وقد رفع أذنيه إلى الخلف، وعندما توقفت علم بأن الحمولة قد رُبطت، فابتعد من تلقاء نفسه.

كانـوا أحيانـاً يغيّرونها، وغنّوا «حُطّ تحت إيـدك» "*Hot taht idak*"، مراراً ومراراً أيضـاً: «حُطّ تحت إيدك»، عندما أصبحت الحمولة مربوطة على ظهر الحيوان، ظننت أنه تعليق غير مناسـب إلى حدّ ما. وكان سـعيد في الواقع هو الذي كتب الأبيات وغنّى أي شـيء خطـر في باله. لقـد اعتاد الجلوس والغناء لنفسـه وهو يطبـخ الأرز، بصوت منخفض، مشـغول البال، وسريع، يشـبه ذاك الكاهن الكاثوليكي الرّوماني الذي ينهي قدّاسه بسرعة كبيرة.

أتينا بعد مغادرة مخيّمنا عند السّاعة الثّانية والنّصف إلى اللُّبَيب، وهو مكان متواضع لكنه طلِق حيث تلتقي الوديان. يقع واديان على اليسار، Benahsa ورياق، الذي يؤدي إلى قرن رياق Qarn Rayak؛ وإلى الجنوب الشّرقي من اللُّبَيب جبل عَنعَنة على مرمى

النّظر، ودخلنا خلفه بعد حافة فم وادي راس بَرق وهوطي شعب وادي حِمِم المقفر، الذي كان يوصلنا إلى الجُول.

تتبّع هذا الطّريق كلّ من ڤان دِن مولن M. Van den Meulen وفريق إنغرامز Ingrams ورسما خرائط هذا الطّريق، لذا لم أنوِ جمع مواد جغرافية حتى أصل إلى مدينة جديدة غرب شِبام، وكرّرت هنا ما كان البدو قد أخبروني به فحسب، بسبب ما قد يكون له من أهمية؛ فلم أدخل بعملية تصنيف ومقارنة جادة. لداعٍ واحد، لأني ما زلت أجد صعوبة في فهم البَدويِّ؛ على الرّغم من أنهم يتكلمون لغةً عربية ممتازة، فهم يتكلمونها بتغييرات مفاجئة مسلّية في الصّوت، وانفجار مميّز أجش عند نهاية الكلمة، كما لو كان وراءها مقدار جهد كبير. وهذا أكثر صعوبة عندما يأتي المرء إاليه في البداية بالمقارنة إلى خاصّية محدّدة مثل استخدام حرف y بدل j والتي يميزها بسرعة كبيرة.

كنّا عندما تركنا العراء ودخلنا إلى السّكون المسوّر لوادي حِمِم قد أصبحنا وجهاً لوجه مع الخرائب والاضطرابات عنيفة، والتّاريخ المتهدم للأرض. حُتّ الجُرف الأعلى شديد التّحدّر والمثلَّم، بفعل الرّيح في تجاويف ضيقة، مثل صناديق مسرح يستطيع الشّخص منها تخيّل طيف ما قبل إنساني وهو يشاهد مسرحية أولية، وفعالية ضوء النّهار والرّيح والماء والشّمس والصّقيع، على قوى محبوسة تنطلق أسفل القشرة الأرضية. وقد اكتست الجوانب الشّاهقة بالأشجار، مستعدّة للحياة عندما تهطل الأمطار، وغنيّة بعدّة أنواع. وتتحرّك هناك الحجول والغربان الصّغيرة، وطيور الذُّعَر.

وفي الصّيف، عندما يفيض الماء بين الجلمود الأبيض ويكون كساؤها أخضر اللون، تبدو هذه الوديان المحبوسة بالصّخر مثل الجنّة؛ ولكن مشهد قوّتها الآن غامر؛ والجنس البشري تافه جداً، يخطّ طريق قدميه الحافيتين في رتل فردي بين الجدران الصّامتة، مع أقدام حمار تنزلق وتقعقع قربه. فيجعل الارتياح الذي يحسّ به لأيّة واحة من نخيل أو رقعة من حقل ذُرة، يجعل الشّخص فجأة يلاحظ المقياس اللاإنساني الواسع لهذه الأرض كلها.

لم تظهر بعد واحة كبيرة كهذه في ذلك اليوم. تبعنا الوادي المهجور غير المزروع، إلـى أن أتينا عند السّـاعة الثّالثة والعشـرين دقيقة إلى مكان يدعـى حلّاف، حيث يلتفّ الوادي بلطف فيما يشبه مدرّجاً بجدران مقصوصة ومصقولة ويرتفع الطّريق في منطقة تسـمى الرّحبـة لانفتاح أعظم على طـول الضّفة الغربية على أطـلال قديمة تآكلت من جانـب الجُـرف. أمّا هذه الوديـان المقفرة والمهيبة، فهي مجـرد ركام نفاية ومنافذ إلى الجُول. يحفر مرّ القرون والعواصف الصّيفية هناك في الأعلى سلاسـل جبال جديدة، تهوي فضلاتها إلى الأسفل على تلك الممرّات، وتأكل جوانبها الكلسية وتنثر قواعدها ذات الحجر الرّملي. والقوافل التي تسـافر في منطقة هذه الأعمال الرّهيبة، عُرضة لأن تُجرف بفيضانات مفاجئة تملأ الوديان من جانب إلى آخر وتجرفها بشكل تام.

لا يزال البخور ينمو هنا في الوديان الجانبية، حيث يُجلب ويباع في المُكلّا، ولكن ليـس هناك شـيء يمكن العثـور عليه في طريق عام مثل الذي كنا نسـافر فيه. وقد نمت عدّة أشياء أخرى حولنا: السّمْر[1]، وشجيرة hume وهي شجرة قزمة مع أوراق صغيرة قاتمة اللون؛ العشـارق، مثل السّيتيسـوس؛ الأبّ بسـاق حمراء، وهي شجرة شوهدت فـي عَدَن؛ والسّـرَخ مثل الزّيتون، تأكلها الجِمال: ذولة الظّبـي thaulat adh-dhabi أو Adenium obesum؛ ذبيـد بزهـرة صفـراء، تأكلهـا الجمال؛ خلصفـة khalsfa؛ قترة qatara؛ قَرض، وهي من نوع الأكاسـيا تشـبه إلى حد ما السّمْر، التي شـاهدناها باطّراد عندما تسـلّقنا إلى الجُـول. كان هناك نبات عديم الرّائحة مثـل الخُزامى يدعى كُحيلة، وشُـجيرة يسـمونها dhuda، بـأوراق دبقة وزاهية، كما لو أنها مطليـة، ولم يكن أيّ من الحيوانات يأكلها. شـاهدتُ هنا أيضاً لأول مرة كتل من حجر رملي غريب، بكِسَـر من صخر يشـبه معدن صدئ طُمِرَ فيها، يقاوم بحواف قاسية بينما تجمّعت الحجارة اللّينة حوله. وقد عثرتُ على كثير منه صعوداً إلى الجُول.

قابلنا طوال هذا الوقت كله قافلة واحدة فقط في الطّريق نازلة. عرج محمّد الصّغير علـى طول الطّريق ثم شـعر بالتّعب، ورفض عرض الرّكوب علـى حماري. نزلتُ عنه

---

(1) شجر السّمْر أو الأكاسيا، ويسمّيه البدو: أم غيلان.

كي أفسح له المجال كي يمتطيه فتبسّم للاهتمام، ولكن كان قد نزل في غضون عشر دقائق أو أقل، مؤكداً لي بأنه قد استراح. امتدّ الوادي المنهار المفتوح هنا على يميننا في الأسفل، بجدوله الجاف، كما لو أن جروفها نُعّمت وجُرفت بمسحاجات عملاقة، وظهرت تحت السّماء المسائية الغائمة في مثلث من هضاب خلفنا، أخذنا حمولتنا من على حيواناتنا في الرّابعة وخمس وأربعين دقيقة وخيّمنا في زاوية منحدر عميق حيث تبعثرت صخور ضخمة تشبه البيوت.

كان المكان يسمى الرّاش Rash، ومن الواضح أنه استخدم كثيراً، بسبب رماد نيران قديمة وجدت بالقرب. وضع الجندي سريري في مأوى صخرة، وعندما جهُز العشاء أزعجت عقله التّقليدي بانضمامي للمجموعة التي حول النّار. غطّوا أفضل صخرة بكيس ورحّبوا بي، ينادونني باسم فريّا Friya، والذي تبنوه حتى نهاية الرّحلة. في ذلك الوقت أعلنوني «مفخرة النّصارى» Nasara، الذي من الواضح أنه أُعمل طويلاً في عقولهم.

قال سعيد: «معنا موقد، ولكن لم يكن جيداً بما يكفي لهم، لقد أرادوا واحداً منفصلاً لهم ليطبخوا عليه، وقد طُلب منا أن نجلس بعيداً عنهم تماماً. وهم فخورون جداً بإصرارهم على أن يسبقونا بالمسير، وعلينا نحن الذين ننتمي للمدينة أن نأتي بعدهم».

قمت بما استطعت لأخفّف تلك الجروح، وشعرت، كما كنت أشعر غالباً، بأن الجلوس قرب النّار مع رفاق في المساء، عندما ينتهي العمل ويبدأ الكلام، هو الطّريقة الأكيدة الوحيدة لاستمرار التّناغم والصّداقة. لم أجد أيّة صعوبات مع البدو الذين برفقتي ولم أجد إلا الودّ والتّلهف لخدمتي في كل الأحوال. عزوت هذه الصّفة بشكل رئيسي لحقيقة أننا أكلنا وجباتنا معاً، وأنه لم يكن لديّ خادم آخر لي شخصياً، باستثناء الجندي الغاضب، الذي كانت مشاعره طوال الرّحلة تعبّر عن أقلية من فرد واحد.

بعدما كان الظّلام قد خيم، سمعنا وقع مسير قافلة أخرى على الأحجار. حافظنا على الهدوء، على أمل أن يجتاوزونا، وكنا مرتابين بهم وهو شيء طبيعي عند مجيء

نــاس في الليــل. ولكنهم لفّوا حول صخرتنا، وحيّونا بـ «يا حَيَّا!»، واقتبســوا جمرة من نارنــا ليطبخوا عليها. كان قدرهم أكبر من قدرنا لأنهم ســافروا ومعهم صحن أو طبق، لأرزهــم، علبــة صفيح موضوعــة على حامل، بــدلاً مــن تفريغها خــارج الكفت (قدر صغير ذات مقبض) كما فعلنا نحن. ولكنهم كانوا أشخاصاً قرويين من أراضٍ مأهولة، ولذلك فإن متاعهم أقل من متاعنا.

جــاء توّاً غلام صغير منهــم بملامح كبيرة لينضمّ لدائرتنا ويتحــدّث معنا، كان يضع وشــاحاً صوفيــاً أبيضــاً لعمامته، مع أغصان مــن نبات الحرمل ربطت فيهــا لتحميه من الشّــمس. كان مضحكاً، مع جرأة وملامح لا مبالية، جعلنا جميعاً نضحك. واستطعت مــن داخل ســريري الــذي انسللتُ إليه لتــوّي، رؤيــة المجموعــة جالســين القرفصاء باطمئنان حول الجمر، كانت وجوههم تومض بشكل متقطع من الأسفل. بدت هيئات الحمير الصّبــورة المعتمة مظللة خلفهم، وارتفع الصّخر أســود، أومخطّطاً ببريق النّار فوق رؤوســهم. وشــعرتُ بالنّعاس وأنا أفكر بدخول كهف علي بابــا، في طبعة مزوّدة بالرّسوم من طفولتي.



الفصل الثّامن

بدو كور سيبان

إنّ مَن يجد في نفسه الارتياح إلى السّفر على هذا النّحو، ويقنع في بعض الأحيان بألا يجد في الخان غير خبز بائت، فهو سيجد خلال سفره في اليمن كثيراً من الاستمتاع كالذي وجدتُه أنا نفسي.

(نيبور: رحلة في جزيرة العرب)

تسلقنا طوال اليوم الثّاني بشكل مستمرّ ونحن نتبع وادي حِمِم.

استيقظتُ عند السّاعة الرّابعة صباحاً في يوم لطيف غائم، وأخذت درجة الحرارة، فكانت °74.

بدأنا عند السّادسة، وتابعنا على طول الجانب الأيسر للوادي، صادفنا جِمالاً نائمة بين الصّخور. تسافر الجمال ببطء أكثر من الحمير وتكلّف أجرتها أقل بقليل، فهي تستغرق ثمانية أيام مقابل ستة أيام للحمير، والحمار أفضل بالنّسبة للمصوِّر، وذلك لأنه يستطيع ركوبه أو النّزول عنه بسرعة. كانت هذه الجمال تتسلق بصعوبة فوق الممرّ؛ وتجوّل أصحابها مستمتعين، وقد ربطوا شعرهم في شبكات، ولكنهم كانوا أشبه بالعراة، وعندما سألت هل يمكن للجِمال أن تعضّ؛ انحنى صبي صغير ليمسك رقابها المقرقرة عندما عبرت مع إيماءة حرّة وثابتة مثل الحركة المنحوتة المنقوشة على إفريز إغريقي Grecian.

أتينا بعد ذلك إلى القرية الأولى، زمين الكبير Zamin el-kebir وفيها خمسة عشر بيتاً أو أكثر عبر الوادي عند فتحة ممرّ ضيّق؛ مع وجود أشجار موز، ونخيل ودُخن حولها. تُعتبر جميع قرى وادي حِمِم هذه أماكن صغيرة وفقيرة، وتعود لـ «سلاطين» باهِبري[1] المستقلّين. وهي مفصولة بامتدادات صحراوية طويلة. اجتزنا بعض الأكواخ الطّينية لقرية زمين الصّغير Zamin as-Saghir، وقد تناثرت بمسافات طويلة مقفرة، ومن ثم تسلقنا منحدراً مهملاً للجلاميد، عقبة Batha، إلى المحزمة.

ارتفع الوادي هنا إلى حوض نجدي، بقمم تلال مصقولة حوله، وتمتدّ عليه غيوم ونور الشّمس. برزت عن يسارنا قرية طينية محصّنة بشرفات مُفرَّجة تدعى غياضة، ينتشر أمامها نخيل وشجر الليّم وأشجار النّبق أو العِلب بشكل واسع (Zizyphus Spina Christi)، والعِلب هي أكثر الأشجار فائدة بعد النّخيل في حضرموت. ولا تحتاج سقاية وتنمو في أماكن أكثر جفافاً، وتوفّر طعاماً للبدو من ثمار العلّيق المطحونة التي بلون التّفاح، وتقدّم علفاً لمعزهم، وأخشاباً لكل الأبواب المنقوشة وأعمدة للقرى.

مشيتُ هنا، وأنا سعيدة بانفتاح الوادي ذي القعر المسطح، والانحدار الطّبيعي للتّلال من حولي بعد تلك الممرّات العمودية في الأسفل.

بدأت بالظّهور جميع أنواع جديدة من النّباتات والشّجيرات. المذهَب، بأزهار حمراء بشكل لسان على شجيرات بارتفاع ما يقارب أربعة أقدام؛ إبوب باللون البنفسجي، وdhora بالأحمر، وزهرات صغيرة تشبه البزور قليلة ghulila ودعية da'aya ونبتة مركبة صفراء hudam، نبتة ثخينة، وصبّار يدعى قُرف، وهو يُباع من أجل عصيره. وكانت هناك تجمّعات شائكة كالوسائد تُنتِج أزهاراً برتقالية ناعمة غير متوقعة؛ والدّويلة الصّفراء المثلمة تشبه نبات الدّيزي، التي تنمو في كل مكان في الأرض البعل.

---

(1) آل باهِبري كانوا هم وآل باصُرّة الخمعي سلاطين سيبان.

وعندما مشينا بسرعة على الأرض الطّمية رفع البدو أصواتهم معاً وغنّوا كلمات من دون معنى: «واعيدينا» "Wa ai daina, daina" وقد أسموها ببساطة «مغاني» maghani وقالوا أنها معمولة للرّقص؛ وانتهوا ببطء بنغمة ضعيفة، منخفضة ومهمهة، على موجات الهواء، كما لو أنها كانت أثقل منهم.

لقد كانوا مسرورين لرغبتي بأن يغنوا لي، وبدأت للتوّ زيمة zeima، أغنية أحد الرّجال، التي فسّرها سعيد لي بقوله، «لأنها تعلّمنا ألا نخاف من الموت». تُغنّى بشكل أسرع، ثلاث ترويشات ثم ترويشتين وتفعيلة واحدة وقد تابعوها بخطواتهم القصيرة؛ وبندقيتنا مستوية، ونصبت الحمير آذانها حيث كان من الواضح أنها اعتادت على اللعبة، وبدأت تهرول بسرعة من تلقاء ذاتها، مع قعقعة الأمتعة وجهد ضعيف يائس في صياح أحد الدّيكة الأربعة الصّغيرة التي ستُذبح من أجل العشاء. لقد سافرت مربوطة من أقدامها إلى القمّة في رزمة جانب وعاء الطّبخ وإبريق الشّاي، وجعلني مشهد مأساتها هذا أتوق لأراها قد طُبخت وانتهى أمرها قبل أن تقتلهم الكآبة المطلقة، عندما كانت ترقب العالم يركض أمامها وتفتح وتغلق أعينها الصّغيرة.

شاهدنا الآن عند السّاعة العاشرة الوادي ينغلق أمامنا مرة أخرى، وتبرز قرية حِمِم ناتئة على تلة فوق الفتحة، وتتّضح قمّة إقطاعية لقرية، بزراعة قليلة في قاعدتها وعديد من شجر السّمْر كلما يدنو المرء من الجنوب الغربي.

فوجئت بأن المسافرين لم يجدوا شيئاً أكثر ليقولوه عن شجر السّمْر، إنها مثل تضمين للقفر، قاتمة وناعمة جداً ولكنها جميلة، وتشابه خفّة الحركة ساقها الشّبيهة بالموجة وأغصانها الأفقية مقابل الحجر الكلسي الأفقي الثّابت الذي تنمو فيه، إنها أكاسيا ريشية (*acacia vera*) بجرابات حبوب قاتمة وأشواك أطول من أوراقها، توجد خلال نهاياته المدببة خضرته الطّرية الشّاحبة وكرات زهره الصّفراء ذات الرّائحة التي لا يتوقع وجودها مثل توقع الورود على عصا تانهويزَر tannhäuser.

لا أعرف إن كان التواء السّاق هو ما يرفع ستارته التي سطّحتها الرّيح، أم أن تنافر رقته الرّقيقة التي تشابه بساطتها وتزييناتها التّصميمات اليابانية مقابل الصّخور الثّقيلة

في خلفيتها، ولكن الشّجرة ذاتها تبدو في المضيق الجبلي القاحل مثل شخص راقص عندما ينعطف المرء حول زاوية فجأة مسحوراً بالسّكون.

عندما كنا نعدو كانت هناك أعداد منها وقد أفضت بنا قرية حِمِم، أمام سقاية بيضاء، تحت التّلّة والجدران البيضاء للقرية إلى قاع الوادي المنخفض في الوراء، حيث خيّمنا قرب أحواض بمياه ذات لون أخضر مائل إلى الزّرقة في كهوف أعطت في الواقع حماية غير كافية فيها ما جمعته الرّيح بشكل ضحل. كان الحجر الكلسي داخل الكهوف متجعّداً مثل محاكاةٍ سيئة لجذور شجرة، ولم يكن هناك شيء للنّظر إليه إلا وهج الجلاميد المصقولة، حتى لاحَظَنا بعض القرويين وجاؤوا ليشكلوا دائرة. ولقد أبعدني جنديّنا عن الدّائرة، وأحضر لي الأرز والفلفل إلى كهف منعزل.

كان يُظهر استنكاراً ڤيكتورياً للنّساء اللواتي لا ينعزلن بأنفسهن، وهو ما أجده مملّاً ويصعب فعله. وقد كان، فضلاً عن ذلك، غبياً، ومتى أخذ فكرة في رأسه، تشبّث بها بعناد أشخاص لا تخطر لهم أفكار يومية. كان من بعض أفكاره أنّ إدارة بعثتنا كانت في يديه. لم أتأثر أنا وأربعة من البدو بأوهام مثل هذه، وأصبح فهمنا الضّمني واضحاً بشكل مسلٍّ في فترة ما بعد الظّهر. كنا نتبع طريقنا الذي يصعد بصعوبة بارتجاجات مفاجئة صعوداً ونزولاً بجانب الوادي، وكان من الممكن لسعيد الذي كان يمشي ويثرثر بالقرب مني ومن حماري، أن يمدّ يده عندما يرى أننا نقترب من مكان سيئ ويوقفني بقوة على سرج حماري إلى أن تمرّ. لقد كنت أنا نفسي غير متلهّفة لهذه المساعدة، التي تركت خمسة بصمات نيلية على قميصي في كل مرة، ولكننا كنا بعدئذٍ تماماً في العمق في نشاطات الحرب المرشدية الأخيرة، وكان لطف سعيد من نوع شارد الذّهن يمكن يتطابق مع حالة الخزف الذي يمكن أن يتهشم إذا وقع عن ظهر الحمار فوق الصّخور. جاء الجندي فجأة ودفع يده بعيداً، قائلاً يجب عدم الإمساك بالسّيدة.

نظر إليه سعيد بانشداه، لكنه مشى مسرعاً، مؤرجحاً وركه النّحيل بطريقة نسوية تحت تنورة نسائية أرجوانية اللون. نظر إلي سعيد، فابتسمتُ وابتسم، وأودعنا حارسنا

إلـى عالـم المعتوهين حيـث ينتمي، وعُدنا لنتحدّث عن أشـياء معقولـة مثل الحروب القبلية.

أخبرني سعيد أنّ قبيلة المراشدة قد انحدرت من عبد الله بانهيم Murba 'Abdalla Benhaim ومن محمّد باسليم بانهيم، اللذين كان منشؤهما عند منحدرات كور سيبان العالية، والتي تمتلكها سلالتهما إلى هذا اليوم. وآل باصُرّة[1] حكّام دَوعَن ينتمون إلى السّـلالة ذاتهـا، وهذه القبائـل هي الوحيدة التـي لا تأخذ حكومة المُـكلّا منها رهائن، فقد اشـتهروا بولائهم وإخلاصهم. وهم ينتمون للحُموم Humumi في شـمال شرقي المُـكلّا، الذيـن كانـوا في حرب معهـم قبل ثمان سـنوات، عندما هاجم خمسـمئة من الحمـوم ثلاثمئـة من المرشـديين وأوقعوا منهم سـبعين قتيـلاً في كور سـيبان (تكون الأعـداد في هذه المعارك عرضـة للتّحريف وفقاً للجانب الذي يروي القصة). وقد تم إحلال السّـلام بينهم الآن من قِبل العَيدروس في الشّـحر، للحمـوم، ومن قِبل مضيفنا من مَنْصَـب ثِلَة للمراشـدة، الذين هو مـع ذلك ليس من المَناصِـب الأصليين، أو زعيم ديني للمراشدة، بل يسكن الأصلي في «الوادي الأيسر» إلى الشّمال، حيث كانت هناك حرب مشتعلة مع قبيلة مجاورة في ذاك الوقت.

كان سـعيد الثّانـي، عازفنا، منذ مدّة قصيـرة يقاتلهم. فقد كان ينطلق أعلى وأسـفل الصّخور جانب الطّريق كما هي عادته، وشاركنا حديثنا بين حين وآخر، فسألتُه هل تم إحلال السّلام.

قـال: «لا، الخـوف منتشـر بيننـا، ولكن لـم يغيّر أي شـيء، فنحن نواصـل التّجارة بأساليب آمنة».

سـحب مزماره، ورفع صوته ليغني "ai daina"، ورفع الجميع أصواتهم خلفه مع نغمة مثل الجرس والرّيح والتي بدت أنها تعود للصّخور والجداول.

ولكـن مرافقـي سـعيد كان الشّـاعر الحقيقـي وكان يعلم الأشـياء المناسـبة للغناء

(1) آل باصُرّة الخمعي كانوا هم وآل باهِبري سلاطين سيبان.

للمناسبات المختلفة، وقصائد جدّية جداً وجدلية، يمكن أن يؤديها بسرعة لابن أخته بنغمة منخفضة، والتي فكرت بداية أنها تشير لقضايا مالية أو نزاعات عائلية؛ ولمّا كنت في بعض الأحيان أجلس على مقعد في مدن أوروپية وأستمع إلى تيّار من كلام عابر، فأنا نادراً ما سمعت بنغمة جدّية مشابهة تتعامل مع أيّ شيء غير المال. لذا عندما سألت سعيد عن موضوعها قال لي بأنها كانت قصيدة، كنت سعيدة، وتفاجأت وأسفت أني لم أستطع متابعة الأبيات عندما بدأ مرة أخرى من أجلي؛ ولم يكن من فائدة السّؤال عن معنى أي كلمة، لأنه يمكن أن يقول فقط «إنه شعر» ويندفع مرة أخرى في وسط جدول بيد واحدة على غرة حماري والأخرى ممتدّة في الهواء، وقد امتلأت عيناه الكلبيتان البنّيتان ببهجة، والتفّت ضفائره الصّوفية بشكل رزين في كعكة شعر على مؤخرة عنقه، مقدماً أكثر مقارنة بيتية نسائية مسلّية بجذعه الصّغير العاري القوي.

غادرنا حِمِم عند الواحدة والرّبع وتبعنا طوال بعد الظّهر الوادي الذي له الاسم ذاته، عبرنا فقط كوخاً واحداً على اليسار عند سفح انهيال يدعى القدوم[1] Ankedun وهو مكان موحش. ولكن فور تسلقنا العقبة، أو ارتفاع فوقه، أصبح الحِمِم الأعلى جميلاً ومقفراً، بأشجار وصخور أعظم وأكثر في قاعه الضّيق.

بقي الطّريق مرتفعاً ومنفتحاً، إلى أن ضاقت مرة أخرى شقوق الوادي تدريجياً فوقنا، وحجزتنا داخل جدران أبدعت خضرتها الثّرّة منظراً طبيعياً مُبهراً لا يُرى إلا في الصّور. لم يكن ثمّة دُور، بل يقطن بعض رجال حذرين في كهوف مبثوثة في كل جنبات الجُرف، ويحكي الكثير عن قوة الدّولة وكيف أنّ المسافرين لا يتعرّضون للسّلب في مكان يمكن أن يكون الهجوم فيه سهلاً جداً والكشف صعباً جداً.

التفّ وادينا يساراً، ونمَت الأشجار بشكل أطول، والأجمات الخضراء أكثف، والجدران التي ضلعتها الرّيح وخشنها الطّقس أعنف في طبقتها المنحدرة عندما ضغطت علينا مباشرة. وضغط الطّقس العاصف على الجدران بشكل مباشر أكثر. قابلنا مجموعة واحدة من المسافرين، وهم أناسٌ من الخريبة في دَوعَن في طريقهم

---

(1) هكذا تبيّن لي الاسم حسبما ذكرته فريا.

للهند، وفتاتان بدويتان نحيلتان صغيرتان حول زاوية، ركضتا نحو عازفنا وألقتا التّحيّة عليه، واتضح أنهما أختاه.

كنا طوال الوقت نتسلق الجبال في طقس غائم، قالوا أنه يحدث غالباً قبل الدّخول إلى جو الجُول. كنا قريبين جداً منه الآن، وأصبحت جنبات الوادي أقل عمقاً؛ وبدأ يختفي نوع من النّبات تلو الآخر كلما اشتدت قسوة الجوّ حتى أتينا في النّهاية إلى حواف مناكب جبل مكشوفة تمتدّ فيها الأرض ذات الحجارة المبعثرة نحو الأسفل باتجاه البحر. كانت السّاعة تقارب الخامسة، والجو بنّياً ومكفهرّاً بالغيوم، وكان كور سيبان ذاته عن يميننا، إنما يتوارى في السّديم.

صاحوا بي: »الكور، الكور« لأن شعورهم تجاه جبلهم وموطن أسلافهم أسطوري، مثل ما يمكن ليوناني أن يشعر تجاه أرواح صخوره وهضابه.

كنا الآن في قلب مدينة قبيلة المرشدي تماماً والتفقنا يساراً وقليلاً أسفل تلة إلى حِسي، حيث كان لديهم حقولٌ وبضعة أكواخ في رأس الوادي المكشوف قليل العمق، حيث كنا ذاهبين لننام.

ركض سالم وسعيد الثّاني ليحضر حبالاً من قش. تابعنا السّير في القاع المائي – وهو جافّ الآن – ومكشوف مثل طريق مرصوف بحجارة ومحاط بأشجار؛ وخصوصاً القَرَض، التي تشبه السّمْر ولكنها أقوى، بلحاء متجعّد، وتنمو في أماكن أكثر انكشافاً وعلواً. كانت الحقول قد طُوّقت إما بصخور أو أشواك، لتجمع الفيضان عندما يأتي من الجُول وقبل أن يندفع في قنوات الوادي؛ وهو لا يأتي كل عام، ولكن عندما يحصل ذلك، يسرع المرشديّون في حِسي لبذر البذور وجمع حصادهم.

لديهم بعض أكواخ مربعة في هذا المكان المكشوف، وضعنا أمتعتنا عند البيت الذي يعود لمريم أخت سالم، وهي عروس منذ سنة بثياب سوداء، وهي ذاتها سمراء قاتمة مثل أبنوس بعقد وسوار فضي بلون الرّمل. كانت جميلة بسبب شبابها ونحولها، ولها عينان مثل عيني أخيها النّاعستين الوديعتين. وقفت مبتسمة عند إطار الباب

وحملت طفلاً نحيلاً حزيناً منفرج السّاقين على وركها، بينما تجمعت نساء أخريات من البيوت في الجوار.

بُني سقف من أوراق نبات في جانبٍ محميّ لأحد الأكواخ، وامتدّت دائرة من حجارة عبره لما يقارب ثلاثة أقدام علىً الأرض. كانت تُدعى المقعد أو مكان جلوس - يجد الشّخص في العراء أماكن تجمّع مثل هذه هنا وهناك بمركز مرتفع من الأرض. نزلنا قربها، ووُضع سريري على مقربة. حضّرنا قهوة - مزيج شاحب من قشور الحبّ مع زنجبيل - كريهة ما لم تتذوقها في ليل الجُول البارد، حيث يعتبر دفئها مهدّئاً لأشخاص يرتدون ثياباً باللون النّيلي بشكل رئيسي. كان الهواء العالي هنا في حِسي بارداً ورطباً بما يكفي لجعلها مرحّباً بها. احتشد رجال القبيلة، أولاد إخوة وأبناء عمومة، ليساعدونا ويشتركوا. ذُبح واحد من ديكتنا الصّغيرة البائسة ودُفن في طبق الأرز. كنا متلهفين لأكلها بسرعة، لأنها من الممكن أن تموت في أية لحظة ويصبح أكلها محرّماً بسبب كون رقابها لم تُذبح باسم الله؛ كانت سابقاً قد كفّت عن الاهتمام بشؤون هذا العالم، وراحت تنظر بعيون زجاجية في الفضاء بينما نشر جنودنا علفها الشّهي من الدُّخن أمامها. اجتمع حول النّار جمعٌ من رجال سُمر البشرة، حيث كان سعيد يصبّ الفلفل الأحمر الشّهي في عشاءنا.

كانوا أشخاصاً ودودين، يرتبطون بين بعضهم بصلة القربى، وكانوا متشابهين جداً. الأفواه الكبيرة ذاتها بشفاه متدلّية، حواجب شبيهة بالجناح ووجوه طويلة. ولقد ربضوا وتناقشوا عن حركة السّير للطّريق العام، الذي هو تحت سيطرتهم بين المُكلّا ودَوعَن. وقد تحدّثوا عن بندقية سعيد الثّاني الفرنسية ومسألة الأسعار بشكل عام. كان قد دُفع فيها 3 جنيهات و15 پنساً وسعر خراطيشها d½4. للواحدة، أي كل أربع منها بطالِر. واعتبرت الخناجر وأغمادها كمواضيع منفصلة، اعتبر خمسة عشر طالراً (جنيه وپنسان) للأول، وخمسة وثلاثين (جنيهان و12 پنساً) للثّاني سعراً جيداً. كان غمد سالم فضياً كبيراً ويساوي ثلاثين طالراً، لكن سكّينه كانت ذات حد سيئ، وقُيِّمت بخمسة فقط من قِبل الرّفاق؛ في حين كان لدى سعيد الثّاني غمد متواضع بسكين

رهيبة داخله تساوي ثلاثين شلناً، وقد أشهرها وأدارها بمحبّة في ضوء النّار، مجرّباً إياها بلطف على ضلعه الممتلئ. تركتهم يثرثرون ويدخّنون، واستقرّيت في فراشي لأكتب وأنام.

بدأنا في الصّباح التّالي عند السّاعة السّابعة والرّبع. كان الشّروق رقيقاً، والحرارة 56°. انحنت جارة مريم خارج كوخها تطحن ذُرة للخبز، سحقته بمدقة حجرية في حجر فيه تجويف طفيف. وقفت مريم تراقبها وابنها النّحيل على وركها؛ نظر إلينا بعيون حزينة وحكيمة مثل عيون حيوان، واستدار فجأة وضرب بقبضتيه على صدر أمه كما لو أنه يُنكر هذا العالم الحزين وظاهرته الغريبة.

قالت مريم خجلة وفخورة، متحسّسة بين طيّات ثوبها: «يا بني». رضع الطّفل، واستعاد اتزانه على الاقل بأحد عناصر الحقيقة في عالم قلق، ونظر إلينا شزراً، بنظرة حزينة ولكن غير مبالية، كونه حظي بما أراد ولم يعد بإمكانه تخيل ما وراءه – وإذا لم يكن ذلك ما يجعل شخصاً ما غير مبالٍ فما الذي تراه يجعله كذلك؟

أعطيت مريم بعضاً من أشياء صغيرة كانت معي كهدايا؛ لم يكن المال متوقعاً؛ راقبتنا ونحن نغادر، مبتسمة في نور الشّمس.

أبديتُ ملاحظتي لسالم الذي مشى قرب حماري: «إنها جميلة ولطيفة».

رفع ذقنه بطريقة أخوية.

سألت، معتبرة إياه أنه في الثّامنة عشرة من عمره وكبيراً بما يكفي ليكون له زوجة: «متى ستتزوج أيضاً؟».

قال: «لقد تزوّجت، مرتين، ليس لدي حظ مع الزّوجات».

سألتُ: «لماذا، ماذا حصل؟».

ابتسم بخجل، كما لو كانت نكتة، كونه يعلم مشاعري حول الفلفل: «الأولى تركتني. لقد كان هناك الكثير من الفلفل في الأرز؛ قامت مباشرة وغادرت».

«وماذا عن الثّانية؟».

قال سالم: «آه، لقد كانت متمرّدة» أضاف بحسرة: «لقد خسرتُ كثيراً».

هل كانت الخسارة لقلبه أو جيبه لم أعرف، ولكنني نظرتُ إليه باحترام، وفكرت أنه لا بدّ مع ذلك أن يكون أكبر بقليل من ثماني عشرة، ليكون قد تخلّص سلفاً من زوجتين.

* * *

الفصل التّاسع

الجُول

«كان مالفوغـاس يعيش حياة غير نباتيّة، وكانت الأشـجار التـي هناك تعوّدت على الصّمت... تحت ستار الأشخاص الرّقيق... يخفق جوف الدّنيا».

(ثعبان النّجوم)

يتـم عـادة تجاهل الجُول من قبل المسـافرين كقطعة من برّيّة مملـة، فهي عبارة عن هضبة فيها امتداد مسطّح قاسٍ، يتساوى فيها عدم احتمال الحرّ والبرد، ويكاد لا يوجد فيها طعام وماء.

بالنّسبة لي لم يكن الأمر كذلك. فالجُول يمتلك فتنة السّحر والرّهبة في اتساع ليس فقط في مسـاحته، ولكن في زمنه. عندما يرتفع الشّخص لمستواه المشمس، فإن عالم البشـر يضيع؛ والطّبيعة وحدها في عمل، فيـه نحت جغرافي في أزمنته الألفية، جعلت هاويتـه الدّنيويـة مرئية في الحجر. وطأنـا على ذاك النّجد أراضي البحـار القديمة التي ربما ارتفعت وغاصت ثم ارتفعت ثانية، ولكن كم من المرات؟ أصدافها هي التي تمتدّ فـي محيطـات لم يبحـر بها أحد، قبل بـدء الخليقة. وقد ارتفعـت 7000 قدم وأكثر في ضوء الشّمس. تحجّر قاع البحر بحجر كلسي؛ وهي تمتدّ الآن نحو الشّمال والجنوب في مساحات حجرية مشرقة. وعلى مادتها المرتفعة ما يزال الحت يعمل فيها.

قطعـت آلاف السّـنين المناكـب العموديـة لكـور سـيبان، وكالعادة، واحـداً خلف

الآخر، كأجنحة حصن على طراز ڤوبان Vauban الفاصل المنفرج في أسفلها وحولها، مخطط خطط لسلاسـل جبلية مستقبلية، أبعد مما يمكن أن تراه العين، أعطت لمسات الإزميل الأولى لما سـيكون من منحدرات ووديان، وما زالت تعرض الرّوابي مستوى البحر القديم وهي التي لا تزال قممها مستوية ومتشابهة الآن، ولم تتوسّع بعد المضائق الجبلية التي سقطت سوداء مثل زنازين خارج أرض النّجد.

تقـع هنا المنطقة الضّحلـة لتجمع الأمطار الغزيرة، والتي تجـري مياهها هنا وهناك باحثـة عن أضعـف منفذ، فتنحـت مقاديرها المتزايـدة الممرّات الضّيقـة المتهدّمة في أسـفله؛ وهـي هنـا تجاويف صغيرة شـاهقة كقمة قمع يندفـع الماء منها إلى الأسـفل. وتتقارب الأرض مثل مدرّج مسـطّح قليل العمـق، إلى رؤوس هذا الوادي في طبقات منظّمة بشـكل غريب جداً بحيث تبدو مثل أساسـات جدران مبنية من حجارة مفككة. ولكنها ليست غير ثابتة؛ رغم أنها نحتت بفعل الرّيح لتشبه صخوراً منفصلة، وستجدها ثابتـة هنـاك بحوافٍ قائمة بالرّغم من مضيّ الزّمن وهي جزء من صميم الجبل؛ صقلت طريـق القوافل الذّاهبة إلى ارتدادات بعيدة من الماضي شـريط صخور زلق على ذلك السّطح الوعر، حيث خربش أعراب منسيّون أسماءهم على نعومته المصقولة.

ويبدو أن تقدير الزّمان بسـنين البشـرية في هذا الارتفاع الواضح أمرٌ سخيف، حيث تقوم القوى الأساسية للأرض بالبناء. يندر وجود النّباتات القصيرة المؤقتة بندرة تفوق نـدرة الرّجال الذين يمرّون في أجيال عابـرة، ولا يتركون أثراً أكثر مما تتركه ذبابة على يـد حِرفي ثابتة أثنـاء عمله. ولقد أصبح تاريخنا وأصولنا مخفيـة تقريباً مقابل الارتفاع البطيء للجول. ويمشـي البدوي فقط فوقه عارياً وغير مبال بروح متحرّرة من الأعباء، وهو الذي ليس لديه ما يخسـره أو يخافه مثل «فراشـات تحت قوس تيطوس Titus»، وهو يعلم مراعيها القليلة، ويحب حرّيتها اللاإنسانية.

تسـلّقنا نحو هذا النّجد المهيب والعقيم باطّراد من حِسـي، ونظرنا خلفنا إلى المسـطّح في المنخفض نحـو حِمِم، وإلى الصّدع المحجوب الـذي طوّق رحلة يوم أمـس. وعندما ارتفعنا كان أمامنا عـن يميننا، أقرب من قبل، نتوءات جرف ضخمة من

كـور سـيبان، بارتفاع 2,150 متراً، بدت سـتة منهـا ضاربة للحُمرة، ناتئـة من الانحدار الشّديد، بقمم مستوية؛ أقرب مثل متراس منفصل، وقفت الكتلة المشابهة لجبل مطر أو أمطار، وفصلت بشق عن البنية الأساسية. وشُق طريقنا بين الاثنين، وقد طوّق حفرتين صغيرتين تشـبهان القمع وتشـيران لرؤوس وادي ثِمنّة وحَرَم، بشجر سَمْر ملتوٍ، قليل ومنحن، حتى أتينا إلى حيث تقف واجهتا جرف كالبوابات لمعبد مصري.

دخلنـا هنا، بمشـاعر خـوف فطرية، في أعلى شـعاب البلاد، ووجدنا فيها ملجأ، وسـط صخور مضطربة، ومرّة أخرى أشـجار وجدران خضراء. بنـى هنا البدو بدافع ديانة المكان الفطريـة مقامـاً وقبـراً لجدهم، الشّـيخ Amtar، وهو عبارة عن مكان مسـيج بسـيط مطلي بالأبيـض، وقبّـة في عمق الـوادي. ويجتمع فيه أبناء قبيلة المرشـدي وأقربائهـم في الثّالث عشـر والرّابع عشر من شهر رجب ويشوون خرافهم وينامون على طول أرض الوادي. ولا يزال رماد نيرانهم واضحاً. مرّ الدّكتور هِلفريتس[1] Helfritz قبل سـنة أو سـنتين في وقت الاحتفال، ولكنه كان مرتبطاً من قبل، ويقول بأن البدو تلاعبوا بفكرة قتله. أما بالنّسـبة لي، وبسـبب ندرة ما تمنّى أشـخاص قتلي فيما مضى، فقد أسـفت بأننا لـم نسـتطع التّوقف عند نار مخيّم لنا لنسـاهم في تكريم الجدّ القبلي، وأخبرتُ سـعيداً بأنه من الممكن أن أزوّدهم بخروف الأضحية فيما لو أتينا مرة أخرى في الموعد المناسب.

ترجّلتُ من فوق حِمل حماري في برودة الشِّـعب اللطيفة ومشيت، وسمعت لتوي صوت سلاحنا ينطلق خلفي ورأيت عازفنا يقفز فوق الصّخور مثل كلب الصّيد بأسرع ما اسـتطاع. لـدى البدو في الواقـع طريقة في لَـيّ الرِّجلين عند الرّكض، وهي سـريعة ولكـن ليسـت جميلـة مثل حركاتهم الأخرى، ولا شـيء مثل تلقائية واسـتقامة شـاب إنكليزي.

---

(1) هانز هِلفريتس (1902-1995) رحّالة ومصوّر وصانع أفلام ألماني، ترك بلده ألمانيا في عام 1939 حيث عُدّ عدواً للحزب النّازي، وقام بأسفار ورحلات عديدة كان بعضها إلى حضرموت في اليمن وكان في سباق مع رحّالتنا فريا ستارك على الوصول أولاً إلى شَبوة. وقد حصلت على كتابين له يخصّان وصف رحلاته في اليمن: *Land ohne Schatten* «بلدٌ بلا ظلال»، والآخر: *The Yemen: a secret journey* «اليمن: رحلة سرّيّة».

أعتقـد أن هذا انكماش طبيعـي لأقدام حافية عن الحجـارة تجعلهم يمضون بحذر شـديد وينحدرون في ركضهم بخفة تشـبه خفة القط. كان سـعيد الثّاني يطوي الأرض بسـرعة كبيرة، بينما سـعيد نفسـه، مبتسـم والبندقية في يده، أخبرني بأنه أصـاب الوَبْر Wabar وإذا استطاع العازف الوصول إليه قبل أن يموت وذبحه باسم الله، يمكننا أكله على الغذاء.

بدا جندينا مشمئزاً ومصدوماً. قال: «لا أحد يأكل الوَبْر».

سألتُ: «أليس حلالاً؟».

قال سعيد: «بالمرّة ما هو حلال، الأشخاص الآخرون لا يأكلونه، ولكننا نحن البدو نأكله. إنه لا يتغذّى إلا على العشب».

ظهـر الآن الحيـوان الصّغيـر، متدلياً من يد سـعيد الثّانـي برقبته المذبوحـة مرتين، مرة بفعل رصاصة، ومرة باسـم الدّين؛ ولقد ظهر لجهلي كنوع من مرموط بفرو يشـبه الجـرذ لكنه أنعم ولونه رمـادي أدكن من ذلك الذي رأيتـه يصفّر على صخور هضاب البيمونتِه Piedmont والذي يأكله سـكان الجبل. وكنت اكتشـفت فيما مضى بأنه كان أرنـب الصّخـور. ومهما يكن فقد شـعرت بأن الغذاء سـيكون ألذ من القـرش المقزّز، ووعد سـعيد بـأن يجفّف رأسـه ويحفظه لي كعيّنة. لقـد كان فخوراً تمامـاً كونه حظي بحيوان صغير جداً ببندقية على بعد مئة يارد أو أكثر. اقترحتُ أنه من الممكن أن يكتب عنـه شـعراً، ولكنه قال لم يكن جيداً في شـعر مبـدع بما يكفي، لذا تكلمنـا عوضاً عن ذلك، واستعرضنا موت الوَبر في جميع معانيه، إلى أن خرجنا من الشِّعب والتففنا غرباً على القمة المشمسة للجول، المعرّضة للرّيح شديدة الارتفاع حيث تبدو وكأنها تعانق السّماء من حولها وفوقها.

بنيت عبر الميدان الواسع الذي لا يصلح للمعيشة أكواخ بغرفة واحدة على مسافات بينها، بخزانات مياه داخل الأرض دون جدران، حُفرت على مقربة حيث يقود منحدر الأرض مياه المطر إليها.

تُسمى الأكواخ «مربّعات» وذلك بسبب شكلها الشّبيه بالمكعّب، وتميّز مراحل الجُول. وصلنا عند السّاعة الحادية عشر والرّبع مربّع «بين الجبلين» (بين الهضبتين)، وبقينا هناك في ضوء أشعة الشّمس، بسبب عدم نمو أشجار طويلة. ولكن كان الهواء منعشاً ورقيقاً رغم نفاذ الحرارة فيه؛ وكنا عند نقطة الحدّ الفاصل.

كان كل ما هو إلى الشّمال منا، إلى يميننا ونحن نتحرّك غرباً، يمكن أن يتجمع في وادي حويرة؛ في حين يمتد إلى الجنوب، حَرَم وثُونّة أسفل منا، نحو الجنوب الشّرقي جبل عَنعَنة على طول طريق صعودنا؛ أو الوديان الأخرى في الجانب الأيسر والتي قدمنا إليها، يمكن أن تسيل إلى الجنوب الغربي في وادي حجر - طريق شَبْوة وقَنا القادم من البحر. استطعنا رؤية جبل عقيبَر في الجنوب، الذي يفصلنا عن المُكلّا والسّاحل؛ ونَقش محمّد فوق الجنوب الغربي للحَجَر في البعيد. يمتدّ الضّوء «حيث ملكة الألوان» عليها كلها، وخطوط قلم من ظل حيث اختفت الوديان عن النّظر في صمت شامل، دون وجود لصوت طائر أو حيوان؛ تعانقت فيه الأرض والشّمس، وسحاب ساكن بعيد لغيمة مثل أعمدة فوق البحر المحجوب، حيث أشرف عليها وحده.

طُبخ الوَبر بأرز، وتبين أنه قاسٍ جداً حيث كان من المستحيل القول إنه كان له طعمٌ محدّد. ارتحنا لكي نهضمه حتى السّاعة الثّانية و35 دقيقة، ثم انطلقنا على طول مجمع الأمطار.

مشينا بما يقارب الثّلاث ساعات على طول المستوى الأساسي الأهم للجول. نَمَت هنا نباتات جديدة مع بعضها بلون الأخضر لامع الذّرار dhorar، والدّويلَة الموجودة في كل مكان في الأسفل؛ والصّبر أو الألوة، الذي يُصدّرونه، ونباتات kaidah; qurith; shighle; ra; كي تُغلى أوراقها لأغراض طبية؛ وفي القرب شجيرات تدعى دني deni، التي تبدو أنه يقصد بها صباراً، ثم تقرّر أنها شوك، تحمل في سوقها نسغاً لبنيّاً يستخدمونه للصق نِعال صنادلهم.

نَمَت هذه الشّجيرة في كل مكان؛ وكان لها في المستويات الأخفض أوراقٌ صغيرة

انتشـرت كنجمـة عند نهاية كل غصـن؛ لكنها ظهرت علـى الأرض المرتفعة فقط مثل نمـو متشـابك للغابة، بلون رمادي باهت ولبّ رمادي داكن، شـبيه جـداً بالمرجان في جمال مسـتحاثاته حيث يشـعر المرء أنها تذكّر بجلاء بأرض المحيط التي دسـنا عليها فـي الحقيقـة. ولا تزال تنمو هنا بضع أشـجار القَدَح ملتوية، ولكـن لم يكن هناك وقاء كافٍ لها، لذا كنا في العراء، حيث لا يوجد شـيء بين السّـطح المكسو بالحصى أمامنا وبين الهند. فطفقنا نسير ببهجة الحرية.

«تتحـوّل الـرّوح هنـا إلى أسـد، وحرّيـة تعنـي أن تمتلك وهي السّـيادة فـي قفارها الخاصة».

«لمـاذا هناك حاجة للأسـد في الرّوح ؟ لمـاذا لا تكفي بهيميـة الواجب التي تهجر وتظل محترمة؟».

«لتخلـق لنفسـها حرّيـة من جديـد، حرّية تسـتطيع أن تكون قوة الأسـد التي تفعل، لتفترض حقها بتقييم آخر، تلك الفرضية الأكثر هولاً لحمل ثقل مع روح موقّرة».

تحدّث بذلك زرادُشـت، وربما وجد في كلماته سـرّ القفار. إذ أنها تتيـح لنا النّظر لبرهـة إلـى عالمنا من موقع التّجـرّد المنعزل، كي نقـدر قيمتنا، ونحكـم عليها مجدّداً بوجـود أشـياء تـكاد تكون أبديـة. نسـتنكر بعضها ونتمسّـك بالبعض الآخر لأنفسـنا، ومهما كانت نتيجة تقييمنا، فهي لا يمكن أن تكون دنيئة ولدت هكذا تحت عين الزّمن المهيبة، ونعود بخطوات أثبت إلى قلب عالم البشر العام.

انحدرت عن يميننا ويسارنا دوامات مفاجئة لرؤوس الوادي ثم انخفضت وتلاشت فـي وديان غير منظورة. دندنت الحصوات القاسـية للجول تحـت أقدام حميرنا. ولقد هرولت أيضاً من تلقاء ذاتها، أو ربما دخل شـيء من الأسـد في أرواحها أيضاً، وذلك لأنها راحت تجلجل أمتعتها ويشمّ بعضها كعب الآخر، وتهزّ آذانها.

وبالنسـبة للـرّوح الموقّـرة لا يمتلـك أيّ حمار ذلك حتـى ليبدأ بـه؛ ولكنها تابعت تأملهـا لنفسـها، وإذا فعل أحد ذلك فيمكن لشـخص أن يفكر بمـا يحب، وبمعزل عن

بقيـة العالـم؛ وذلك ما فكرت به وأنا أنظر إلى رقبة «سـويدي» الصّغيرة القوية، وأكتافه التي تتمايل أسـفل مني ومن حمولة أمتعتي، ربما يكون مع ذلك أحد الأسـود ولا أحد يعلم عنه أيّ شيء.

كان البـدوي والجندي خلفي يشـتركان بأغنية حرب. وقد هرولا بخفّة مع أسـلحة في قبضتيهما، غنّى اثنان منهم نصف شطر وأكمله الاثنان الآخران بخاتمة قوية قصيرة صـادرة مـن البلعوم؛ وكرّروا ذلـك مراراً وتكـراراً متجاوبين، وهـم يركضون في هذه الأثنـاء؛ بدأتُ العـدّ لهم، بعد وقت، ولقـد كان هناك 130 إعادة بينهـم قبل أن يتوقفوا بصرخـة. ولكن لـم يغنِّ الفلاح الفقير الذي انضمّ إلينا الليلة الماضية في الرّاش Rash وقد تخطانا الآن، وقال بأنه كان عربياً وليس بدوياً.

وهكذا انقضى الوقت، وكانت لدينا حالياً إرباكات أخرى في لقاءات على الطّريق. التفّ مواطنون إنكليز بشـالات وعمامات بهيئة ثرية على ظهور حيوانات مغطاة، مع جندي عبد أو اثنين أمامهم، على المراحل الأولى للرّحلة الطّويلة من داخل حضرموت إلى سنغافورة أو باتاڤيا[1] Batavia. قبّل الجنديّ الذي معي والعبيد الآخرون بعضهم عندما التقوا، وهم يحملون بنادقهم خلفهم. علمنا من هؤلاء الأشخاص بأن قبيلة السّموح[2]، والتي هي على جـزء من الجُول الـذي اقتربنا من الدّخول إليه، قد نهبوا في ذاك الصّباح من مسـافر حماره وسـلاحه. كانت هناك صداقة في الوقت الحاضر بين المرشـديين والسّـموح، لذا لم تكن حميرنا في خطر، ولكن الرّجل الآخر كان ينتمي لقبيلة معادية، وقال سـعيد: «للسّموح كل حق ليأخذوا كل ما استطاعوا. ومن المفترض أن يكون الرّجل قد دفع ثمن سـيّارة Saiara (مرافقة) من القبيلة، ويمكن له أن يكون في أمان».

عـارض جندينا تلك النّقطة؛ كان يؤمـن بحكومة منتظمة وألقى علينا محاضرة ربما جاءت مباشـرة من جنيف؛ وقد لاحظت أنه تمّ الاسـتماع إليه بلا مبالاة مهذّبة من قِبل

---

(1) باتاڤيا هي مدينة جاكرتا الحالية عاصمة إندونيسيا، كانت تسمّى هكذا إبّان الاحتلال الهولندي لجزر إندونيسيا.

(2) السّموح من قبائل سيبان الحِميَريّة القحطانيّة في حضرموت.

البـدو الذيـن كانوا الآن يتحفّظون أكثر مـن قبل. ولكننا لم نرَ أحداً في المدى الواسـع سوى امرأة تجمع أشواكاً. انعطفنا شمالاً تحت سماء غروب باردة وصافية بغيوم قليلة زهريـة اللون، ورأينا خلـف انحدار متألق مربعات المثنى Mathana، حيث سـنمضي الليلـة. وارتفعـت خلفها في مثلـث دقيق تلّة تدعـى جبل مُلَح؛ جعلتها أشـجار قَرض قليلة في مقدّمة القمّة المسطحة التي تبدو مثل جبل فوجي ياما Fuji Yama في الهواء المنعش حيث ظهرت كل التّفاصيل.

وصلنا المخيم عند الخامسـة والثّلث؛ كان فيه كوخان وثالث مهدم، وشـجرة قَدَح قصيرة بينها، جعلتها منزلاً واحداً، وعندما أضرِمت نارنا ظهر صبيّ مبتسـم لم ندرِ من أين وقرفص ليشارك الوليمة. لم يحيّه أحد، وبدا وجوده بديهياً.

سألت: «من أين جاء؟».

«ربما من كهف. يعيش الرّجال في الوهاد».

لقد أكل وجلس معنا، واختفى في الظّلام، كما أتى.

في تلك الليلة كان هناك عشرة منا حول النّار، بما فيهم المسافرون الرّفاق من الرّاش Rash. كان الطّقس بـارداً، هبّت الرّيح مندفعة فوق الحجـارة ونفخت علينا دخاناً في عواصـف دائرية؛ ولـم تجعل الأوراق التي كانـت صغيرة جداً تهتز في الشّـجرة فوقنا وهي محاكة بشكل جيد وقريب من سوقها تمرّست على هذا الجو منذ ولادتها، ولكن البدو ارتعشوا بعريهم فلفّوا عليهم شالاتهم الخفيفة التي رُبطت فيها انتفاخات صغيرة بخيط أظهرت المكان المستتر للتّبغ والشّاي، أو السّكر.

جلسـتُ فـي عبـاءة مصنوعة من جلـد الغنم أعارها لـي مشـكوراً الكولونيل لايك Colonel Lake في عَدَن بارك الله اسمه، ونظرتُ بقلق إلى محمّد الصّغير، الذي سعل بشـدّة وبدا مريضاً حتى مـن خلال لونه النّيلي، بينما أقحم حطبـاً تحت المِرْجَل حيث يقبق عشـاءنا. حاولت أن أجعله يلبس ردائي الخارجي، ولكن وضعه جانباً بعد بضع دقائق. قال: «يمكن لشرارة أن تحرقه» وأضاف بأن: «اللون النّيلي أبقاه دافئاً».

كنت في اليوم الأول لتعارفنا قد أهنت هذا الإسپرطي الصّغير بتقديمي له صفّارة لعبة. وفي حِسي عندما أعطيت ألعاباً نارية للأطفال البدو، راقب محمّد ذلك بابتسامة، متسامحة لكنها مترفعة، في حين أن الأشياء البرّاقة اختطفها من يَدَيْ الشّاب وكان يدور بها في الجوار في الظّلام رجال ناضجون من القبيلة. لقد تجاوز محمّد ذو العشر سنين - أو ربما لم يصلها بعد - سنّ الألعاب، فقد كان دائماً يؤدّي حصته من العمل وينشر شوفان الحمير على خيش على الأرض، وقد اعتاد على فن السّفر أيضاً، فقد أكلوا بحذر، كي لا ينفخوا على العشاء بنَفَسِ مناخرهم. وتحرّكوا بعناية داخل وخارج أغراضنا المبعثرة، يراقبوننا في عشاءنا.

كانت جميع أعمالنا جزءاً من طقس مضت عدة قرون في اتقانه، فهو وحده يمكّن البدو من السّفر بانسجام خلال مشقات حياتهم. فهم يعاملون بعضهم بعضاً بمجاملة رسمية ضمنية، أصبحت طبيعة ثانية بحكم العادة؛ ولم أر أبداً أياً منهم يتجنّب عملاً قليلاً عندما يتطلّب القيام به، أو ينتظر الآخر لينهض ويقوم به بعد يوم شاق. عندما يفكر الشّخص كم هو صعب على صديقين أن يعيشا معاً في راحة محتملة؛ وكم نُشرت كتب السّفر بملاحظات مثل «هنا كذا وكذا وأنا انفصلت» تاركاً المزيد للمخيّلة - تستحق هذه اللطافة الودية للبدو أن تؤخذ بعين الاعتبار، وهي دوماً عند الحدّ الأقصى من الإرهاق أو الجوع. يمكن للمسافرين الذين يكونون مع خدمهم أن يجدوهم ميّالين لأن يكونوا مشاكسين و طمّاعين، وصعبي المراس؛ ولكن تقريباً كل أولئك الذين هم وحدهم معهم تجد لديهم رواية مختلفة ليتحدثوا بها.

يُقبل المنفرد بينهم بأخوّة قلبية ولكنها فظّة، تقلّ فيها الواجبات وتتعاظم الرّاحة المقدمة للغريب الضّعيف فيجلس الواحد في أفضل مكان متاح بعد يوم سهل نسبياً، الذي تكون خلاله راكباً وهم يمشون، وأنت تراقبهم في عملهم المرِح، وتدرك كيف يمتلك مجتمع البرّية قواعده وقيوده الاجتماعية، وقوانينه للحياة المحترمة تماماً مثل أيّ مجتمع رجال آخر.

كانت أمتعتنا قد رُتّبت في نصف دائرة حول النّار بعيداً عن الرّيح، وجلسنا منحنين

قبالتها، نرقب طبخ الأرز بينما يصنع سعيد كعكة من ذُرة وماء لتُعجن تحت الجمرات؛ كان الرّجلان الشّابان يطليان أفخاذهما بزيت طاولتنا المستخرج من جلد الماعز، وقد قالا بأنه شيء من المريح جداً فعله بعد يوم شاق. همهم سعيد في تلك اللحظة بأنّ هناك من يتحرّك في الظّلال، وكان سلاح سعيد الثّاني خلفه على عِدْل الخُرج، بكيس فوقه يقاوم الرّطوبة؛ التفت بلمح البصر، وكانت ساقاه المدهونتان بالزّيت كل واحدة على جانبي حقيبتي وارتفع السّلاح واستقرّ عليها كما لو كان على متراس. كان جندينا، حارسنا الرّسمي، قد ترك سلاحه في المخزن، وقيل له ألا يتحرّك، بينما طلب مني سعيد الاستمرار في الكلام كذي قبل، دون حركة إضافية أو صوت، ولكن عندما كنا نستعد للنّوم لاحقاً وُجد أنّ رَسَنَاً قد فُقِدَ. فعُدنا إلى عشائنا.

وضع سعيد سلاحه الآن وعزف لنا على مزماره؛ طُهيت فطائر الذُّرة على الجمرات؛ ثُبّتت أغصان صغيرة متوهجة بينما كانت تحترق، وارتفعت لآخر مرة والتوت في أعواد حمراء قبل أن تتحوّل إلى رماد، أو أن الرّيح أطلقتها في شرارات؛ ولمعت في الضّوء القاتم خناجر الرّجال المنحنية فقط، وظهرت النّتوءات المرصَّعة بالعقيق الأحمر، وأظافر سعيد الثّاني البيضاء على أصابعه ذات اللون النّيلي وقد لمس الثّقوب الخمسة لمزماره. لقد كان مزماره مصنوعاً من قصب شاطئ البحر، بُنّياً في إحدى نهايتيه ويميل تدريجياً إلى اللون الأخضر؛ لقد كان لامعاً من الاستخدام؛ وبدا كأنه يجمع في نغماته صوت الرّيح الدّائمة الخالية.

وعندما تركتهم وصعدت إلى سريري، تكلم معي صوتٌ من بين عِدل الخُرج بينما كنت أتلمس طريقي في الظّلام؛ لقد كان الفلاح الضّعيف من دَوعَن في حراسة لممتلكاته وكان متلهفاً ليتأكد بأني لست لصاً.

كان عليّ أن أكون ثابتة مع الجندي قبل أن أقنعه بأني نويت أن أنام خارجاً وليس داخل الكوخ. طلبتُ منه أن يضع سريري قريباً من الباب، ثم يمكن له وللبقية أن يناموا في الدّاخل؛ ولكن هذا الذي لن يفعله، وقد مدّد نفسه قرب المؤخرة بوجهه المسطح الأسود الذي يلمع في ضوء القمر. كان هذا فيما بعد، وذلك لأنني تركتهم جميعاً

يتكلّمون قرب النّار؛ وغرقت في النّوم قبل أن يسـبّب اكتشـاف سـرقة الرّسـن صياحاً وجدلاً وتحذيرات متجدّدة. لم ينم أحد كما ينبغي في تلك الليلة باستثنائي أنا، وكنت فـي أي وقت يصادف أن أسـتيقظ وأتفحّص مخيمنا الصّغير فـي القمر، أجد واحداً أو أكثر من الأشخاص مغطى بشال وهو يرتجف مؤرَّقاً قرب النّار.

* * *

الفصل العاشر
ليالٍ على الجُول

«الأرض، الكبرى، أرضنا، تلك التي بقيت ما بعد الطّوفان، وجفّت، وهذا كلّ ما في الأمر».

(ثعبان النّجوم)

استيقظتُ عند الثّالثة صباحاً، ونظرت لوقت طويل إلى قبة السّماء، كانت شفافة مثل ينبوع ضياء. غرّد طائر، ربما بومة من الظّلال، وسطع تألّقٌ عظيم شديد على عالمنا من الحجارة. وما زالت الرّيح تندفع عبر الشّجرة السّاكنة التي كانت أوراقها أصغر وأقسى من أن تنحني أمامها، لقد أظهرت عدوها السّريع من خلال غيوم بيضاء آتية من الشّمال والتي تلاطمت كالموج في الأعلى ثم تألقت لتُبتلع وتتلاشى في ضوء القمر. وومض الهواء شديد البرودة، وارتفع القمر عالياً، ولكن كانت السّماء الغربية المقابلة ناعمة تحت طريق من نجوم. هناك قادت الجوزاء وكوكبتها قافلة صديقة، بعيداً عن اللُّجّة البيضاء التي تغمس القمر المنعزل؛ فتحرّكوا على ديرتهم غير المأهولة بما يشبه موكب بهيج على نحو لا يوصف، جميل بالنّسبة لهم وحدهم في تجوالهم الليلي.

لا عجب في كون أهل الجزيرة القدماء قد عبدوا تلك الكائنات السّماوية؛ لقد بدا أنها قاربت في عبورها أن تلمس السّطح القاحل - الجُول، هنا، قريباً جداً من خط الإستواء حيث أنها مشت بشكل أسرع فوق طوق العالم الواسع. وجاءت توّاً مجموعة غيم هائلة وغمرتها؛ وأمطرت رذاذاً فوقنا حتى بزوغ الفجر.

عقب ذلك بدأت المشـاكل، لأن كلّ واحد كان متعباً ومبللاً بعد الليل المضطرب، وقارب السّـكّر لديّ على النّفاذ، لوضع الكثير منه للأشـخاص الذين حضروا أكثر مما جهّزناه في المُكلّا. لم يسـتطع سـالم تحمّل أن يتركني من دون سكّر، وسرعان ما ظهر ومعه كرة صغيرة رُبطت في شـاله. ولسـوء الحظ لم تكن له، كانت تعود لأحمد باقرط الصّامـت، الذي اعتـرض، ولكنه زُجِر من قِبل الجميع؛ قالـوا لا يمكن لأحد أن يتذمّر على قليل من السّكّر لسيدة كانت ضيفة كما كانوا.

فـي الحقيقة، لقد كانوا هم ولسـت أنا من رغب بإضافة الحفنات منه في إبريق الشّـاي. وربما هذا ما شعر به باقرط. مشى لوحده بقية النّهار، عاجزاً عن الدّفاع عن حقوق الملكية. وكانـت ملاحظتـه اللطيفـة التي اعتاد الهمس بها حسـب ما سـمعت من أقوالـه كلها، كان يهمس: «إنّ البدو مسـرورون بك»، كلما آتي ضمن مدى السّمع، بحالة مدير يسلّم شهادة. لقد أسـفت لسُـكّره، ولكني شـعرت بأنه استهلك الكثير من السّـكر الذي كان معي. جعلنا الشّاي نشعر جميعاً أننا أكثر صداقة. كانت الحرارة قد ارتفعت عند السّاعة السّادسة صباحاً إلى 53°. وبدأنا مسيرنا عند السّابعة والنّصف قليلاً نحو الشّمال الغربي باتجاه جبل مُلَح.

بدا الجُول هذا الصّباح بُنيّاً مثل دارتمور Dartmoor وتابعنا لنشـاهد الوديان تنثال: علـى اليسـار، وديـان صيـدون Wadi Sidun وTrumwe وبلي Beli مـن القُمرة على التّوالي، حَسا وسَرَب، تنثال كلها من قبل في وادي حَجَر؛ على اليمين وادي شِري من جبل مُلَح ينزح إلى حويرة، واديا كنون وبقليت، من حَسـا، وغار ثبي من سَـرَب، ينثال في وادي الأيسر.

سـيكون من الممكن مشـاهدة كيف انثال مجمع أمطار الجُول من كور سيبان إلى دَوعَن في أربعة أنظمة كبيرة؛ حِمِم مع حَرَم ويفيض ثُوِنّة شرق المُكلّا إلى البحر؛ البقية من المنحدر الجنوبي لمجمع الأمطار ينثال إلى حجَر؛ متجمع الأمطار الشّـمالي ينثال أولاً فـي وادي حويـرة إلـى أن نصل جبـل مُلَح، بعـد ذلك يفيض كل شـيء في وادي الأيسـر، الـذي يسـقط بدوره فـي الجزء الشّـمالي من دَوعَـن، ومن ذلك المـكان إلى الدّاخل من وادي حضرموت.

ولـدى عبورنـا رؤوس تلك الممرّات، وانحرافنا مثل النّمـل الذي يأتي في الصّيف إلى شـقوق في الأرض ويلتفّ بالقرب ليراوغها، اسـتطعنا مشـاهدة عمليات الانهدام في وادٍ، وازديادها في التّركيز الحاصل. وكما يجري معنا، فإنّ ما يؤدّي إليه في البداية غالباً مصادفة غير محسوسة، انخفاض غير مرئي في الأرض. تجتمع مياه المطر بفرض الجاذبية، وتندفع إلى الأسفل وترزح؛ ويبدأ الحتّ في التُّربة القاسية؛ ويأخذ الانحراف يميناً أو شمالاً؛ وتصبح قوة الماء المحبوسة في جدران لا تُقاوَم وتقطع طريقها هادرة منتصرة؛ ويُخلق هدف وتتحدّد الجهة إلى الأبد (أو على الأقل لأمد طويل).

ورأينـا هنا أيضاً كيف تُصنع الأعمدة الهائلة التي تدعـم الممرّات الأكثر انخفاضاً، خُطّـت بفعل سـواقٍ صغيرة تجري أسـفل الجوانب من القناة الرّئيسـية، تأكل الأجزاء الدّاخليـة وتترك الصّخر ناتئاً بينهـا. ويُقتطع المنظر الطّبيعي مثل تمثال اقتُطع من قطعة رخام، وتنتشر سلسلة أحداث على طول فترات من الزّمن. تصوّرت عندما كنت أمتطي الدّابـة، أيّ مَـدٍّ وجَزر غريب غسـل في البداية هذه المواد مـع بعضها، بعيد ومتضارب مثـل أفكاري الخاصـة، التي نُقلت من أماكن بعيـدة إلى هذا الفراغ غير العاقل نسـبياً؛ في شـظايا مبعثرة ورِثـت من اليونان أو بابل Babylon أو الغابـات القوطية ويعلم الله العوالـم المخفيـة إضافة إليه. لقد كانوا هنا نشـطين في مكانهم كمـا لو كان الجُول هو المكتبـة Athenaem، أو أي مـكان مشـابه حيث يعتقد النّاس وجود أشـباح غير مرئية حولـي عندمـا سـرتُ بالدّابة - وربما معهم بعـض أصداء تأمّلات السّـبئيين التي لا بدّ أنها سـافرت فوق وأسفل هذا الطّريق في الأيام القديمة. هذا العالم فسيح جداً، ورائع جداً، ويدهشـني باسـتمرار، بأنّ على العقل البشري أن يكون واسعاً بما يكفي ليدركه، وربما كذلك فإن مهمتنا الأكثر أهمية هي مهمة التّفكير. يعيش البدو الذين ينتمون إلى طبيعة متردّدة على نحو غير واعٍ مثل الحجارة تقريباً، ولكنّ المسـتقبل في أيدينا بسبب ما نملك في إدراكنا المتعب.

اجتزنـا مربّعـة قُمرة، حيـث بدأت أرض بنـي سـموح، وأتينا بعدهـا لتلك الأرض التّابعـة للحَسـا، ووقفنا فجأة على حافة الجُول الأعلى ونظرنا إلى سـطحه المنبسـط،

تلك الرّفوف في أخاديد دقيقة في الشّمال البعيد خارج الرّؤية. ركضت سحالٍ صغيرة بالقرب من هنا، بحنك أميركي قوي، وأذيال مستقيمة في الهواء؛ سمّاها سالم: زومي.

كنت وقتها ألتقط صوراً من دون أن أترجل عن حماري. ساعدني سالم عن طريق تثبيت رأس الحمار، وغيَّب منخريه في كرشه (معدته)، ليمنع تنفسه من هزّي. ومن الواضح أن سويدي الحمار، لم يستمتع بالتّصوير. وسألتُ سالم في إحدى تلك المحطات لماذا لا يتابع معي هو وسعيد في وادي حضرموت بعد دَوعَن.

قال سالم: «سنفعل بكل سرور، لن يكون هناك صعوبة في الذّهاب، لأنك ستكونين معنا، والعبد الذي يمثل الحكومة. ولكن سيكون علينا العودة وحدنا، ويمكن للقبائل الأخرى أن تنهبنا».

«ربما عليكم أن تتابعوا الى شَبْوة ومن ثم تعودوا معي».

قال: «لا، يمكن أن يكون هذا مخيفاً لنا. فنحن لا ننتمي لتلك المدينة».

«وهل يمكن أن تأخذوني في أي وقت إلى الأسفل في الجنوب الغربي إلى حَجَر ومَيفعة؟».

قال: «لا، لا نحب الذّهاب إلى مَيفعة».

«هل هناك حربٌ بينكم؟».

«أوه، لا، ولكننا لا نحبّهم. سوقنا هو المُكلّا، ونسافر بين المُكلّا ودَوعَن».

يُعتبر هذا الاتحاد التّجاري الصّارم للقبائل إزعاجاً كبيراً للمسافر، والذي لا يسمح للبدوي أن يتنقّل في أيّة منطقة باستثناء منطقته؛ فهو يخسر مرشده عندما يصبح مفيداً تماماً.

وصلنا مربّعة سَرَب عند الحادية عشرة والعشر دقائق وخيّمنا لتناول الغذاء. كانت الحرارة °70 في الظّل، والميزان اللا سائلي aneroid 24.1. بُني المربّع، بمساحة تقارب 16 × 20 قدم، بخط يصل حتى 3 أقدام من الطّين والحجارة التي تميل إلى

الضّخامة، وفوقها حجارة صغيرة مسطّحة مدمّجة بطين يقسو في الشّمس ويصبح مثل الإسمنت. تلك المساكن موجودة كلها بتصميم واحد، وهي ليست أكثر من ارتفاع 6 أو 7 أقدام، لذا فعندما يخيّم أحد ما تكون حافة السّقف المستوي مفيدة كطاولة لحفظ الأسلحة والشّالات والملحقات بعيداً. مُدّت على الأغلب حجارة من برك المياه القريبة منهم لتوجّه وتجمع ماء المطر.

أظهر مبنى لطيفٌ من طين وفي فجوة أيضاً برجٌ مغلق ومهجور مبني من الطّين قريب في واد أسفل منا بأنه كان هناك نبع، وهذا يعني أننا كنا نقترب من نهاية الجُول.

عندما جلسنا، لاحت قافلة جمال وعبرت. تريّث البدو لدقيقة لتبادل الأخبار، ثم قبّلوا أيدي بعضهم وساروا خلف دوابهم. لاحظتُ مدى بشاعة أفواه أغلبهم، ربما بسبب لويهم المستمرّ لها في الشّمس، حيث أنهم لا يرتدون أبداً غطاء الرّأس الحامي مثل عرب الجنوب. وعندما غادروا، شاهدت سالم يحضّر للرّحيل وقدمت باعتراضي الاعتيادي ضدّ تلك السّرعة غير الضّرورية في حرّ النّهار. كرّرتُ عبارة «العجلة من الشّيطان»، في كل فترة بعد الظّهر عندما حصل ذلك.

وأجاب الجميع في جوفه: «والتّأنّي من الرّحمن»، ولكن ومع ذلك استمرّوا بالإسراج. وأوضح سالم: «إذا لم نبدأ الآن فهذا سيعني ليلة إضافية في الجُول وعلينا أن نشتري تبناً».

اقترحت تسوية: سأشتري التّبن، الذي يصل إلى تسعة شلنات لكل دابة، وسنُمضي ليلة إضافية، ولا نسرع خلف الطّعام. وهكذا سُرَّ الجميع، وجاء سليم بعد برهة إلى رقعة صغيرة من ظل استرحت فيها، وسأل إذا كنتُ راضية أم لا. وأضاف بومضة انفعال: «من الجيد أن تكون صبوراً مع المسافر».

وافقت بأنه من الجيد دوماً أن نكون صبورين، متجنبةً أيّ استدلال مادي. ورغم ذلك، فقد جعلوني أنطلق عند 2:30 مساءً.

غادرنا الجُول المرتفع الآن وانحدرنا تدريجياً في وادي دَهمة، الذي ينزح إلى

«الأيسر»، ويحتفظ في منظره الطّبيعي الضّحل والنّاعم في القرية الأولى دَهمة، شمال مستجمع المياه. وهي عبارة عن أربعة أكرات أو أكثر من أرضٍ مسطحة في قاع الوادي الأعلى المفتوح، بشـجيرات عِلب[1] قليلة، وقلعة مربّعة لحماية البيوت قربها؛ ولكنها بَدَت متحضّرة بعد الجُول وسمّاها سعيد مدينة.

تركناهـا عـن يميننـا وتابعنا عن طريـق عقبة منخفضة إلـى بُريرة، بينما ذهب سـليم لشـراء تبن في قرية مُرشـدية أبعد، ونظراً لأن كلاً من دَهمة وبُريرة تنتميان إليالسّموح؛ فأعتقـد أن هذا كان السّـبب في معارضتهم للنّوم هنـا؛ ووفقاً للمثل الإيطالي: «لا بأس في أن تثق، ولكن ألا تثق أفضل»، وهو أحد الأمثال التي يقدّرها البدو بشكل تام.

جُدل التّبن الذي اشـتروه هنا بشـكل ثخين، يأكل حمار نصف أو ثلاثة أرباع واحدة منه في يوم بالإضافة إلى ما يساوي 4½ دايم من ذُرة؛ ويطلب الجمل فقط النّفاية من عصـر الزّيـت، والتي تُلقَم له في كتل متراصة، لهذا فهو لا يكلف شـيئاً، ويُعتبر الحمار أنه الحيوان الأكثر ارستقراطية.

بُريـرة عبـارة عن مجموعة صغيرة منعزلة من أكواخ مكعّبة الشّـكل في انحدار خالٍ تقريباً من الشّـجر مع بعض الحقول قربها. وصلنا عند الخامسـة مسـاءً ودفعنا حميرنا عبـر باب داخـل فناء كبير بما يكفي ليتسـع لها، ووضعنا متاعنا فـي واحدة من غرفتين في الخلف. وهي أماكن بائسة لا نوافذ فيها، سوداء من دخان موقد مكشوف. كان كل ما تحتويه غرفة اسـتقبالنا بضعُ صواني طعام مطلية معلقة على جدران زلقة، وحصيرة أو اثنتان من الأثل ونارجيلة على الأرض. كانت ممتلكات ربة المنزل الأكثر قيمة هي أسـطوانة حجرية وحجر الرّحى، وبكلفة طالر واحد أو ثلاثة، وكان الفقر القاسـي هنا مثل صدى للأرض القاسـية المحيطة. حتى الأطفال بَدَوا مقهورين، ويلبسون السّواد.

---

(1) شجرة العِلب هي ذاتها السّدر، اسمها العلمي: *Ziziphus spina christi*، وهي شجرة دائمة الخضرة، خشبيّة معمّرة شوكيّة يصل ارتفاعها إلى 10 أمتار وعرض التاج 12 متراً ومحيط السّاق 180 سنتمتراً، وهي ذات أوراق بسيطة بيضاوية الشّكل وأزهار بيضاء مخضرة وثمار كروية خشنة الملمس. وتزهر الشّجرة في شهر أكتوبر، بينما تنضج الثّمار في أبريل. والعِلب يتواجد في معظم الأودية الفرعيّة لوادي حضرموت.

وحُلق شعر الفتيات الصّغيرات بنطاق بشع على الجبهة والأصداغ، تاركين خصلة منفردة تُدعى «حلاقة» بما يقارب عرض نصف إنش فوق الجاجبين، مع الضّفيرة العادية في الخلف، تُصنع مرة كل أسبوعين.

لقد تبعنني، مختبئات، عندما ذهبت قرب بعض المنازل وزحفن تدريجياً خارجاً عند مسافة آمنة عندما وقفت عند مقام وليّهم، الذي يقع فوق الحقول. لقد كان نوعاً بسيطاً من قبر، بما يقارب 3 × 4 قدم، مطلي بالأبيض وخشن، ولكنه مزخرف في الزّوايا الأربعة وبطريقة سبئيّة قديمة في وسط أحد الجوانب مع قرون وعل وماعز يسميه النّاس *saidi* - مصطلح عامي لأنثى الظّبي الوحشية البرية، كما أُخبِرت فيما بعد.

عندما عدت أخبرت جندينا بأننا سنولم على خروف تلك الليلة. وكانت ديوكنا قد قاربت على نهايتها، مات أحدها من التّعب وطُبخ الثّلاثة الأُخَر مع الأرز، لم يكن لديّ أيّة رغبة برؤية ضحايا أخرى تُربط حيّة على قوس السّرج الأمامي. وبعث التّفكير بعشاء جيّد موجة من البهجة بيننا جميعاً.

عُرض أمامي خروف كبير، ولكن السّعر كان 13 طالراً، جلس البدوي ينظر إليه بوقار مُبهم إلى أن لاحظت ملاحظة في مضاربة بأن ذلك كان سعراً غالياً جداً. ومن ثم قاموا واحداً تلو الآخر، وتحسّسوا على الخروف كله، وساوموا بسبعة طالرات أقلّ من سعره. ومع ذلك بقي غالياً جداً لأني لا أملك سوى خمسة طالرات، وقلت بأن الخروف بدا كبيراً على نحو غير ضروري. وافق الجميع فوراً، وقد تم إحضار حيوان آخر خائف صغير، أسود اللون بذنب أبيض الطّرف، وتحسّسوه كله. اشتريتُه بستة پنسات وأربعة شلنات 4s. 6d (3 طالر)، وفي خلال دقيقتين كان اسم الله قد لُفظ على ذبحه في الفناء؛ جلست امرأة لتسلخه في المدخل، بينما سُخِّن ماء الطّهي في الوعاء. تبيّن أن مسافرنا الشّاب من الرّاش Rash كان جزّاراً، فعُهد إليه بباقي العمل. قام بتقطيعه بخنجر على بساط من قشّ ثم قسّمه كما يمكن أن تقسم أفريقيا Africa بين القِوى، فيما إذا كان للنّاس مثل طريقتهم، واستخدم الأحشاء مثل حبل حول الفضلات

ونهايات العظام، ثم سلّم كل شئ للنّساء ليأخذنه إلى غرفتهن ويطبخنه في الأرز. تم إحضار القلب والكلية لي، وأطعمة مترفة، وقد قُليت في مقلاة البنّ كمقبّلات.

كان من المثير للشّفقة رؤية مدى شعبية تلك الوجبة التي صُنعت لي ومع أيّ تمجيد صامت استقبلوا ظهورها وقد كوِّمت على صحن القصدير الذي استعير من مسافرينا الشّباب. وبسط الجزّار الآن حول حافة الصّحن تسعة أجزاء على مرأى من عيوننا الجائعة (واحدة لسيد البيت). وضعوا واحدة في طبقي، والأفضل دون شك، ثم اختار كل واحد بدوره، ثم انتهى ذلك العمل المثير واستقرّوا للاستمتاع بالأكل في سرعة لا تُصدق؛ وحده سليم قاطع نفسه ليخبرني بأنه قد احتفظ بالقليل من اللحم غير المطهي لي لليوم التّالي، حيث كانت لديه كل موهبة حقيقية أصيلة في الشّهامة.

بعد انتهائنا من شرب القهوة، أويت إلى حافة سريري وقمت بما أمكنني من إصلاح رونقي بينما كان البدو يجثمون في دخان النّار. تمدّد سعيد الثّاني في زاوية لاعباً بحزام خراطيشه، وقد حُلَّ عن وركه.

كان فيه محفظة في المقدمة لا تحوي شيئاً باستثناء عدا كبريت وعنوان وحوى في حيّز خراطيشه الأول، بدلاً من خرطوشه، علبة صغيرة كمكحل ليزيّن عيونه. وسحب في الحال خنجره وبدأ ينفخ عليه، متوجهاً إلى الرّفاق بابتسامة مبتهجاً في حين أخفى البخار سطحه اللامع. لمحني وأنا أغطي وجهي بالكريم، فناول الخنجر لمحمّد الصّغير وطلب منه أن يطلب مني القليل من ذاك الدّهن ليدهنه به. ووضعت كتلة منه على النّصل وأنا أشعر بشعور بالنّدم إلى حد ما - كونه كان ثميناً جداً - وتساءلت ماذا يمكن أن تفكر به مِس لِثبريدج Miss Lethbridge في بوند ستريت Bond street فيما لو قُدّر لها رؤية ذلك. حمله محمّد بحذر شديد في ضوء النّار، حيث استُقبل بهتافات من فرح.

قال سعيد وهو يشمّه: «ياسمين». سُلِّمت جميع الخناجر له للحصول على حصّة؛ كان القليل قد بقي، فبسطها على ساقيه، مصرّحاً بأنها كانت «أفضل من زيت».

نمنا بعد ذلك بسعادة أقل من سعادتنا عندما كنا في الصّحراء المكشوفة، ونهضنا في الفجر وردي بلون الصّدفة وغادرنا بُريرة عند السّاعة السّابعة والنّصف لنرتفع مرة أخرى عن الوادي ونعبر امتدادنا الأخير من الجُول. كانت درجة الحرارة عند السّاعة السّادسة والنّصف °58. وبما أن مضيفينا لم يكونوا ينتمون لقبيلتنا المرشدية Murshidi فقد أعطيتُ قبل الذّهاب طالراً للمرأة التي في البيت، حيث أنها مخلوق تَعِب ودود وكان الشّيء الوحيد الباقي من زهو أنوثتها ومن شبابها خلاخيل نحاسية بارتفاع 6 إنشات. وأخبرتني بأن رجلين من السّموح كانا رهينتين في السّجن في المُكلّا.

حدث شيءٌ مؤسف في الفناء حيث كانت حميرنا تُسرَج، فقد صُودر أحد الأكياس فوق وطالب به كل من سالم والجزّار من دَوعَن في وقت واحد. ويمكن لسالم اللطيف جداً عادةً أن يفقد أعصابه بين حين وآخر دون توقع، وهذا من الممكن أن يفسّر سبب طَلاَقيه. كان مندفعاً نحو الجزّار، بينما تدخّل سعيد وجنديّنا. كان النّزاع مسألة جدية، لدى رؤية تلهّف الجميع لإيقافه. تمّ فصل المتقاتلين، وألقى علينا الجندي إحدى خطبه باسم الحكومة، قائلاً إنه هو نفسه سيقضي بين المدَّعين عندما نصل لنهاية رحلتنا.

لم ينتبه أحد له ولا بدّ أن اللامبالاة التي قابل البدو فيه تباهيه قد سبّبت له ألماً مستمرّاً. ولم يكن غروره شخصياً؛ فقد ارتبط بتلك الأسرة الملكية التي ينتمي إليها أبوه وجدّه قبله، تم شراؤهم منذ البداية وأُحضروا من أفريقيا، ولذلك كان إخلاصه مطلقاً، واعتبر نفسه كناطق باسمها، متواضع نعم ولكنه مُلهم - وهو إيمانٌ خطِر وسبب لمعظم مظالم العالم. ولكن لم يكن موهوباً بالسّلطة الفطرية؛ لقد كان إلى حدّ ما مثل ممرّضة صعبة، وانتبه البدو إلى حدّ كبير للقصة الطّويلة والمملّة لمسؤولياته، كما اعتدنا أن نفعل لهؤلاء الحاكمات غير المؤهلات. وعلى الرّغم من ذلك، فقد كان سعيداً الآن؛ حيث تمتم طوال اليوم حول تفوق الحكومة وقضية الكيس بالتّناوب، وأخبرني أنه عندما نأتي إلى دَوعَن فسوف يجعل الطّرفين كِليهما يقسمان على ملكيتهما للكيس وسيعطيه للشّخص الصّحيح.

قلت: «ولكن، لنفترض أنّ كليهما حلف بأنه يعود له؟».

لـم أتلـقَّ أيّ ردّ مقبـول، إما لأنّ لغتي العربية كانت غير وافيـة، أو كان هذا أبعد ممّا يمكن للعقل الأفريقي الوصول إليه. تابع هو وسعيد مناقشة مزيّة العدل المثالية للفقراء بنبـرة غيـر مبالية استُخدمت لفضائـل غير مرغوبة؛ فـي غضون ذلـك، كان الكيس قد استولى عليه سالم وبقي معه، كان حزبه مؤلفاً من أربعة مقابل واحد؛ يستطيع الشّخص فقط أن يأمل بأن يكون العدل والحكومة إلى جانب التّعداد في هذه المناسبة.

* * *

اجتزنـا قرية ثانية عن يسـارنا تدعى بُريرة، بحصن وأمامه أشـجار القَرَض، ووصلنا لمسـتوى من الجُول أخفض ولكنه من نواح أخرى مشـابه تماماً لمـا كنّا قد اجتزنا من قبل، باسـتثناء ذاك النّجد البعيد خلفنا وهو سلسـلة كور سـيبان المتموّجة زهرية اللون وبنفسجية تمتدّ في السّماء كالدُّخان.

ينـزح وادي كارِت الـذي عن يميننا مع عدد من الرّوافد في: «الأيسـر». ويمتد على يسارنا، وادي مِنوِة إلى دَوعَن. كان الطّقس حاراً هنا، وسطعت الشّمس بيضاء في سماء بيضاء، وسطع كل مكان على حوافٍ قاسية لحجارة صغيرة. يقولون في بعض الأحيان ثمّة أعشـاب صغيرة تجعل الجُول أخضر، ولكنها تمتد الآن جرداء مثل مِشـواة تحت أشـعة الضّوء. عبرنا مربع هدجه Hadje وباخَميس، وبقينا هناك حتى السّـاعة الحادية عشـرة وعشـر دقائق وتكلّمنا مع امرأتين تسـافران لرؤية أطفالهما في المُكلّا، قالتا بأن المُكلّا مكان غير محتشم، لا تلبس النّساء سراويل تحت تنانيرهن القصيرة كما يفعلن في وادي دَوعَن، من المحتمل أنه عدم تسـامح غير صحيح إلى حدّ بعيد - ولكن هذا كان كلام النّسـوة. غادرنا وسـرنا إلى أن أضاء الغروب الجوانب الغربية للحصن الذي يغطّي المدى المسـطّح، وخفقت ظلالنا فوقها مثل سـتارة تسافر أمامنا. كانت حجارة البراكين هنا وهناك بنفس اللون القاتم المرقّش لبشرة البدو.

شعرتُ إلى حدّ ما بالمرض مع وجع في الرّأس وسررتُ لرؤية تفرّق الرّجال لملء

شـالاتهم بحطـب الوقـود، وهذا يعنـي أنّ المخيم كان قريباً. تسـتخدم هذه الشّـالات القطنيـة الزّهيـدة لكل شـيء؛ حتى عندما يحيكون كيسـاً فإنّ البدو يسـحبون خيطاً من شـالهم ليفعلوا ذلك. أتينا عند السّاعة السّادسة إلا ربعاً إلى عُبيد Obaid مربّع الجُول. لا يوجـد هنا خشـب في الجـوار، لأن النّسـاء تأتي من دَوعَـن لجمعه. اسـتطعنا رؤية صخور وادي «الأيسـر» عن يميننا، ويظهر صـدع ضعيف فقط عن بُعد. كانت الحرارة 61°.

كنـا مجموعـة أصغر، لأنّ سـعيداً الثّاني وأحمـد باقرط، الفتى السّـكوت قد اندفعا إلـى بيتيهما، وجزّار دَوعَن الذي كان انفرد بنفسـه بعد مشـكلة الكيـس. مع ذلك، فقد جـاء في الوقت الذي جلسـنا فيه قرب النّار، بودّ مثـل قبل، وبدأ بطبخ مزيج من طحين وماء وسكّر للمنفعة العامة؛ ونثر عليها مزيداً من السّكّر عندما سمكت لتصبح عجينة، وصنع حفرة ليصبّ زيتاً في الوسط، ودعانا لنشارك – ولقد كانت لذيذة جداً.

كان سـكّرنا قـد نفد، ولكن صـادف أنّ الجزّار كان يحمل حمولـة لأحد التّجّار في دَوعَـن، لذا فقد «اقترضنا» القليل، ليتم إعادته من دكّان في الوادي. كان هذا قد حصل بعـد تـردّد كبير، حيـث يحرص البـدو على الحمـولات التـي يُؤتَمنون عليهـا. تعتمد سمعتهم ورزقهم على ذلك، وأخبرني سعيد بأنهم يقومون بالرّحلة بين المُكلّا ودَوعَن أو بالعكس ثلاث مرات في الشّهر تقريباً.

قـال: «حيـاة عقيمـة، دائماً علـى الطّريق»؛ وهـو لا يمكـن أن يبدّل سـرور الصّحة المتوفرة في الجُول بالرّاحة في الوادي.

كانوا ودودين مع قرب نهاية رحلتنا، وشكروني مرة أخرى لمشاركتي طعامهم على الطّريق، قال سعيد: «لقد كان سفراً سارّاً».

كان سـليم يصـبّ قهوة فـي الوعائين الرّماديـين الذين يمتلكهما جميـع البدو على شكل آنية فخارية.

قال: «ها نحن الآن هنا، كلنا معاً. وغداً؟» – فتح يديه واسعاً – «سنكون متفرقين، أين؟».

نظرنا بصمت إلى الظّلام والنّجوم، بعد هذا السّؤال الحزين جداً، القديم والعالمي. ودُهشنا فجأة لرؤية ضوء صغير يومض ويخبو هناك. اعتقدت أنه كان فانوساً يهتز صعوداً ونزولاً مع حمار.

قال سعيد متردّداً: «يمكن أن يكون كذلك، ولكن لا يسافر النّاس في الليل. فيمكن أن يكون أيضاً مجرد قدريّة».

اختفى الضّوء. قالوا: «لا بدّ أن يكون القدريّة».

أخبروني، بأن «القدريّة» عبارة عن ضوء هائل يظهر في بعض الأحيان في السّماء خلال الليلة الخامسة والعشرين من رمضان، وتتحقق عنده كل رغبة طالما كان منظوراً. ظهر في تلك اللحظة الضّوء مرة أخرى، بشكل أقرب، وصوت وقع أقدام على الحجارة. كان من الواضح أنه بشر.

نادى صوت من الظّلام في الحال، وظهر ثلاثة قرويين أو من الضّعفاء من الوادي، مرتدين بشكل جيد ومغطّين رؤوسهم في البرد الليلي، ظهروا في حلقتنا عند ضوء النّار. كانوا أصدقاء وقد سمعوا عن قدومنا من سعيد الثّاني وباقرط، وقد جاؤوا لحمايتنا في الليل نظراً لتأخرنا (الناشئ عن تفضيلي للسّفر البطيء).

استُقبل هذا اللُّطف بشكل جيد، وتوسعت الحلقة الاجتماعية حول النّار. تركتهم وذهبت إلى سريري في ضوء القمر، مبتهجة في نومي الأخير في العراء - الأخير لعدّة أشهر كما جرى.

غادرنا في الصّباح التّالي على مهلنا، حيث كانت لدينا مسيرة طريق قصير فقط لنذهب فيه. هرولت الحمير بمرح، وقد علمت أنها أصبحت قريبة من موطنها؛ وشاهدنا إلى الأمام منا قريباً في منبسط الجُول، ومع امتداد آخر لا منتهٍ من الجُول خلفه، الشّق الطّولي المتزايد وقمّة الجُرف المقابل لوادي دَوعَن، مع أرض سلاح الجو الملكي R.A.F. منبسطة عن يميننا وبُرجي مراقبة مبنيين من مربع طيني على حافة الجُرف أمامنا.

* * *

الفصل الحادي عشر
الحياة في دَوعَن

منزلُنا رَحبٌ لمَن زارَهُ   نحنُ سواءٌ فيه والطّارقُ

المستطرف

لو سُئلتُ ما هو الشّيء الأكثر قبولاً في الحياة، فعليّ أن أقول إنه متعة التّغاير. فلا يمكن للمرء أن يتخيل أحد سوى أن يكون ملكاً يجلس مع قيثارة في الفردوس إلى الأبد، إذ يحتاج الشّخص الطّبيعي للتّغيير. إنه السّحر السّري للواحة، وهي عادة رقعة معتدلة من خضرة جعلها فقط محيطها الرّملي ذات قيمة عالية. تنبع الينابيع المشهورة في العالم مثل: باندوسيوم Bandusium وهِليكون Helicon أو تلك المياه من عين السّلسبيل التي أعطاها سُليمان لملكة سبأ - في أماكن مُجدبة. إنّ جمال الفجر في الألب الذي يمتدّ بشكل جزئي في العالم النّائم في الأسفل، مثل كرسي دافئ قرب النّار بعد يوم مع كلاب صيد، أوغرفة مغلقة بمصاريع عندما تهتز الرّيح، تُعتبر من هذا النّوع من المتع. وكم علِم الرّاعي الإغريقي متعة خشب الصّنوبر الآمنة عندما تهيّج العواصفُ البحرَ المكشوف؛ وأخبرتني امرأة أعرفها بأنها تزوجت زوجها لأنه كان دوماً يقول غير المتوقع - أعتقد أنه سببٌ مغامرٌ جيد للزّواج.

هذه المتعة اللطيفة غير المتوقّعة نكهة حياة، مكافأة لهؤلاء الذين يقفون على الحافة من الجُرف بعد عبورهم الجُول وينظرون إلى الأسفل في وادي دَوعَن.

يقارب عرض الوادي ألفاً من الياردات، وينحدر ألف قدم أوما يقاربها بجدران عمودية. بنيت بلدات صغيرة على الجوانب المتكسّرة الصّلبة التي تمسك الجُروف مثل أعشاش السّنونو، ولا يظهرها إلا ضوء الشّمس مقابل الأرض في الخلف. وعندما ينظر أحدهم للأسفل يجد خمساً أو ستاً منها واضحة على المنحدرات. مُلئ أسفل الوادي بأشجار نخيل بينها وبين حقولها المربعة المحروثة من كل جانب في قاع جدول أبيض، تلتمع قممها هناك على نحو مظلم، مثل أفعى أو نهر، بحراشف أو موجات صغيرة تلتمع في الشّمس. تستقرّ العين على اخضرارها المحصور، بعد أن أُشبعت بأماكن مكشوفة وتتبعها إلى حيث تلتف من الظّل إلى ضوء شمس بين أكتاف الجبل تحتفظ بها في الدّاخل وتلتف بها حول زاوية في البعيد. وانحصر نهر النّخيل في جدران صلبة احتجزت كما هي في صدع في الجُول، وتبدو جريئة مثمرة وأماكن راحة وظلال هادئة متفائلة مثل الحياة نفسها بين ذراعي الخلود.

تقع الصّعوبة في حضرموت في الانحدارات الشّاهقة في تلك الوديان، الـ «عقبات» التي بنيت طرقها في الجروف. وهي على الأرجح قديمة جداً، مُهِّدت بصخور مستديرة مثل الممرات التي تكافح بين جدران ليغوريا Liguria؛ ولكنها أقسى وأكثر حِدَّة. تركت ملكة اليمن في القرن الرّابع عشر أوقافاً لـ «ينابيع شرب في طرق الوادي» ولإصلاحات ممرّات جانب التّلّ الشّاهقة و«الطرق المدرّجة». (لقد كانت امرأة مرموقة جداً، وكان زوجها الملك الأشرف الرّسولي مخلصاً جداً لها حيث حزن على وفاتها لمدة شهر قبل أن يتزوّج مرة أخرى). شققنا طريقنا أسفل عقبتنا المحدّدة المجوّفة في الجُرف والمتدلّية أحياناً، واستغرق الأمر من وقتنا خمسين دقيقة لنصل إلى المنحدرات المتكسّرة حيث فرشت الحواف الكلسية بالحجر الرّملي.

كان جول البدو المفتوح خلفنا في الأعلى، وكنا في جو أثقل، بين قرويين، كانوا قد وقفوا ليتفحّصوا مع معاولهم مغروز نصفها في الأرض، ولكنهم لم يعطوا تحيات عن طواعيتهم. قاد سعيد قافلتنا الصّغيرة تحت أشجار النّخيل على طول ضفاف مرتفعة في ظل كاتدرائي عالٍ، حيث تجتاز الحمير في مجرى جاف في الأسفل. وسرعان

ما مشـت شـمالاً أسـفل الوادي، وبلغنا قلعة حاكـم مَصنَعة، التي بُنيـت عالية من طين ومربعة على جانب الوادي، وبأسـطح وشرفات اكتظّت لرؤيتنا وأُطلِقت طلقة ترحيب بنا. عبرنا بوابة منحوتة مرصّعة بعُقد حديدية؛ فوق طريق ملتوٍ محصور داخل الحصن وبابيـن آخريـن في زوايـا مختلفة. يوجد مـن يصافحنا فـي عند مدخـل، وكذلك عند ممـرّ ضيق في غرفة مطلية بالأبيض وذات أعمـدة، حيث وقف الحاكم وأخوه، محمّد وأحمد باصُرّة للترحيب بي.

كانـا محاطين بحاشـيتهما القبلية، بدو بلون نيلي كالمُرشـدي الذي معي؛ جميعهم ذوو بنادق تتدلّى أو تسـتند كإفريز مقابل الجدران، بينما وقف الرّجال محتشـدين معاً ليشـاهدوني. تـم جمع بعض أفراد من الأسـرة عند الجانب الأعلى مـن الدّيوان، على حصائر أو سجاد؛ بدا قائد حامية الجند الصّغيرة؛ وجار أو اثنان من البلدات المجاورة، جميعهم مرتدون أفضل ما عندهم بمآزر ملونة، مع سُتر بيضاء وعمامات. جلستُ هنا على الأرض بعد أن خلعتُ حذائي؛ وأخذت قهوة في أوعية خزفية، بينما تولى الخدم أمر الشّيشة، أو النّرجيلة، وداروا بها بفترات منفصلة كي يستطيع كل واحد من ضيوف الشّرف أن يأخذ منها نشقة.

أمضيـتُ اثنـي عشـر يومـاً مع آل باصُـرّة وتعرّفـت عليهم جيـداً، ووجـدت أنه من الصّعب إيجاد عائلة أكثر سحراً وجاذبية في أي مكان، يسكن الأخوان معاً في الحصن بانسـجام، ويتقاسـمان عبء الحكومة بينهما. يحبّهم بدوهم ويقولون: «باصُرّة أبونا»، كما يمكن أن يقول أحد أفراد عشـيرة سـكوتلانديّة عن رئيس عشـيرته. ويتفق سـكان الوادي أيضاً، في مدحهما ومدح عدالة حكومتهما وصرامتها، التي تتبع فعلياً استقلالية عن سلاطين المُكلّا. كان كلاهما رجلين صغيرين بعض الشّيء، متشابهين جداً، لهما العينان البنّيتان الرّقيقتان نفسهما، والفم الكبير ذاته، وشفتان تميلان للامتلاء تستعملان للابتسام، والوجه البيضاوي الطّويل ذاته ويدان طويلتان قويتان.

الاختلاف الوحيد هو أنّ محمّداً كان لديه حافة مجعدة لشـارب أسـود، بينما أحمد لديـه فقط خصلة شـعر أسـفل ذقنـه. كان أبوهما قد أمسـك بزمام السّـلطة بإحكام في

الوادي قبلهما ومات وهو رجل مسنّ جداً قبل سنتين فحسب، وكان قد تزوّج عشر زوجات في مجرى حياة قضاها بشكل جيد. وتزوج محمّد سابقاً ست مرات وأحمد أربعاً. علمت هذه التّفاصيل لاحقاً، وفي هذه المقابلة الأولى التي أقيمت فقط لتبادل المجاملات الضّرورية قبل أن يقودوني عبر سبيل ملتوٍ من الحصن إلى شقتي.

كان ذلك يعود للحاكم القديم، وكانت أرملته «غَنيّة» هي القيّمة عليه، وقادتني إلى أعلى درجها الطّيني الضّيق إلى باب مزخرف حملتْ مفتاحه الخشبي في حزامها. لقد كانت غرفة كبيرة بست نوافذ منقوشة على طول قناطر منقوشة ظهر عبر إطارها الوادي في الأسفل. كان على الشّخص أن ينحني ليرى ماذا في الخارج، لأنّ النّوافذ قد صنعت كلها بمستوى الأرض، ملائمة للجالسين على الأرض.

إن بيوت دَوعَن الجيدة متشابهة كلها تقريباً، دُعِمَت غرفها بأعمدة خشبية منقوشة بإتقان، وقُوبل الجدار الدّاخلي أيضاً بخشب منحوت، مقنطر بأعلى الباب ومفتوح في المشكاة حيث يُحفظ المخزون من اللحف والوسائد خلال النّهار. النّحت رقيق، وخشب العِلب القديم غني وداكن اللون، زيّنته عقد حديدية، مطلية برمتها كفضّة باهتة. بنيت الأسقف بقطع من خشب النّخيل على نموذج عظم سمك السّردين بين عوارض صغيرة؛ ودُعمت بأعمدة منقوشة مع أفاريز سُطحت حسب النّموذج العجمي القديم؛ توجد النّوافذ في أربعة أجزاء مستقلة، نُحت كل واحد منها بزخرفة تشجيرية على فتحة مقنطرة صغيرة، حيث لا يوجد زجاج أبداً. ومصاريع قوية، بسماكة ثلاثة إنشات لتجنّب الرّصاص، تقارب كل حجيرة وكل نافذة فيها فتحة صغيرة مدورة أسفل منها، مع أنبوب ميزاب في الخارج، مفيد لسكب أشياء على المهاجمين في الأسفل، وثقوب خلفها لماسورة بندقية.

لقد أصبح الوادي هادئاً مؤخراً، وتذكّر الكثير من النّاس بلداته الصّغيرة وهي تتقاتل مع الأخرى، بينما حوصر باصُرّة المسنّ في بيته الخاص، ولكن السّلام التّام يعمها الآن؛ وفيما لو دوَّت طلقة، فإن صداها يضرب على نحو متكرّر من جدار إلى جدار من الوادي كما لو أن الصّوت لا يستطيع أبداً الهروب من ذاك السّجن، ويمكن لسيدات

الحريـم أن يندفعن لنوافذهن المنقوشـة وينظرن إلى جميع البلـدات الصّغيرة الممتدة في المَشـهَد أمامهن متسـاءلات إن كان ذلك صادراً من البدو أم من الجنود، ثم يعدن خائبات الأمل عندما لا يحدث أي شيء آخر، وأخبرنني كم أصبح الوادي هادئاً بشكل رائع.

ولقـد افتخرن بغرفهن، وأظهرن غناهن بأعداد الصّواني النّحاسـية التي عُلّقت على الجدران، أحياناً على نحو وافر جداً بحيث تراكبت الواحدة على الأخرى. وبالإمكان دومـاً تحويلهـا إلى نقد بسـبب قيمة المعدن، لذلك تنظر السّـيدات إليها كنوع من بنك التّوفيـر، في متناول يدهن. اعتادت العبدات أن يأتين وينفضن الغبار عنها بعناية فائقة، ومـع ذلـك فلم يتلقَّ شـيء آخر الاهتمام ذاتـه، ولقد كانت في لمعان مسـتمرّ. وغطّت مرايا برمنغهام Birmingham، وأطباق غريبة البقية من مسـاحة الجدار، وثمّة صفوف أوعية قهوة من القصدير، ترتفع في زوايا الغرفة إلى السّقف واحدة فوق الأخرى وتكاد تلتصق به.

لـم يكن هناك أثاث، باسـتثناء بين الحين والآخر بعض الصّناديق المنقوشة الجميلة المغطاة بالنّحاس من زنجبار، مثل التي توجد أيضاً في الكويت والبصرة. غُطيت أرض الغرفة بسـجاد، وكان الطّين تحتها قد قُسِّـي في أراضٍ ناعمة كرمل مضلّع، واسـتُخدم كذلـك نموذج متمـوج مزركش على الدّرجـات. وعلى جدران الـدّرج إفريز من طين مُلّس في بعض الأحيان وبُيِّض واسـتُخدم بشـكل مفرط حتى لمع كأنه طلاء، مع حافة متعرجة له. إنّ بإمكان عُمّال دَوعَن وحضرموت الأكثر مهارة استخدام الطّين برِقّة مثله مثـل الجـصّ، وبالفعل لا يمكن لأي شـيء أن يكـون أكثر تبجيلاً وجاذبيـة من الطّراز القديم لبيوتهم. التي بدأت ولسوء الحظ تُزْدرى لتفضيل أشياء مبهرجة سيئة قادمة من أوروبا.

عندمـا ذهبت للأسـفل إلـى الدّيـوان بعد ذلك، وجـدت أحمد ينظـر باعجاب إلى بضعـة قطع من زجـاج أصفر بلون الخردل، نُقل بتكلفة باهظـة على جمل من المُكلّا. لقد كانت من أجل البيت الجديد، الذي كان يُبنى في مكان قريب. ويمكن أن يستغرق

ستة أشهر إلى سنة حتى ينتهي، وبعد ذلك يمكن أن ينتقل إليه ويترك غرفه في الحصن القديم لابنه.

أخذني لأرى البناء، حيث كان بناؤوه يغنّون لتمضية الوقت سوية بينما كانوا يضعون الألواح من الطّين والتّبن في أساسهم الطّيني. رُصف أخفض شريط من البيت فقط من الحجر، بينما صُنعت البقية، وحتى ارتفاع سبع طبقات، من تلك الألواح الطّينية والقش المقطّع، بما يقارب عرض ثمانية عشر إنشاً مربعاً وسماكة ثلاثة إنشات، جُفّفت لمدة أسبوع في الشّمس، ثم وضعت في معجون من طين سائل. كانت الحمير تهرول بالماء في جلود ماعز لتمتزج بالأرض. بدأت الجدران تظهر، وهي تميل بعض الشّيء للدّاخل مثل الأبنية السّبئيّة القديمة، وتجعل حصنها الضّخم يطلّ على مدن حضرموت؛ وحتى أغزر الأمطار سوف لن تخترق أكثر من إنش أو أكثر بقليل داخل سماكتها، وتبقى لمئات السّنين. تزين تصاميم مطلية بالأبيض الجزء الخارجي من النّوافذ أو تتناوب بنطاقات من لون بني طبيعي. وعندما قلت بأني أعتقد بأن هذه البيوت أجمل من مدن أوروبا الجديدة، رفض اثنان من باصُرّة تصديقي، ولكنهم اعترفوا بأنه من الممكن أن تكون أبوابهم القديمة المنحوتة أكثر براعة من الخدع ذات القوالب آلية الصّنع المطلية باللون البني التي طُلبت لتوّها من الغرب. تقترب ظلال الحضارة المدنية لتظلل تلك الوديان الإقطاعية، وغياب المواصلات فقط هو الذي يحافظ على سوقيتنا الصّحية.

أول شيء سألتُ عنه في شقتي كان الحمام، ووقت كافٍ لمعالجة غبار أمتعتي. كان الجندي في غفلة عن ناظريّ قد وضع رأس الوَبر في إبريق الشّاي، الذي قام البدو بوضع الفلفل والملح فيه من أجلي، وهو ما يزال ذا رائحة أكثر ممّا يمكن لإنسان أن يظنّ أن هذا يمكن خروجه من شيء صغير جداً.

اشتركت أنا وأرملة الحاكم معاً، في اشمئزازنا من هذا الاكتشاف، ضدّ الفعل الأخرق العام للرّجل؛ وأحضرت لي فوراً ماءً ساخناً في شيء قصديري له ميزاب صبّ فوقي الماء عندما وقفت على أرض الحمام - وبالنسبة لغرفتي، مثل جميع شقق حضرموت هذه، كان فيها حمّام خاصّ بها. قامت جرة فخارية بارتفاع أربعة أقدام،

في الزّاوية تُملأ بالماء كل يوم، والأرض مائلة للأسفل إلى بالوعة أسقطت الماء على مقدمة جانب الهضبة أسفل جدراننا. وذهبت المياه المصرَّفة أيضاً هناك في الأسفل في الطّريقة المفتوحة ذاتها، بُنيت عبر قضيب واسع على كل جانب من منصّة صغيرة للوقوف عليها، وبسبب فقدان ورق الحمام فقد مُلئت كوّة في الجدار بطين من تراب جانب التّلّة، مُقَسَّاة في الشّمس.

هذه الحمّامات نظيفة وليست كريهة إذا تم الاعتناء بها بشكل جيد، ويشعر بمساوئها فقط العامّة بشكل عام إذا كانت المنطقة في الأسفل شارعاً. ولكن ما من أحد يقلق حول ذلك. وأكّدت لي سيدات من دَوعَن عندما كنت مريضة في الأيام الأخيرة بأن صابونتي المعطّرة كانت سبب المشكلة؛ لا يمكن لأحد جعلهم يعتقدون بأن مياه مجاريهم يمكن أن تكون غير صحّية بشكل أكبر من العطورات من أوبيغان[1] Houbigant، من المثير للقلق جداً وجود أشخاص يعتقدون بأنه ما هو جيد لشخص يجب أن يكون أيضاً غير مرضٍ.

تطلّب مني بضعة أيام للتّعرّف على سكان قلعة مَصنَعة، كونها كانت مكاناً كبيراً مثل مفرخة، بُنيت من عدة طبقات في الارتفاع وعدة بيوت داخل جدارها المحيط وبوابتها، وعدد الأشخاص الذين تطلّقوا وتزوّجوا من أقارب آخرين جعلوا من المستحيل تتبع الخط بين عائلة وأخرى. كانت غنيّة مضيفتي، بسيطة جداً. كان لديها بنت فقط، وصبي يدعى ناصر، الذي ستنظر إليه بمحبة وحزن وتقول: «ولد غير سعيد، إنه يتيم»، ولذا شعرت أن تكرار هذا من المؤكد أنه كان يُنمّي عقدة فيه، لذا فقد كان مخلوقاً صغيراً كئيباً وقليل الكلام، لا يشبه إلى حدّ بعيد الحشد المرح والثّرثار من أولاد العمّ حوله.

كانت أخته مرحة أيضاً، فقد اعتادت الدّخول وهي ترقص بعينيها الصّغيرتين خلف قطعتين من غطاء الوجه مشقوقتين طولياً وتنظر بجدّية فقط عندما يتكلم أحد ما عن الزّواج، الذي رُتِّب لها خلال سنتين عندما ستكون في الخامسة عشرة؛ حيث أنّ

---

(1) نسبة إلى جان فرانسوا أوبيغان Jean-François Houbigant صانع العطور الفرنسي الشّهير 1752-1807 الذي اشتهرت عطوره على امتداد أوروبا بأسرها.

الخامسة عشرة هو العمر للأيتام، ولو أنه يمكن للعرائس المألوفات أن يكنّ أصغر. ومهما يكن العمر، فإن كل شيء يُرتّب دون علم الطّفل: صُنعت ثياب «لابن عم»، ولا تخمّن ما الذي يحدث إلا عندما يغُسل شعرها من أجل المناسبة. ومن ثم طُلي وجهها بالأصفر بمستحضر Zabidbud، وهو خليط من زيت وشمع و "hurd" (مسحوق الكركم)؛ وتم طليت يداها وقدماها بتزيينات بنّية؛ وجلست طوال الثّلاثة أيام من وليمة العرس تحت خِمار أحمر يرفعه زوجها عنها في الليل. وفي الصّباح يترك عشرة طالرات على المخدة، وبعد الليلة الثّانية، صينية مع منديل، وعشرة طالرات، كومة من قفازات، عطر وبخور؛ وبعد ذلك لا شئ.

كان لدينا عروس واحدة في المجموعة خلال فترة بقائي، وكانت إنسانة بليدة طلقة المحيا تدعى فاطمة لا تزال مرتدية كل البهرجة، أخبرتني أنها ستظلّ مرتدية إياها لمدة أربعين يوماً. كان لثوبها الأسود تزيينات على الصّدر من فضّة صلبة مضفورة مع قطن، وتدلّى حزامها بشراريب فضية، وكان في قدميها الحافيتين خلاخيل ذهبية. اربكتُها عند سؤالي لها فيما إذا كان زوجها قد قَبّلها، وإذا كان قد فعل فأين، لأنها بدت مزيّنة بشكل كبير ولا تبدو أنها لُمست في أيّ مكان براحة. سبّب لها هذا السّؤال الأحمق مضايقة لعدّة أيام من صديقاتها. وكانت أمها قد غادرت للتّوّ، حيث تبقى مع العروس لمدة أسبوعين بعد الزّواج.

يتعدّد تبرُّج هؤلاء السّيدات بمقدار كبير، حيث يختلف فيما إذا كان لديها في الوقت الحاضر أو ليس لديها زوجٌ لتسرّه. فرقت صديقتي المسكينة غنيّة شعرها بشكل بسيط عند المنتصف، قالت: «لأني أرملة». وكانت أمها أيضاً، التي كانت سيدة متقدمة في العمر مرحة ومبهِجة من القرية المجاورة، قد تخلّت منذ مدة طويلة عن الزّهو المجهد والتفتت للعالم والقيل والقال لأحفادها بابتسامتها وتجعّداتها اللامبالية. ولكن كانت زوجة محمّد سيدة القلعة ما زالت سيدة جميلة عندما وصلت، مثل سفينة تحت شراع، تخشخش بشدة بالخلاخيل والحزام، مزينة جداً بالأطواق، مبتسمة جداً بجو من الرّخاء والاستحسان، على الرّغم من أنّ ابنتها «نور» قد تزوّجت منذ عدة سنوات.

كانت نور صديقتي الرّئيسية ومرافقتي في الحريم، واعتادت أن تُحضر طعامي وتجلس وتتحدّث معي، تنظر بعين إلى النّافذة المطلة على الوادي وأحداثه في الأسفل. كان لها عينا عمّها النّاعمتان، وفمه الكبير وأصابعه الطّويلة، والطّبيعة الفاتنة ذاتها، والكياسة اللطيفة للقادم أيّاً كان. كان زوجها قد تركها منذ ثلاث سنوات ليعمل في الخارج، كما يفعل أغلب رجال حضرموت، واعتاد أن يكتب لها مع كل ثالث سفينة أو رابعة تصل السّاحل. وبما أنها كانت هذه هي المرّة الأولى التي تُركت فيها لوحدها، فقد سُمِح لها أن تعود وتبقى مع أهلها، وستبقى في المرة الثّانية في بيتها الجديد، لأن هذه هي العادة في دَوعَن. يبقى الرّجال خارجاً أحياناً لمدة خمس عشرة أو عشرين سنة، ويتزوّجون زوجات أخريات في الخارج، في حين يكون من النّادر أن تغادر نسائهم وديانهم. ويذهبون بشكل رئيسي إلى أرض الصّومال، الحبشة، أو مصر من دَوعَن، بينما يتجه المهاجرون من حضرموت العليا شرقاً إلى جزر الإنديز الهولندية Dutch Indies أو الملايو.

تعتبر عادة هذه الهجرة حديثة تماماً، وأخبرني باصُرّة بأنهم يذكرون الوقت عندما يمكن لأيّ مسافر أن يُعرف بالمكّاوي، أو مصوَّعي..، وفقاً للمكان الذي زاره، ويندر جداً أن يترك جُروف دَوعَن. ولكن يجب لبعض من روح المغامرة أن تميّز رجال تلك الوديان دوماً، حتى بعد انهيار إمبراطورياتهم التّجارية، في الأيام المبكرة من الإسلام، ويجد الشّخص آثاراً متفرقة لهم بعيداً خارج الوطن. لقد استقرّوا في سوريا ومصر في زمن الفتح وشكّلوا ما يقارب عُشر السّكان هناك، وفي البداية عُرفوا باسمي الحارث والإشباء المشتقة من شَبْوة[1].

ذُكر حامل راية قبيلة الصّدف، التي هي قبيلة من حضرموت، في جيش فاتح مصر العظيم عمرو بن العاص، وشُريح بن ميمون، و Madadi المَهري (من قبيلة المَهرة) الذي ذهب إلى مصر، وكان في قيادة القوة المصرية في حملة ضد القسطنطينية في عام 98 هـ (716-717 م) ومعظم الصّدف الذين تركوا جزيرة العرب ذهبوا إلى مصر

(1) عبد الحكم 47 ب ورقة 2، والهَمداني، ص 98.

أو شـمال أفريقيـا، ولكـن يتردّد ذكرهم أيضاً فـي الكوفة في العراق، فـي تحالف متين مـع قبيلة كندة، وهـي أيضاً قبيلة كبيرة من حضرمـوت. وكان رجلٌ من حضرموت هو الذي اعتقل واحداً من قاتلي علي صهر النّبي، في الكوفة؛ وقيل لهم بأنّ عليهم القدوم لمساعدة كندة عندما ارتدّت تلك القبيلة عن الإسلام؛ وبالتّأكيد فقد رفضوا أن يعتقلوا حِجـراً، وهـو رجل من كنـدة، بحجّة قرابتهـم. وكان من حضرموت والصّدف ستمئة رجل في جيش سعد بن أبي وقاص، في الحرب التي أطاحت بالإمبراطورية الفارسية.

لا بدّ أنهم كانوا أثرياء ومتعلّمين في ذاك الوقت، حيث دفعوا عُشر الضّرائب اليمنية الإجماليـة، ولقد ذُكر القضاة بشـكل خاص. وكان الـ «الكنز الثّامـن لليمن» في حَمرا وهـو مـكانٌ ما في حضرموت. وقد عُيّـن ثلاثة حكّام في الجنوب الغربي، عندما سـاد الإسلام أخيراً - اثنان في صنعاء وجند Jened في اليمن وواحد في حضرموت.

لـم توفَّ سمعة المدينة القديمة بالتّعليم في وادي دَوعَن. حيث أنه لا يوجد مدارس حقيقية - وإنما يمكن لبعض المحسنين أن يدرّس أيّ أحد متشوق لقراءة القرآن. تلقى القاضي نفسه تعليمه من خلال عشر سنين قضاها في مكة، وبإمكان أيّ شخص مستاء منه أن يلتمس قاضياً آخر أعلى أو أسـفل الوادي، أو كمحاولة أخيرة إلى المُكلّا. ولم يكن بوسـع أيّة واحدة من النّسـاء اللاتي قابلتهنّ أن تقرأ. وما لـم أسـتطع فهمه أبداً هو كيف تمكنت النّسـاء حقاً من أن يملأن أيامهن! ولـم يقمن بالتّطريز، حيث لا يتعارض مع صنع ثيابهن - الذي هو أمر بسيط تماماً مثل حياكة كيس.. ولكن كان طوق الصّدر المتقن، بسكونياته وخرزاته وبهرجاته، ثم يرسل للخارج ليصنّع على نحو محترف.

أحيانـاً يمكـن أن يطبخن، أو يشـرفن على الطّبـخ، وربما لهذا أن يعنـي كمية كبيرة مـن عمل بين حين وآخر فـي أمور المنزل حيث يمكن أن يأتي أيّ عدد من رجال قبيلة موالين ليأكلوا في أيّ وقت. ولكن كان معظم النّهار يُقضى في زيارات بين بعضهن من بيت أحداهن إلى آخر في الحصن وفي تجمع البيوت في قرية عرا Ora’ في الأسفل.

كانـت لهذه الدّعوات إجراءات شـكلية. وفـي الحقيقة لو أننا رأينـا بعضنا فقط في بيت زوجة محمّد فإنّ هذا لـم يعفِنا من مصافحة الأيدي حول المكان عندما التقينا بعد

نصف ساعة في غرف أم أحمد. دارت كل قادمة جديدة حول التّجمّع، رافعة يد كل واحدة بدورها ومقبّلة يدها كما تفعلَ هي، أو أحياناً - في إشارة لاحترام أكبر - تقبّل القمة من جبهة المرأة الأكبر. وفيما لو كنت تتكلم، وحصل أنك لم تقم على خدمة الوافد الجديد، فيمكن أن تفرقع أصابعها بصوت عالٍ إلى أن تلتفت لتؤدّي الشّعيرة الضّرورية. ويمكن أن تقول: «حَيّا» أو «سلام». جاءت الزّائرات من الخارج ملتفّات بشقّة shuka، وهو شال أسود مربع بجانبين مهدّبين، ارتدينه مثنياً على رؤوسهن وأجسادهن، وعُقدت الزّاويتان الأخفض معاً وألقي الطّرف الأعلى على ذراع واحد: لم أتعب أبداً من مشاهدة الثّنيات الجميلة لهذ الشّال، والتي جعلتهن يبدون مثل تماثيل التّناغرا Tanagra وهي تمشي. ويمكن أن يضعن هذا الثّوب (الكساء) حتى لو ذهبن من بيت إلى آخر في الحصن، غطاء الوجه الأسود أيضاً بخيط فضي خُيِّط أسفل الأنف والعينين اللوزيتين، من أجل احتمال أن رجلاً قد أن يظهر في أزقة ضيقة. ولكنهنّ كنّ يرتدين داخل البيت فقط وشاحاً هندياً من الحرير رُبط أسفل الذّقن والثّوب بلا أكمام بانحراف على كتف واحد.

لا يمكن لأي رجل الدّخول لتلك الحجرات الخصوصية دون إنذار باستثناء محمود، حارس الباب، الذي سيطر على بوابة الحصن بسلسلة من الأعلى. لقد كان مستخدَماً متميزاً، ولِد وتربى في منزل باصُرّة، وهو شاب نشيط ومرح مع خصلة مستديرة من شعر اللّحية على ذقنه المستديرة.

لقد اعتاد أن يتباهى مثل ديك بانتام bantam وسط عدة دجاجات، مع تنظيم نوعين أو ثلاثة من وصلات في أطراف الكم ملوّنة ومنظمة في أزرار أسفل مقدمة سترته البيضاء. كان يمازح أكثر الزّوار تواضعاً، الذين كانوا آتين من الخارج وقد سحبوا حافة قبعاتهم للأسفل. ويمكن أن يصعد إليّ عندما كنت مريضة، قائلاً: «طيّب، طيّب. حسناً، كيف تسير الأمور؟» كل شيء جيد الآن، إن شاء الله - متجاهلاً أيّة تعليقات مني كما لو أنها غير موجودة، أليس هو رجلاً؟ - ألا يقع صوت ثرثرة الأنثى التي ليس لها شعور أدنى منه، مجرد ضوضاء ليس أكثر؟ أكون حياناً ميّالة للاتفاق معه، عندما

تبـدو ثرثرة السّـيدات تكاد تكون متواصلة بشـكل لا يصدق. أخبرنـي أنّ ما أراده كان زوجة أوروپية من مصر. قال بأن زوجته كانت كدرة - لذا لم يكن يتكلم معها أبداً.

سـألته «لماذا لا تطلب منها أن تكون نظيفة؟»، متسـاءلة في الوقت ذاته كيف يمكن لهـا أن تكـون، لأن معيار النّظافة العام لم يكن عالياً. «ربمـا تفضّل زوجة صامتة؟ وإذا سمحت لها مرّة أن تتكلم، فربما لن تستطيع إيقافها أبداً».

نظـر محمـود إلي كما لو كانت هذه فكرة، وعقد العزم بوضوح أن يبقى صامتاً. كان قلقاً بسبب أنّ أهدابه تنحني إلى الدّاخل وتؤلم عينيه، ولم يكن لدي دواء لمرض كهذا. نظر إليّ بوجهه الصّغير المستدير وتجعّد بخيبة أمل مثل وجه طفل.

أخبرته: «عليك أن تجد طبيباً لذلك».

قالت نور: «عندما تذهب إلى مصر من أجل زوجتك الثّانية».

فاسـتعاد بهذا التّفكير السّـعيد اختياله الرّجولي، وغادر ليجلب لي الماء. لقد أتى به مـن نبع في الجُـرف، وكنت أفضّل ماءه عن ماء بئر الحصن، ولقـد اعتاد الذّهاب إليها كل يـوم بفارق دقيـق في لطفه. لقد بدا عليه أنه يقول: «مـن دوني ماذا يمكن أن تفعلي أيتها المسكينة، تصمتين بلا عون؟».



الفصل الثّاني عشر
الخريبة والرّباط

عجبتُ من منع امرئ جاههُ　　ما منع من يجتدى ولم يغرم
يثلم وفر المال إعطاؤه　　لكن وفر الجاه لم يثلم

(ابن الرّومي)

اعتاد الحاكمان أن يأتيا ليأكلا في غرفتي، فكانا يُربكان السّيدات في الهروب من أمامهما. ويمكن لهما أن يدخلا من دون مراسم تشريفات، محمّد ومعه حصيرة طاولة من القش، وبيد أحمد طبق أو اثنان ويجلسان، بينما قامت غَنيّة بالباقي، وتُقهر أمام تعاطفها الكبير وتحاول أن تبقى صامتة قدر استطاعتها، أحضرت لنا كومة أرز عامرة، مع دهن وبهارات؛ واللّحم المطبوخ في صلصة ممتازة والطّبق المحلّي الذي يدعى «هريسة» Harisa، من لحم وطحين سُحقت بنعومة معاً على هيئة ثريد، مع كوب من زبدة مذابة في الوسط لتغمس كل حفنة عندما يأخذها المرء.

تحدّث كل من أحمد ومحمّد في غضون ذلك بلطف، وقد أحببتُهما أكثر وأكثر. ولقد أحضرا معهما السّيد محمّد بن ياسين، وهو تاجر جذّاب قديم يتاجر بالقطن على سواحل البحر الأحمر ويكتب بالعربية إلى ليڤرپول Liverpool. وكان أيضاً له ذات الوجه الطّويل والفم الكبير اللطيف نموذج سكان هذه الوديان المستقرّين؛ ومزاجهم الجيد المبهج مع بعضهم ترك مزيّة فيه، وهي لطف خاص من الخبرة والعمل الإنساني. ويمكن أنه كان أوليس Ulysses وقد استقرّ في الأرض في عمر متقدّم.

“Fussé-je comme Ulysse. qui fist un long voyage,
Ou comme cestui-là qui conquist la toison,
Et puis est revenu plein d`usage et raison
Vivre entre ses parents le reste de son age”

كان ابـن ياسـين قد عاد لزوجته وموطنـه بلدة الرّباط عند مقدمة الـوادي، تاركاً ابنه في الخارج ليتابع التّجارة، ولأنه كان صديق A.B.[1]، الذي يعتبر اسمه في تلك البلدة كالذّهب، فقد دعاني للغداء في اليوم التّالي.

بدأت مبكرة في الصّباح بالسّـير على الأقدام، لأني رغبت أن أشـاهد البلدات على الطّريق. تعتبر الرّباط الأخيرة في الوادي، حيث تنتهي شـجيرات نخيلها، وثلاثة وهاد غير مأهولة تؤدي إلى الجُول؛ التصقت بينها وبين مَصنَعة بلدة رشيد والخُريبة بالجانب الأيسـر من الوادي مقابل الجُرف. ولم يستغرق أكثر من مسيرة ساعة لاجتياز كل تلك البلدات الصّغيرة، وبدأتُ رحلة مع الجندي ومرشد بدوي خلفي، تحت ظلال النّخيل ذوات النّهايات المدببة.

تعتبر شـجيرات النّخيل التّجارة العظيمة لدَوعَن، ويمكن للنّاس أن تدفع ما يساوي 500 طالـر لنخلة جيـدة. يذهب 6 ٪ للحكومة في كل بيع، وهناك ضريبة سـنوية عبارة عن ربع طالر لكل شـجرة، مساوية لتلك التي على مساحة الأرض، تساوي تقريباً أجر يوم، الذي هو تقريباً ثلث طالر، أو سـتة بنسـات (نصف شـلن). وعندما مشـينا تحت سـوقها المكلّلة، فـي عتمة ظلالها الخضراء، شـاهدنا رجالاً يتسـلّقون ليلقحوا الثّمار بطَلع قشـدي اللون. وأخبروني بأن «الرّائحة تقوم بذلك». يمكن أن يفكر الإنسـان بأن الأشخاص الذين تزعجهم الرّوائح يمكن أن تكون هي تحديداً تلك الأنواع التي تحوم في شوارعهم.

تركتُ رشيداً على يميني والتفتّ إلى الشّقوق الطّولية السّوداء للطّرقات التي تتسلّق الهضبة صعوداً بين بيوت الخريبة - متراكبة ضيقة جداً حيث عُلّقت الإطارات الخشبية

---

(1) ترمز بهذا الاسم إلى التاجر الفرنسي أنطونان بيسّ Antonin Besse، الذي أحبته.

الصّغيرة من النّوافذ المقابلة للطّيور لتجثم عليها، بعيداً عن متناول يد اللّصوص والثّعالب. هذه هي البلدة الرّئيسية للوادي الأعلى بسوقها ومساجدها. ويعني اسمها الأطلال الخربة. ويمكن أن تكون Do'an دَوْعَن التي ذكرها بطليموس Ptolemy والهَمداني أيضاً، هي العاصمة التي دعاها پلينيوس «توآني» Toani؛ وهي على كل حال بلدة قديمة مكتفية بذاتها، وتفتخر بنفسها بنقاء دينها الذي يميل بها إلى عنف. لقد كان شيخ الخريبة هو الذي أرسل فون ڤريدِه Von Wrede بعدما نُهب وبات مفلساً إلى السّاحل في عام 1843، وبعد خمسين سنة تجنّب الزّوجان بِنت الخريبة بسبب تحذيرات من مرشديهم. ولكن وجدها المسافرون اللاحقون ڤان دِن مولن Van den Meulen والزّوجان إنغرامز Ingrams سارّة بما يكفي، وكذلك كان ينبغي لي أن أجدها أيضاً لولا فظاظة أعيانها الرّئيسيين، عائلة سيّد حامد البار.

كانت معي رسالة لسيّد، وقيل لي بأنّ بيته كان على أعلى قمّة في البلدة، تحت الجُرف. وقبل أن نبتعد ظهر لنا شخصٌ غريبٌ فاتن من حيث لا ندري ورحّب بنا، لقد كان بائعاً في عَدَن أبهجه مشهد أوروپية، فأتى ليريني كل ما احتجت رؤيته في طريقي. قادني إلى المسجد الرّئيسي – وهو مكان هادئ ذو أعمدة – ومساجد أقل شأناً مشيّدة بما يشبه مصلّى صغير خاص على يد أُسر تقية، وهي بسيطة ومهملة، بآبار مفتوحة بجانبها – لأنّ المياه القذرة تنزل إلى الأسفل والنّظيفة تُرفع بشكل مختلط في المنطقة المزدحمة لتلك البلدات الصّغيرة.

قدِمنا إلى السّوق، الذي سمعت عن أعاجيبه من البدو الذين معي في الجُول. لقد كان مجرد زقاق ضيق، جلس الباعة على درجاته العليا، مقابل غرف سوداء خلفهم، مع سُلل على أحضانهم. وقد وزنوا لحمهم في موازين مطلية بالأحمر والأصفر. لقد كانت ساعة ذروة النّشاط، وازدحم الأطفال هنا وهناك؛ ولكن الجميع كانوا ودودين.

سألوا أسئلة ووقفوا لأخذ صورة لهم - إلى أن وصلنا إلى القصر العالي يتبعنا رتل متزايد من النّاس، كان فيه باب منحوت وشرفات مطلية بالأبيض انتصبت تحت جدار الجُرف.

حدث هنا خطأ محزن. صعد الغريب إلى الباب وأعطى رسـالتي؛ كان هناك فاصل طويل وجاء الجواب بأنه لم يكن هناك أيّ أحد في البيت. شككت أن يكون هذا كذباً، وكان الآخـرون أيضـاً يعلمون ذلك. في الواقع كان سـيّد نفسـه غائباً؛ ولـو أنه كان في البيت لم يكن ليُسْـمح للكارثة أن تقع، ولكن كانت زوجته وابناه هناك، وكانوا جميعاً معروفين بكرههم للمسـيحيين، ومقابلتهم بغير مودّة، كمـا أُخبرت لاحقاً. ومن ناحية ثانية لم أعرف سـوء ضيافة مطلقة من قبل أو منذ وجودي في حضرموت، وكان أثرها مفجعـاً، عـاد الغريب المرحّب صامتـاً مصاباً بالخزي ومشـغول البال؛ تفرّق الحشـد قليلاً، بهدوء وهم يهمهمون، وبدأ الغريب يقودني بسرعة نحو سفح التّلّة - حيث كان علينا أن نذهب عبر عرض البلدة كلها.

رفض أن يتكلّم، وتجنّب الأماكن المكشـوفة؛ ولقد أسـرع على طرقات ضيقة جداً حيـث كان علـي أن أذهب عبر طـرق فرعية جانب البيـوت. بدأ انحدارنا يتخذ شـكل الطّيـران وكنا ملزمين بالخروج إلى العراء قرب الجانـب الأخفض للبلدة، وهناك عاد الحشد للظّهور، ورأوا سرعتنا، فبدوا سيئي الطّبع، لأنه لا يوجد شيء مثل السّرعة لتوقظ الرّغبة في صيد الحيوان لدى الإنسـان، وقد كانوا يراوغـون حول الأبنية كي يدركونا. اسـتنتجت بأن رجلي الغريب كاد يفقد صوابه ومن الممكن سريعاً أن يسبّب لنا كارثة. رفضتُ أن أبقى مسرعة لمدّة أطول، وتوقفت لأخذ صورة للسّكان المحتشدين.

أحدث هذا توقفاً.. تابع الأشخاص الأبعد بالتّزاحم، ولكن الأقرب تردّدوا. صعدت وتكلّمت إلى الأبرز بينهم، وبدأت بحجّة تجميعهم من أجل صورتي أسـألهم فيما إذا كانوا قد رأوا فرنجياً Farangi من قبل. لم يجب أحد، ولكن الذين في الخلف تمنّوا أن يسـمعوا ما الذي كان يُقال، فقد خدعوا لأنهم رأوني أبتسم. عدتُ إلى مرشدي، الذي كان يعـضّ أصابعه من نفاد صبره وتابعنا انحدارنا ببطء أكثر، في حين أصبح الحشـد، الـذي هدأ لدقيقة أو دقيقتين بسـبب المقاطعة، أصبح شـيئاً فشـيئاً مزعجـاً مرة أخرى. ولكننا كنا قرب نهاية البلدة.

وظهـر فجأة رجل مسـنّ من بيته وكنت قد التقيتُ به في ديـوان الحاكم، وهو رجل بهيّ

الطّلعة بلحية بيضاء، تقدّم مستقبلاً بشعور ودّي، ولكنه اختفى أيضاً بمجرد سماعه ما الذي حصل، وبدل أن يدعوني إلى بيته دفعني بسرعة لأتابع طريقي. بدأت أكره الخريبة.. وحدث شيء لطيف عندما وصلنا إلى آخر منازلها، حيث خرج ثلاثة من أصدقائي البدو الثّلاث، سعيد وسليم ومحمّد الصّغير، مندفعين بسرعة من الكوخ الذي يسكنون فيه عندما لا يكونون على سفر، ووقفوا أمامي بابتسامات ومصافحة أيادي. شاهد الحشد ذلك فاستحسنوه، وأصبحوا أكثر ودّاً، وكان حارسي المسرور بالتّخلّص مني قد اختفى.

التقطتُ صورة لأؤكد حقيقة أنني أنا وبلدة الخريبة كنا نتودع بعلاقات حيادية إذا لم تكن صداقة. ثم تابعت طريقي، مع الجندي والبدوي المتجهّم حيث استطاع أن يكون خلفي. كان الحديث عن فظاظة عائلة سيّد البار، ورفض استضافة غريب هو موضوع أكثر حزناً من أن يناقش. عليّ أن أعيد، بأنها كانت الحادثة الوحيدة من نوعها في كل البلدة، وأظهرتْ كم يدين المسافر عادة لكرم هؤلاء السّادة الإقطاعيين، الذين يملكون حقاً حياته بأيديهم بما أن موقفهم نحوه سيقلده ويبالغ فيه جميع الأشخاص الأقل شأناً.

وصلنا بمشاعر متألّمة في غضون عشرين دقيقة أو أكثر بلدة الرّباط التي تجمعت إلى الأعلى بين وهْدين على نتوء من جدار كالسّجن - لذا فإنّ وجوه الجُرف هذه تُشير بأنها مغلقة إلى الدّاخل دون فجوة في كل جانب.

كانت توجد أقلّ شجرات نخيل هنا، وانحدرت الطّبيعة البرّية للرّيف متساقطة نحو البلدة. ولكن في الطّريق، انتظر ابن السّيد محمّد قدومنا، وحيّانا السّيد نفسه عند رأس درجاته. كان الجميع مرحّبين وودودين. وجلسنا في نهاية غرفة منخفضة بأبواب منحوتة وأعمدة على سجادة، بينما استقرّ الجندي وبندقيته بين عبيد المنزل عند الجانب الآخر، ونسينا مشاكل الخريبة.

كان هناك زائر آخر، رجل مُسنّ مرِح عمل مع البريطانيين وكان قد أُعطي رتبة خان بَهادُر Khan Bahadur لمحافظته على النّظام بين رجال قبيلة يافع؛ وأصبحوا بعد ذلك ولسوء الحظ قادرين على الحصول على بعض بنادق حكومته، ثم تقاعد بعد ذلك، وهو الآن مستقرّ في حياة خاصة. أخبرني جزءاً من قصّته، وتكلم بشكل متناغم عن

العالم وأصدائه، المسموعة حتى هُنا. والجدير بالملاحظة كيف تُتّبع الشّؤون السّياسية بإحكام في تلك الوديان العربية المنعزلة. والطّليان، الذين كانوا آنذاك يحضّرون مغامرتهم في الحبشية، كانوا في ذلك الوقت مكروهين في جنوب جزيرة العرب.

قال خان بَهادُر المسنّ: «عندما نمشي على طول شوارع مصوَّع Massawa فإننا نُجبَر على تحيّة كل فرنجي Ferangi نقابله وأن نتنحّى لنعطيه الرّصيف؛ ولكن معكم أنتم الإنكليز نتكلّم على الأقل مثل رجل لرجل. وتابع كلامه: «وعندما جاء ملك إيطاليا أرسل أمراً هنا وهناك بأن على الجميع أن يسجد أمامه على طريقه. وكما تعلمين، فإننا نسجد لله فقط - لذا كان علينا أن نبقى داخل بيوتنا في ذلك اليوم، والعبيد فقط والأقل شأناً من النّاس كانوا قادرين على الخروج لرؤية الملك». وقال عبد من الجانب الآخر للغرفة، مشارك في المحادثة: «ووضعوا أعلامهم أعلى المساجد، كما لو كانت منازلهم الخاصة وليست بيوت الله، سبحانه وتعالى».

تركنا هذا الموضوع الحسّاس وتكلّمنا على مأساة القطن، الذي كان قد انهار من 40 جنيهاً إلى 10s؛ مدمّراً تجارة الكثيرين، ومنهم سيد محمّد. ثم تحدثنا عن شؤون الوادي، وعن تجارته الفقيرة والقليلة، وتفوّق حكومة باصُرّة التي تحفظ السّلام وسط عدة صعوبات، وبشكل مستقلّ تقريباً عن المُكلّا. تمتدّ قوة سلطتهم في القوة القبلية التي يمتلكونها على البدو الشّرقيين - الأساس الحقيقي الوحيد لقوة ممكنة في هذه البلدة، كما أستنتجتُ فيما بعد.

وكذلك، فإن سلام دَوعَن عبارة عن جزيرة في بحر ليس بالهادئ إلى حدّ كبير: تمّت السّيطرة على القبائل غرب الوادي عن طريق أسر ثلاثين رهينة أو أكثر في المُكلّا. فالحرب مستمرّة حول قمّة وادي الأيسر، حيث القرى هي وحدها تحت إمرة آل باصُرّة وتنعم بالسّلام؛ ويوجد هناك قطعة من أرض غير تابعة لأحد، وهي الآن في هدنة مؤقتة في الشّمال بين الهجرين وشِبام، وقد أضيفت إلى صعوبة المحافظة على السّلام. والواقع أن البدو هنا يعتبرون أنه من العار قبول دية القتيل، ولذلك فإن العداء مستمرّ إلى الأبد.

وحتى المساعدة التي مُنحت من قِبل المُكلّا ليست نعمة صرفة، بالنّسبة للمرتزقة اليافعيين، الذين استقرّ منهم ما يقارب 250 في وادي دَوعَن، كانوا يسبّبون مشاكل في ذلك الوقت، وقد جعلوا أنفسهم غير محبوبين من خلال علْف ماعزهم على زَرْع النّاس، ولكونه احتج على وجودهم، فقد طوّقوا أنفسهم الآن بموقف دفاعي ليكونوا جاهزين للتّصويب في أحد بيوت القلعة في الوادي. ولم أسمع أبداً كيف انتهى الخلاف، وليس لديّ أدنى شك بأن آل باصُرّة كانوا مستعدّين بشكل جيد للتّعامل معهم. وفي ذلك اليوم عندما ذهبتُ إلى بيتي التقيتُ الزّعيم اليافعي المسنّ ومازحته بلطف حول تصرّف قواته.

قال لي: «إنهم لم ينقلوهم أبداً، هذا هو السّبب في المشكلة كلها». فهم هنا منذ ما يقارب العشرين سنة، ويعتقدون أنه بإمكانهم عمل ما يحلو لهم».

كان هو نفسه يافعيّاً مسنّاً، يسير وعلى رأسه عمامة كبيرة، بوجه طويل نحيل، شرس ولكنه ذابل، وفجأة يكون ودّياً ومفعماً بالمرح مثل الكثير من قبيلته. وكان هو نفسه في دَوعَن منذ ثلاثين سنة، كان قد جاء شاباً «بسبب أن أخصّ أصدقائه كانوا هنا».

أخذني سيد محمّد بعد الغذاء لرؤية نحلاته على منصّة صغيرة. حيث تعيش في أنبوب مثل أنبوب التّصريف مصنوع من طين، غُطي ببطانيات لحفظه دافئاً ومغلقاً في طرف واحد، مع بعض الثّقوب الصّغيرة تركت لها للتّسلل للدّاخل والخارج. بُني الطّرف الآخر، داخل دفء الغرفة، وأُغلق بدائرة مشغولة كالسّلال تُسحب مرة أو مرتين في السّنة عندما يتمّ نفث الدّخان لإبعاد النّحل ويؤخذ عسله. يعتبر عسل حضرموت مشهوراً، وذكره پلينيوس Pliny. يُصدّر معلّباً بعلب مستديرة، ويحظى بنكهة غنية وقوية، ناشئة من دون شك من أشجار العِلب التي تُعتبر زهراتها طعام النّحل الرّئيسي.

صعدتُ بعد مشاهدة هذه المخلوقات إلى الحريم وجلست لبعض الوقت بين عشر أو اثنتي عشرة سيدة، نتحدث عن الملابس، ذاك الموضوع المبارك ثلاثة أضعاف، ويلاحظ غيابه كعنصر أساسي للمحادثة حتى في جنّة عدن. لا يمكن تصوّر ما الذي يمكن للشّخص أن يفعله من دونه بداخل حريم شرقي. كنت أول امرأة أوروپية تزور هؤلاء السّيدات، حيث أن السّيدة إنغرامز Ingrams لم تصعد درجاتهن لتراهن،

وانتظرن في مجموعات لينظرن إلي، حتى عندما أستلقي وأنام، لأني كنت الآن أرتعش بسبب بداية مرض وأتوق إلى راحة. أحضروا فرشة ولحافاً لتغطيتي؛ وجلست فتاة حبشيّة رقيقة ووضعت قدمي الحافيتين في حضنها تضغطهما بواسطة يديها الاثنتين، تسحب التّعب منهما بشكل لطيف أكثر من أيّ مسّاج عرفته في حياتي. جاءت مخلوقة جميلة، إحدى أفراد عائلة سعيد من آل العَطّاس الأشراف من حضرموت، المتحدّرة من سلالة النّبي. كانت نحيلة وطويلة مثل كلب سلوقي، بعيون كبيرة في بَشَرة رقيقة غير مطليّة، وبابتسامة مشرقة وخجولة.

وقبل أن أغادر، أحضرت لي زوجة سيّد تطريزاً مبهرجاً لأزيّن وركَ ثوبي الأسود، لأني كنت أخبرتها بأنه صُنِعَ لي ثوب دَوعَني لآخذه إلى بيتي. وأعطتني خرزات فضّية، مثل التي تحبّ كل النّساء أن تلسبها حول أعناقهن.

ومع تلك التّذكارات من اللطف قلتُ وداعاً للشّخصيّات الفاتنة وغادرت، ورافقني ابن سيّد في بعض الطّريق، وخلفنا جميع الأطفال من الرّباط. لم يكونوا مرفوضين في حدّ ذاتهم، ولكن أقدامهم الصّغيرة صنعت غمامات من الغبار، وتقدّموا في مجموعات متسلسلة من اندفاعات قصيرة، للحصول على أقرب مشهد كامل. ولقد تشبّثوا بي حتى ضواحي الخريبة، حيث انحدر من التّلّة نوع مهيب من أعدائي الذين شاهدتهم في الصّباح أكثر بكثير، الذين زادوا الموكب، وانتقموا بأغانٍ ساخطة عندما حاول الجندي بجهد أخرق أن يلكزهم بسلاحه. أسعدتني رؤية الحصون الودودة للمَصنَعة فوقي عالية في السّماء، ولأستقرّ في حريمي الخاص بسبب مرضي. أخبرتُ باصُرّة في المساء وقت العشاء عن الأطفال من الخريبة. فكانوا مهتمين بالأمر.

قال محمّد: «سأضع بعضاً منهم في السّجن، فقط لأعلّمهم».

وأتمنّى أن يكون قد فعل.

* * *

الفصل الثّالث عشر

مرض في حصن مَصنَعة

«وعندما تمدّدتْ لفترة طويلة أحسّت بإصابتها بالحصبة ولم تستطع الحصول على علاج لعدم وجود علقة».

(موت آرثر الفصل السّابع عشر)

أخبرتني والدة نور في اليوم الأول من وصولي إلى دَوعَن، عندما جلست معي لشرب القهوة، بأن الخبيث الصّغير الذي كان يبكي في حضنها مصاب بالحصبة. أدارت ثوبه السّاتان الأخضر والتّعويذات المتعدّدة رأساً على عقب وأرتني البقع - وحيث أني لم أُصب بالمرض من قبل - فقد علمت ماذا ينتظرني. أخبروني بأنه في كل ثلاثة أو أربع سنوات ينتشر هذا الوباء في المدينة، وكان من سوء حظي أني جئتُ في ذروة انتشاره. وكل طفل صغير جاء يحتضنني بحسن نيّة، كان وجهه منقَّطاً عندما قمت بفحصه، وقد أُخبِرتُ بأنهم التقطوا المرض ليس من بعضهم ولكن من أشياء عطرية من مثل الصّابون؛ ويذكر تاڤرنييه[1] Tavernier، في أسفاره بأنهم لم يستخدموا الصّابون في «الحبشة ومملكة سبأ»، وربما كان هذا هو السّبب.

وحتى المرهم الذي اعتدت أن أعطيه للأشخاص الذين يشتكون من الرّوماتيزم كان يُرفض غالباً بسبب رائحته.

---

(1) جان باتيست تاڤرنييه رحّالة فرنسي شهير في القرن السّابع عشر، نشرنا بعض نصوصه في كتاب: «رحلات في برّ الشّام بالقرن السّابع عشر»، ضمن هذه السّلسلة.

وباختلاف عميق جداً في نظرياتنا الطّبية، فقد كان هناك القليل جداً الذي استطعت فعله لتفادي قدري الوشيك، فكل شيء لمسته كان قد مُسَّ قبلي من قِبل شخص مصاب بالحصبة. ولشعوري بالمرض الشّديد، فقد كان هناك تقريباً فَرَج عندما قِست حرارتي ووجدتها تقارب أن تكون 103، وقرّرت بأن تلك الإجراءات الوقائية الدّاعمة كانت غير ضرورية.

أمضيتُ الآن أسبوعاً من الهذيان. وفي الحقيقة كنت لمدّة ثلاث ليالٍ متواصلة أهذي بأحلام متقطّعة وكئيبة في البحث عن شيء غامض، متموّج وحيّ، كان قد أُعطي لي وتعتمد على استعادته سعادتي؛ اعتقدت أنه كان سرّ السّعادة، شيء بسيط ولكن محيِّر، كما يمكن للشّخص أن يتوقع، وتمنّيت فقط لو أني استطعت أن أتذكر تماماً ما هو، كوني اعتدت أن أصادفه في الفجر الباكر، عندما انخفضت حرارتي، ثم نمت بسلام، إلى أن ظهرت نور لإدراكي البصري كاستمرار غريب بعض الشّيء للأحلام الليلية، ومعها فطوري في يدها وهي مرتدية الأسود والذّهبي، تخشخش بأساورها وعيناها الجميلتان تلتمعان بالكحل تحت مثلث من الشّعر مُلتصق ومدهون بالزّيت.

قد اعتادت أن تقول: «قومي، انهضي»، بغضّ النّظر عن حالتي، وعندما أخبرتُها بأنّي أعاني من حمّى أجابت بمرح: «كلنا لدينا حمى» وأعطتني نبضها لأتحسّسه، الذي كان في الحقيقة سريعاً جداً. وقد سعلتْ أيضاً، كما فعل تقريباً كل واحد من الأصحّاء في حياة البلدة الأبوية، وأدركت فوراً بأنّه خرافة لأني لم أرَ في حياتي هذا العدد من المرضى، ولكن لا يتمدّد أحد إلا إذا كان غير قادر في الحقيقة على القيام. احتشدت السّيدات عندي، مستغربات أن يجدنني قد زحفتُ مرة أخرى إلى السّرير بعد تناول الفطور على الأرض. ويمكن أن يقلن: «ما شي شر»؛ الذي يعني بكلمات أخرى بأن كلّ شيء على ما يرام. ولكن ليس هناك أيّ شيء مزعج جداً مثل تفاؤلية الآخرين على حساب ذلك الشّخص، وأخيراً كنتُ قد أُجبرت على أن أستدّ منهنّ فأقول بأنّ كل الأمراض تأتي من الله، عندما يسألن عن علاجات مستحيلة. ومن ثم يمكن أن أجلب العار لنفسي، لأنهن جميعاً سيكون جوابهن: «الحمد لله»، بخنوع،

وقبـول لانزاع فيه. وسـيردّدن هذا حتـى عندما يخبرنني عن مـوت أطفالهن، مُذعنات للقضاء والقدر الذي ليس لهن عليه إلا سـلطة قليلة جداً. «جزءٌ من العمل المرعب قد تُرِك لله أن يفعله»، وجدتُ هذا مكتوباً في مفكرتي اليومية.

وقـد أخبرونـي بأنّ المـرض يأتي مع الرّيح الحـارّة التي تهبّ مـن البحر. وتضرب مصاريـع النّوافـذ والأبواب جيئة وذهابـاً وتندفع فـي أدوات أنابيب الـوادي. فنظرتُ خارجاً متمنّية أن أسـمع ضجيجه وأرى الجُروف السّـاكنة، وحدودهـا الصّرفة الحادّة والظّل الذي يسـقط ويرتفع على جوانبها مع تحرّكات الشّـمس، مثل دلو في بئر يحدّد الأيـام. ألقى إحسـاسٌ بالسّـجن ظلّه عليّ بين تلـك الدّعامات العموديـة الجبلية؛ فقد بدت كما لو أنها لا يمكن الفرار منها مثلها مثل هذيان الحمى في الليل.

وبالرغم من ذلك، ففي النّهار كان هناك الكثير لشغل أفكاري.

كان السّـؤال عن الطّعام واحداً منها. كان الحليب، كما وجد الزّوجان بِنت Bent قبلي، والخضـروات أوالفواكه يكاد لا يمكن الحصـول عليها غالباً. كان الجميع متلهفاً لإعطائي كل ما يمكن أن أرغب به، ويمكن أن يرسلوا في الجوار لكل الماعز ويستنزفوا من ضروعها الجافّة مِلء كأس صغير خزفي، فكنت أرحّب به بكل سـرور على طعام الإفطار. كنّ يأكلن فـي بعض الأوقـات جزراً نيئاً، وطبخت نور بعضاً منه. ويمكن أن يحضرن لحماً، وبسـبب أنـي كنت مريضةً جداً بحيث لا أسـتطيع قضمـه، فلن يصدقن أبداً بأنـي أحببت طبق الأرز خاصتي الخالي من الدّهن والبهارات وأنا أعاني من حنجرة متأذّية.

شـعرت بمرض شـديد منعني حتى من أن ألمس الخبز المسـطّح المطبوخ بالزّيت والمشـبع بالعسل، وعشـت على البيض والحسـاء، وعلى أقراص من حليب هورليك Horlick's التـي كنـت قد أحضرتـه معي، وتقبّلـتُ ضيافة – في أحد الأيـام – رفاهية مـن بطيـخ وتفاح أُرسـلت كهدية للحاكم من السّـاحل. لا يمكن للحريـم أن يحصلن علـى قضمـة في الحالة العادية؛ ولكن وجودي هناك قاد شـريحة كبيـرة حمراء للطّفلة التي جلست بجانبي، أحيط وجهها الصّغير بقلنسوة من السّاتان برتقالية اللون، متيبسة بدهن وخيوط لماعة.

كان الأطفال ألعوبة الحريم، وعانوا، كما أعتقد، من أعصاب مرهقة نتيجة إخضاعهم المستمرّ للقُبل وللتنقّل بين النّساء بين فناجين القهوة. ركض الطّفل الأكبر داخلاً وخارجاً وجلبوا آخر الأخبار من بيت لآخر. جاؤوا إلى غرفتي دون أيّ قيد، وهكذا فعل كل شخص آخر: عبيد وسيدات، فتيات بدويات مستديرات الوجه يتمتعن بالصّحة أكثر من نساء البلدات، ورجال مسنّون ونساء بحاجة للأدوية. وقبلتهم كلهم الدّيمقراطية الودودة، تمكن المبتلى بالطّفيليات أن يجلس على السّجادة هناك، مستخدماً إياها كمنديل، أو يرفع الطّرف بين حين وآخر ليبصق تحته بحذر.

كانت حياة قلعة القرون الوسطى بكل تفاصيلها، تعاش بشكل مشترك إلى حدّ كبير حيث أن الخصوصية والنّظافة تعتبران غالباً رفاهية لا يمكن الحصول عليها. ومن جانب آخر فإنّ الطّهارة لم تكن ممكنة فقط، وإنما جوهرية بشكل متكرّر.

حدثت حولي جميع أنواع الأشياء وأنا مستلقية في السّرير. باعة متجوّلون مُسنّون «دلّالة» "Dallalas" جاوا لبيع الأساور، وقد رُبطت بضائعهم في وشاح مليء بالكهرمان، وأحزمة فضية، ومطرّزات. ومن الممكن أنهم ذهبوا من بلدة لأخرى في الوادي وأحضروا لنا الشّائعات.

جاءت امرأة جميلة (عطيّة) من القرية في الأسفل، كان زوجها - حيث أنهما تزوجا حديثاً - قد تركها مؤخراً للذهاب إلى الصّومال. عانت من بعض الألم ولذا كانت بالكاد تستطيع الوقوف، وجاءت من أجل الدّواء. ولكني كنت نائمة في تلك اللحظة، فأخذها محمود حارس الباب إلى غرفة أعلى، وهناك وُسم أخمص قدميها بحديد حام. وعندما استيقظتُ، جاءت عندي، وقد استعادت صحتها تماماً كما يبدو وهي مبتهجةً. غنّت بخجل قصيدة تتمنّى فيها لزوجها الشّاب عودة آمنة. كانت عمّتها قد كتبت الكلمات، وغنّتها عروسه بصوت جميل مشرق، بريء وشجي - خمسةٌ أبيات موجَزة، واحد طويل، وواحد قصير - ثلاث مرات، وخمسة قصار، وطويلة للنّهاية، عندما انخفض الصّوت وتلاشى في عمق الشّوق.

«عُدْ، فإنّ ابنة عمك وحيدة في الليل».

ضحكت البنات وقد جلسن بالقرب. مدّت عطية يديها الصّغيرتين الكدرتين واحمرّت عيناها الوديعتان من الخجل.

قالت: «هل هذا غير صحيح؟ أليس هو زوجي؟ هل عليَّ ألا أتمنى له أن يأتي؟».

«وكم من الوقت سيبقى بعيداً؟».

«آه، من يعلم؟ ربما عشر سنوات. إرادة الله».

تنهّد الجميع، لأنّ هذه تعتبر بليّة الجميع في هذه الوديان والكل، دون أي شك، كن يفكرن بأزواجهن بأنهم قد تزوجوا من أخريات بعيداً جداً. قالت نور: «تعتبر الحياة شاقّة بالنّسبة للنّساء».

* * *

كن متلهفات لتجربة ميسم محمّى على مؤخرة عنقي، ويقلن إنه علاج جيد للحصبة. تجنّبتُ ذلك، ولكني لم أكن محظوظة جداً مع ساحرة مسنّة جاءت في أحد الأيام من الهجرين، مرتدية ثوب تلك المنطقة الشّمالية الأسود، المزيّن بكامله برقع صغيرة ملونة، ووجهها العجوز الذي يشبه شكل وجه الفرس وما يزال مطلياً بالأصفر. وأعطت لنفسها أجواءً من القداسة. كان زوجها قد طلّقها (منطقي جداً) وكرّست شبابها، جمالها، أو لطفها الإنساني التي خلت من الجمال والفتوّة الآن لله. وعندما شاهدتني مستلقية بائسة، انقضت علي، وتلفظت بتعاويذ، وأدارت أصابعها النّيلية اللون وذراعيها النّحيلتين مثل طواحين هواء حول رأسي. وكانت في كل تعويذة تربط وتفك عقدة في شالها (ممارسة لشعوذة مستنكَرة من قبل في القرآن)، ثم انحنت فجأة فوقي وبصقت بطريقة لطيفة.

كان لدينا مسرحيات، أيضاً، داخل جدراننا. ففي أحد الأيام جاء ناصر ابن غنيّة يبكي وأخبر، بين التّنهدات، كيف سقط جذع شجرة عليه وضرب ذراعه عندما كان يقف في ممشى الحديقة. كان هناك بعض الحزازات بسبب طلاق مع البيت الذي يشرف على الطّريق الضّيق، ولمدّة يوم كان الجميع، بما فيهم الجدة، يبكين عند نوافذ مختلفة

من غرفتي، على الرّغم من أن جميع السّيدات تابعن اللقاءات بلطف كالسّابق، وفُسِّر سقوط الجذع (كما هو على الأرجح) كمصادفة تماماً. ولكنّ الولد الصّغير جلس لساعات، يبكي بهدوء وهو غاضب. تصنع هذه العداوات تاريخاً في بيوت شرقية، حبيسة في جدرانها، ولا يمكن لانطباعات لاحقة أن تطمس تلك الذاكرة الطّفولية. وحتى هُنا يمكن للشّخص أن يرى بوضوح، فيما لو أعطي فرصة وقوة، كيف أن شجار حريمي كهذا ربما يتفاقم إلى إراقة الدّماء عندما سيصبح الأطفال من أمهات مختلفة رجالاً.

واضطربت ظلالٌ أكثر ظلمة بين الحين والآخر وسط النّميمة اليومية. سمعنا ذات يوم بأن أحد الأقارب قد مات في الحبشة، تاجر شاب من البلدة المجاورة، وأحد الرّجال الرّئيسيين هناك، أخبرتني غَنيّة الأخبار، مستجمعة انفعالها تدريجياً وبجهد، لدرجة مناسبة لزيارة التّعزية، والتي يمكن أن تعني 48 ساعة من نحيب متواصل جهراً تقريباً في بيت الحِداد. ولقد حرَّضت نفسها لسحب أثوابها السّاتان من الصّندوق في غرفتي.

وتذكرت عند الفترات الفاصلة أن تتنهّد بعمق، ولكنها نسيت بعد ذلك، لأنها كانت لا تزال تحب ثيابها الجميلة وكانت سعيدة بعرضها. ومزّقت صدر الثوب ذي اللّون الفضي والأزرق، وخاطت بدلاً منه واحداً ذا لون ذهبي وأرجواني وأوضحَت بأنه مناسِب أكثر لبيت حداد. وشاهدتها أنا ونور وقد سُترت بالأسود، حيث لا يُرى شيء منها سوى عينيها عبر شقهما الطّولي، وهي مسرعة أسفل طريق القلعة. وفي القرية في الأسفل، التي نطلّ على أسطحها المستوية، كان موسيقي مسنّ يضرب على نوع من الرّق ويغنّي قصائد طويلة عند عتبات النّاس. أخبرتني نور أنه جاء من اليمن، وقد سمّوه «أبو ألوان» Abu Alwan (أبو النّغمات). يمتدّ الوادي بنخيله بسلام بين جدران الجُرف المستقيمة.

سألتُ نور: «هل سبق لأحدكم أن صعد فوق تلك الجوانب لينظر إلى الجُول».

قالت: «أبداً».

يتشـابه العالـم كله خلف تلك الأسـوار الواقية، فهو معتم وواسع، ومجهول بالنّسبة لسـيدات دَوعَن؛ مكان يغيب أزواجهن فـي فجواته، ويأتي منه بين الحين والآخر باعة متجوّلون هنود ومعهم حريرٌ صناعي ومخمل، تحيكه السّيدات بالطّراز القديم لبلدهن.

عندما عادت غَنيّة إلينا كانت لديها مشـكلة جدّية لنصغي إليها. فقد أضربت عبدتها السّـوداء عـن العمل، والتي كانت قد اشـترتها بــ 800 طالر (60 باونـداً)، «عندما كان الأطفال صغاراً»، وقد أزعجها شيء ما الآن ولا أحد يعرف تماماً ما هو، وأصبحت لا تطيع ولا تجيب، لكنها أرسـلت رسالة تقول بأنها أرادت التّكلّم مع سيدتها في الطّابق الأعلى، وذهب الجميع بلطف ليستمعوا.

نزلـت غنيّـة منزعجة وخائبة، وأخبرتـني بأنه بإمكان محمّد، كقيّـم على العائلة، أن يتحـدّث مع العبدة ويسـألها فيمـا إذا كانت تريد أن تُباع. قالت غنيّـة، وفي تلك الحالة فإن (دلّالاً) من حضرموت يمكن أن يتولّى المهمة.

ولكنها اعتقدت أنه لن يأتي من أجل ذلك. كانت المشـكلة هي أن المرأة المسكينة كانـت لديهـا ابنة صغيرة، وبيعـت الطّفلة في عمر الخمس سـنوات بــ 300 طالر (22 جنيهـاً)، لعائلة في قَيدون Ghaidun (تبعد مسـافة يوم)، وقـد تاقت الأم لرؤية طفلتها مرة أخرى.

في الصّباح التّالي تكلم محمّد معها ووعدها حالاً أن يستدعي الفتاة الصّغيرة لبضعة أيـام. لذا عادت المـرأة العبدة للظّهور في دائـرة عائلتنا، وعيناها الصّغيرتان تبتسـمان كالسّابق فوق خدودها النّحيلة (ناتئة العظام).

قلت للإخوين عندما صعدا لاحقاً: «هذا قاسٍ بالنّسبة لأم».

قالا: «نعم بالتّأكيد، هو كذلك. إنه أمر الله».

نحاول الآن في الغرب بشـكل متشنّج وبأيادٍ متردّدة أن نتخلّص من أسباب الحزن، ولكـنّ هـذا كان مؤخراً فقط، ومنذ تراجع الدّين الرّسـمي. ولا يزال الشّـرق متمسّـكاً بنماذجـه المؤسَّسـة ويشـجّع المؤسّسـة الخيريـة، التي تتعامل مـع النّتائـج وليس مع

الأسباب. وحالما تبحث وتحاول أن تغيّر أصول الأشياء، فإنك لن تكون متصدّقاً، ولكن ثورياً، وحركاتك غير المبالية عُرضة لهدم كل الصّروح الضّخمة. ويطلب وعّاظ البشرية المتعاقبون أن تُترك الأشياء الأساسية لشأنها. لذا فإن الشّرق يقبل العبودية، ملطّفاً تأثيراتها بالمعروف، ويعتقد أنه ليس هناك أكثر من العبودية الجسدية ممّا نفعله من استعباد العقل، قيّدت بكلمات مكتوبة يومية لسادة متقلّبي الرّأي.

صرت أحسن الآن، وكانت الحمّى قد زالت. استطعت السّير قرب غرفتي وألححت بنجاح للحصول على ماء حار أُحضِر للاغتسال به، الشّيء الذي رفض مضيفيّ وبدافع من لطفهم هو أن يسمحوا لي بالاستحمام لمدة أسبوع. أربعون يوماً من دون اغتسال تعتبر شيئاً واجباً بالنّسبة لمرض الحصبة، واعتُبرت نكستي لاحقاً متوقعة بسبب الاستخدام المبكر للصّابون والماء. في غضون ذلك، شعرتُ بأني استعدت قوتي، لاحظتها من خلال تجدّد ثباتي في أمر الطّعام.

استطعت الآن، بهدوء داخلي يستحيل وجوده في المرض، مشاهدة محمّد يحضر لنا حصتنا من السّكر في قبعته الممزقة بشكل تام، أو العبدة وهي تزيل الدّهن من الخنجر الذي أخذته من حِزام أحد ما لتقطّع به طعامنا. أُخبِرت بأنه كان في تَريم طبيب، وكل أنواع الرّاحة الأوروبية. وفي غضون ذلك كان لدي سعالٌ أنهكني وخفت أن ينقلب ربما إلى ذات الرّئة؛ ظهر هذا من كتاب صغير كان معي، أن تكون ذات الرّئة نتيجة مألوفة للحصبة، ولقد فكّرت ملياً لو أنه تطور في دَوعَن فيمكن لي أيضاً أن أعتبر نفسي ميتة فوراً. كان من الممكن استدعاء سيارة في تَريم ووادي حضرموت ويمكن أن تأتي للأسفل لمقابلتي في أبعد مكان تستطيع بلوغه في الهجرين. وكان يتطلب لبلوغ ذاك المكان مسيرة يومين فقط. كتبنا، وفي غضون بضعة أيام سمعنا من السّادة الأشراف آل الكاف المضيافين بأنه تم إرسال سيّارة محمَّلة بهدايا ولطائف، فاستسمحت أصدقائي في دَوعَن بالمغادرة.

كانوا قد أخبروني عن صهاريج مياه قديمة على بُعد نصف ساعة بأعلى مَصنَعة في فجوة الجُرف، وكنت قد رأيت من خلال نظارتي غرفة صغيرة ونافذة منخفضة

ومستطيلة الشّكل، مفتوحة منها، في منتصف سطح الجُرف تماماً، شمال مسكني، في مكان هو الآن ولا بدّ أنه كان دوماً يتعذّر الوصول إليه بوسائل عادية. وجدتُ الأبواب فـي قبـور الجُرف التي وجدهـا من قبل فـون ڤيسـمان[1] Von Wissmann وراتيينز[2] Rathjens في أوضاع متشابهة في اليمن، ولكن ظهرت هذه لتكون بُنيت إلى الخارج، مثل عشّ سنونو. وحسـب مـا أعلم، فلا أحد مـن زوار دَوعَن قد لاحـظ هذه الأوكار الصّغيـرة، أو زار الصّهاريـج. وقـد كنت مريضة جـداً بحيث لا أسـتطيع القيام بذلك، ونصحت بذلك أفراد سلاح الجوّ الملكي R.A.F. في رحلتهم التّالية.

تكلـم باصُرّة معي أيضاً حـول حجرة مغلقة تماماً بباب حديـدي خلف الخريبة في وادي خُلّـة، لـم تُزَر أيضاً بسـبب موقعها الذي يتعـذّر الوصول اليـه. وأخبروني بأنهم وجدوا صندوقاً مملوءاً بأشـياء سـوداء احترقت بلهيب مثل لهيب الشّمع في كهف في وادي عَقـرون الذي ينفتح الى وادي الأيسـر، ولا بدّ أنني قد مررت على رأس المكان في الجُول، وكانت يدٌ وبعض الكتابات بأحرف حمراء موجودة على الجدران بالقرب منها. وجد ڤان دِن مولن Van den Meulen وفون ڤيسـمان Von Wissmann أطلالاً ونصوصاً سـبئية علـى ملتقى وادي ثقبة ومِنـوِة، تماماً خارج طريق المُـكلّا؛ وهذا كله هـو الـذي لوحظ حتى الآن في جوار دَوعَن. وكان علـى الأرجح كما يدفع برهان آخر المرء ليعتقد، مكاناً خارج الطّريق الرّئيسـي في الأزمنة السّبئية، ازدادت أهميته مع نمو

---

(1) هِرمان فون ڤيسمان (1979-1895) جغرافي ومستكشف ألماني نمساوي (ويحمل نفس اسم أبيه الذي كان جغرافياً أيضاً)، جال في جنوبي جزيرة العرب وألّف جدولاً زمنياً لحضارات جنوبي جزيرة العرب بدءاً من حضارة سبأ، وله دراسات عن حضرموت مع المستكشف الهولندي دانييل ڤان در مولن (وقد حصلت على كتابهما). وله أيضاً:

Zur Geschichte und Landeskunde von Alt-Südarabien. Böhlaus, Wien 1964.

Arabien. Dokumente zur Entdeckungsgeschichte, Vol. 1, Stuttgart 1965.

Die Geschichte des Sabäerreiches und der Feldzug des Aelius Gallus, Berlin 1976.

(2) كارل آوغُست راتيينز Carl A. Rathjens (1966-1887) جغرافي ألماني اشتهر برحلاته في اليمن، وله مجموعة نادرة من الصّور عن تَعز وصنعاء وغيرهما.

المُكلّا وانهيار الطّريق القديم من قَنا عند وادي عَمْد. وهذا يمكن أن يشـرح فقر البقايا المكتشفة حتى الآن.

أسـفت لكوني لـم أكن قادرة على تفحّص ماذا كان هناك، ولكن كانت قوتي بسـيطة وعليّ أن أوفّرها.

كنت قد أُعطيتُ حميراً جديدة وبدويّاً. كان جنديّ الذي جاء لرؤيتي كل يوم خلال مرضـي، قد ظهر مرة أخرى بكسـوة كاملة، بالإضافة لقبعتـه الصّوفية البيضاء skiing، غريبة في الوادي المَداري. وبدأنا رحلتنا بهدوء في فترة بعد الظّهر.

التفّ الوادي بسـرعة للشّـمال الغربي، واتسـع قليلاً. اختفت الكميـات الكبيرة من أشـجار النّخيـل وحلّت محلها أشـجار عِلْب ممتلئـة بالثّمار، في امتدادات مكشـوفة. قلّت البلدات في جوانبه أكثر، وظهر في بعض الأحيان مبنى هرمي الشّكل فقط بنوافذ صغيرة، وانغلق الجُرف في السّلاسل المتواصلة في كل جهة.

كانـت مرحلتنا قصيرة؛ سـاعة ونصف أو سـاعتين إلى مَطـروح، حيث دعاني تاجر كريـم للنّـوم عنده. ارتفع بيته الجديد في طبقات من خطوط تزيينية مطلية بالأبيض بين القرية والجُرف. كان بيتاً جميلاً، بغرف ملونة من نمط جزيرة جاوة Java المكان الذي جاء منه. جعلت الألوان الزّاهية البسيطة الشّخص يشعر كما لو أنه كان داخل صندوق من سكاكر: كان الباب الأمامي المنحوت بشكل دقيق قد كلّفه خمسين باونداً. كان كل شيء نظيفاً، قام بمعاينته هو وابنه. بُسِطَ لي لحاف من السّاتان على فراش من المخمل الأحمر، وبُسِـط غطاء طاولة أبيض اللون ووزّعت علب من الحليب للشّـاي. لقد كان رجـلاً ثريـاً، وأخبرنـي أيضاً بأنه فضّـل واديه القاحل علـى مُتع جـاوة Java المتمدّنة، ولكـن لـم يشـاركه ابنه الذي وُلِدَ خارج هذا المكان تلـك النّظرة. ولقد وجدتُ أن هذا هو الموقف الطّبيعي للأجيال الأصغر والأكبر من خارج الوطن.

غـادرتُ في الصّباح التّالي، مع بعض الرّيبة - بسـبب سـعالي الـذي جعلني صامتة غالباً - عند السّاعة السّادسة والخمسين دقيقة في مرحلة طويلة إلى الهجرين.

الفصل الرّابع عشر
الركوب إلى الهجرين

«بلادٌ فيها قلاعٌ مسوّرة لا يُهرق فيها كثيرٌ من الدّماء
حيث يجب أن تحافظ القبيلة على حدودها ويحافظ الرّجل على رأسه
وعندما يتأخّر المسافر يداهمه اللّيل بينما يقترب من القرية
ويرى توهّج أعواد ثقاب الحرّاس حول البوّابة»

(سير ألفريد ليال)

كنا قد خلّفنا الجزء الأضيق من دَوعَن وراءنا، وكانت نخلاته قد ماتت منذ زمن طويل خارج فرجات تشبه المتنزّه. ولكن على الرّغم من أن الجدران كانت الآن منفصلة بشكل أوسع، فإنّ هناك نتوءاتٍ تلمع في ضوء الشّمس، وتبهت حدودها في بياض سماء الصّباح، أعطت الجدران أيضاً شعوراً مثل جدران السّجن، فقد وقفت أعمدة مشذّبة بشكل هائل مقابل ارتفاعاتها المصقولة بفعل الرّيح، ثلّمت في أخاديد أفقية؛ كانت قمم مصاطبها منتظمة.

يقول ابن مُجاور بأنّ بني عاد قَبل النّبي هود، جلبوا على أنفسهم الخراب، فقد سكنوا في تلك الأراضي وبنو لأنفسهم مصاطب ضد النّمل، وبنوا حولها مواقد ليمنعوها من التّسلق. لماذا تمجّد الأسطورة حشرة صغيرة جداً تهاجم أسلاف الإسلام العمالقة؟

لا أستطيع أن أتخيل: (لقد كان النّمل كبيراً بحيث كان، وفقاً لياقوت الحموي،

يسحب راكباً عن حصانه)، لكن بخصوص المصاطب فإني أشعر أن الجغرافيين الأوائل قد يكونوا تأثروا، كما فعلت أنا، بهندسة الوديان الاستثنائية، ونسبوها إلى تسوية الإنسان بدلاً من مصادفات الطّبيعة، وخاصة هنا عندما قابلت عدة مرات أشخاصاً لم يقرؤوا ابن المُجاور أبداً، ولكن يمكن أن يشيروا أيضاً إلى بعض الصّفات في تلك الجوانب المتناسقة ويقولون بأنّ بني عاد هم بالتّأكيد وحدهم من يمكنهم أن يكونوا مسؤولين عن مثل هذا البناء الضّخم.

أما بالنّسبة لي، وأنا ممتطية الفرس وقد أحزنني المرض في مثل هذا المنظر الطّبيعي عديم الرّحمة، فقد تصوّرت صدع الأرض هذا كواحد من مسرحيات دانتِه Dante وتخيّلتُ بدواً زُرق اللون يرقصون مع المذراة في اليد وخصلات شعرهم وشالاتهم متدلّية على حافة الجُول في الأعلى.

اتّسع الوادي، وقد جُعلت حقوله الضّحلة كمصاطب في وجه الطّوفان، ووقفت أشجارُ عِلب هنا وهناك، تحتضن ظلالها مثل دجاجة فوق بيضها. امتدّت طرق غائرة حيث تندفع جداول المياه في الصّيف، وسرنا فوقها على خنادق جافة الجدران. ولو اجتمع النّاس هناك، لتوجب على الواحد أو الآخر أن يفسح الطّريق ويتسلّق أسفل السّفح، وناقشنا هذه النّقطة مع رجل كان حماره، المحجوب نصفه تحت مرجل نحاسي، يجد صعوبة في التّحرّك. كنتُ سأفسح له الطّريق بسرور، ولكن منعني العبد الأسود ومنزلة الحكومة من ذلك.

كانت المدن في الجانبين عبر عمق الوادي قد تلاشت داخل الصّخور؛ وجعلتها خطوط التّزيينات وتصميمات شرفة الحصن المعكوسة ونوافذها الصّغيرة والمرقّشة تظهر كمجرّد شيء تافه أكثر تفتتاً من أعمال الطّبيعة من حولها. كان الرّعاة النّحيلون كلهم قرب المنظر الطّبيعي، في ألبسة فضفاضة حرّة، وسلّة صغيرة مستديرة من ثمار العِلب إلى جانبهم، ومغرفة أو عمود طويل في أيديهم لإنزال العلف من الأشجار.

Alta sub rupe canet frondator ad auras

لقد كان من المضحك رؤيتهم مفعمين بالنّشاط، ملفوفين بألبسة فضفاضة وبأوجه

مغطاة بخُمُر سوداء. فضّلت الماعز في بعض الأوقات أن تتولى أمر طعامها بنفسها وتسلقت الأشجار. وهي ملساء، سوداء وبيضاء، قصيرة الشّعر، برقاب جميلة مثل رقاب النّساء الفرنسيات؛ ولقد دفعت بشكل رقيق أنوفها المدوّرة لتحصل على الأوراق البيضوية الصّغيرة مع ثلاثة خطوط بيضاء ممتدّة أسفل منها والتي تحتضنها أشواك شجر العِلب.

كانت الحقول لا تزال فارغة، تنتظر مياه الطّوفان أو «السّيل»، الذي يأخذ مكان المطر. تمتدّ الأرض في كتل قاسية، مبيّضة من جميع الألوان، وقلبها الفلاحون المغبرّون مثلها إلى عمق حوالي قدمين، بمغارف حادّة وخفيفة؛ ويمكن أن يزرعوا الدُّخن هناك بعد السّيل. ولكن عندما أتينا أسفل بيضاء، كانت هناك بلدة كبيرة بحجم الخريبة تقريباً تتسلق الجُرف الغربي بأبنية بنّيّة هرمية الشّكل ووجدنا أنفسنا فجأة بين أشجار النّخيل مرة أخرى، ومزارع ماتعة يانعة من أشجار صغيرة وعنقودية، منتعشة في الصّباح بعشب وظل، وطرق هادئة مغبرّة ناعمة تحت الأقدام. وكانت هناك كميات من الأزهار - Calamint وعناقيد من زهر الرّبيع الأصفر، ولبلاب أبيض، وكُرات سَمْر صفراء برائحة العسل - وطيور تغني أغانيَ سلسة بست نغمات عذبة كالماء.

كان هناك العديد من القنوات الجافة قد حُفِرَت هُنا، ووصلت إلى الطّريق عبر ثلاث أو أربع قنوات لتوزّعها بين أشجار النّخيل عندما يحين الوقت، حيث كانت كل شجرة لها قناة حُفِرت حول جذورها لسقايتها. وعندما غادرنا متعة تلك المزارع، وخرجنا مرة أخرى في الوادي المكشوف، شاهدنا مزارع قمح - معظم زرعها بائس على سوق طويلة وجافة، ولكن في أماكن متنوعة هناك رقعة خضراء وظلّ شجرة عِلب نبتت فوقها؛ وفكرت، وقد ركبت قربها وشاهدت مشهد ذاك البيت، بأنه ليس في العالم شيء يمكن أن يكون أكثر جمالاً واطمئناناً ونشاطاً من رقة ظلّ فوق حقل ذرة، "somno mollior herba".

المشهد الآخر الوحيد لبرودة ذاك الصّدع الذي لوّحته الشّمس والذي سرنا فيه مطوَّقين، كان سرباً من الحمام بين الحين والآخر تحرّك نحو أعشاشه الصّخرية؛

وقد أظهر ريشه الرّمادي بالتّباين كم كانت المنطقة القريبة كلها جافة وحارّة وحمراء. كان سلاح جنديّنا، الذي فرح لخروجنا أخيراً، على كتفه، ويتمايل وركه، بمئزر بلون أزرق وأرجواني مغسول حديثاً، يسير بخطى واسعة خلف رأس حماري، وقد أضاف الغبار إلى الشّعور بالعطش في المنظر الطّبيعي، غبار نبتلعه جميعاً أكثر من أن يفكر أي شخص بأن قدمين اثنتين فقط هما اللتان أثارتاه.

كان جُلّ طريقنا لهذا اليوم عبر أرض تحت سيطرة باصُرّة؛ ولكن كانت الحرب تضطرب في وديان الجانب الأيمن، وتمسك الحاكم القلق بالسّيّد الذي صادف مروره من مَصنَعة كي لا يدع أيّ شيء غير مُنجز من أجل راحتي، وأخبروه أن يبقى معنا لمزيد من الأمان. ينحدر السّادة الأشراف كلهم من الدّاعية الأول إلى لإسلام الذي استقرّ في حضرموت، وهم لا يحملون الأسلحة، ويمكنهم السّفر إلى أي مكان دون خطر، على الرّغم من نموّ حركة دنيوية حديثة، مؤلّفة بشكل أساسي من مستعمرات حضرمية مهاجرة عبر البحار، وهي الآن تقوّض تأثيرهم. ومع ذلك، فقد كان يمكننا اعتبار رفيقنا الرّحّال كفيل سلام. كان شاباً بأنف أفطس وعمامة صوفية زرقاء – وكان كثير الصّمت إلى أن أكلنا معاً، وناقشنا أصول أئمّة مختلفين، ثم أصبح رفيقاً لطيفاً وتدريجياً أصبح يمشي إلى جانبي بدلاً من المشي بسرعة في الأمام بعباءة مرفرفة على مسافة غير ملوثة.

وصلنا إلى صخرة بعد أن عبرنا إلى الجانب الأيسر من الوادي، حيث التفّ شرقاً تحت جدران بلدة القرن، وأتينا عبر امتداد قاحل إلى حيث يدخل فيه وادي الأيسر. هنا مكان مفتوح وواسع حيث لا بدّ أن يندفع الطّوفان فيه، لأن الأرض عُقِدت في شقوق وخنادق، وتراجع الجُرف في الجانب الأيمن في مسافة تاركاً شعوراً بالحرية، لأنّ الأيسر وادٍ هائل ومزدهر ويشرب نصف ماء الجُول الشّمالي من المُكلّا، كما رأينا عندما سافرنا هناك على طول منابعه. تركناه خلفنا والتففنا شمالاً، وتركنا آخر القرى، التي هي الآن رقع طينية بائسة، عبر قاع السّيل في الغرب.

سألتُ البدوي الذي كان يهرول قربي عن الحرب، وأين كانت مواقع العدو.

قال: «هناك»، وأشـار إلى واحدة من مجموعـات البيوت تدعى Koka. كنا بعيدين بعض الشّـيء ولكننا اسـتطعنا رؤية رجال منهمكين في عملهم جانب الجدران. «هذه واحدة من قراهم. ولكننا لا نقاتل هنا. نحن نقاتل في هضاب الأيسر».

سـرنا في فراغ متزايد للوادي، وضربتنا حرارة منتصف النّهار من الأعلى. أتينا عند منعطف على شـجرة جميلة يسـمونها عَذَب، يصنعون شاياً عُشـبياً tisane من لحائها. كانـت أزهارها صفراء وبيضـاء، كبيرة وعطِرة، كما أنها مبهجة فـي غرابتها مثل حقول الذُّرة التي كانت قبلها. وقد توصّلتُ إلى نتيجة بأنّ سرّ جمال هذين الشّيئين في الأرض المغبرة أنه لم يكن عليهما غبار.

شـاهدنا بعد ثلاث ساعات وربع من المُكلّا كتلة بيوت صِيْف المحتشدة في خليج مـن الجُرف الغربي، أسـفل برج طيني حافـظ منه الجنود اليافعيون علـى البلدة. وفيها منارة بيضاء، ومدرّج من صخور منحدرة بشدة، كما لو أن جانب الجُرف خلف البلدة قد ازدحم بتماثيل كبيرة مطموسة جزئياً. إنه مكان متواضع، ببيوت على شكل حصن. يـأوي علـى حافتها الخارجيـة نائب باصُرّة بتواضـع، ورحّب بنا بانفعـال ودود، راجع إلى حقيقة أنه استأسـد عليه الجنود واشـتبه به أهل البلدة؛ وبالنسـبة للسّـيف فهي نوع تقليدي قديم الطّراز من مكان فيه شيء قليل مشترك مع مضيفنا وزوجته، الذي كان قد تاجَرَ بالمركبات في جِدّة وعرف كلاً من مكّة والقاهرة. عُلّقت صُور ثياب فرنجية على الجدران في غرفة جلوسـهم الصّغيرة، فوق لوحة جدارية لباخرة بعجز بسـيط يسـميه الفنانون المعاصرون بأسماء أفخم. كانت جميع حقائق الصّورة موجودة هناك: قمعان يقذفان بخاراً، ووجه القبطان مثل قمر مكتمل فوق سطح السّفينة، وطائرة في السّماء.

لم يكن هناك شـيء من ثراء، لا الأعمدة المنحوتة ولا مهابة مَصنَعة الأرستقراطية؛ ولم يكن لدى الوكيل نفسـه أيّة سـلطة. لقد أبقى الجيـران المتلهفين بعيداً، مضطربين بجلبة في الأسفل يطالبون برؤيتي؛ بينما راح يتحدّث عن المشاكل التي سبّبوها له. شقّ رئيـس اليافعيين طريقه إلى الدّاخل وهو يهدر بغضب، واختطف الدّواء الذي كنت قد أعطيته لتوّي للمضيف من أجل عينيه - ولم يُفلح أحدٌ في جعله يرحل. فقد كان رجلاً

شرساً، نصف عارٍ، وعامل الحاكم الصّغير بازدراء وسخرية كما يعامل قائد عسكري بريتوري Praetorian القياصرة الأضعف في روما. ثم كان هناك الكثير لنعمله لنجد حميراً جديدة، لأنّ البدو الذين يرافقوني قد بلغوا هنا نهاية مرحلتهم. مضت السّاعات، وصرخ الحشد، انسلّت النّساء لينظرن إليّ؛ وتُقت للنّوم والهدوء. ولكن عند السّاعة الثّانية والنّصف كانت الحمير جاهزة. نزلتُ إلى الحشد، الذي كان خارج السّيطرة تماماً، يموج باهتياج، ولكن بودّ عندما ظهرت حقاً. توقفت رحلة إنغرامز Ingrams في صِيْف واعتبراها غاية في العداء تجاه الغرباء؛ وقد انتُهب فون ڤريدِه von Wrede هُنا، وكاد الزّوجان بِنت Bent يعودان أدراجهما، وأمضى المندوب الهولندي ليلة غير سعيدة منذ أربع سنوات. ومع ذلك، فقد انطلقتُ قُدُماً وأنا أردّد «والله» w'Allahs على حمار صغير جداً يكاد يكون مخفياً تحت خرجي السّرج. انتضى ثلاثة يافعيين أنفسهم من بين زملائهم وجاؤوا كمرافقين، واتجهنا شمالاً فوق قاع السّيل الأبيض الذي يبهر في الشّمس.

يتناقص تدريجياً شعور الأمان عندما يسافر الشّخص شمالاً من دَوعَن. لقد حُفظت سلسلة من التّواصل مفتوحة مع سلطة الحكومة، ولكن يشعر الشّخص أن المدى في تلك المسافات المنخفضة المعزولة للوادي يتطلب بعض الجهد للوصول إليها. هناك زراعة قليلة جداً بين الهجرين وصِيْف، ولم أتمكن أبداً أن أقرّر بفكري الخاص إن كانت تلك الامتدادات القاحلة كانت السّبب أو النّتيجة للفوضى. ولكن في المجمل أعتقد بأن عدم الإحساس بالأمن المتواصل هو الذي يدمّر أولاً المحاصيل، ثم يترك الأرض مفتوحة لتخريب الطّبيعة.

سافرنا عبر قفر في ضوء فترة ما بعد الظّهر. ظهرت قيدون بلطف تحت شجرات، عبر قاع حجري بعيدة بعض الأميال في وادٍ غربي، حيث يقع ضريح أحمد بن عيسى، جد المَنْسَب في ثِلَة هناك، كان يمكن أن أتوقف لزيارته لو لم أكن أشعر بمرض شديد، ولقد بدا مضيافاً ومفتوحاً في فسحة الوادي. ولكننا انعطفنا شرقاً وسرنا في أرض متجعّدة متصلبة، بقشرة أرض متكتلة - حجر كلسي أو حجر رملي - حطمها الزّمن

فـي أخاديد بارتفاع عشـرة أقدام تقريباً، ممتازة جداً للقناصيـن. يوجد بعض العِلب أو شـجر السّـمْر، بلا ماء، وقبّة بيضـاء صغيرة عند فواصل السّـقاية، التي وهبها شـخص محسن من بعض المسافرين الذين طواهم الموت.

امتـدّ السّـيل في وسـط هذا القفر، نهـراً من صخـور بيضاء حيث جـرف بعيداً أديم الأرض الأحمر. بُنيت هنا وهناك مراكز مراقبة صغيرة مربعة الشّـكل، غرفة طينية فوق أخرى، بثقب رماية في كل جدار. لم يكن هناك بيوت، باستثناء بيت بعيد في كل جانب من خلجان الجروف، توجد جماعات بشرية بائسة محجوبة غالباً تحت جدران طبيعية عريضـة، ومتباعـدة فـي ذاك المـكان. ولا وجـود لأناس باسـتثناء امرأة بغطاء أسـود، ابتعدت بسرعة.

تفـرق اليافعيّـون الثّلاثـة بمـرح على تلـك الأرض، يمشـون بطيش، طـوال القامة ونحيلين. لقد كانوا جذابين، رجال مهملين، بزهوّ جامح.

“il devient malaisé, d’après notre manière de voir, d’établir une démarcation entre le paladin et l’apache.”

وقـد حملـوا أسـلحتهم علـى أكتافهـم وأظهـروا العضـلات القاتمة فـي ظهورهم وأرجلهم وهم يحرّكونها.

كان أحدهم شـاباً، معقوف الأنف وسيماً، بينما كان الاثنان الآخران رجالاً مسنّين، وبدا من غير اللائق النّظر إليهما، وكانوا يرتدون إزاراً فقط وحزام خراطيش، بأوجههم المهيبة والمجعدة، وبعصابة حول شعرهم وخاتم في أصابعهم الصّغيرة، يقفزون قرب الأخاديـد بعد حميرنا الشّـاردة. وأخبروني بأنهم يذهبون مرة في كل سـنتين لموطنهم إلى قراهم الجبلية في التّلال شمال شرق عَدَن.

سألت: «ألا يعتبر الوقت طويلاً بالنّسبة لكم بين زيارة وأخرى؟».

قـال المرتزق المُسـنّ: «بلى». كان يمشـي خلـف حماري وحـاول أن يحافظ على قوائـم الحمار الخلفية الصّغيرة مخفية بطريقة صحيحة بواسـطة سـلاحه. وقد ابتسـم

بحـزن إلى حدّ ما وقال: «جميع الرّجال يحبّون أوطانهم. الأراضي الأجنبية ثقيلة على القلب». وحالما أصبحت الشّـمس منخفضة خلفنا بسـط شـاله على الأحجار البيضاء وصلّـى صـلاة العصـر، بينما تابع رفاقه سـيرهم مع جنديناء وقد نسـوني تماماً بسـبب حماسهم لوجود جنود حقيقيين من الحكومة يتحدّثون معهم.

احتجت لمسـاعدة، بسـبب أن حماري كان ذاك الشّـيء الضّعيف الذي ظل يتعثر، وقد سـقط معي أربع مرات، ولحسـن الحـظ كان صغيراً جداً حيث اسـتطعت تخطي أذنيـه قبـل أن نلمس الأرض تمامـاً. كان اليافعيـون ممتعضين من أهل صِيْف بسـبب منحي مثل تلك الحيوانات البائسـة. فقد كان هناك على ما يبدو مشـكلة حول العمل، ولـم يظهر أيّ سـائس حمار لمـدة طويلة، وكنـا جميعنا عاجزين عن فعل شـئ ما عدا السّـيّد، الذي أظهر براعة مدهشـة في فن التّكلّم مع الحمير بلغـة مقبولة؛ إلى أن باغتنا أخيراً صاحبها الحقيقي، وهو بدوي شـاب جميل أجعد الشّـعر، سـاخط بوضوح لأنه جُنِّد من قبل الحكومة، ورفض حتى أن يردّ على سلامي. وبالرّغم من ذلك، أخذ دوابه بيد، ووجّهها بعدة أصوات مدروسـة بشـكل جيد من الحافات التي أخذها إليها حسّها الألپـي، باتجاه الطّريـق الصّحيح. ولكنه كان مقطب الجبين معنا جميعاً، وعندما وقفنا للسّـقاية مشـى أمامنـا، ومرّر ذراعه عبر شـبكة طينيـة الصّنع والتقط المغرفة وشـرب، وأعادها مرة أخرى دون تفكير بأيّ منا لو أني لـم أطلب منه أن يناولني القليل من الماء، وناديتـه «أخي» كمـا فعلت دائماً. لقد كان لهـا تأثيرٌ ملطّف، وتمّـت تمضية تتمة اليوم بانسجام؛ وكان هذا أيضاً بسبب أننا كنا جميعاً متعبين قبل النّهاية.

اتجـه وادينـا شـمالاً، وعندما غابت الشّـمس خلـف جدرانه، شـاهدنا صخرة بلدة الهجريـن بعيـدة جداً أمامنا، وهي أيضاً قد سُـطِّحت، ولكن بخطوة أعلى من مسـتوى الجُـرف العـام، لذلك فهـي علامة طبيعية فـي كل جانب. ظهرت الزّراعـة هنا، حقول قمـح ودُخـن، وقرية واحـدة أو اثنتان أكثـر ازدهاراً، وعلـى يميننا سـبيل متعرّج أعلى الجُـرف الذي يذهب منه النّاس إلى المُكلّا في خمسـة أيام، هذا ما قاله جنودي. يعتبر الطّريـق الذي يصعد باتجاه حضرموت من المُكلّا عن طريق دَوعَن بالفعل هو الطّريق

الأطول، ولكنه استُخدم فقط بسبب أمنه الأكثر، حيث لا يوجد سبب جغرافي يجعله طريقاً أساسياً داخل البلاد.

كان الليل قد خيَّم علينا. أنار لنا هلال قمر صغير، ساطع جداً وشاحب، طريقنا على طول خندق عميق مغبرّ في الطّريق الذي بدا أنه لن ينتهي أبداً. مشينا مطوّقين في خندق كالسّابق. أنزلني حماري المتعب مثلي، في مسافات منفصلة في التّراب النّاعم العميق. هرول السّيّد الشّاب خلفنا يستحثه بجلبة، متوقفاً بين الحين والآخر في الظّلام ينتزع الأشواك من أقدامه الحافية، فهناك كميات كبيرة منها أسفل كل شجرة عِلب حيث كانت راعيات الأغنام قد سحبن الأغصان إلى الأسفل. وأصبحتُ تدريجياً فاقدة الحس من التّعب، بسبب أننا كنا في الطّريق لمدة سبع ساعات تماماً وكنت ضعيفة. وفي منتصف الليل، جاءت أربعة جمال نحونا تلوح تحت أحمال من قصب. كان علينا الصّعود إلى الجُرف العالي، حيث امتدّ طريق آخر على طول القمة، في حين عبرت الأباعر مثل الأشباح في الغبار بالأسفل، وأشخاص سود تجلس متأرجحة فوق الحمولة. حيَّونا بشكل مريب، لا بدّ أننا ظهرنا خطرين بأسلحتنا الأربعة مقابل الأفق في الليل.

ولكنا بدأنا الآن أخيراً نشاهد في الأسفل من طريقنا العالي أحواضاً من ضوء القمر تحفّها حدائق معتمة. ظهر في الهجرين سوداء الشّكل ضوءٌ واحد على تلّة، قدِمنا حتى أسفل جدرانها، حيث طوَّقت أسطح مجموعة من خلايا النّحل آبار المدينة؛ امتدّت حولها أرضٌ مستوية معتمة بضوء القمر، وتعرّج الحصى البالي في الأعلى تحت الجدار حيث دفعت روافد خشبية نحو الخارج تياراً أسوداً من مياه القاذورات.

وأتينا في القمة إلى بوابة مرصّعة وعتبة عالية، طرقنا وسمعنا صراخاً في الدّاخل: كانوا يتوقّعون وصولنا، ولكن تأخر الآن موعد وصولنا. فتحوا الباب، وقادونا إلى حيث وقف عبدٌ يمثل المُكلّا قرب المسجد ليرحّب بنا، وقد اختفى وجهه الأسود بعمامة وبظلال الليل. واحتوى المسجد أيضاً على بئر بسقف خلية نحل، ومئذنته المربعة ثم مستديرة ثم مربعة مرة أخرى في الأعلى هي من أقدم الأنواع التي وجدت

فـي حضرمـوت. وقـد لمعـت بشـكل خافـت، وقـد أضيئـت بكوكبـة ذات الكرسـي Cassiopeia الشّمالية فوقها، ولكن البلدة كانت مظلمة.

قادنا فريقنا الصّغير إلى باب في جدار أبيض، حيث بيت السّـيّد؛ انتظرنا هناك بينما بحثـوا عـن مضيفنـا، على الرّغـم من أنه كان يوجد أشـخاص فـي الدّاخـل، فإنهم لن يسـمحوا لنـا بالدّخول إلى أن يأتي سـيدهم. مـن الخطأ الوصول إلى مدن شـرقية بعد حلول الظّلام. ولكن أخيراً تأرجح الباب المنقوش للخلف، وسُـمِح لنا بالدّخول إلى نوع من غرفة حراسـة، بجدران قذرة، غير مفروشـة، كان المرتزقة اليافعيّون يجوبونها على مهل، وهم يحملون بنادقهم. تسـاءلت مغتمّـة فيما إذا كان ذلك هو المكان الذي سأقضي فيه الليلة، لأنّ العبيد السّود غير متمكنين من الأرستقراطية العربية في التّعامل وغير قادرين على التّعامل مع قدوم مفاجئ للضّيوف، ولم يبدُ أن أحداً قد اهتمّ بممثّل الحكومة.

ومع ذلك، جاء السّـيّد بعد برهة وقادني إلى الغرف الدّاخلية لحريمه. أظهر صوت همس وترتيب واعتراض بأني سأُمنح شقة السّيدات الخاصّة في تلك الليلة. مُدَّ لحافٌ بعجلـة بيـن ركام أنثوي مبعثر، وأعجبت بالجدران المنقوشـة والأبـواب وحاولت أن أركِّـز عليها لإبعـاد أفكار أخرى. جاء الوجهاء لشـرب الشّـاي معـي وأخبروني بأنهم كانـوا ينتظـرون فـي اليومين الأخيريـن هنا للقائـي؛ وبعدمـا ذهبوا، فتحـتُ مصراعي نافذتي وشاهدت عبر شعريتها المنقوشة، بعيداً في الأسفل في وادي القرون الوسطى، المصابيح الأمامية المستقرّة لسيارة.



الفصل الخامس عشر

مَنْسَب المَشهَد

«لأنّنا نرى النّار في عيون الشّباب،

أمّا في عيون العجوز فإنّ ما نراه هو النّور».

(ڤيكتور أوغو)

لـم يُلقِ أحد أدنى اهتمام لرقيق حاكم الهجرين؛ تردّد في زاوية وتصادق مع جندينا العبـد، وهو مُهمَـل مثله مثل جامع ضرائـب بلاد منخفضة في مجمع العشـائر، ومثال واضـح لعدم جدوى سـلطة أشـخاص ليسـوا ذوي نفوذ فـي بلد قبلي. ولـو حصل أن ذكرتـه بلقب حاكـم Hakim الحكومـة الجدير بالاحتـرام، كان البعض يحـدّد الحالة بالقول: «تعلمين، هو مجرد عبد».

ومن جانب آخر، فقد جلس السّـادة الأشـراف حولي ونهضوا حالاً بتصفيق احترام لتحية مقدم مَنْسَب المَشهَد الشّيخ أحمد العَطّاس. وهو يحكم الوادي أسفل الهجرين، حيث ينتهي نطاق سـلطة المُكلّا. دخل بشـكل ملكـي، ملتفّاً بعبـاءة مخملية خضراء، وعمامـة صفراء اللون على رأسـه؛ وأمامه فـي يده عصا فضية الرّأس؛ وقـد كان بديناً، كريمـاً ونشـيطاً، وأحيط محيّـاه الطّلـق بتجعيدات لحيته وشـعره الرّمـادي؛ وقد أُلقيَ وشـاح مخملي بلون أحمر وأخضر على كتفه. كان متواضعاً، مطمئناً لسـلطته المطلقة وبسلوك محبّته الأبوية.

نظـر إليّ بعينيـن وامضتين هادئتين بينما احتسـى الشّـاي من فنجانـه، وهناك رجل شاب من جاوة Java متحمّس ليُظهر معرفته بالعادات الأوروبية، أزعجني ليظهر عدم حيازتي على الشّهادات.

قال: «الشهادات، وهي التي يملكها كل فرنجي يدرس - ألا تدرسين التّاريخ؟».

علّقتُ: «إنها ليست طلاسم، لا يتوجب على المرء أن يحملهم معه أينما ذهب. إنها عبارة عن بضعة أوراق لتظهر أنك دخلت جامعة».

قـال الرّجل الشّـاب: «لقد درسـتُ اللغة الإنكليزية لسـتة أسـابيع؛ لم أسـمع كلمة جامعة أبداً». فقد ارتاب بشـكل واضح بوجودها. ولكن نهض مَنْسَـب المَشـهَد الذي رآني الآن مرهقة، وأخذ جماعته معه خارجاً إلى النّوم».

عندمـا فتحـت بابي في الصّبـاح التّالي، كانت تقـف هناك فتاة بملامـح مثالية، وقد اكتسـت بكسـوة كاملة يمكن لأيّة امرأة شـابة مـن الهجرين أن ترتديهـا، وزيّن وجهها ليلائـم ذلك. ميّـز حواجبها المنمّصة خـطٌ رفيع قرمزي اللون، مثل طـلاء على البريق الأصفر لوجهها. وكان منخراها، أيضاً، قرمزيين وتصميم أخضر يشبه رقم 7 من أعلى الحاجب الأيسـر نزولاً إلى أنفها. وكان في شفتيها المنقوشتين بإتقان خطٌّ وشم أزرق على الشّفة العليا، رُسم من نقاط وخطوط في الأسفل على هذا النّحو:



كان ثوبهـا، الأغنى من ثـوب دَوعَن قصيراً إلى الرّكبتين في الأمـام ويتدلّى خلفها، مع شـرائط من البرّيق من الأكتاف ونجمة تتلألأ في منتصف الظّهر فقط، حيث يمكن لمشـية متمايلـة متزنة أن تظهر أهميته بأفضل وجه. وقـد وضعت تمائم في علب فضية مثل تاج حول رأسها وقبعة من خيوط المرجان فوقها.

كانـت كل أذن أسـفل عـدة ضفائر مثقلة بسـبعة أقراط. وحملت فـي يدها من أجل

إفطـاري طبقاً خشـبياً كبيراً، مـع بعض البيض وبعـض الفطائر المحلّاة وخُبز مُشـرب بالزّيـت. كانـت عيناهـا الصّغيرتـان الودودتان تبتسـمان لي فـي ذاك المـكان المتقَن، وفسَّـرت بأن هذا البهاء كله كان قد وُضع على شـرف الرّجل الشّاب صاحب الدّپلوم، الذي كان يحمل في ذاك اليوم عروسـاً من الهجرين. كان قد جاء بسـيارة، ولكن كانت جمالـه قادمة فـي الطّريـق، وعندما تصل سـيحمل هو وأصدقـاؤه العـروس إلى بيتها الجديد، إلى مسافة ركوب يوم طويل بعيد.

استمرّ موضوع الملابس الذي تقدَّم معنا خلال فترة الإفطار، وجاءت بنات شابات أخريـات ليُظهرن زينتهـن المبهرجة. كانت بعض العباءات قـد صُنِعت من قطن مزهَّر مـن الهنـد، ولكني أعتقد بأن الثّـوب في الهجرين النّموذجي هو أسـود غير ملون وهو الثّوب الأقدم ومطرّز بالفضّة. يقولون بأنّ البطل الأسطوري أبا زيد]الهلالي[تحارب مـع رجـال حضرموت لينتقم لأخيه، وحقّق السّـلام فقط بشـرط أن تُسـدّ جميع الآبار في البلاد، وعلى النّسـاء أن يلطخن وجوههن باللون الأسـود، ويلبسن عباءات سوداء قصيـرة إلى الرّكبتين من الأمام. وكان هذا أول فعل فرض عليهم، ولكنهن الآن جعلن ذلك موضة ويتابعن ذلك حتى هذا اليوم.

طلبت منهن أن أشتري عباءة لحملها معي للسّفر، وألهبت بذلك مشاعر الطّمع في مضيفي، وجه جلف وعقلية تجارية لسـيّد Sayyid مسـنّ، فقد اسـتغلّ وضعي كضيفة ليطلـب مبالـغ هائلة. وكان قد فكَّر في اسـتضافة أفراد سـلاح الجـو الملكي R.A.F. قبلـي، مع النّتيجـة المحزنة التي تتبع الرّحاليـن البريطانيين غالباً – وقـد نظر إلينا الآن جميعـاً مـن زاوية مادّية. ربما من غيـر الإنصاف التّفكير به بشـكل غير لطيف، وتمنّت زوجته التي لم تكن قد فسـدت أن تقدِّم العباءة كهدية. إننا نهين ونفسـد أخلاق النّاس عندما نعامل طيبتهم كشـيء يمكن أن يُشترى. ونفكر بالأسـوأ بهم عندما يستخدموننا كمجرّد مخلوقات تدفع نقوداً. لأنه لا يوجد شيء أكثر إهانة مهذبة من رفض الخضوع لالتزام.

عندمـا اختار السّـيد پيرّيشـون Perrichon بين طالبي يد ابنته، لـم يمنح قبوله لذاك

الذي أنقذ حياته، ولكن لذاك اللّبق الذي يسمح للسّيد پيرّيشون أن يحميه، هذه هي الحقيقة الجوهرية للطّبيعة البشرية التي نميل لنسيانها. شعرت أنا شخصياً بالذّنب لإرسال سعر أثواب السّيدات في الهجرين للزّوار مستقبلاً، ولم يَرُق لي السّيّد الكهل الذي لم يفكر بشيء سوى المال، وقد جمع قدر استطاعته، ولم يأتِ حتى لرؤيتي في الخارج عند مغادرتي - إنّه أنموذج محزن لتأثير الغرب.

ولم يكن كذلك مَنْسَب المَشهَد، الذي ظهر من جديد في الصّباح التّالي ناشراً حوله جواً من احترام مرِح. أمسك بيدي، وقادني إلى أعلى المنزل، حيث امتد في الأسفل المنظر من الوديان المتجمعة وحقولها. وفتّت عليّ من جيب مخفي في ثنيات عباءة المشيخة نعناعاً وقرنفلاً، وأعطاني جواده لأركبه عبر طرقات البلدة المذهِلة - المليئة بالحمير المحمّلة بسلال كبيرة تصلح لأيّ عرض للفروسية، ولكنه علامة لكل روح شيخ مسنّ مستقلة، لأنه كان رجلاً مبجَّلاً، ومقدَّساً، ولم يُجبر أن يكون فاتناً بشكل علني لجنسي الأدنى.

قد أشار بطريقة مرحة: «إنهم يستنكرون ذلك، ولكنهم ضيّقو الأفق، وأنا لا يهمّني ذلك». تركني لأتابع سيري إلى المَشهَد وجهّز استقبالاً، بينما تسلقتُ لأشاهد الأطلال على التّلّة خلف البلدة.

إنها أكوام غير متجانسة من الكِسارة مع بعض أحواض ماء، ولكنهم يُظهرون بأن التّلّة لا بدّ أنها غُطِّيت ذات يوم بمنازل دمّون التي كانت في سالف الأيّام عاصمة قبيلة كندة ولا تزال موجودة كضاحية من ضواحي الهجرين، وقد أشير إليها في بيت شعر لامرئ القيس، أمير كندة (الهَمداني، ص 85):

كأنّي لم ألهُ بدَمّونَ مرَّةً ولم أشهدِ الغاراتِ يوماً بعَندلِ

وعَندَل بلدة صغيرة أتيح لي مؤخراً تعيينها وزيارتها في وادي عَمد.

كانت هذه الأماكن مزدهرة في الأيام المبكرة من الإسلام، مشكّلة على الأرجح ازدهاراً اقتصادياً غير منقطع من قديم الزّمان. لذا فقد أتيت الآن إلى الجزء من

حضرموت المليء بالآثار السّبئية، المنتشرة في كل جانب. وقد أخبروني بأن هناك حوضاً سبئياً أعلى قمة صخرة في الهجرين. تسلّقت إلى السّفح من طريق قصير، ارتفعت الصّخرة على شكل مدخنة شكلها مبهج ولكن تسلقها مستحيل بسبب ضعفي. كان عليّ تركه والعودة مع جمع صغير ومُحبَط، وأن أجلس في الشّمس وأنظر إلى الأصداف المتحجرة التي وجدتها هناك، بينما راح رجل بلحية متجعدة يسأل أسئلة. لقد كان في كينيا Kenya وفوجئ برؤيتي أسافر دون خادم.

قلت: «السّلام أفضل من الخدم، ولا يمكنك الحصول على كليهما. ومن الممكن أن يتشاجروا مع البدو عندما أكون بعيدة في الجُول».

وافق على كلامي: «هذا صحيح، ولكن لا يذهب أيّ إفرنجي دون خادم. عليك الحصول على واحد، ثم تستطيعين الجلوس في غرفة، وهو يجلس في أخرى، ومتى تشائين تقولين «يا ولد» ».

أضحكتنا جميعاً هذه الصّورة للحياة الأوروبية ومتعها، وتأخرنا، لرؤية البلدة في الأسفل، حيث كانت تحدث كل أنواع الإثارة باستمرار. كانت الآن العروس في الأسفل وعلى الطّريق المتعرّج تحت الجدار تنزل مع ضربات قرع الطّبول، وحشد أسود من النّساء المنقّبات؛ وتحلّقت حولهن فتيات صغيرات سافرات بأثواب لامعة، مثل فراشات. وانتظر مرافق الزّفاف على أرض مستوية؛ كانت الجمال قد وصلت ووقفت مع البُسط الاحتفالية الحمراء حول السّيارة. ظهرت سيارتي الآن التي كانت قد ذهبت لتبيت في مكان آخر الليلة الماضية، وأضيفت إلى الشّعور بالعيد العام. وقفتُ قرب مستودعات صهاريج خلية النّحل حيث يُحوّل إليها الماء ويُترك فيها في زمن الفيضان، وشاهدت مندوب السّيّد من وادي حضرموت يتسلّق نحوي أسفل جدران المدينة.

وعندما ظهر، كان شاباً قوياً، ودوداً ونشيطاً من مكّة، أوروپياً في ثيابه، جوارب وبنطال قصير، قلم حبر وساعة يد، وقبّعة من جلد الخروف على رأسه. كان في بغداد، وقاتل في وقته مع الملك حسين، يقود الطّائرات للجيش العربي في العقبة؛ كان اسمه

حسَـن، وكان يعلم كل شـيء حول سـلوكيات ومعاملة الأوروپيين، كونـه اعتنى بكل المقيمين من عَدَن والزّوجين إنغرامز Ingrams في زيارتهما الأخيرة.

وقد أسـرع الآن بطاقة غير شـرقية ليوصلني أنا وحاجياتي إلى السّـيارة. ولا يمكن لنصفها أن يدخلوا فيها، لذا كان علينا أن نعتمد على بدوي، وافق مقابل ثمانية طالرات على أن يأخذ معظم متاعي والسّـيّد الصّغير المسكين ورفيقنا المسافر معه. فكّرتُ بأنه من الممكن أن يكون المكان جُعل من أجل السّيّد، ولكن نظر إليه حسَن بازدراء متمدّن مُفـرط واختفى. ظهر حمّالون من حيث لا ندري، وحمّلوا صناديقي نحو سـفح التّلّة. جاء حشد قليل من حفل الزّفاف وهتف لنا، واستلقيت تحت ظل قماش القنّب بشعور مبهج بأننا نستطيع الآن السّفر باتجاه الرّاحة ونستلقي دون جهد إضافي من طرفي.

كانت قطعة أرض مُمحلة أيضاً، وتابعنا لنشـقّ طريقنا بين أخاديد حمراء قاسية مثل التي غطّت قعر الوادي قبل يوم واحد. كانت تلك السّيارة الرّابعة، بعد سيارة العروس، التـي تأتـي جنوباً بقدر مـا تبعد الهجريـن، ولـم يكـن هنـاك طريق مناسـب؛ ولكن كان سائقنا بربرياً ذكياً يتمتع بمعرفة فطرية لما هو ممكن في المنحدرات؛ ويمكن أن يدخل ويخـرج دون أي كلام، ووقـف من تلقاء نفسـه لجعلي أشـاهد رابيـة أطلال، لا يمكن للعين العادية أن تميّزها إلا بارتفاع الأرض والكسرات المتبعثرة.

وصلنا في حرّ النّهار إلى المَشهَد Meshed ووجدنا المَنْسَب Mansab في استراحة مرتديـاً مـا يمكـن أن يكون ثوب نـوم، نائماً مع تابعـه المخلص حوله فـي غرفة علوية بيضـاء جيـدة التّهوية بين ثمانيـة نوافذ مفتوحة. جـاء متكوّراً إلى أسـفل درجاته، التي احتوتـه بالتّمام، مبتهجاً ومرحّباً. طلب قهوة، وأخرج الجميع لإعطائي الغرفة، وطلب ماء وحتيكة Khoteqa - نبتة محلية يسـتخدمونها كصابون، وتشـبه إلى حدّ ما نشـارة الخشب النّاعمة، طيبة الرّائحة - وأطعموني وجبة ممتازة.

كانـت الغرفـة بهيّـة، مرفوعة على أربعة أعمدة تحت سـقف ذي عوارض خشـبية. وقـد احتوت فجوات مطليّة بالأبيض فوق النّوافذ المنحوتة، وأعمدة بيضاء عند الباب صنعـت كلهـا لتبدو مثل نقـش مجصّص، وموقداً للشّـاي والقهوة في إحـدى الزّوايا.

وعلى الجدران بعض الأسلحة، رماح وعصي، وأعمدة راية للمواكب، ودفوف مسطّحة لتُمدّ عبر السّاحة في أيام الحج، عندما يكون هناك قرعٌ مستمرّ بنقرات رتيبة في الوادي. وبالنّسبة للمَشهَد فهي أحد الأماكن المقدّسة في حضرموت، ويأتي الحجّاج حتى من صنعاء في اليمن من أجل يوم وليمتها في ربيع الأول. ويستقبلهم المَنْصَب جميعهم، ويضعهم في بيت ضيافته، خلف قبر جده، ويقرأ القرآن لهم في غرفته المطليّة بالأبيض، ويطلق بين حين وآخر واحداً من أربعة مدافع صغيرة، وهو يفتخر بها بشكل خاص.

أخبرني عن تاريخ المكان، والذي يحمل في انفتاحه التّرحيبي والأجرد صفاته التّأسيسيّة. لقد كان ذات مرة أرضاً مشاعة، أرض معركة القبائل، وكانت الزّراعة والمرور فيها مستحيلين على حدّ سواء. ويمتدّ الوادي الواسع الضّحل غير المأهول، إلا من حجارة آثار مدنه القديمة، المدفونة لفترة طويلة تحت الأرض. استقرّ هنا جدّ المَنْصَب، وهو رجل تقي اسمه سيّد حسن العَطّاس؛ وبقداسة حياته غير المحمية في البلاد المنخفضة المفتوحة، وبعنايته المضيافة، لم يسدّ حاجته لا من أراضٍ ولا من حراثة، ولكن من الهبات العفوية من المتديّنين، وقد أحلّ سلاماً في البرّية، وجاء ليكون المؤثر الأكبر بين البدو في محيط الجُول. يوجد قبره المنقوش بالبرونز مع ثلاثة قبور أخرى أسفل ثلاث قباب بيضاء، وبقربها قبران بلون أبيض أقلّ منها شأناً، وحجارة حِمْيَرية Himyaritic منقوشة بُنيت داخل عتبة الحجرة.

كان مكاناً هادئاً للنّظر إليه في الخارج بتجرّده غير المحروس. خفّف الغبار بياض القباب التي تشبه خليّة النّحل إلى اللّون الزّهري، وارتفعت خلف رواق مقنطر وأبواب منحوتة، مع قبّة بحجم أصغر أمامها. وبنيت هناك خارج الأبواب ثلاث منصات مسطحة للجلوس عليها، برّاقة وباهتة اللون بمرور الزّمن. وتلكأت هنا امرأة أو اثنتان وبعض البدو مع أسلحتهم. وبُني عبر المكان المفتوح مسجد صغير ومنارة، صحراوي بلون رمال الصّحراء؛ كان هناك حوضان، صُنعا ليخزّنا ما يقارب عشر ياردات مكعّبة من المياه، ولكنهما الآن فارغان، وكذلك أصبح لونهما الأبيض

زهرياً مع الرّمال العاصفة. وتبعثرت حوله سقاية siqaya كبيرة، ومعلف للحيوانات لتشرب منه، وبعض المنازل مثل الصّندوق المربع. ولا وجود لأشجار، ولا أي زراعة تقريباً، ولكن الحيوانات تمشي خلالها في فترات فاصلة؛ وكان حمارٌ ضائع يتجول بالقرب باحثاً عن ماء؛ وعادت قطعان من الماعز إلى القرية عند الغروب. وعلى عكس البلدات الإقطاعية في لوادي، كان الكل هنا غير محروس وغير مسوَّر، والوادي ذاته ممتدّ على نطاق واسع من جانب إلى جانب، وأخفى في البعيد سجن أسواره، وأخذ لونه من المساء أو الفجر.

أعارني المَنْسَب جواده (والذي بدا أيضاً باهت اللون يتماشى مع اللون الزّهري السّائد للمنظر الطّبيعي)؛ وأخذتني صحبة كبيرة، مع كل أطفال المَشهَد تقريباً، إلى أطلال قبون Ghebun، قريباً عبر الجلاميد البيضاء لقاع السّيل (sail-bed)، والتي تصبح في وقت الفيضان سريعة جداً عبارة عن سيل لا تستطيع الحمير عبوره، مع أنّ الجياد والجمال تعبره. كان الحصان حيواناً ودوداً، اعتاد على الخطوات الإكليروسيةَ، ولم يقلق كثيراً من الأيادي التي امتدّت نحوه من كل جانب لتمنع هروبه - وهو طيش كان عاجزاً عنه تماماً. هذا كما أنّ المرء يُحذّر في الكنيسة من الخطايا التي لا يفكر أصلاً باقترافها. ربما نشأ الحصان في جو إكليركي، واعتاد على معاملة متحفّظة، ولكنه كان سعيداً بشكل واضح بالهروب معي وحده أخيراً.

ألقيتُ نظرة من فوق ارتفاعه المضاف ومن قمة إحدى الرّوابي الصّغيرة إلى المدينة المهدّمة من الماضي. وصفها م. ڤان دِن مولن M. Van den Meulen بدقة في كتابه. فهي تمتدّ على مساحة هائلة في رواب غير مستوية، مع شظايا فخارية، بلون أحمر باهت أو أسود، وانزلاقات من حجر صوّان وزجاج بركاني، تناثرت خرزات من العقيق الأحمر أو رقائق منحوتة من مرمر بين حجارتها مع شظايا حِمْيَرية. تبعثرت القطع والأدوات من الصّوّان والزّجاج البركاني هناك بأعداد لا تُصدَّق، وتوحي جودة صنعتها، حسب اعتقاد مِس كيتون طومسون Miss Caton Thompson التي نظرت إليها تكرّماً من أجلي، إلى العصر الحجري الذي يوجد في كينيا Kenya. بعضها

أصغـر، ولكـن بصنعة مشـابهة لقطع الصّـوّان المصرية من عام 2200 ق.م فإنها تشـير على أية حال، إلى شـيء أكثر قدماً من التّواريخ المحقّقة حتى اليوم لأشـياء من جنوبي جزيرة العرب.

وهنـاك على قمم رواب عديـدة جدرانٌ مهدّمة، وُضعت حجارتهـا المربعة معاً من دون مِـلاط. ويوجد هناك بئر، أنشـئ من حجارة مدورة مـن دون ملاط لبعض العمق، ومـن ثم غُرز في الأرض أدناه. وتحوي الجدران المهدمة القريبة من المَشـهَد حجارة أصغـر، أكثـر خشـونة، ورُصمت معـاً بالمـلاط؛ وعلى الأرجـح فقد اسـتمرّت البلدة القديمة مأهولة لعدة أزمنة، وربما حتى الأزمنة العربية.

وفـي الحقيقة فإنني ميّالـة للموافقة مع الزّوجين بِنت[1] Bent بـأن الرّمال انجرفت حول تلك الأطلال ودفنتها على مسـافة أعمق، أكثر من رأي م. ڤان دِن مولن M. Van den Meulen الـذي يقتـرح بـأن كل المنطقة قد جرفتها الفيضانـات، هذا لأن الأرض الأعلى كانت تُنتقى دوماً لأبنية مدينة مهمّة أو القبور في الأيام السّالفة.

ولا تبدو بقايا الجدار الظّاهرة الآن كما لو أنها كانت قرب الأساسات، ولا الرّوابي التي قُطع جزئها الأدنى أنه حدث بسـبب نشاط مائي. وهي النّقطة الأساسية لأيّ عالم آثار، لأنها ستحدّد ما مدى إمكانية توقع أن يجد الشّخص شيئاً ما تحت سطح الأرض. وفـي صبـاح اليوم التّالـي وقبل أن أغادر المَشـهَد، أهداني المَنْصَـب قاعدة صغيرة من المرمـر وُجدت في الأطلال، مـع ختمين حِمْيَريين، واحد برأس معزة، والآخر باسـم «هعسم» Ha'asum منقوش عليه.

كانـت المَشـهَد تحتفـل أيضـاً بزفاف. أتـت ضربة مـن طبول وملاحظـات صاخبة مفاجئـة مـن نسـاء مـن المنزل الـذي تقيـم فيـه زوجـة المَنْصَـب. تركني هناك أسـفل الدّرجات، وصعدت فوجدتها شابة وجميلة لأنها أصبحت زوجة شيخ مرح، وحولها

(1) هما جايمس ثيودور بِنت وزوجته مايبل، قاما برحلات في البحرين وجنوبي اليمن وعُمان وشرقي السّودان وسُقطرى، بين 1893-1897. انظر كتابهما «جنوبي جزيرة العرب» الذي نشرناه مؤخراً في هذه السّلسلة.

كل السّيدات من المَشهَد في غرفة صغيرة، مشهد حيّ للرّؤية - حيث أنه كان هناك كل صنف للموضة في الطّلاء، ذقون خضراء اللون، نقاط خضراء على الخد، شعر ملصق بالجبهة بتموّج فوق عين واحدة، شُرّابات بألوان متعدّدة على الرّأس أو أسفل الذّقن لتمسك الحجاب أو النّقاب، وقلائد فضية ثقيلة. كانت العروس بينهن، جالسة لمدة يومين بثوب على رأسها. بدت منهكة جداً، وقد أثقِلَت بأساورها وخلاخيلها الضّخمة. كانت قدماها ويداها باللون الأصفر قد مُدَّت في الخارج لتجفيف رسومات الحنّاء التي رُسمت عليها، وكانت أصوات الطّبول ورقص صديقاتها قد قُصِد بها من دون شك جعلها مبتهجة خلال المراسم المُرهِقة للزّواج بشخص غريب تماماً في نهاية المراسم. أخبرتني عدّة سيدات من حضرموت بأنهن أكثر سعادة بشكل عام بعد طلاقهن الأول أو الثّاني.

كان رقصهن هنا مثل الرّقص هناك في المُكلّا، ولكن أكثر بدائية، بسبب الأشكال الأكثر غرابة على وجوههن. عقدن أيديهن متيبسة ومُثقلة بالخواتم، واحدة تلو الأخرى، أسفل صدورهن، والتفتّ عقائص الشّعر في حلقات حول رؤوسهن؛ وبدت وجوههن التي تشبه الأقنعة مائلة بعيون جامدة من إجهاد الحركات العنيفة وبدت مثبتة مثل وجوه الأصنام.

علت دندنة منخفضة وانخفضت بصوت رتيب من الطّبل، وبين الحين والآخر تزغرد بعض النّساء بصوتهن الرّنان، حيث يرفعن يداً بحياء ليخفين لسانهن الذي يتحرّك من جانب لآخر في فمهن مثل لسان الجرس.

«أأعجبك ذلك؟» قالت لي ذلك زوجة المَنْسَب في فترات منفصلة، بانفتاح وابتهاج، وكان الممكن أن تبقيني هناك إلى الوقت الذي يأتي فيه العريس في منتصف الليل ويغادر الضّيوف. ولكني كنت متعبة وتركتهن، وأجد الآن في مذكرتي اليومية بأني أمضيت الليل أكتب في غرفتي ذات الأعمدة، على ضوء ما يسمونه «تريك trik» أو مصباح الغازولين، وقد كنت «مرتاحة مثلي مثل أيّ شخص يمكن أن يكون كذلك، مع حصبة نصف منتهية في تيار هواء». وبسبب موضة وجود نافذتين في كل جدار فإن

ذلك يسمح بأن لا يكون هناك أي زاوية خالية من التّهوية، ولذلك فإن الشّخص يكون عُرضة لأن يعاني من البرد تماماً مثله مثل الحرّ في البيوت العربية.

غادرنا في الصّباح، عند السّاعة السّابعة والنّصف في الضّوء الوردي. وأصرّ المَنْسَب بوضعه هدية أخيرة من جيبه من كبش القرنفل، ونعناع ومضغة لُبان في يدي وتمنّى لي الخير، مثل أم مبتهجة، مشغولة وقادرة، أكثر من مجرّد كونه مُضيفاً لليلة واحدة. لم يرد أيّ زائر أبداً، وكل شخص يسافر شمالاً من دَوعَن يتوقف من أجل وجبة أو لقضاء ليلة في ذاك البيت المضياف، ولا يسمح له دخلُه بهذا دونما صعوبة، وذلك لأنه لم يكن غنياً مثل الكثير من هؤلاء الذين سافروا خارجاً. وإذا مدَّ الكرماء الدّائمون مأدُبة، فمن المؤكد أن مَنْسَب مَشهَد، عندما يقوم أيضاً بالرّحلة إلى الخارج سيجد مكانه مهيأً.



الفصل السّادس عشر

في وادي حضرموت

«آه! متى يكون الخير في الرّجال مقياساً لكل واحد فيهم، ويعمّ السّلام العالمي مثل شعاع النّور عبر البلاد؟».

(«السّنة الذّهبية»، تنيسون)

وصلنا لنهاية ممرّات ضيقة، وكنا ندنو بسرعة من المكان حيث يلتقي فيه كل من واديي عَمْد ودَوعَن (يدعى الآن الكَسر) معاً، يمتدان أكثر، مثل سهل لأبعد من مجرى سيل (sail-bed) في الأماكن المفتوحة بالتّساوي في وادي حضرموت.

سافرنا بشكل ميسَّر هنا، على رمل قاسٍ، مع فرحة عدم وجود طريق يشطر المنظر الطّبيعي أمامنا. هناك شعور من الاستقلاليةّ في سيارة عندما يحدث أن تبتعد بك عن الطّريق مرّة واحدة. ويتضخّم سطح الأرض برِقّة في الجانبين كليهما في المدينة القديمة أو أرض حدائقها، حيث أُلقيت حجارتها المتفرقة على قمة الرّابية كما لو كانت حدثت بأيدي الأطفال في لعبهم. لقد كانت الشّكل الوحيد في المنظر الطّبيعي، باستثناء سقاية البيضاء Siqaya مع بئر قربها، أو قرية صغيرة بلون التُّربة يتعذّر تمييزها على يمين الوادي، خلف بركة معتمة من الأشجار. كان الضّوء والهواء يشكّلان جمال اليوم. كان وادي عَمْد عن يسارنا، مع أضلاع من كثبان رملية في الوسط - ركام صحراوي. وقد أتينا الآن أيضاً إلى سلاسل من الرّمل، إلى منزلين وحيدين محصّنين من ديار البكري Dhiar al-Buqri في وسط المنظر الطّبيعي.

يتوجّب على جميع من يذهب من الأعلى أو الأسفل إلى حضرموت من عَمْد أو دَوعَن عبور مشهد ديار البكري Dhiar al-Buqri، لوّح لنا أشخاص من السّطح. كانوا أناساً مضيافين، مديري فندق أغنياء من جاوة Java. يمكنك أن تراهم في باتاڤيا[1] Batavia، الآباء والأبناء، وأبناء الإخوة، ينكبّون بنجاح على أعمال تعقيدات المنشآت المالية النّشطة مع رافعات وصنابير للمياه الجارية. ولكنهم مستمرّون هنا مع جيرانهم بحرب المئة عام في البلدة الواضحة على بُعد ميلين أو أكثر أسفل الجُرف.

أُقحم الدّخلاء في أتون عداء أسرتي مونتغيو Montague وكابوليت[2] Capulet، وكانت البلدة الصّغيرة في الشّمال، وأسفل الجُرف أيضاً إلى جانب آل البكري Buqri، وأنهكت جيرانها في الجنوب. وتوضّح عائلة البكري نفسها، جغرافية حربهم من سطحهم الخاص، وأشاروا إلى برج أبيض مربع الشّكل على حافة الجُرف كموقع لقواتهم، والذي منه - كما أعلنوا - يمكن للشّخص أن يصوِّب بشكل مستقيم نحو البلدة في الأسفل. بدت المتناقضات متساوية بإنصاف، ومنزل البكري، على الرّغم من أنه منعزل بشكل تامٍّ مع كثيب رملي قريب في كل جانب، لم يكن من السّهل مهاجمته دون المدفعية. ولقد تألّف من بنائين مثل برج، واحد للرّجال والآخر لحريم العائلة، وجدار طيني ناعم حولهما ببوابة واحدة فقط. كان الوادي قبل عدة سنوات حديقة من النّخيل، ولكن تحالفت «البلدة» مع البدو في الجُول، الذين جاؤوا ليلاً وصبّوا البارافين على جذور الأشجار وقضوا عليها (تثبيتاً للنّظرية بأنّ جفاف حضرموت هو على الأرجح وبشكل أساسي نتيجة حرب). والآن فقد تم بذر القليل من الدُّخن في بضعة رقع في الوديان فقط، ويمكن أن تُسقى وتنمو خضراء في السّيل. ولاحظت بأن الحرب كانت كلها جيدة جداً، ولكن من المفترض على الشّخص عدم قتل الأشجار، ومن الواضح أنها أعربت عن شكوى شعرت بها كل العائلة المتجمعة، وقد اعتبرت فعلة تخالف أصول الشهامة عندما جرت.

---

(1) باتاڤيا هي مدينة جاكرتا الحالية عاصمة إندونيسيا، وكانت تسمّى باتاڤيا إبّان الاحتلال الهولندي لجزر إندونيسيا.

(2) كناية أدبية من مسرحية شكسبير الشّهيرة روميو وجولييت Romeo & Juliette، حول أسرتي البطلين الحبيبين اللتين كان بينهما عداء شديد.

عندمـا جاء سـلطان المُـكلّا لزيـارة أراضيه في شِـبام، كان قد نظّم هدنة لمدة سـتة أشهر بين البكري والبلدة، لذا فمن المحتمل أنه عبرها بأمان. وما زال هناك شهران من تلك الهدنة - لذا فالآن يعمّ هناك السّـلام، وعندمـا أتينا كان رئيس العائلة واقفاً خارج حصونـه، يتفقّـد جفاف الآجرّ الطّيني في الشّـمس، بينما كان رجـلٌ جالس على منصة صغيرة متدلّياً من جاجز السّـقف يزخرف جدران منزل حريمه برسـومات كلسية. وقد أخبرونـي، أنـه حتى عند انتهـاء الهدنة فيمكن للنّهار أن يكون أكثـر أو أقل هدوءاً، لأن الغارات تحدث في الليل، وتبقى مستمرّة بشكل عادي خلال ساعات النّهار.

لقد اسـتقبلونا بطريقة سهلة لطيفة، كما لو أنها في بيت مدينة بعيدة في إنكلترا. وقد كان لدينا أخبار عن الهجرين وأعمالها لنخبرهم عنها، بينما استطاعوا إخبارنا من الذي كان فوق أو أسـفل الوادي خـلال الأيام الأخيرة القليلة. وقـادوا الطّريق إلى القمّة من بيتهـم ليطلعونا على المشـهد. كان الطّابق الأرضي من دون نوافذ وقادنا سـلّم داخلي إلى سـتة طوابق، بدرجات سـهلة وطنف (إفريز) متموّج الشّـكل من كلس حضرموت النّاعم، مصقول مثل طلاء. ونُقِشـت تعويذة عند كل منبسط للدّرج على الجدار تمجِّد وتناشد بركات الله. وفوق القمّة المدعّمة بشرفة مع منحدر ثقوب التّصويب لدفاعات حقيقية. وقالوا بأنهم استطاعوا من هُنا إطلاق النّار على البلدة ببندقيّة الماوزَر Mauser. ونظرنا إلى منازلها الواضحة التي تشبه صناديق مربعة في الشّمس.

سألتهم: «ألم يحاصروكم أبداً؟».

«أحياناً. ولكننا نحتفظ بأربعة أزواج من مناظير الميدان ويمكننا مشـاهدتهم عندما يأتـون». بدا أنهـم يظنّون أنّ هذه حمايـة كافية. وبالفعل فإن الحصـار لا يمكنه أبداً أن يكون صارماً جداً في جنوبي جزيرة العرب.

سُـجّل حصار في اليمن اسـتمرّ سـبع سـنوات، في القرن الثّامن عشـر في أمّ اللّيل. ودمِّـرت الحصـون بالمجـارف أكثر من الأسـلحة، ووجـدت تحت الجـدران الطّينية قنوات مخارج للبلدة. واستمرّت في اليمن أيضاً الاتصالات الاعتيادية على الرّغم من الحرب. وسُـجّل أنه اسـتطاع أحد المهاجمين في زَبيد الوقوف أمام البوابة لكي يرسل

لـه طعامـه أصدقاؤه فـي الدّاخل - وعلى ما يبـدو لـم يُعتبر ذلك شـيئاً غير عادي، على الرّغـم من أنه وفـي هذا المثال المحدّد فقد كان العشـاء يحتوي علـى مخدّر. وهناك، أيضـاً، هدنـة يمكـن أن تحدث في أحوال كثيـرة حتى بعد أن يكون موعـد الحصاد قد وزِّع. وكانت تلك الحروب القديمة قد أُديرت بافتراضات ممتازة بأنّ عدو اليوم يمكن أن يكون صديق الغد.

عندمـا يتـرك آل البكري The Buqris رنيـن الحافلات في باتاڤيـا Batavia، فإنهم يعودون باتزان إلى دسـتور القرون الوسـطى عندهم، على الرّغم مـن أن رئيس العائلة أخبرني بأنه وجد سنغافورة أكثر راحة. ولكنه قال: هذا دون شيء من التّوق الحماسي للرّاحـة الحضاريـة والتي وجدهـا م. ڤان دِن مولـن M. Van den Meulen بوجه عام فـي حضرمـوت. وبالفعل، فإني بالكاد وجدت هذا في أي مـكان. وقد كنت أيضاً غير قـادرة لأكتشـف، كمـا يبـدو أن م. ڤان دِن مولـن قدم أفضليـة القانـون الهولندي على البريطانـي، وقد توصّلت إلى قرار بأن الشّـخص ميال لأن يجـد توقعاته أو رغباته، في آراء الأشخاص الذين يعتقدون غالباً بأنّ اللطف أكثر أهمية من الحقيقة: «من الجيد أن تعرف الحقيقة وتقولها، ولكن الأفضل أن تعرف الحقيقة وتتكلّم عن أشجار النّخيل».

تسـاءلتُ مـا هـو القرار الذي يصل إليه المُسـالم مـن عائلة البكـري Buqri، أو من أي مـن التّجّـار مـن حضرمـوت، الذين يتقاعـدون، بعـد حياتهم في جمـع المال، في عمر الشّـيخوخة لحرب العصابات في واديهم - كما في القرن الثّامن عشـر، إذ يمكن لمواطن قد يكون تقاعد وعاد لينهي أيامه بطريقة حيوية في الهضـاب. وإذا كان الجنس البشري يتوق حقاً بهذا الشّكل القوي إلى السّلام، فيجب أن يكون هنا شيئاً شاذاً.

من جهتي، فإني لا أصدق بأن السّـلام هو ما يتوق إليه غالبيتنا بحماس. يمكنني أن أتخيل أنه من الممتع للشّخص الشّاب الفعال أن يعيش في عالـم حيث ينبغي أن يكون فيه حروب أقل، ولكن شـجار أكثر؛ تماماً كما يمكنني أن أتخيّل بأن ثعلباً نشـيطاً وفتياً يسـتمتع بمطاردته. ويمكن للشّـخص أن يسـتمتع بذلك بنفسـه إذا كان يعرف المدينة واستطاع أن يركض بشكل جيد مثل ثعلب.

ونحن جميعنا ملاحقون من قبل أحد الأشياء.

«يبدو لي أني أسمع وراء ظهري

عربة مجنحة بالزّمان مسرعة في الجوار

وهناك تمتد جميع الصّحارى أمامنا

صحارى من أبدية شاسعة».

رغبنا بعضلات قوية وشجاعة عالية أن نصارع قِوى الكون. وهذه ليست حرباً تدمّر أرواحنا، بالتّفكير بأن المخاوف من المحرّكات الحديثة يمكن أن تردعنا، بل هي كي تقيِّم معدّل بطولة البشر المنخفض جداً. الشّيء الذي نعاني منه الآن هو أنه عادة ما يقدّم لنا دوافع حقيرة للقتال من أجلها. لنتصارع من أجل تفوّق أعمى لم يعد يرضي أرواحنا، إننا نشعر بأننا قادمين إلى نقطة واعية وبنّاءة أكثر في قضايا الرّجال. ونحن أقلّ سعادة بالتّضحية بحياتنا للحصول على موارد مالية مهما اكتسينا بأسماء الشّرف. ولكن لأسباب غير أنانية، لبعض الرّؤية التي تكوّنت لمستقبل الجنس البشري الغامض، سيموت النّاس كما ماتوا دائماً، مهما كانت العقوبة. فقد ضلّلتهم أشياء صغيرة، من مشعوذين، وصحفيين وديكتاتوريين ممّا جعل محبّي السّلام متّهمين وملاحقين، ويحتفظون بأدواتهم الحربية نقيّة وحادّة، ليتم استخدامها عند حاجة روحية حقيقية.

ولكن أهل سكان حضرموت الذين لم يشغلوا أنفسهم بعد بمثل تلك القضايا العالمية، يتحاربون دون أن يسألوا، كل واحد عن بلدته أو قبيلته والتّلهف العام الذي يحاربون به، وتظهر الحقيقة أنهم يعودون له عندما يكون بإمكانهم أن يبقوا بعيداً وهم مرفهون كما قلت من قبل، بأن صيد الثّعالب لا يعتبر غير أخلاقي بشكل كبير، وأن الإنسان يستمتع بالقتال إذا كان لديه شيء ما للقتال من أجل الإشباع روحي أكثر من القتال من أجل النّفط.

غادرنا بهذه الأفكار بيت البكري الكريم لننظر عبر منظار الميدان التّابع له إلى أعدائهم، بينما قادنا علي البربري داخل وخارج الكثبان الرّملية باتجاه وادي حضرموت

ذاته. لقد كان بارعاً وأخذ الأماكن الصّفراء المضلَّعة بسرعة كي لا نعلق. لقد شعرت بأنها تشبه السّكك الحديدية الرّوسية في معرض، وكان عليه دوماً في الزّوايا الأكثر حدّة إعادة تنظيم عمامته الصّفراء بيد واحدة.

لقد كان رجلاً سكوتاً بشفة سفلى بارزة وملامح صغيرة، وبياض عينيه كبير في وجهه الأسود، وبإمكانه الاستماع لجميع ما نقوله مثل كتلة حجرية دون أية تعابير في وجهه، ويقطع الحديث فجأة ليوضح غموض حَسَن ببعض المعلومات الدّقيقة والمفيدة، أو يعطيني نوعاً من الحقائق في المشهد الطّبيعي والذي أتوق إلى معرفته بشكل كبير. لقد كان الرّجل الأول في وادي حضرموت الذي يجمع السّيارات، التي تصل كلها مجزأة بواسطة جمل من الجُول؛ يوجد الآن ثمانون سيارة في الوادي، وكان يفكر بمحاولة الذّهاب عن طريق اليمن البرّي. يقول البدو الذين يأتون من ذلك المكان بالبضائع التّجارية بأنّ هناك عَقَبة واحدة فقط أو جُرفاً على طول هذا الطّريق وهذا يمكن التّغلّب عليه، وقد فُتح طريق للسّيارات ليس فقط إلى صنعاء ولكن إلى مكّة أيضاً. تقع صنعاء حالياً على بعد اثنتي عشرة مرحلة، وفتح طريق سيارات يمكن أن يسهّل الحج جداً والذي يتوجّب أن يذهب الآن عبر البحر حول عَدَن. بنى الوزير الكبير في الدّولة الزّياديّة الحسين بن سلامة، في القرن العاشر مساجد ومآذن، وآباراً وطواحين على طول طريق حضرموت - مكّة، ومسجداً عند كل مرحلة. ويقال إنها مسافة تقطع في أربعة وعشرين يوماً.

اجتزنا البلدة الصّغيرة من العجلانيّة عند المخرج الشّرقي لوادينا، المذكورة من قِبل الهَمْداني في القرن العاشر. بقي منها هناك من خمسة عشر إلى عشرين منزلاً فقط حول مبنى منهار منحني، وشجر عِلْب في السّهل في السّفلي. جاء الأطفال يركضون وقدّموا لنا الثّمر، الذي يسمونه الدّوم dom؛ وهو وردي مع القليل ما بين القشرة والبزرة، والبدو يطحنونه ولا يأخذون أي شيء آخر غيره لمؤونتهم عندما يشنّون غارة في الشّمال.

غادرنا مع العجلانيّة أرضا لا يملكها أحد، وأتينا إلى مقاطعة شِبام، وهي أيضاً تابعة

للمُكلّا. هنا كان اليافعيّون قد نزلوا من التّلال الغربية وأحتلوا تدريجياً مكاناً تلو الآخر من أراضي سلالة القعيطي الحالية الحاكمة قبل أربعة قرون وفقاً لأحاديث محلّية غامضة. اجتزنا الفرط El Furt، أسفل الجُرف، حيث حصّنوا أنفسهم لأول مرة في حصن يشبه ما نراه في لوحات دورَر[1] Dürer على خلفيّة رُكام أحجار التّلّة.

كنا الآن في الوادي الهائل الأطول في جزيرة العرب باستثناء وادي الرّمّة، يبلغ أوسع نطاق فيه سبعة أميال وعلى ما يبدو أكثر من ذلك بسبب انفتاح وادي الكَسر خلفنا، في أسفله حيث كنا نسير لتوّنا، ولقد كان أول مَن دخله هيرش Hirsch في العام 1893. لقد اختفى متراس الجُرف الذي يمتدّ على طول طريق اليمن في الزّرقة المغبرّة لسديم منتصف النّهار، وأعطى صورة مضلّلة لأفقٍ صافٍ وحرّية مفتوحة تعطي إحساساً مثل الذي تشعر به عندما ترخي رباطاً مشدوداً حول القلب. وعلى الجوانب الثّلاثة الأخرى، حيث كانت الجروف واضحة حولنا، أظهر بُعدها تغيّرات ضئيلة، من محدّبات وتجاويف، والهواء يلعب فيها ويلقي عليها رقته. وأعتقد أنه كان هناك أيضاً ميلٌ بسيط في خطّ الجُول، ولكن من الممكن أن يكون وهماً؛ وجعلني ألاحظ كم هو ثقيل الوطأة ذاك المستوى الميت الخالي من حركة التّموج في تكوينه، لا ذروة ولا إحساس لأيّ شيء إلا شحذ تدريجي نحو الخارج عبر الزّمن نحو الجدران المحيطة. يعطي الشّعور بالحركة حياةً لسلسلة الجبال لا تقلّ عن تلك التي يمنحها للأشجار والماء، وهذه الرّتابة اللانهائية لجُروف حضرموت، ولأكتاف جبل خلف أكتاف جبل متشابهين تماماً، فيها شيء من جمود الموت.

يتنوع عرض الوادي بشكل هائل مع الوديان الدّاخلة، والخلجان المنفتحة. قاعه مصقولٌ جداً ومسطّح حيث يمكن للطّائرات الهبوط فيه. ولقد كان بنّي اللون الآن، بمساحات من عشب معنقد أخضر مصفرّ وخشن: ولكن في السّنوات عندما يأتي السّيل

---

(1) ألبريخت دورَر (1471-1528) رسّام لألماني شهير عاش في نورنبرغ وتنقّل في بلدان عدّة، أظهر موهبته في فن التصوير الزيتي، كما أنجز العديد من الرسومات التخطيطية وبعض الرسومات المائية بالإضافة إلى النُّقيشات (الرّواسم).

فإنهـم يزرعـون ذُرة ودُخناً، ولا بدّ أن الامتداد الهائـل يظهر مزدهراً وجميلاً. ويصعب وصف انفتاحه، فهو منبسط جداً أكثر من انبساط وادٍ، وممترّس جداً بالجروف أكثر من السّـهل، ومحصور أكثر من جزيرة، حيث أن المرء لا يتمكن من رؤية المشـهد خلفه. وتجـري عبره قنوات مائية نادرة بعرض قدم، ارتفعت قليلاً مع خُصَل من العشـب، أو بصل زُرِع على طول حافتها.

بقينـا عند الطّـرف الجنوبي ورأينا، عن يسـارنا في البعيد، أسـطح منازل هينن فوق التّـلال والتي انحدرت للأسـفل من الغـرب. وعندما تقدّمنا في ديـرة القعيطي الآمنة، أصبح الموقع أكثر اعتدالاً مع العمل البشـري. مشـت النّساء بالقرب من هناك بقبعات القـشّ المدبّبة فوق وجوههن المنقّبة مثل السّـاحرات، ولبسـن العبـاءة باللون الأزرق الفاتـح المعروفة في شِـبام، قصيرة إلـى الرّكبتين من الأمام ومتدلّيـة في الخلف، وهو لباس جيد بالنّسبة لهن عندما هربن بسرعة عنا؛ والكثير منهن ارتدين سراويل بيضاء أو زرقاء اللون تحته، ليست واسعة ولكن متجعدة في طبقات حول كواحلهن.

أتينا إلى أشـجار النّخيل، ومنازل أكثر تفرقاً من تلك التي في وديان الحصن. وعلى الأرض المسـطحة. كانـت الآبـار تصرّ بالجمـال أو الثّيران، حيث أن المـاء هنا قريب من سـطح الأرض (عمقـه أربع ياردات فقط فـي القَطن). هناك ثلاثة جمـال جنباً إلى جنب تسـحب الحبل على طول الطّريق المائل المصنوع لأخفافها المسـطّحة: ويقوم بالعمل في بعض الأحيان أفقر القرويين، نسـاء محجبات ورجال عراة تقريباً. وعُلِّقت البَكَـرات علـى مثلثات أقطاب تسـحب الـدّلاء الجلدية بها من البئـر، وهي بارزة فوق مستوى الأرض مثل طواحين الهواء في هولندا.

وأتينا الآن إلى ذُرة خضراء القشـور وسـميكة ببقع تصفرّ وتُحصد بعد مضي أربعة شـهور ونصف من بذرها في الأرض. وعلى الأرض البنّية المستوية أسـفل الجُرف، خلف جدار طيني حول مسـجد مبيّض بالكلـس وقَصر، لقد وصلنا إلى القَطن، موطن السّلطان علي بن صلاح القعيطي ابن عم سلاطين المُكلّا.

كان هناك شـعور من اسـتقلال سـلطنة صغيرة حول المكان. اسـترخى الخدم على

درجات القصر أسفل باب ضخم. وقادونا عبر الممرّات الدّاخلية بدرجات سهلة، وانتظر السّلطان في الأعلى لاستقبالي، إنّه شاب طويل وهزيل بشعر أسود منسدل تحت طربوش أحمر، خجول بملامح صبيانية لطيفة. قادني الشّاب إلى غرفة مفروشة بالسّجاد. كانت مزينة بالرّسم ومصاريع نوافذ وأبواب أوروبية، وانتصبت فيها طاولة صغيرة وأربعة كراسٍ مثل جزيرة. وتكلّمنا بعد الشّاي وفطيرة التّفاح والبسكويت حول تاريخ حضرموت والطّريق إلى شَبْوة.

هنا يشعر المرء مرّة أخرى كما هو الحال لدى باصُرّة في مَصنَعة بقبضة السّلطة القوية. كان سلوك سلطان القَطن لطيفاً؛ وهو ذو عينين بنيتين رقيقتين وابتسامة مستنكرة، ولكن كان كلامه قانوناً في مناطق سيادته الخاصة. ولا يمتلك أحد تأثيراً على بدو الغرب العنيدين أكثر منه. وحتى سنتين مضتا كان هو حاكم شِبام لأبناء عمه في المُكلّا؛ ولكنه كان قد ترك هذا المركز – لسوء حظ مقام الحكومة هناك – وعاش الآن في القصر الذي بناه والده، حيث أقام الزّوجان بِنت Bent في العام 1893. وقد عرف القليل عن المُكلّا وبحرها، ولكنه عاش واهتم بشؤون شعبه الخاص، وعندما وجدني مهتمّة بتاريخ المنطقة، بدأ يتكلم بطريقة أقلّ تكلفاً، ليخبرني بالتّقاليد العربية لطرق التّجارة القديمة – وذلك لأنه يمتلك مكتبة لكتّاب مسلمين، ويعرف الكثير عن هذه الأشياء أكثر من أيّ شخص قابلتُه.

أخبرني بأنه قد وُجدت أشياء سبئية وكتابات في القَطن، وكان قد أعطى الكولونيل بوسكاوِن Boscawen – الذي بقي معه السّنة الماضية – أسداً من البرونز رائع الجمال، تم التّنقيب عنه أسفل الجُرف. وقال مشعِراً إياي بالنّدم: «لو كنت أعلم أنك قادمة لكنت احتفظت به لك». ذهب الزّوجان بِنت Bent، اللذين أمضيا بعض الوقت في القَطن، إلى وادي بن علي الذي يؤدّي من الجنوب، ووجدا هنا حجارة حِمْيَرية وأساسات (وكذلك بخوراً في الأخاديد) وطريقاً فوق الجُرف «استُخدم كثيراً وعلى ما يبدو أنه قديم». يعتبر طريق بير علي من السّاحل إلى شِبام أقصر من طريق دَوعَن، ومن شبه المؤكد أنه أحد الطّرق القديمة. والآخر لا بدّ أنه يذهب عبر وادي عَدم إلى الشِّحر.

أمـا وادي حضرمـوت ذاتـه في تتمته، التـي تُعرف بوادي المَسـيلة، فهـو عبارة عن بدايـة لطريق غير مماثل بين حضرموت وظُفار. ويعتقد السّـلطان بأنه على الأرجح قد تبـع وادي حضرمـوت إلى مصـبّ نهره في سـيحوت Saihut، الذي تمـرّ منه القوافل التـي تحمـل سـمك القرش المجفـف قادمة من البحـر. وهو طريق اكتشـفه لأول مرة الزّوجـان إنغرامز[1] Mr. and Mrs Ingrams قبل بضعة أشـهر من رحلتي، وأخبراني بأنهمـا لـم يجدا آثاراً لأطلال في الوادي الأدنى باسـتثناء سـد قديـم، معروف وجوده تحت قبر هود، وقد أشير إليه على الخريطة الجوية لقائد السّرب ريكارد Squadron- Leader Rickard. والحيّ بأكمله ممتلئ بالطّمي بشـكل كبير. ويقال بأن تدمير السّـد خـرَّب الأراضـي المحيطة، ولذلك فـإن الكثير يمكـن أن يكون مغطـى وغير منظور، وتبـدو المجادلات الجغرافية لهذا الطّريق قوية جـداً لأنها لا يزال يعاد فيها المزيد من البحث. ولقد وضعت كل استطعت جمعه من أدلّة قليلة عن الموضوع الغامض لطرق حضرموت التّجارية بشكل منفصل في نهاية هذا الكتاب.

وبعد مناقشة طريق ظُفار لبعض الوقت، أخبرني سلطان القَطن بأنه كان يتحدّث مع واحـد من البدو الذي رافق مسـتر فِلبـي Philby عبر الرّبع الخالي. سـألته عن رأيه في الموضـوع الدّقيق لوَبار[2] Wabar. وهـي مدينة مهجورة، كانت الموطن الذي اتخذته الجن عندما أُهلِك قوم عاد وثمود. «أكثر مدن الله خصوبة»، لا يمكن للبشـر الوصول إليها. ويقول ابن الفقيه الهَمداني: «وإذا اقترب أيّ رجل منها، فإنهم يسـفون في وجهه غبـاراً (على الأرجح عاصفة صحراوية)، وإذا واصل يصيبونه بالجنون». وقد سـكنها النّسـناس Nisnas، وهـي مخلوقـات دونية بسـاق واحـدة فقـط، وذراع واحدة وعين واحـدة، وكانـت وراء ظهور مثل مأثور يقوله البعض: «راحت النّاس وظلّ النّسـناس» وقيل أيضاً بأن جِمال المَهرة الشّهيرة جاءت من سلالة جنّ وَبار Wabar.

---

(1) هما هارولد ودورين إنغرامز، تقدّم ذكرهما مراراً.

(2) المقصود بها قرية وَبار الأثريّة، وكان الأوروبيّون يسمّونها هكذا Wabar نقلاً عن معجم البلدان لياقوت الحموي، لكنّ بعض المدوّنات العربيّة على شبكة الإنترنت صارت تترجم الاسم بالخطأ: عُبار.

لعلّ الخلاف حول موقع تلك المدينة الأسطورية البعيدة جعلها خطرة جداً، وموضوعاً بالنّسبة لي لأغامر فيه، وأخبرني السّلطان، الذي لم يكن يعلم أي شيء حول الصّعوبات التي تحدق بها، بهدوء الإيمان بأن كل النّاس في حضرموت يحدّدون موقعها بين حضرموت وعُمان[1]. ولكن الجغرافيين في الحقيقة ليسوا على يقين من ذلك. يقول ياقوت: «وفي اليمن أرض وَبار qaria of Wabar». ويذكر اللّيث الذي اقتبس عنه ياقوت[2]: «وَبار أرضٌ كانت من محال عاد بين رمال يَبرين واليمن». ويحدّد مكانها ابن اسحق الذي يذكر النّسناس Nisnas بين حضرموت والسّبوب Sabub (غير معروفة لياقوت والهَمْداني).

أمّا الهَمْداني، وهو رجل موثوق جداً، فيضعها «فيما بين نجران وحضرموت، وما بين بلاد مَهرة والشِّحر». ويضعها ياقوت الذي من المفترض أنه يستشهد بالهَمْداني «ما بين الشِّحر إلى تخوم صنعاء»، ثم ينقل عن أبي مُنذر أنها بين رمال بني سَعد (قرب يَبرين) وبين الشِّحر ومَهرة. ويضعها أبو مُنذر بين حضرموت ونجران. ومع هذا الدّليل يبدو من الممكن تماماً لكل من مستر توماس[3] Thomas ومستر فِلبي[4] Philby أن يجد كل منهما وَبار Wabar في زاوية معاكسة لجزيرة العرب.

---

(1) قام باكتشاف موقعها أخيراً في عام 1992 الكاتب ومخرج الأفلام الأميركي نيكولاس كلاپ، من خلال استناده إلى صور وكالة ناسا NASA الفضاء المأخوذة من الأقمار الصّنعيّة. وتمّ البحث عنها والتّنقيب فيها، غير أنّ العمل الأثري امتزج بأساطير تروّج للعثور على هياكل عظميّة لبشر يبلغ طول قاماتهم 11 متراً. وقد حصلت على كتاب كلاپ: «الطريق إلى وَبار» *The Road to Ubar* وربما نخصّ السّلسلة ببحث عنها.

(2) انظر معجم البلدان لياقوت الحموي، 356-359 :5.

(3) برترام توماس (1893-1950) رحّالة بريطاني شهير ووزير لدى سلطان مسقط عُمان 1925-1932، كان أوّل من اجتاز صحراء الرّبع الخالي على الإطلاق 1930-1931، ودوّن أخبار ذلك في كتابه *Arabia Felix* الذي نشر سنة 1932، وقد أعددتُه للنّشر قريباً في هذه السّلسلة.

(4) هاري سنت جون فِلبي (1885-1960) رحّالة ومستشرق وسياسي بريطاني ذائع الصّيت، يُعرف باسم: الحاج عبد الله فيلبي، كان مستشاراً للملك عبد العزيز آل سعود بعد عام 1925. وكان بعد برترام توماس ثاني رحّالة يجتاز الرّبع الخالي عام 1932. ونشر عن ذلك كتاباً صدر بلندن عام 1933.

كما أكّد لي سلطان القَطن بأنه من الممكن ألا تكون هناك أيّة صعوبة في الوصول إلى شَبْوة، المدينة التي أتوق إليها. حيث أنّ كلاً من ملك الحجاز وإمام اليمن كانا في سلام الآن، وعلى إثر ذلك تم فتح كل الطّرق الشّرقية مرّة أخرى على طول حدودهما. وللمرة الأولى منذ عدة سنوات فإنّ الطّريق الذي يؤدّي من عبر Abr' إلى نجران كان يستخدم من قِبل القوافل: طريق البخور، عبر شَبْوة ومأرب إلى اليمن، وفتح الطّريق للمرور فيه بسلام، وهو الذي سار عبر الصّحراء ذات مرة وسُمّي بمفازة صَيهَد.

«تلكم هي مفازة صَيهَد.. صحراءُ خالية، قفارٌ تعصف الرّياح فيها في جميع الاتجاهات، بلدة فيها الغربان ملوك». يمكنني الاعتقاد فعلاً بأنها بسبب الرّياح، لأنها كما بدا أنها تفعل في كل مكان شرق السّويس، ولكن بالنّسبة للصّحراء الخالية، أخبرني السّلطان بأنها كانت رحلة تستغرق ثلاثة أيام فقط إلى شَبْوة وخمسة أيام أو أكثر بعد ذلك إلى مأرب قرب بيحان. ووعد بأن يجد لي بنفسه بدوياً جيداً، وذلك لأن سكان شَبْوة لا يميلون للتّرحيب بالغرباء، وعندما حاول الكولونيل بوسكاوِن Boscawen الدّخول، أطلقوا عليه النّار من جدرانهم وضربوا أحد رجاله، الذي مات لاحقاً. ثم تبيّن أنهم لم يكونوا يحبّون البدو المرافقين له.

قلت: «ربما كانوا يطلقون النّار على البدو، وليس على الكولونيل؟».

«آه لا، لقد كان الرّئيس هو الذي أطلق، وحاول رمي الكولونيل، وبعد ذلك، عندما حصل أن حلّقت بعض الطّيارات البريطانية عبر الصّحراء هناك، هربوا جميعهم من مدينتهم واختبأوا، خائفين من الانتقام. ولكن لا يوجد شيء لتخافي منه الآن».

تعبر القوافل بالملح صخري مرتين في الأسبوع أو أكثر من شَبْوة عبر القَطن al-Qatn إلى شِبام. ويعتبر الملح ذا قيمة في كل البلد وفي المُكلّا، وقد ذُكر في الكتب القديمة؛ وأخبرني رجل من بيحان بأنهم يسمّون الرّيح الشّمالية هناك المِلحي (المالحة) لأنها تهبّ من منطقة شَبْوة. وإذا أمكنني أن أعطي سلطان القَطن إشعاراً قبل عدة أيام، فمن الممكن أنه سيختار رجالاً موثوقاً بهم من البدو العابرين، وسيحضر كل الأشياء لي وينتظر عودتي.

لقد كان هذا لطفاً عظيماً. ليس الذّهاب إلى شَبْوة فقط، ولكن إلى أماكن جديدة لم يزرها أحد، ووديان حضرموت الميتة، وتَمنَع القتبانيّة عاصمة قتبان Gebanite، وحتى الجوف بعيداً في الشّمال الغربي، حيث يشاع احتمال وجود الزّراف هناك. وهي تحوي، وفقاً لهَليفي Halévy: «كمّاً من الأطلال الأثريّة أكثر من أيّ بلد عربيّ آخر»[1].

“Plus de vestiges de l’antiquité que tout autre pays Arabe”

فُتحت جميع هذه الأماكن أمام ناظريّ، فشكرت السّلطان مع الامتنان في قلبي، لأن القسم الصّعب من رحلتي، حيث أخبروني في المُكلّا أنه مستحيل يمتدّ الآن ممهداً أمامي، كل ما كان عليّ فعله هو أن أصبح أقوى قليلاً، ومن ثم أذهب.

شعرت في هذه الأثناء بالمرض والتّعب، وطلبت أن أُترَك لأنام. مُدّ فراشٌ على الأرض، واسترحت في برود وعزلة، ونظرت إلى الغرفة اللطيفة، بأعمدتها ونوافذها، والطّلاء الأزرق والأخضر الشّاحب، ومشكاة المصابيح في الجدران. كان هناك بعض المرايا، ومدَّ السّجاد باطنها إلى الخارج لحمايتها. وأمكن النّظر من النّافذة إلى السّاحة من المدينة المسوَّرة، مهدَّمة وغير منتظمة. تقدّم جمل أعرج ببطء إلى إحدى زواياها؛ وتفرّقت المنازل مثل أكواز السّكر مزيّنة بتصاميم بيضاء حول جدرانهم البنّية المائلة. لم تعد النّوافذ مطلية باللون الأحمر كما رآها الزّوجان بِنت Bent، ولم يعد السّلطان يرتدي معطفاً أصفر اللون ببطّانة زرقاء باهتة اللون.

كان المسجد المقابل عبارة عن ساحة مفتوحة بثلاثة صفوف من الأعمدة في الخلف وواحدة أسفل كل جانب، ولا يوجد أية أعمدة في المقدمة. يقول غلازَر Glaser بأنها نماذج من معابد سبئية وقد دخلت إليهم على الأرجح مع بعض التّغيير. سطعت مئذنتها بيضاء وزاهية وسط أغصان النّخيل، مع تعريشة (شَعرية) تعطي الشّكل ذاته تماماً مثل تيجان عالية من القبعات النّسائية.

---

(1) تنقل عنه النّص بالفرنسيّة.

وبـدت أغطيـة الطّاولة زاهية أيضاً عندما بُسـط الغداء على الأرض. كان فيها رسـم أزرق لسـكاكين، وشـوكات وكـؤوس إلـخ؛ رُسـمت عليها كلهـا على خلفيـة بيضاء. وعليها كدّس البِلاف العجمي، فطائر هندية، حساء عربي، ولحم ضأن مسلوق. جثمنا أنـا والسّـلطان، وصديقي حسَـن عند نهاية واحـدة والآخران علي البربري، مع السّـيّد الصّغيـر. كنت قد رأيته خلال النّهار، لطخة صغيرة تمشـي فـي مقدمة جمل متاعنا في النّطاق الفارغ من الوادي، وأصرّ على وضعه في السّـيارة، على الرّغم من أنّ حَسَـناً بدا متألماً. لم يحبّ حسَن الفقر المتخلف - ولكنه لم يكن قد التُقط أربع مرات من حمار ساقط في اليوم السّالف، لذا لم يكن لديه سببٌ محدّداً للامتنان كما كان لدي.

أرسلني سلطان القَطن قبل أن أغادر عبر خطوات سفلية كدرة في قسم مساكن النّساء إلى غرفة متجدّدة الهواء فسـيحة على سـطح القصر، حيث جلسـت الحريم وشـاهدن الوادي ممتداً في الأسفل مثل خريطة. كانت زوجته هناك، بحاجبين مسودّين مقفولين، وثوب من قماش مطرّز هندي، وأسـاور أسـد. وجلس بالقرب خمسة أطفال مصابون جميعهم بالحصبة، كانت أعينهم مثل صحائف سـوداء محاطة بكثافة بالكحل الطّبي. اندفعوا قريباً مني، لذلك كنت سـعيدة بالتّفكير بأني حصينة؛ وتأقلمت تدريجياً زوجة السّـلطان، التي كانت خجولة في البداية، وذلك لأنها لم تقابل إفرنجية من قبل، عندما أعطيتهـا مطهّـرات من أجـل ابنها الصّغير، الـذي كان قد أدخل قطعة من الخشـب في خـدّه. تحدثنا بموضوع أخوي عن أمـراض الأطفال، إلى أن اقتدتُ عائدة عبر ممرّات ضيقة أخرى، احتشدت في ظلالها خادمات بثياب زرقاء اللون لرؤيتي - وخرجت إلى حيث كانت السّيارة تنتظر لأخذنا إلى شِبام، التي تبعد الآن اثني عشر ميلاً فقط.



الفصل السّابع عشر

شِبام

«بُنيت بأيدي العمالقة لملوك قدماء لهم سيماء الآلهة»

(موقع روما القديمة)

فتحـت بوّابـة مدينة القَطـن Qatn لدخولنا. ومشـينا في حرّ مابعـد الظّهر وفي فراغ الـوادي المحـاط الآن دون انقطـاع تقريبـاً في جانبـه الجنوبي بأشـجار النّخيل. وكان يوجد هنا وهناك سـقاية بيضاء؛ وجمل أو اثنان، دهنا بالقار ولهما رقاب تشبه الميزاب وأجفان نصف مغلقة. يعتبر الجمل حيواناً قبيحاً ولكن، مثل بعض النّسـاء البسيطات، له عيون جميلة بنيّة وناعمة بأهداب طويلة - وهي غالباً الأشـياء الجميلة الوحيدة التي يمكن النّظر إليها في عالمه المقسّـى بفعل الشّـمس. ولكن هـذا الجمال الوحيد قليلاً مـا يُلاحَـظ - على الرّغم من أن المعشـوق غالباً ما يقارَن بالغزال - من سـمع من قبل أي شـخص يقول متغزلاً بفتاة بأنّ لها عيوناً مثل الجمل؟ اجتزنا آباراً وحصوناً لمنازل منعزلة، فيها أربعة أبراج ركنية إن كانت قديمة، وإن لم تكن فهي بجدران عارية بسيطة. امتد الجُرف خارجاً في ضوء الشّمس، ولا تزال الخلجان المفتوحة ممتدّة في الحرارة بينها. وكان بالكاد يمكن تمييز مهبط طائرات سـلاح الجوّ الملكي R.A.F. المنبسـط الذي عبرناه، عن نعومة أرض الوادي العامة.

ظهـر الآن كمـا لو أنّ جرفـاً أخفض قد ضلَّ في الوادي الأوسـط. بدا ونحن نقترب مجعَّـداً ومنقَّـراً،، وفيـه ثقوب كخلية النّحل؛ وقد تشـقّق مثل جوانـب الوادي بصدوع

عمودية؛ وترقّشت قمّته بمدينة قديمة ومتجعّدة من التُّربة مثل التّلال التي حولها باللون الأبيض كما لو رسمتها فرشاة دهان كبيرة جداً، بُنيت على التّلّة التي هي فيها وامتدّت من دون أيّ شك فوق مدنها السّالفة من الماضي. كانت تلك شِبام التي تعود لبني عاد؛ المدينة التي فيها «تمكث فيها خيول الملك» في القرون الوسطى؛ وبنيت في «وسط أراضي حضرموت»، حيث تفرّعت خمسة وديان مثل عروق ورقة شجر الجمّيز وأعطت خداعاً بصرياً من السّماء المفتوحة إلى البلدة التي امتدّت بينها.

ميّزت نفسها ونحن نقترب، بشكل تدريجي عن الجُروف التي حولها. وكانت الثّقوب المنقّرة نوافذ عالية وصغيرة؛ والشّقوق ممرّات أعمدة طويلة من مجاري المياه التي تضيف للارتفاع هيئة شبيهة بالبيوت، أو أزقة في ظل دائم. ومالت المنازل بعيداً إلى قممها المبيّضة بالكلس وتسلّقت إلى سبعة طوابق فوق مقدّمة ضيّقة من أشجار النّخيل، وتجمعت في ظلالها مآذنها الدّقيقة البيضاء. لا يمكن أن تعتبر شِبام تلة، فهي عبارة عن ارتفاع ضئيل في الأرض مثل عنقاء، حيث جدّدت المدينة نفسها ومن دون شك عدة مرات. وكما يقال، فإنّ النّاس هنا انكفأوا من شَبْوة تحت ضغط قبائل الشّمال، وأسّسوا أنفسهم من جديد. وملأت مقبرة على الجانب الغربي، من المكان حيث أتينا، الوادي وأراضيه المهجورة، على نحو أوسع من البيوت الخمسمئة للنّاس الأحياء، وأضافت الإحساس بالقدم وثبات الوقت المشابه للنّهر.

لم يكن هناك بعد طريق سيارات يؤدي إلى شِبام. لكن لم تفكّر سياراتنا أبداً بقناة مياه في جانبنا، والمقبرة على الجانب الآخر، وضفّة منحدرة في الوسط. تجنّبنا الجدران، التي لا تعتبر جدراناً وإنما مجرد أراضي حصن فارغة لبيوت - لا نوافذ فيها ولها باب خلفي في أماكن متنوعة - وأتينا في الجنوب إلى أرض رملية حيث مخيّم الجمال، وحيث يمارس صبّاغو اللّون النّيلي حرفتهم، وتحمّل طوابير من نساء بأثواب زرقاء اللون جلود ماعز مليئة بالماء من البئر. قامت بوّابة المدينة في الأعلى، على مرتفع حصوي، وكانت جِمال محمَّلة بالخشب ترفع أقدامها فوق العتبة في طريقتها المتأنية. كان علينا أن ننتظر إلى أن جاء الأشخاص يركضون، بدو وجنود ومواطنون بعمائم،

ونساء بسلال المهملات على رؤوسهن. (تبدو الأعمال المحلّية مثل بيع الماء وجمع المهملات أنها بيد النّساء في جميع أرجاء حضرموت).

أدركـتُ بينمـا كنا ننتظـر بأن صوت جنديّنا الحزين كان مسـتمرّاً فـي الدّندنة لوقت طويل في جدال مع حسَـن خلفي. كان محجوباً بحَسَـن، الذي وضع معايير الحضارة وراء ظهره، وكان فوق ذلك لا يملك أيّ نوع من احترام لحكومة المُكلّا، بما أنّه ينتمي إلى سـلطة الكثيري، سـلاطين حضرموت الشّرقيين، الذين تمتدّ حدودهم خلف شِبام تمامـاً. وليـس هناك محبّة بين هذيـن الاثنين على الرّغم من أن السّـلام كان قد تم قبل ست سنوات.

كان جندينا يوضّح بأنّ عليّ أن أنام في شِبام، إذ لا بدّ لمندوب المُكلّا أن يستضيفني، ويجـب أن لا يُسـمح لي المرور بهـا دون الوقوف لليلة. وكان فـي خلفية تفكيره فكرة توديـع العامّـة، مع جمهـور غير متعاطف أثقل علـي، كما قصد أن يفعـل، متوقعاً تلك المبالغ الطّائلة التي ملأت تأمّلاته البسـيطة وهو يمشـي خلفي يومـاً بعد يوم. إذ كانت أفكاري الخاصة هي أن يؤخذ بعين الاعتبار المكان الذي سوف يجعلوني أنام فيه، ولم تذهل أبداً عقله غير المبدع، وكذلك لم يفعل حسَن، في الواقع، بالتّفكير بتلك الأشياء بشـكل خاص. لم يُبدِ حسَـن اهتماماً أكثر من إلصاق ذقنه السّـمينة بطريقة شرسـة في الخارج. كان قد أحضرني بسـيارة؛ وكان يمكن أن يحملني خارجاً إلى بلاد الكثيري، ولقـد قال ذلك بعبـارة واحدة، وهو مدرك بأن القوى الفائـزة كانت في جانبه. وأظهره قلم حبر بارز في جيب صدره، بأنه ينتمي إلى الغرب المتقدّم. ولـم تكن قبعته الجلدية (من جلد الماعز) ورأسـه بالرّقبة الغليظة القصيرة، تناسـبان وجهه الطّويل، الحضرمي الأرستقراطي.

لقد كان كولونيلاً سـابقاً في سـلاح جو الشّـريف حسـين في مكّة، تدرب هناك في المدرسـة التّركيـة، وجُـرِح برصاص الأتراك فـي الجو. وهو الآن مبعد من ابن سـعود – كان لديـه الكثير من الخطط الحديثة بالنّسـبة للوادي، وقد درّب لتوّه فتياناً من تَريم. وبالفعـل كان متمدّنـاً جداً أكثر بكثير مما كنت عليه أنا. وشـعر جنديي بأنه أدنى مرتبة.

أصبح حديثه المفرد أكثر إلحاحاً ممّا كان عليه من قبل، وذلك عندما رمى البعير الأخير نفسه خارج المدخل وارتطمنا بدورنا بالمنحدر المرصوف بالحصى عبر السّاحة الصّغيرة البوابة الدّاخلي لشِبام.

كنا في ساحة قد ازدحمت بجمال تخبّ على مهل؛ وأطلّت المنازل الطّويلة إلى الأسفل وجعلتنا نشعر كما يشعر أحدنا في قعر موجات البحر العالية فوقه. وشوهِدت في المقابل منارة بيضاء مواجهة لها، بدت متواضعة تماماً كما كنا نحن أنفسنا. كان كل ما أردته في شِبام في تلك اللحظة رسائلي وبعض النّقود من وكيل A.B.[1]، لأنني قصدت أن أعود وأبقى لاحقاً، عندما شعرت أني أفضل. أسرعنا داخل فجوة من البيوت، والسّماء عالية فوقنا وجمعٌ محتشد خلفنا، واستقبلنا عند بابه الوكيل بذاته باعُبيد.

كان رجلاً صغيراً نشيطاً، مرتدياً ثياباً قطنية بيضاء، وفعّالاً مثل جُندب؛ قادنا أعلى درجات ضيقة وراح يتلفّت بابتسامات عند كل مسطّح ليسأل مثل طريقة أصدقائه في عدن. وجلس في مكتبه موظفوه متربعين على بُسط من قصب. نظّفت زاوية ومُدَّت تحتي سجادة، وقد تمّ إحضار مجموعة من الرّسائل جعلت أختامُها البريدية المألوفة العالمَ حولنا فجأة يبدو بعيداً وغريباً. أيقظتُ نفسي منهم لأجد بأنّ حديث جنديينا كان لا يزال مستمرّاً، وقد وجِّه الآن لباعُبيد، الذي استمع بنظرة قلقة، بينما امتلأت الغرفة حولنا بوجوه غريبة وجاءت سلطات شِبام بأعداد كبيرة لتحيتي.

أصبح هؤلاء الأشخاص فيما بعد أصدقائي، وساعدوني بلطف لا ينضب. ولاحظت حتى الآن، في مرورنا السّريع، كم كانوا ودودين ومرحِّبين. كان مضيفيَّ في المستقبل، حسين العجم وأخوه، يبتسمان مع ومضات الأسنان الذّهبية، بينما استقرّ على الأرض في أجزاء، كما كانت، وبركبة واحدة على مستوى ذقنه جسد الحاكم الضّخم المسنّ، وأحد العبيد من المُكلّا بشكل مهيب بألبسة فضفاضة، ومعه عكاز فضي الرّأس، ونمت لحيته المحنّاة مثل هُدُب حول وجهه الضّخم السّمين، وأخذ يتمعّن برسالة السّلطان من المُكلّا.

---

(1) التاجر الفرنسي أنطونان بيسّ Antonin Besse، الذي أحبته فريا.

كانوا قد حضّروا بيتاً من طابق واحد لي في الحدائق خارج البلدة، والحقيقة أنه كان علي السّير بشكل مستقيم عبرها إلى وسائل الرّاحة المنافسة بديرة قبيلة الكثيري كان أكثر ألماً لنا جميعاً باستثناء حسَن، الذي اعتبر هذ فاصلاً أخيراً من العصور المظلمة، وكانت كلها لتعجيل إجراءاتها المهملة القديمة. ومن جانب آخر كان جنديينا، الذي وُجه الآن نحو دفاعاته الأخيرة، قد انفجر بخطبة مفتوحة ليقول بأنه يجب أن أبقى.

«وتتمنّى الحكومة إبقاءها»، قال هذا مظهراً مشاعره الحقيقية وفقاً لحرّية الإرادة وحقوق النّساء مع ملاحظة سلبية صدمتني. تجاهلتُه وأوضحت كم كنت مريضة، وكم هو ضروري وجود صيدلي إذا تعذر الحصول على طبيب، ويمكن لي أن أعود في غضون بضعة أيام وأرسل كلمة عن قدومي. ويمكن أن تعتبر هذه في العديد من الأماكن الشّرقية مجرّد لباقة، دون أن تعني أيّ شيء. ولكني لاحظت وفي عدة مناسبات بأن الكلمة الإنكليزية في كل حضرموت مقبولة بقيمتها الظّاهرة - تقديراً لجميع الرّحّالين الذين أتوا إلى هنا من قبلي.

جاء باعُبيد على عجلة، حيث كانت فترة ما بعد الظّهر بدأت بالتّراجع، من استراحات ديوانه محمّلاً بحقيبة قطنية وهو يعد مئات من قطع الطّالر الفضية بأكوام صغيرة على الأرض. رافقني الحاكم ومضيفاي المستقبليان عبر الأزقة إلى السّيارة، بينما همس جندينا - الذي كان الآن مضطرباً بشكل كامل - في أذنيّ حول البخشيش. ناولته ستة من الطّالرات التي لي - تساوي أجرة شهر - ولكنه كان يحلم أحلاماً ذهبيّة كالإلدورادو El Dorado - فماذا يمكن أن تكون السّتة طالرات؟ كان يعلم أنّ في يدي حقيبة فيها أربعة وتسعون أخرى. سألت أصدقائي الجدد، وقد رجوني ألا أعطي المزيد. كان المشهد مؤلماً جداً، حيث أنّ إحساسهم بالضّيافة قد ثُلِم - وكان لدي بعض الصّعوبات للوصول إلى عبدنا المستأجَر عبر صفوفهم المستنكِرة لأدفع له الطّالرين المتبقيين. شعرت بالأسف بأن أتركه كذلك - على الرّغم من أنه لم يكن لدي إشفاق شديد عليه، لأنه كان رجلاً غبياً، لا يتّسع رأسه لأكثر من فكرة بائسة واحدة. ولكن إذا كان شخصٌ ما لديه فكرة واحدة فقط، فبالطبع، يجب أن يحاول بشكل مضاعف ليكتشف أنّها خاطئة.

يمّمنـا شـمالاً بعد مغادرتنا هـذه المرحلة الفاصلة خلفنا، ومنازل شِـبام التي تشـبه البـرج، إلى جانب الوادي الأكثـر صحراوية، حيث تذكّرنا الأكـوام العديدة المحطمة على التّلال بأنه في السّـنوات السّت الأخيرة كان سلاطين القعيطي والكثيري في حالة حـرب. تعتبر الكثيري العائلة الأقدم في حضرموت، جاء 10,000 عشـرة آلاف منهم، وفقـاً لهيرش Hirsch، من صنعاء القريبـة حوالي عام 1494 للميلاد وأخذوا الأراضي الدّاخلية شـرق هينن أولاً، ثم الأراضي السّـاحلية العائدة لبني غسّـان. وقد ملكوا كل مـا حولنا عندما نزلت لأول مرة رجال قبيلة يافع وسـلالة المُـكلّا الحاكمة الحالية من هضابهم. ودفعهم هذا بشـكل تدريجي صوب حدودهم الحالية، إلى الشّرق تماماً من شِبام.

كقاعدة، يمكن للشّـخص أن يقول بأنه كانت فـي وادي حضرموت، كما في أغلب الأماكن، البلدات القديمة على منحدر التّلال - التي يجب أن تكون هنا جانب الوادي - وقـد بنيـت البلـدات الجديدة في السّـهل. باسـتثناء شِـبام، بلدة واحـدة فقط ذكرها الهَمْدانـي: Teris كما أعلـم حتى الآن، وهي في الخارج في مركـز الوادي. وتراصّت جميع البلدات الأخرى بجانب دفاعي أكثر أو انزلقت، مثل تَريم، للأسفل من المنطقة المجاورة القريبة من الحصن الأعلى الذي قام ذات يوم بحمايتها.

بينما نحن نسير من شِبام على طول الشّاطئ الشّمالي، عبر باقات من عشب ومزارع جديدة من أشـجار النّخيل، اسـتطعنا تقريباً رؤية ضاحية الحديقة التي تواجه الجُروف المقابلـة - عبـارة عـن منازل بيضاء مخبـأة في النّخيـل مثل ضواحي القاهـرة، انبثقت مـع الأمن في السّـنوات الأخيرة. سـطعت الشّـمس المائلة عليها وأضـاءت الجُروف والخلجان بضوء خافت. ويمكن للبعض أن يفهم لماذا يتوق تجار جاوة Java الأغنياء لواحـة طفولتهم تلك، ويشـدّون رحالهم إليها عبر الصّحراء كمـا لو كانوا يذهبون إلى جزيرة سـرّية مـن ممتلكاتهم محاطـة بجدران عاليـة، حيث تأتي أصـوات العالم مثل موجات في بحيرة ضحلة، ونادراً ما عكّرتها العواصف من المحيط الخارجي.

رفـع جنديٌ عبد يديـه، وهو حافي القدمين وصامت على الطّريـق الرّملي، لنوصله

معنا، فنظر حَسَـن القلِق لفعل الشّـيء الغربي الصّحيح، وكان جاهزاً كي يندفع بنفسه عنـد إيماءة في أي اتجاه. أُعطيتُ الإيماءة مؤيّدةً مساعدة عابر السّـبيل، فجلس العبد على رفراف العجلة. عبَرنا مجرى السّيل sail-bed المكسوَّ بالملح؛ وكانت تمتدّ رقعٌ ضحلـة من الماء حيث ينبغي للأرض أن تكون قاسـية جداً فلم تسـمح بعبورها. ينهار مجرى السّـيل sail مرة كل عدة سنوات، ويحمل أحياناً حدائق نخيل أمامه كما حدث حول شِـبام قبل سـت سـنوات، ويمكن في الوديان الضّيقة أن تدهم القوافل وتغرقها. ولكـن هنـا كانت جميـع الوديـان مفتوحة وضحلة، وتمتد سـيئون إلـى الخلف داخل الخليج الكبير في جانب الوادي على الشّاطئ الأبعد، بين أشجار من قمح ونخيل.

كانـت حدائقها مليئـة بالطّيور. عبرنا البلـدة والتففنا حول جدرانها العمياء وسـألنا السّـكان، عندمـا قابلناهـم، عـن مفاتيح مسـكني الـذي يُدعى عـز الدّين، وهـو جناح السّـلطان، حيث يذهب في الصّيف طلباً للبرودة. عندما وُجدت المفاتيح فتحت مبنىً مقنطـراً وأبيضَ. قـادت الدّرجات إلى المنزل في الأعلى، بُنيـت بركة أمامه، بدرابزين أبيضء وأخضر اللون ومياه جارية، وكانت غرفة الجلوس وغرفة النّوم تحت شرفة في الأسـفل. كل شـيء أبيض اللون، بطابق واحد؛ اندفعت أغصـان النّخيل الصّلبة مقابل جدرانـه ونوافـذه. كانت الغرف فـي الدّاخل بيضـاء وغالية، بكـراسٍ مخملية وأرائك بشـكل دائري ومناضد صغيرة، وفي غرفة النّوم ناموسـية زهرية اللونٍ ووسـائد بريش زهري.

كان هُنا مأوى. وبالكاد قبل أن يأتي السّـلطان وأخوه لزيارتي كان لدي وقت لتغيير ثيابـي المغبرّة بشـكل كبير إلى ثوب سـاتان أصفر بنقط سـوداء وقد اكتشـفت أن أهل حضرمـوت يستحسـنونه، قبل أن يقوم بزيارتي السّـلطان وأخوه، والسّـادة الأشـراف الثّلاثـة من آل الكاف الذين أوصلني لطفهم إلى هذا المكان. جلسـوا في نصف دائرة، وتكلموا بحسن ضيافة بسيطة، لا يمكن أن تدع المرء يتخيل بأنّ استضافة كل من يأتي مـن الأوروپيين الغرباء يمكن أن تكون أمـراً مزعجاً لهم، فقد كانوا ذوي وجوه لطيفة، واعتادوا التّعامل مع الشّؤون الصّعبة والعديدة لزملائهم، وراقبوني بهدوء بينما تحدثوا

عن هذا وذاك. وأدركتُ فوراً كيف يمكنهم تحصيل ثرواتهم بين الأوروپيين في الشّرق ومتابعة سياسات وطنهم أيضاً.

عندما تركوني لأستريح، أراني حَسَن حماماً صغيراً، له درجة واحدة تقود إلى مياه جارية فاترة حتى العنق، ترفٌ روماني. كان عشائي قد مُدَّ على طاولة عليها غطاء أبيض اللون تحت الرّواق، وكل الأطعمة الشّهية المعلبة في كاليفورنيا؛ وحليب كان يصعب الحصول عليه حتى الآن، تم جلبه من بقرة في كوخ طيني في الحديقة. وقبل أن أضع رأسي على الهُدب الزّهري اللون لوسادتي، نظرتُ خارج النّافذة ورأيت، ليس فقط أحواضاً من الزّينة تبهج العين وقد نُظّمت في ساحات صغيرة في الأسفل، بل وجزراً وخضاراً أخرى بجانبها.



الفصل الثّامن عشر

سيئون

«أعـي تمامـاً أنّ للمرأة فهماً تامّاً، ولكنّـي لا أريد لها أبداً ذلك الهـوس الصّادم بأن تغدو عالمة لمجرّد أن تكون عالمة».

(«النّساء العالمات»، موليير)

كان في سيئون صيدلاني شـاب نحيل جداً، خجول ولطيف الكلام، له شكل وجه أهـل الملايو Malay المألوف من زيجات مختلطة من الحضارمة في الخارج. أوضح حَسَـن عندمـا أحضـره إلى جانبي فـي الصّباح بأنه قـد أمضى صباه في پـورت داروين Port Darwin في أوستراليا، وهو الآن «يعمل على العودة إلى حضرموت كي لا يفسد دينه».

نظـر حَسَـن – الذي لم يعد يلبس سـراويل قصيرة، ولكنه ملتـف بقماش قطني ذي مربعات جعله يشـبه إلى حدّ ما الإمبراطور الرّوماني بشراشف مغبرّة – نظر بلطف إلى الأسـفل مـن قامته المهيبة إلى الشّـاب المتواضع، صنف انتزع قبـل أن تحترق. بدا أنّ أوسـتراليا لم تسـبّب له أيّ ضرر، ناولني بعض الأدوية ودسّ حقنة في سـاعدي، وقال متردّداً بابتسـامة حزينة عند العتبة، بأني يمكن أن أشـفى إن شـاء الله. كان علمه الدّيني على أيّة حال سليماً.

زرتُه لاحقاً في مسـتوصفه – وهو عبارة عن غرفتين بنوافذ منقوشة وتزيينات بيضاء

كلسية في بيت قديم. رُصفت الموازين والمجهر وزجاجات في صفوف، كانت كلها نظيفة بحرص شديد في ذلك المكان البغيض، وكان على الطّاولة بحث في الطّب. ولكن قلة هم الذين جاؤوا عنده، كما قال، فالنّاس كلهم في سيئون، يفضّلون الكيّ بميسم حديدي محمّى بأسفل مؤخرة رقابهم. ولقد كان مستقلاً عنهم، بالنّسبة لراتبه الذي يُدفع من قِبل السّادة الأشراف آل الكاف، ولكن ربما جعلته العزلة المعنوية متواضعاً جداً. وعندما أطريتُ ترتيباته نظر حولها بعينين رقيقتين وقال فقط: «هناك الكثير من الغبار»؛ وابتعدت، كما أفعل غالباً، وأنا أشعر بأن هناك شيء بطولي ومثير للشّفقة في ريادته للإصلاح في الحضارة الحديثة التي آمن بها بشكل بسيط جداً، كانت الغرفة التي أزيل عنها الغبار نظيفة بشكل منفرد في الوسط من البلدة غير الصّحيَّة، والتي تستمرّ فاسدة وخالية من الهموم في طريقها المألوف.

في الحقيقة، فإن سيئون هي الأكثر بهجة بين البلدات. ولم أشعر بالتّعب أبداً في القيادة بتروٍّ عبر طرقاتها المتشعّبة من المنازل البيضاء والبنّية التي تطلّ من جدرانها المائلة وشبكياتها العلوية على الشّوارع المغبرّة غير المرصوفة والصّامتة المنعزلة إلا من امرأة تمشي هنا وهناك تجرجر ثوبها الأزرق الطّويل عند باب منقوش قليلاً، أو جمالٍ بدويٍّ تكنس بحمولاتها الزّوايا المبنيّة في الطّين.

المنازل غنية بكل تشكيلة من أعمال التّخريمات الدّقيقة، وارتفعت متاريسها من الظّلال الدّافئة في الأسفل إلى ضوء الشّمس، وغالباً بنتوءات مثل كوى حول قلاع قديمة حيث كان يُصبّ الزّيت الحارّ على المهاجمين، ولكنها صُنعت هنا لهدف أكثر أماناً لإتاحة الفرصة للحريم أن ينظرن إلى ما يجري في الأسفل بشكل غير منظور. وأيضاً فإن الحريم غالباً ما يكون لديهن بابٌ خلفي متواضع خاص بهن إلى جانب الباب الكبير. وهناك العديد من الممرّات المشمسة الهادئة، مع مسجد أبيض اللون، أو سقاية مزخرفة، وشجرة نخيل أو اثنتين لتظليلها.

ومصارف المياه في سيئون مغطاة كلها، وتمتدّ في أحواض مغطاة من الطّين صُنعت ناعمة ولامعة من الخارج، ولذلك يمكن للشّخص أن يتجوّل حولها دون أن يكون قد

فكّر بالتّعقيم، في سلام مثالي. وهي بالفعل بلدة نظيفة ولطيفة، بجامع مبني بتصميم قديم بسبعة صفوف من الأعمدة، وكان في المركز السّوق، وقلعة السّلطان، كما يجب أن يكون في بلدة إقطاعية. وترتفع في أيام السّوق كتلة القصر البيضاء بين أبراجها الرّكنية الأربعة في بحر من الجِمال، وحشد من باعة ماعز وخراف وحمير، وحائكي سِلال جاثمين فوق الخضار على الأرض، ووازني ملح، وسمك مجفف، وفلفل، وأعمال يدوية، ونهايات مسامير وحبال وصنادل، ونساء بقبعات طويلة يبعن شالات.

عندما كنت على استعداد للسّير هنا وخلال الأيام الأخيرة لإقامتي، كان على عبدَين أن يبعدا الحشد من أمامي بأغصان نخيل وأحياناً بالجزء السّفلي (معدّة للاستخدام عند الاقتضاء)، فنادراً ما شاهد هذا الحشد امرأة إفرنجية لأن إنغرامز وزوجته مرّا عبر سيئون ولم يمكثا فيها. ومن ثم تسلقت عدة طوابق من قصر السّلطان لزيارة حريمه، ووجدتهن ودودات ومرحّبات مرتديات ثياب على الطّراز الحضرمي ولكن بلمسة فخامة هندية في ثيابهن الحريرية التي وُضعت فيها ألوان من جميع الأنواع والنّجمة على الظّهر، وخلاخيل ذهبية في أقدامهن. وكان البعض منهن يرتدين على طراز أهل جاوة Java، معطفاً حريرياً مستقيماً، ولا شيء يشبه جمال الثّوب المتدلي، وكانت شفاههن فقط قد طُليت. وقد كن مفعمات بالشّفقة نحوي ونظرن برهبة إلى يديَّ المنمّشتين، فعزين ذلك للحصبة. ونظرتُ من شرفتهنّ العلوية إلى سيئون وحدائقها، وشاهدتُ كم أنها تمتدّ في حقول ذُرة ونخيل مع جدران انحدرت محيطة بها من أسفل الجُرف. البوابات مفتوحة والجدران تتقوّض، وتظهر السِّلم الذي يعمّ اليوم؛ لأنّ السّلطان يتمتع بقبضة قوية وخدمه يطيعونه والبدو يحترمونه؛ وكما أخبرني فهو رئيسٌ قبلي سليل هَمْدان، وليس هناك مقدار من مال أو ولاء مُشترى يعادل هذا الادّعاء الموروث كي يُحترم بين رجال القبيلة.

تعلّقتُ بالسّلطان علي بن منصور أكثر. كان في منتصف العمر؛ ولا يزال شعره مجعّداً، وأسود اللون تقريباً، بجدائل صغيرة على رأس كروي بشكل كامل وعادة ما تكون الجديلة ملفوفة بشكل فضفاض، وعمامة ضخمة. كان كله فضفاضاً وضخماً،

وأحبّ أن يلبس العباءة abba المصنوعة في الشّمال، وجلس مثل حزمة على طرف واحد من الأريكة، لا تفوت شاردةٌ ولا واردة من عينيه الصّغيرتين، اللتين كانتا تومضان باستمتاع خلف نظارتهما في وجهه المستدير البسيط.

وقبل أن أغادر أقنعناه بأفضل زيّ له، صرج (نسيج صوفي متين) أزرق سميك بنسيج قصبي مذهب نُثر ببذخ عليه - وجعلت النّاظر يفكر بملاحظة الفتاة الأميركية للحرس الاسكتلندي: «يا إلهي "my" كم تملك من الحلي الصّغيرة الجميلة معلقة على كل ثيابك». كانت في الحقيقة شيئاً جميل لصورة فوتوغرافيّة، ولكنه يسبّب حرارة كبيرة. وفكّر كذلك، مفضلاً عباءته Abba كما يفعل أي رجل عاقل، ولكنه لم يقدّم أيّ احتجاج ضد معايير الغرب. وشعرت لذلك فقط بأنه كان قد اعتبر زيارتي - ظاهرة عصرية، مملّة ولكن لا تصدّ؛ لأنه جلس هو وأخوه بجانبه - رجل نحيل وصامت - في بداية الليل يتكلمان على نحو قليل جداً في أول مساء، بينما تحدّث السّادة الأشراف آل الكاف عن أشياء حديثة: من طرقات، وسيارات، وطائرات، وما شابه. وعندما اعترفتُ فقط بأني أحببت إلى حدّ ما ماكان هادئاً وقديماً، ابتسم السّلطان وبدأ ينظر إلى ما يمكن أن نتذوقه على نحو مشترك.. لأنه هو ذاته أحب الطّرق قديمة الطّراز، وحتى الأكثر تقدماً يمكن أن يفضلوا مدح أشيائهم الخاصة الرّديئة، مهما كان ضميرهم يدفعهم لتوقير الجديد. إنني أفكر دائماً بأن عبارات المديح التي غالباً ما نقدّمها للشّرق هي إلى حدّ ما ذوق غير مؤكد، عندما نمدح فقط ما الذي نسخوه منا!

كان السّلطان علي رجلاً مريحاً، اجتماعياً ولطيفاً. ولا بدّ أن زوجتيه اللتين «بأسفل المدينة» و«في الأعلى في الڤيلا» بين الحدائق اعتقدتا ذلك. لقد أحبّ حدائقه وأحبّ أن يجلس ليشرب الشّاي مع أصدقائه تحت شجرة نخيل، ويشاهد الأحواض المربعة من الفصّة والبرسيم والذّرة، والملفوف والجزر والبصل، الزّينية والكوسا، ونبتة زهرة اللبلاب التي يدعونها بطاطا والتي تنمو كلها بصورة عرضاً بين شجيرات النّخيل الكثيفة اليانعة. لم يكن هناك أيّ منظر، بسبب جدار طيني عالٍ أحاط بنا وأظهر فقط أعالي الجُرف في الخلف.

ينتقـل الحريم في الصّيف إلى عز الدّين، كـي لا يمكن لأحد النّظر من الخارج إلى الدّاخـل، ولكن كان فـي حدودهن الهادئة وغير المنظمة في الحديقة جو من السّـلام. وكان هنـاك بئر في ركـن واحد، جاف الجدران مثل البئر القديم في المَشـهَد، بسـقاية قشدية اللون بالقرب منه، وثقوب في الجدار لتسمح للفيضانات بالمرور عبرها عندما تحـدث؛ كانـت امـرأة تعمل مع ابنتهـا بأثواب زرقاء بيـن الأشـجار؛ وكان هناك طيور وجُدْجُدْ وسحالٍ. حاولتُ جمعها لفوائد علم الحيوان، ولكني قرّرت أن أتركها بسلام عندما اكتشفت كم هو كريه وضع جندب حيّ في الكحول حتى يموت.

اعتاد سـلطان علي أن يأتي في الصّباح، ويمكن أن يزورني قبل اسـتقراره في الظّل، ونتكلم حول تاريخ العرب، ونقرأ نسختي من الهَمْداني، التي أعجبت كل من شاهدها - وذلـك لأنها مليئة بأقوال معروفة في حضرموت الآن. ومن جانبه فقد أعارني تاريخ العرب في الجاهلية حيث أنه لم يكن معي أي شيء لأقرأه وأمضيت أيامي في السّرير، أتمنى لو أستطيع أن أجدها مرة أخرى. ولقد بدأ بفصل عن النّساء كما يحبّهن العرب: اللاتـي كنّ، من بين أشـياء أخرى، «ممتنّـة عندما تكون راضية، وصابـرة عندما تُعامَل بشكل سيء»؛ وكانت هناك نصائح أكثر أخرى من هذا النّوع، نسيتُها لسوء الحظ.

بدأت أشـعر بتحسّن بعد عدة أيام في سـلام الحديقة، خرجتُ إلى الشّرفة من أجل وجبات الطّعام، وأشـرف حَسَـن وأبعد الذّباب، وتكلمنا حول التّعليم. لقد كان حول جار السّـيّد الذي كان قد أعطاني ثلاث قطع شـمندر. أخبرني حَسَن «بأنه مؤلِف كتاب في اللغة، ويقولون بأنه أفضل كتاب أُلِّف. ولم يكن قبله بإمكان أي شـخص أن يكتب أكثر من ستمئة فصل في الموضوع، ولكنه كتب ألف فصل».

قلت لحسـن: «إنه شـيء جديد جداً أن نشـترك بسـجلات مثل ذلك الشّـيء، يفعل ذلك الجميع بالسّيارات، ولكن لماذا ليس بالقواعد؟».

نظر حَسَن مسروراً. واعترف: «إننا نتحضّر هنا».

أخبرني بأن الصّوت الذي أبقاني مسـتيقظة - طنيـن غريب وهمهمة - كان الهاتف

الـذي كانـوا يحاولون مدّه بين قصر السّـلطان وبيننـا. وكانوا قد حصلوا على السّـلك الذي ثبّت على النّهايتين، لكنهم لم يتمكنوا من سـحبه بشـدة، ولذلك اهتزّ وغنّى مثل الأرغن، مالئاً الوادي بصوته القادم من القرن العشرين.

قال حسن: «لدى الجميع هواتف في تَريم من بيت لآخر، ولكن لا يمكن الحصول عليهـا بين بلـدة وبلدة، حيث أن البدو يقطعون الأسـلاك إذا ذهبـت خلف الجدران». لـم يكن حَسَـن يحب البـدو لأنهم كانوا غيـر عصريين. ولو رآني أتكلـم معهم، ورأى طريقتهم السّـهلة معتبرين أنفسـهم على قدم المساواة مع أيّ شخص، ويمكن أن يثبت فكّه خارج مكانه وينظر بشكل مباشر أمامه، حتى رأيت أنه من المناسب أن أعزل نفسي عن تلك الألفة وأصعد مرة أخرى إلى الانطواء المقبول في سيّارة.

سـرنا بعـد مدة خارجـاً في مجـرى السّـيل sail-bed المليء بالأحجـار وأجمات رمادية الأوراق، تدعى يَعبُر، والتي تُستخدم في حُزَم لتحمل الطّين في الأسطح، وهي احتكار السّـلطان ومصدر جيـد للدّخل. كانت فيها زهرة صغيرة تشـبه البازلاء حمراء اللون، مثل لهيب صغير.

كان ما وراء ذلك البيت الجديد والحديقة العائدان للسّيّد أبي بكر الكاف، الذي زرناه في أقرب وقت أتيح لي. كان لا يزال يجري بناء الحديقة وهي الأولى في حضرموت، وقد نُسخت من أوروبا، ولا تزال خالية من أحواض مستديرة مع أُطُر حجرية، وشجرة في وسط كل حوض، وسياج حاجز من أجمات من حنة مقصوصة بجنبها؛ ونافورة في الوسط. كان المنزل هو الأول في سيئون الذي بني بالإسمنت، «ولذا فلم تحتج الغرفة لأعمدة». وكانت الأشـغال الخشبية القديمة لحضرموت، مع مساميرها الرّصاصية قد استُبعدت، ووضعت أبواب ونوافذ أوروبية مزينة، مزخرفة على نحو غالٍ. كل شـيء كان غالياً. حتى الحمام - كان مختلفا فهو مكان بهيج بأرض مغمورة بالماء - ويحتوي مركزاً مذهّباً في سـقفه؛ وكان للبهو سـقف زجاجي مثل الفنادق في سنغافورة. وماهي العقوبة الشّـديدة العنيفة التي أمكن للشّـخص أن يتخيلها لديكـورات منتصف العصر الفيكتـوري أكثر من وضعهـا - كانت قلوبهم الآن مطهّرة من تأمل الجمال المقدس -

في موقع كهذا وبمجرد إلقاء نظرة خاطفة إلى الأسفل من شرفاتهم السّرمدية لا بدّ أن يروا مخترعاتهم الخاصة تمتدّ مثل سرطان فوق العالم غير الفاسد؟

ماذا حدث للجنس البشري، وقد اشترى بسعر غالٍ جداً ثمرة شجرة المعرفة، ولا يمكن حتى استخدامها لمعرفة ما تريد أو ما لا تريد؟ ليس جهلاً، ولكنّه كسلٌ وجُبنٌ يمنعنا من معرفة ما نريد. يُترك الجاهلون لصنع أشياء جميلة، ولكن عندما نبدأ بالتّفكير بأنه علينا الإعجاب أو الازدراء، يتحرر الشّيطان في عقول المصنّعين في الأراضي الدّاخلية، ونحن نقبل الأشياء التي يعطونها لنا بالجملة، كما يقبل الشّرق الغرب؛ ونفكر بأفكار الأشخاص الآخرين، إما أن نكون كسولين جداً أو خائفين جداً لنكتشف أفكارنا. ويجد السّيّد العزيز المسنّ سعادته في النّظر إلى أبوابه المنحوتة، وفي مدينته القديمة - المدينة الوحيدة التي رأيتها في حياتي مبجّلة وجميلة وليس فيها ملاحظة سيئة تلفت الانتباه - يعتبر نفسه ملزماً بجلب قبحنا الغربي لإفسادها إلى الأبد.

حاولت أن أقول هذا، ولكنه ما هو صوت المرأة؟ مجرد ضوضاء، ممتع أو بالعكس حسب الزّمان والمكان. وعندما أعربتُ عن مشاعري، ابتسم السّيد أبو بكر، وهو يفكر بأني كنت مؤدّبة حول جمال منازل حضرموت. «ألسنا نحن أنفسنا نسكن ونتتج هذه الأشياء؟ فلماذا علينا فعل هذه الأشياء إذا لم نكن نحبّها؟». أخذني إلى مبنى البرج حيث لا تزال عائلته تقيم بأسلوب قديم الطّراز.

وقفت زوجته هنا فوق عدة درجات بثوب حريري أحمر اللون، محنّاة الأصابع وبخواتم جميلة، وأبعد من ذلك، عبر عدّة ممرّات، كانت زوجة ابنه الشّابة تتزيّن في اليوم الأربعين بعد ولادتها. كانت يداها وقدماها قد طليتا بعمل مزركش متقن بـ hudhar بنّي اللون، يبدو جميلاً جداً، وعندما تمّ بدا مثل قفازات. كانت ذاهبة خلال أيام قليلة إلى زفاف في تَريم دعيتُ إليه أيضاً. كانت هؤلاء سيدات فاتنات وقمت بزيارتهن مرة أخرى، وأحببتُ أن أكون معهن. ولم يقمن في سيئون طويلاً. كان سيّد أبو بكر قد جاء عندما قامت ثورة العبيد في تَريم وسبّبت له العديد من المشاكل، سعى إلى السّلام بين الحدائق وجلب إحدى عائلاته. كانت السّيدات يبدون متشوقات

للمنزل الجديد، المؤلّف من طابق واحد وفي الوسط من قطعة أرض مغلقة حيث يمكن لهن أن يتجولن فيها - ويحتوي من وجهة نظر راحة الأنثى شيئاً ما يقال عنه.

وصلت رسالة عندما جلسنا هناك من أرملة متعلّمة من سيئون تطلب مني أن أزورها. أخذتني خادمة، مجرجرة رداءها الأخضر عبر حديقة نخل رملية إلى درج مبيّض بالكلس يصعد إلى غرفة مريحة، ذات أعمدة ومفروشة بالسّجاد، حيث جلس ما يقارب من عشرين سيدة يضعن أساور كهرمانية ويرتدين أثواباً قطنية مورَّدة متحلقات على شكل مربع حول مرشدتهن الرّوحية. كانت تشبه إلى حدّ كبير سيدات موليير Molière المثقفات. كانت الأرملة شابة، ممتلئة الجسم قليلاً، وذات عينين برّاقتين، بضفيرة صغيرة زاهية على كل جانب من وجهها.

عندما رأتني قادمة، كانت مستغرقة بعجلة في نسخة من البخاري ثبّتت على حامل مقابلها على الأرض. قرأت منه بلحن رتيب خلوٍ عن مشاعر أو تعبير الخبرة، استغرقت وقتاً كثيراً جداً لملاحظة حضوري، وبينما تحرّك جمهورها بتململ، متردّدات بين رغبتهن في التّعلّم بانقيادهن للتّراث السّماعي وبين حقيقة أنهن كن يتحرّقن بفضول لرؤيتي.

اقتربتُ؛ متجنّبة السّيدات الجالسات؛ وانحنيت وقبّلت يدي سيدة البيت، التي رحّبت بي بخطبة رقيقة في أخوة التّعلّم. ولم ترتفع لذلك بالتّدريج، ولكنها أدارتها مثل صنبور ممسكة إياي بيد واحدة وبطرف عينها، بينما انتزعت اهتمام جمهورها بالأخرى. وقد رقّمت جُملَها بأصابع جميلة صغيرة محنّاة، مقتبسة من النّبي والقرآن والشّعراء - حيث أنها هي نفسها شاعرة، وكانت قد اشتركت في منافسات مفتوحة، وربحت طقم شاي كامل كهدية. وقالت، كل يوم تتجمّع السّيدات هنا ويستمعن لواحد من الكتب الخمسة: القرآن، البخاري، مسلم وكتابين آخرين من كتب الحديث نسيتُ اسمهما. وقد حدث أني عرفت القليل من البخاري وكدت أصل لنصف جملة عنه.. فحملتها، دون تردّد لحظة، إلى عوالم من الفلسفة والامتيازات في الدّين. قالت: «لماذا لا تعيشين هنا؟ يمكن أن نجتمع كل يوم ونفكّر».

لقد كنت أفكر كما كانت تفكر، لأنه لم يكن لدي شيء لأقوله، وبدأ الجمهور الآن الـذي كان يحظـى بمزيّة الاسـتماع للسّـيّدة Sayyida كل يوم ولكن لديـه فرص قليلة جـداً لرؤية امـرأة أوروبية، بدأ يبدي إشـارات من التّمرّد، وأرسـلتْ أخيراً رسـالة عبر الغرفة بواسـطة خادمة بثوب أخضر لتسـأل إذا كنت أمانع بنزع قبعتي، حيث يمكن أن يروا إذا لم يسـتطيعوا أن يسـمعوا. أزلتُها وابتسـمتُ لهن. فتح العديد منهن أفواههن، ولكن لم تتجرأ أي واحدة بقطع الجملة الثّانية، والتي كانت تطير في طريقها مع سـيل مـن الفصاحة والخيـال. وكان عليّ قبـل أن تنتهي أن أقف، لأن فترة بعـد الظّهر كانت تتناقص.

تركتُ السّيّدة بمشاعر ودّية في قلبي، لتحذلقها الذي يطفح للخارج بتلقائية ومرح، بسيطة في تلك المراعي اللاهوتية المُجدبة، مثل جدول جبلي في الصّخور. وأخبرتني بأنـه كانت هناك نسـاء مثقفات أخريات في سـيئون لأنها هي وتَريم كانتـا مدينتا الدّين والعلـم - ولكنهمـا كانتـا «متعصّبتيـن جـداً». ولـم تكن هـي كذلك. فُتحـت ذراعاها لمسـتمعة مسـيحية، وهي مفعمة بودّ حقيقي، وأتت لرؤيتي عندما عدتُ عبر سـيئون. كان زوجها قد توفي، وكان لديها العديد من الأطفال، وقد سكنت في منزلها الخاص. وأعتقـد، بأنهـا كانت واحدة من أسـعد النّسـاء فـي حضرموت، لأنها فعلـت ما أحبّت أن تفعلـه، وكانـت فاضلة وذات شـأن أيضاً، وأخبرني النّاس بأنهـا كانت كذلك طوال الوقت.

غادرتُ عز الدّين في الصّباح التّالي، في السّـادس عشـر من فبراير، أنا وحَسَـن في زيارة لمدة ثلاثة أيام إلى تَريم.

* * *

الفصل التّاسع عشر

تَريم

قال يزيد بن مقسم الصّدفي:

**يا حضرموت هنيئاً ما خُصِّصتِ بهِ		من الحكومةِ بين العُجمِ والعربِ**

**في الجاهليّة والإسلامِ يعرفهُ		أهلُ الرّوايةِ والتّفتيشِ والطّلبِ**

عندما نزلت إلى الفناء في الصّباح التّالي، كان في السّيارة التي أقلّتنا إلى تَريم بدوي أزرق مغبرّ، استقرّ على المقعد الأمامي وهو يتعهّد سلاحه. كانت سيارتنا "saiara" من قبيلة العوامر، الذين تمتدّ ديرتهم بين المدينتين. كنت ذاهبة لتصويره، وقد انحنى فيما بدى يشبه شال أمه، عندما تمتم حسَن أنّ الأفضل أن أنتظر. وحقيقة أني لا أزال بحاجة لمرافقة تمضّني، ولا أحد يحب أن يؤكد ذلك، على الرّغم من أنها لا تزعج أحداً بشكل كبير. ولقد حلّ السّادة آل الكاف الأمر بإعطاء راتب دائم لبعض البدو ووضعهم في أيّة سيارة تسافر.

كان رجلنا العامري هادئاً ودوداً، ويتمتع بذاك العقل القانع والمباشر والبسيط الذي يجعل البدوي لطيفاً. عاملني باحترام، وذلك لأني كنت قد استرقت السّمع لحسن وهو يبيّن له بأني كنت «إحدى سلطانات إنكلترا». وعندما سمحت له بالنّظر من خلال كاميرتي إلى المنظر الطّبيعي ابتسم وعلّق قائلاً بطريقة مخيّبة: «إنها تجعل الأشياء تبدو أصغر».

لاحظت بأن عقب بندقيته لم يكن مغطى بجلد وعل أو غزال مثل بنادق البدو من

كور سيبان. قال: «هذا ليس من طرازنا».

سألت: «إذاً ماذا تفعلون عندما تقتلون وعلاً؟».

«نصنع من قرونه أبواقاً للحرب. ويُحمل رأسه على رأسنا ونرقص به بينما يصيح رجالنا، ونسمّي الرّقصة الزّامِل».

قال حسن: «كل شخص لديه رقصة، يدعو السّادة الأشراف رقصاتهم sherh، وهنا تسمّى رقصة شعر النّساء الزّفين zafin والنّعيش narsh في المُكلّا».

قلت، بالعودة إلى الوعل: «ولكنكم الآن جميعكم في سِلم، ويمكن ألا تكونوا بحاجة لأبواق حرب لمدة طويلة».

قال حسن معلّقاً: «عندما يحتاجون لمال، فإنهم يكمنون هذا الطّريق، ثم فعلى كل واحد أن يذهب فوق أو أسفل العقبة وعبر الجُول إلى تَريم، من الطّريق الذي قام السّادة الأشراف بشقّه هناك في الشّمال قبل سبع سنوات، عندما اعترضت القبائل علاقاتهم».

ابتسم العامري مرة أخرى، كما لو كنا نشير لحماقات فترة شبابه من زمن طويل، ولكن ليس مأسوفاً عليها بشكل كبير جداً.

كنا قد غادرنا ضواحي البساتين من سيئون، وأتينا لجزء من الوادي حيث شق الماء لنفسه قناةً أعمق على نحو هزيل في الشّمال، مسبّباً لأن يكون الجانب الجنوبي جافاً وقاحلاً.

اجتزنا عبر مَريَمَة وهي بلدة حديثة في الغرب وقديمة في الشّرق من قاعدة الجُرف النّاتئ. يقولون بأنه يوجد حوض ماء في الصّخور بالأعلى، ويشير ڤان دِن مولن M. Van den Meulen إلى طريق قديم إلى الجنوب. وكانت الطّريقة لسقاية حضرموت هي على نحو واضح بحجز هذه الوديان ضيقة الجانب، ومن المحتمل أن هذا تمّ في عدة أماكن في أيام خلت، تماماً كما كانت في اليمن، حيث من المحتمل أن البلدة كانت أكثر خصوبة من الآن وأشكُّ بذلك كثيراً. وبدوره فقد جعلتْ قيمته التّجارية بالإمكان رعايته من أجل ضمان حمايته وهذا مكّن من الحفاظ على سقايته بشكل

مستمرّ وزراعته؛ ويعلم كل واحد ما هي العناية المتواصلة المطلوبة لحماية هذه الأشياء الحيويّة في الأراضي المروية على نحو هزيل. وفي بلاد ما بين النّهرين قد حوّل تدمير ضفاف القناة في سنوات قليلة جداً الخصوبة البابلية إلى صحراء تركيّة. تقول أسطورة بأن قحطاً جنوبي جزيرة العرب نتج عن خراب سدّ مأرب. وكان الذي حدث في الواقع على الأرجح هو انخفاض تدريجي في التّجارة وعدم اهتمام إجمالي بريّ السّدود وترميمها والصّهاريج، كما في وادي دام Wadi Dam الذي ذكره البكري قائلاً: «كان مزروعاً ذات يوم، ولكنه جفّ وهُجِر قبل الإسلام بقليل». حيث كانت القوافل دوماً تسير من حضرموت إلى اليمن عبر أراضٍ خصبة باستمرار، ولكني لا أصدّق هذا. وصلت الحملة الرّومانية بإشراف إيليوس غالوس Aelius Gallus إلى مأرب وهناك كان عليها أن تعود، يتهدّدها الجوع والعطش. وكان هذا منذ عهد بعيد قبل هدم السّد (الذي حدث في القرن السّادس الميلادي)، ووفقاً لخيال العرب، في وقت عندما «كان الشّخص يستطيع السّفر في ظل مستمرّ لمدة شهرين عبر أراضي مأرب»! وإذا كان هذا حدث بالفعل ولو بخصب معتدل حسب مقياس العرب وحدهم لكان قادراً على الرّاحة وإرواء جيشه.

يذكر الجغرافيون المسلمون المبكرون بين مأرب وحضرموت «الصّحراء الخطرة إلى شَبْوة، أول بلدة في حضرموت» (أبو عبيد البكري)؛ أو «مفازة صَيْهَد، حيث الغربان فقط هي الملوك». وقد وصف طريق العبيد الليبي مؤخراً الكابتن باغنولد Bagnold، حيث سافرت القوافل، كلها خلال القرن الماضي مسافة 150 ميلاً في زمن دون ماء، مظهِرة المسافات والمتاعب والمخاطر التي يمكن التّغلّب عليها في سبيل تجارة مربحة. وعلى الأغلب فقد ذهب طريق البخور القديم، كما تفعل قوافل اليمن الآن، من ماء إلى ماء، على الرّغم من أن الأماكن بقدر ما كانت خصبة في ذلك الوقت، كانت على الأغلب أكثر بُعداً واتساعاً.

حول كون عدد السّكان في اليمن الجنوبي على أية حال أكثر تعدداً تحت امبراطوريات جنوب جزيرة العرب ممّا هو عليه الآن، قد تم استنتاجه ربما من بعض

الأعداد التي ذُكرت على النّقش الحِمْيَري العظيم في صِرواح Sirwah، حيث أنّ تعداد 26,000 قتيلاً و 65,000 أسيراً يدلّ على أنّ قِطاع البلدة يمتدّ تقريباً جنوبي نجران إلى البحر، وعليه فإنه يتوجب أن يكون مكتظاً بالسّكان بكثافة أكثر من الآن. ومن ناحية أخرى، يشير تعداد 200,000 من رؤوس الماشية إلى نسبة جيدة من الرّعاة البدو، الذين كانوا يقيمون هنا كما هو مرجّح في أرض سهبية غير محروثة، كما يفعلون حتى هذا اليوم.

لا يستطيع أحدٌ الكفّ عن التّفكير ملياً في هذه المشاكل، عندما يسير أسفل الوادي إلى أيّ مكان هنا، يمكنه أن يمرّ على المدن الحِمْيَرية[1]. وتوجد هنا أطلال على صخرة جزيرة صغيرة قبل تاربَة، وفي قرية سَنِه Qariat Sané أو Sanahiya خلفها، وهي مدينة مدمّرة تحت الجُرف؛ وكان هناك طريق قديم على الأرجح حيث ينتهي وادي عَدم فجأة، والطّريق الحديث إلى الشِّحر والبحر، وربما كان هناك طريق قديم، طالما أنّ ڤان دِن مولن M. Van den Meulen قد عثر هناك على أطلال سُنِه Sune، ونسخ نقوشاً ومنحوتات شاهدتُها لاحقاً في حديقة سيّد أبو بكر في تَريم، وأعطاني اثنين منها بكل لطف[2].

فضلاً عن هذه الأشياء، كان لدينا كثير من المواضيع لتسلّينا ونحن نسير على طول الجانب الجنوبي للوادي.

اجتزنا المكان حيث يوجد قبر وليّة - الشّيخة سلطانة - مدفونة فيه، ويزوره الآن ليس النّساء فقط ولكن الرّجال أيضاً. وأبعد منه قبر لمصلح مسلم هو السيّد أحمد بن عيسى المهاجر، الجدّ الأكبر لجميع السّادة الأشراف في المنطقة. جاء من البَصرة، واستقرّ أولاً في الهجرين ومن ثم هنا، حيث يرقد تحت قبّة بيضاء شيِّدت في حطام

(1) كتبت المؤلفة: استخدم عبارة الحميرية أو السّبئية كمفهوم عام، وأعتقد بأن هناك اسماً غير عام يضم عدّة إمبراطوريات في جنوبي الجزيرة ما قبل الإسلام.

(2) كتبت فريا: وهما الآن، بالإضافة إلى تمثال صغير قمت بشرائه في شِبام ويقال إنّ مصدره وادي بيحان، موجودان في متحف الأشموليان.

الجُرف. وقد أرشد أرض حضرموت، والسّادة الذين انحدروا منه هم الآن أحد أربع طبقات التي ينقسم إليها سكانها الآن: السّادة sayyids، والقبيلي qabilis وهم الأشخاص الذين الرّغم من استقرارهم في البلدات ينحدرون من إحدى القبائل، والمساكين meskin أو العمّال، وأمّا الضّعيف dha'if فهي الطّبقة الأدنى من الكل. لا يحمل السّادة الأشراف السّلاح ويتمتعون باحترام كبير حتى الأزمنة الأخيرة، إلى أن بدأت حركة تحديث في الخارج بين المهاجرين الحضرميين في تقويض سلطتهم.

اجتزنا بعد هذه الأماكن المقدّسة عبر تاربَة في جانب الوادي، عاصمة العوامر، وهي مكان سيء وفقاً لما يقول حَسَن، على الرّغم أنه من الصّعوبة التّفكير بأي شيء أكثر براءة في الأشكال بين حدائقها من أشجار النّخيل الفتية في شمس الصّباح. كان الوادي قد ضاق قليلاً، ولكنه فتح بعض الطّريق خلف تاربَة في الجنوب إلى مسافات رملية منخفضة في وادي عَدم، الذي يؤدّي إلى الشِّحر والبحر. كان خط قافلة جمال يتقدّم هناك، كما كان قد حدث منذ بداية حركة السّير؛ وكان هناك سائس جملِنا، الذي أحضر أمتعتي من الهجرين، يجلس من جانب واحد على دابة لها تقرّح محمرّ على ظهرها يهتز وهو يبتسم مثل صديق.

التفّ وادينا الأساسي شمالاً بعد عبور مجرى سيل sail-bed وادي عَدم في رطوبة فيها وفرة النّباتات والقصب، وانعطف إلى الشّمال وضاق وتغيّر اسمه إلى وادي المَسيلة. وعبرنا فيها مجرى السّيل أيضاً، ببرك من الماء ما تزال لم تُمتص فيه بعد، والإثل أو أشجار الطّرفاء tamarisk المتدلّية. أطلّ علينا حصنٌ قديم بأربعة أبراج ركنية مستديرة في الجهة اليسرى عندما سرنا على حافة ذاك الجانب من الوادي. كانت أشجار الإثل مألوفة هنا في التُّربة الرّملية، يمتدّ ظلّها قرب بئر على أرض مرتفعة، يقوم ثلاث رجال وامرأة بسحب دلائِه الجلدية؛ وقد صعدوا ثم ركضوا بعكس الاتجاه والحبل في أيديهم أسفل منحدر طيني ناعم. وأخبروني، أنهم يقومون بذلك لمدة أربع ساعات في كل مرة.

اقتربتُ كي أنظر إليهم، وقد صرخوا عندما رأوني قائلين: «لا يُسمح بالتّصوير».

قلت: «السّلام عليكم، الله يقوّيكم في عملكم».

ارتفع الدّلو الجلدي مقابل السّماء الزّرقاء ورشرش رشاشاً من الماء عندما سقط فوقه. وعلى نحو مبدع أُعِدّ حبل للسّحب من الأسفل عندما يكون عالياً بما فيه الكفاية، لذا فإنه يلتفّ على نفسه وينصَبّ الماءُ للخارج. أوضح الرّجال الثّلاثة والمرأة بأنهم لم يرغبوا بأن يُرَوا في صورة من قِبل كل العالَم وهم يقومون بهذا العمل الوضيع: «ناحتي الخشب وساحبي الماء» - لا تزال المهانة ملموسة في الشّرق.

في هذه الأثناء كان البدوِ المرافقون لي قد تمشّوا بتمهّل واستقرّوا من دون تذمّر أو تعليل من أجل أخذ نرجيلتهم في ظل الشّجرة. نمت كمية كبيرة من أزهار صفراء متسلقة عند الحواف فوق البئر وجعلتها تبدو زاهية مقابل السّماء. يمتدّ الوادي في الأسفل في رواب نُقِّطت بأشجار الإثل، منعزلاً وهادئاً، باستثناء المكان الذي تصارع فيه حَسَن والسّائق مع العالَم الميكانيكي، عندما عبّر عن نفسه بثقب الدّولاب. وعندما أصلِح دعُونا بحرارة وقوة من مكاننا في الظّل والرّاحة، وسرنا في الحال إلى البوابة القديمة لتَريم، بلونها القشدي في الشّمس؛ وكان قطيع من ماعز باللون الأبيض والأسود يرعى أمامها بتعاويذ معلّقة حول أعناقها، وصُرّت ضروعها في أكياس من الخام.

تَريم مدينة قديمة، وثمّة لوحة سبئية تحمل حروف A.L.M.'.D جُعلت في درجات جامع الشّيخ علي، ووُجِد أيضاً قبر أطلعوا السّيد والسّيدة إنغرامز Ingrmas عليه في الضّواحي الشّمالية للبلدة. كان المنزل للملوك من بني عمرو بن معاوية، أحد الذين ذهبوا إلى بلاط كسرى Chosroes، ويقال إنه في أيام الرّدّة بعد موت النّبي كانت تَريم هي وحدها التي حافظت على معتقد الإسلام في حضرموت.

ويعود معظم المرتدين لقبيلة كندة، والتي لا تزال موجودة في وادي عَمد، وقد التقوا وقاتلوا المسلمين في مكان يدعى مَحجَر الزُّرقان. كان المسلمون بقيادة المهاجر بن أبي أمية، الذي جاء من صنعاء، وعِكرمة بن أبي جهل الذي هَزم مرتدّي عُمان، كان قد سار عبر المَهرة إلى أبيَن (غربي عدن تماماً) - ومن المحتمل على طول السّاحل،

حيث أن الأجزاء الدّاخلية كانت في أيدي المتمرّدين. وذُكر أنّ بعض الرّجال من الشِّحر لحقوا به. ومن أبيَن على أيّ حال انضم للجيش الإسلامي في مأرب، ومن ثم اجتازوا صَيْهَد (المفازة بين مأرب وحضرموت)، وهكذا على طريق شَبْوة. ومن المفروض أن يكون مَحجَر الزُّرقان في مكان ما في هذا الطّريق. وبعد هزيمتهم، اعتصم المرتدّون ثم استسلموا أخيراً في حصن نُجير، التي كنت سمعت عنه من أصدقاء في حضرموت أنه ما يزال موجوداً في مكان يدعى حُجَيل قرب مشتى، بين تَريم وعينات.

تفتخر تَريم بنفسها بهذا الإيمان القديم، ولا تزال مدينة الدّين بامتياز في بلد اعتبر كله معقلاً لدين الإسلام. يقال بأنّ في تَريم 360 مسجداً، أسّس المظفّر أحدها في القرن الرّابع عشر، فاتح ظُفار من اليمن، ويقال بأنّ ستين مسجداً من هذه المساجد مستخدم الآن. ويمكن أن يعطي هذا أيضاً للزّائر الأوروبي فرصة ضئيلة للنّقاش مع الحلقات الدّينية في تَريم. والحقيقة هي أن السّادة الأشراف من آل الكاف واسعو الأفق ومتقدّمون، ويجذب موروثهم النّبيل من حسن الضّيافة بشكل طبيعي جميع الأوروبيين إليهم، وصيتهم يطغى على حزب إسلامي عنيد، ضيّق ومتشدّد يتعيّن عليهم التّعامل معه في البلدة. وهذا الحزب ينظر أيضاً بشكل تلقائي إلى أيّ أوروبي على أنّه ذو صلة بالحزب الحديث التّقدمي المحلّي، وهذا يزيد من صعوبة الاتصال مع الآخر. مرّ السّادة الغريبون بي الآن وبأعين متغاضية، سحبوا عباءاتهم البيضاء بحذر بعيداً عن التّلوث فيما لو حدث وكنا في شارع ضيق حيث يمكن لأثوابنا أن تتلامس.

* * *

كنت متلهفة لزيارة مدرسة الرّباط التي أخبروني أنها بالفخامة والشّهرة الدّينية مثلها مثل الأزهر في القاهرة: وقلت لو أنهم أتاحوا لي رؤيتها بذات نفسي فمن الممكن أن أدحض وعن طيب خاطر الافتراءات الخاطئة والغريبة المكتوبة عنها من قِبل الهِر هِلفريتس Herr Helfritz في كتاب ألماني جديد. ولم تستطع حتى هذه الفكرة إقناعهم للسّماح لجنسي الدّوني بتخطي عتبة التّعلّم. وبقيت على الجانب الحديث من تَريم، واستمتعت هناك في منزل سيّد أبو بكر، بكماليات الحضارة في غرفة ضيوف منحوتة

علـى نحو غني، محاطة بأربعة أبواب وثمانية نوافذ من الزّجاج الملون، والتي جعلتني أفكر إما بمقصورة برايتون Brighton أو بكنيسة، حسب ظروف اللحظة.

زارنـي هُنـا محمود، صيدلي تَريـم الذي أنقذ حياتـي في وقت لاحـق. كان مواطناً عدنيـاً من سـلالة أفغانيـة، وهو رجل صادق جـداً ومحترم. أخبرني بـأن والده كان قد تزوج امرأة عدنية واسـتقرّ في الحبشـة Abyssinia يعمل كنجّار، وكان الأجنبي الأول الـذي يعيـش في أديس أبابا. وقد أصبح صديقاً ومرشِـداً للإمبراطـور تافاري Tafari، وعندما أرسـلت الملكة ڤيكتوريا ملابس تشريفيّة من الهند كهدية، كان هو الذي طلب شراءها وأخذها. وأعطاه Tafari أرضاً بعد خدمة عدة سنوات، وعرض عليه أيّة جائزة يمكن أن يختارها.

قـال محمـود: «اختـار والـدي أن يطلـب أن يكون المستشـار البريطانـي في أديس أبابـا؛ قـال الإمبراطـور نعم، وقـد كان. وتلقى والدي مـن الملكة ڤيكتوريا رسـالة من التّشـكّرات ومزهريتين من صنع الصّين مع السّـلاح الملكي». ولكن فُقِدت الرّسـالة. وتوفي الوالد، وأخذت الأم العائلة عائدة إلى عدن. وما تزال تملك أرضاً في الحبشة، ولكـن اسـتحوذت عليها أخت الـزّوج وكانت هنـاك دعوى قضائيـة. أخبرني محمود فيما بعد بأن طموحه الأكبر الخاص كان أن يكون واسـطة لتأسيس قنصلية بريطانيا في حضرموت لأنه شعر بنفسه، كما هو حقاً، أنه مواطن في الإمبراطورية.

وعندما حدّثني رجل بريطاني شاب في أحد الأيام بأنه يمكن أن نقلّص من مشاكلنا، ونتخلّـص مـن ممتلكاتنا، ونتقاعد في حياة خاصة مثل أمّـة صغيرة، رأيت فجأة الوجه المسـتدير والعينيـن المتوثّبتين لوجه محمود، فاتحاً أفـكاره لي في ذاك الوادي العربي البعيد، وتساءلتُ كيف أن الرّجل الشّاب، الذي ناقش وتحدث عن فصل الشّعوب كما لو كانت قفازات، يمكن أن ينجح في تفسير الأمر بما يروق له.

فـي هـذه الأثناء ضرب محمـود صدري وقال بـأن هذا الخطر كان قـد زال. وكنت ضعيفة جداً فقط.

قال: «بعد الحصبة... الالتهاب الشّعبي؛ ثم الالتهاب الشّعبي الرّئوي، ثم...» لكنني قاطعت هذا؛ لقد قبلنا بأن الله قد حماني حتى الوقت الحالي، وبعد مدّة من الرّاحة ذهبت لزيارة سلطان تَريم.

يعيش سلطان تَريم وأخوه في قصر ساحة القلعة عند طرف البلدة. وتعتبر منازل تَريم، حيث لم يمسّها تأثير جاوة Java، مختلفة عن تلك في سيئون. ولكنهما بالتّساوي من دون نوافذ، ودُعّمت الأرض الأخفض في تصميم أفقي مثل حديد مجعَّد، وقُطع الباب الأمامي في هذا الفراغ الكبير؛ وانحدرت قناة مفتوحة لمياه الصّرف الصّحي قريبة إلى جانبه في حوض مغطّى، وتُعطي انطباعاً بوجود نصف شعرية التّحصين بظلها الأسود الطّويل. وأيضاً اللون البنّي هنا أكثر، وأقل بياضاً في هذه البيوت القديمة المقيتة أكثر منه بالنّسبة للطّرقات في سيئون، ويعيش معظم النّاس الأكثر ثراء في تَريم في حدائق بالخارج، في منشآت جديدة زيِّنت على نحو متقن في نموذج منزل ريفي صغير. وقلّل الفرق بين القديم والجديد من شعور الانسجام والذي هو جاذبية سيئون، والوادي في تَريم أضيق مع رقة أقل من الزّراعة حول ضواحي البلدة. يذهب الشّباب للاستراحة خارجاً ليستمتعوا بمنظر الغروب في فراغ مجوّف من الحجارة في حضن جُرفين ضخمين. ولكن يوجد هناك حدائق مخفية ضمن أسوار، ويجتمعون في تلك الأماكن الممتعة بسجاد ووسائد وأكواب شاي.

يعتبر قصر السّلطان من الطّراز القديم، واستقبلني هناك السّلطان وأخوه، وهما شابان ذوا أخلاق لطيفة بطيئا الحركة ارتدى أحدهما عمامة زرقاء شاحبة غير محكمة والآخر عمامة بيضاء مُحكمة، وكانا متشابهي الوجه إلى حدّ ما، ويستطيع الشّخص أن يقرّر أيّ غطاء رأس أحبّه أكثر. سرعان ما تركاني لأنظر عبر نوافذهما الشّبكية المنحوتة إلى حفل زفاف تجمّع في الأسفل، بينما ذهبا هما نفساهما لوليمة مع الوجهاء في منزل العروس.

كان هذا كله قصراً ضخماً على مسافة غير بعيدة عبر المكان المفتوح، وكانت كل تَريم محتشدة هناك. وقفت السّيارات قريباً مع حشد من النّساء تحلّقن حولها في أثواب

تريم الصّفراء والبرتقالية أو خضراء اللون، أو أحياناً زرقاء من شِبام، وغطّيت رؤوسهن بخُمُر سوداء اللون. كانت للسّيارات التي أقلّت السّيدات ستائر، مزينة بأزهار منمنمة وورقية، ورُبطت معظم المصابيح الأمامية بإحكام بقماش قطني مورّد أو زهري اللون. كانت فتيات صغيرات يلعبن بأذيال متلألئة وأحزمة وحليّ بالقرب من مجموعة أخرى، متحرّرات حتى الآن من قواعد اللياقة. وجثمت عبر الطّريق جماعات من رجال، عبيد أو أبناء المدن؛ وقد رُبطت الشّالات حول ركبهم وفي الخلف من أكتافهم، وهي وسيلة تتيح لهم الجلوس بشكل مريح لساعات أكثر أو أقل في المكان. ولقد كانوا بدواً معهم أسلحة، ولكنهم قليلون جداً، حيث أنّ تَريم ليست بلدة بدوية، مثل سيئون.

ظهر تواً موكب الزّفاف، أو بالحريّ هو من أجل زيارة العريس. كان يلبس عمامة بيضاء ومشى ببطء، تحت مظلة خفيفة (باراسول) نسائية إلى حد ما، بينما قام أحد ما بتهويته من الجانب. وتصدّرته ثلاثة مزامير وثلاثة طبول مسطحة أخدام السّقّاف (Akhdam as-Saqqaf)، وجميع وجهاء البلدة. ارتدى هؤلاء كل نوع من أنواع أغطية الرّأس: قلنسوة بيضاء أنيقة بأغطية مطرّزة ذهبية من جاوة؛ وجُدلت الأكثر تسطحاً بخيوط ذهبية بأشكال وزيّنت بعمامات صغيرة من مكة؛ سِدارات Sidaras من العراق؛ طرابيش من مصر أو سوريا؛ وعمائم ضخمة ملفوفة من أي شال قديم، أو قبعات بيضاء ضيقة تبدو كأنها محبوكة بإبرة ولكنها ليست كذلك. وشوهد من نافذتي الشّبكية في الأعلى، بأن الرّؤوس أظهرت كم هي طويلة ومتعدّدة المسافات التي سافرها الحضارمة. يتجول الفلاسفة بثياب بيضاء، ويعتبر الأشخاص من الطّبقات الأفضل نظيفين تماماً؛ وطراز الأشراف آل الكاف، إذا ارتدوا نوعاً أوروبياً من معطف بأي حال، فهم يلبسونه بأزرار ذهبية على طوله حتى الأسفل، كعادة الملوك.

بينما كنت أتأمّل كل هذه الأشياء، مسبّبة حماساً أكبر لحفلة الزّفاف في عرض وجهي من النّافذة، جاءتني فتاة صغيرة إلى ورائي أحضرتها عبدتها المرافقة. لقد كانت سلمى، ابنة السّلطان ذات العشرة أعوام، وقد ارتدت قماشاً مطرّزاً أحمر اللون بأربعة صفوف من خرزات ذهبية حول رقبتها وقمر هلالي الشّكل في الأسفل. وقفت تحدّق

بـي خجولـة وبهيّة، وقـد زُيّنت يداها الصّغيرتان بأشـكال مزركشـة ودوائـر بلون نيلي مع زينة من الحنّاء؛ كان شـعرها قد ضُفر خمسـاً وسـبعين ضفيرة على الأقل، تزغّبت على كتفيها في عقصات. وعلّقت تميمة في قمّة رأسـها بمشـبك. أدارت نفسها ببطء، مستديرة ليتسنّى لي النّظر إليها، هممت باسمها واختفت يدها الصّغيرة في يد الخادمة المسنّة العابسة.

نزلت لأجد حسَـن والسّـلطان أيضاً عند الباب، بسـيارة صفـراء منجّدة بقماش من جلد الفهد، ولخيبة أملي، أخذ حسَن السّيارة منه وقادني إلى البيت.

دُعيت أيضاً، في وقت متأخر من المساء، إلى منزل العروس. كانت جبال من الأرز، وحشود من الخدم متجمعين قرب أسفل الدّرج؛ واستقبلتني زوجة سيّد أبي بكر حاكم تَريم في الطّابق العلوي بكرم وأخذتني في الحال إلى غرفة كبيرة حيث كانت سـيدات تَريم يسـتمتعن في حشـد صاخب. لكنها سـمحت لـي بالبقاء لدقيقة فقط، بسـبب وصيفـة الشّـرف ذات الأربطة الضّيقة فزعت من يدي الممتدّة. شُـقّ لي طريقي لأعود إلى حيث جلس السّيّد المسنّ مع بناته، وكنّ يرتدين جميعهن أثواباً حمراء - أخبرنني أنّه اللون المخصّص لفترة المساء.

كنت متعبة جداً، ولا أسـتطيع البقاء، لأن الوليمـة والرّقص لم يبدأا بعد، فيمكن أن يستمرّا حتى منتصف الليل، عندما يؤخذ العريس إلى عروسه. وهما يُتركان حتى مطلع الفجر، ثم يذهبان هو وهي وكل أصدقائهما من حولهما إلى دار العريس.

شـعرت بعدم القدرة على تحمّل ذلك، ومشـيتُ مع حسَـن إلـى المنزل على طول الطّريـق المقمِـر. ورأيت هناك، في بركة من الظّل أسـفل قصر السّـلطان، الموكب مع العريـس يصلون كما من قبـل؛ ولكنه كان الآن مضاءً بضوء الفانـوس، ومرتدياً معطفاًورديّ اللـون، ولديـه عُذبة مهذّبة متدلّية فوق أذنه اليسـرى من عمامته. كانوا لا يزالون يروّحـون لـه بالمراوح، ولا بدّ أنـه متعبٌ جداً. وقفنا في الظّل لمشـاهدتهم. وبعد مدّة طويلة، سـمعت في الليـل صوت الطّبول وغناء بينما مرّت مجموعات من أشـخاص، يرقصون الرّقص الذي يسمونه «شَبْواني» من عصر شَبْوة، قبل الإسلام بزمن بعيد.

الفصل العشرون

مغادرة الأصدقاء

ياضيفَنا لــو زُرتــنــا لوجدتنا نحنُ الضّيوف وأنــت رَبُّ المنزل

أيقظتنــي في الصّباح التّالي أصوات إطلاق نــار، لقد كانوا يذهبون بعيداً ليعلنوا بأن العروس قد أُخِذَت لتناول الإفطار في بيت العريس.

ظهر حَسَن بعد هذا في الوقت المناسب وقادني في سيارة عبر الطّرقات من البلدة، مروراً بأطلال خربة من الحصن القديم، عند الضّواحي التي تنمو بسرعة بسبب تجارة البناء المزدهرة الآن في تَريم، عند البوابة الشّرقية من البلدة التي تنفتح على حقول ذُرة. الجدار محصّن ويحرســه عبيد السّلطان، ويُستخدَم حصن صغير في الأعلى كسجن. صرخ رجل من الأعلى بأسئلة ليعرف كل شيء عني، واستدار ليكون السّجين المنزوي الذي يشمِّس نفسه براحة هناك. الجريمة غير معروفة عملياً في حضرموت، وقد تمّت أشـياء كبيـرة مثل السّـرقة والقتل في الواقع تحت عنوان حرب شـرعية وفقـاً للقوانين المرسومة.

حتـى هذه الأشـياء كانـت ملغاة حاليـاً، ويحافظ السّـادة الأشـراف آل الكاف على السّــلم فـي الوادي، بتكلفة طائلة مـن الطّاقة والذّهب. أراني حَسَـن وادياً حيث تتقابل اثنتــان مـن الضّواحي الأخرى عبر مســاحة ضيقة، وكانوا يخوضــون حرباً صغيرة فيما بينهم إلى أن أحلّ سيد عبد الرّحمن السّلم قبل شهر.

وعلـى نحو دقيق ربما سُـمّي آل الكاف في الواقع بـ«عيال اللـه» فيما إذا كان صنع

السّلام يرخّص بإطلاق هذا الاسم. أخبرني حَسَن بأنه يوجد ما يقارب أربعين فرعاً منهم الآن في تَريم - تفرّعوا كلهم من بيت واحد، وكلهم أثرياء ومحسنون. وهم يديرون السّلاطين، والمدارس، والتّجارة، والجيش - في الواقع كل شيء هناك يحتاج لإدارة. يركب رجالهم الشّبان هناك قرب البلدة على الدّراجات الهوائية، يتجولون بعباءات سابغة مثيرة من طراز المُلّا القديم.

ولقد قاموا بسكّ عملة صغيرة تمتلك قيمة محلية. وبالنّسبة لهم كل نوع من المشقة يرضيهم باستثناء الفقر، ولا يتّسم الأغنياء أنفسهم بسلطة كافية مع البدو لوضع قوانين تعمّ القبائل بالجوار. ويعتبر خمسمئة عبد أسود أو أكثر في تَريم كمية مشاغبة. وقد ثاروا قبل سنة وتراجع قادة السّادة الأشراف آل الكاف لبرهة إلى سيئون تاركينهم ليختالوا بالجوار، متمرّدين ونصف عراة مثل الحرس الشّخصي praetorian guard بثوب مبتذل، وعارضهم البدو أحياناً لحفظ التوازن. أخبرني حسَن بأنه حاول أن يدرّب كشافة ذكوراً وينشئ جنوداً من الفلاحين.

قال: «ولكن ماذا يمكننا أن نفعل دون أسلحة؟ فنحن عند نهاية العالم هنا، مثل فأر في مصيدة. ويمكنك في شِبام شراء الأشياء بثمن بخس، وتصبح غالية عند مغادرة بواباتها ومجيئها باتجاهنا».

هذا ما أوصلنا إلى سؤال ملحّ عن الطّريق إلى البحر، والذي تعتمد عليه أمنيات تَريم وتعتمد مشاعرها بشكل ثانوي تجاه البريطانيين بشكل عام. كان معظمه قد شُق على نفقة آل الكاف، ولكن عليه أن ينتظر عند المرحلة الأخيرة إلى الشّحر الإذن المعارِض للمُكلّا، التي تخشى من فقدان استحواذها الخانق الآن على الوادي الدّاخلي. وفي حال كانت المُكلّا مدركة فيمكن أن تشق طريقها الخاص إلى شِبام وتحافظ على تجارة المستقبل. وقد أمل تجارها بذلك، وأرسل السّلطان لهم بعد أن قام بزيارة المكان في الخريف الماضي أربعة آلاف طالر لبناء مئذنة وليبدؤوا الطّريق (الذي قُدِّرَت كلفته عشرة آلاف طالر).

لكنه التمس الهدية مرة أخرى في غضون شهر أو شهرين، وأجبروا على إرسالها

إلــى الهند، حيث صرفت العائلـة المالية معظم دخل حضرموت. وفي غضون ذلك لم يعتـاد سـكان تَريم على الإجراءات الدّسـتورية، معتقدين بأن كلمة منـا يمكن أن تحلّ الخـلاف حول طريقهم. وجرفت الأمطار الجزء الذي كان قد أُنجز، وهو طريق أبيض مثير للشّـفقة صاعد إلى الجُول، بينما اسـتمرّت الجمال تتهادى في أيامها الثّمانية إلى الشِّحر، ويُحمل العمل الضّخم ما وراء البحار (الخارجي) لتَريم من قِبل سعاة من بدو حفاة سريعين لمدة أربعة أيام حتى البحر.

يمكن في سـاعات المسـاء المبهجة عندمـا يزداد اللون الزّهري لقبـاب المقبرة في سـماء فاتحة اللون، أن نتجه للخارج بين الحجـارة ورقع من حقول الذُّرة، حيث تقوم فتيات قرويات بذيول وقبعات مستدقات الرّأس، برمي كتل من تراب من مقاليع لإخافة الطّيور وإبعادها عن الذُّرة. ومن الممكن أن ننتهي قرب حوض سباحة مطلي في جناح السّـيّد عُمَر أوعلى سجادة في حديقة شجر رُمّان مزهرة رائعة، لنأكل أكواز ذرة مشوية ونجلـس في حلقة ونتكلم حول التّاريخ أو الدّين، وعـن الحدود القديمة لحضرموت أو السّياسـة لعصبة الأمم، مع شـعور سائغ بأن هذه الأمور كانت كلها حول بُعد متساوٍ من هدوئنا.

قابلـت العديد من الأشـخاص السّـارين هنا، ودُعيـت في اليوم الأخيـر من إقامتي من قِبل نادي الشّـباب، الذي يرأسـه السّيّد عُمَر لأجلس على أريكة حمراء مخملية في الوسـط من حدوة فرس من كراسٍ امتلأت بالمسـتمعين، بينما قمت بأفضل ما لديّ – لإدراكي بضعف لغتي العربية – للإجابة على الأسئلة حول تعليم المرأة. ونهض رجل صغيـر متلهف ومثقـف ليلقي خطبة. كان قد كتبها بلغة جميلـة؛ خرجت من فمه كأنها عسل. اختار تعابير مناسبة من غناها للتّرحيب بي كأول سيدة أسافر لوحدي من أوروبا إلى حضرموت، حباً بالتّعرّف عليها فقط. وفي الواقع فإنّ حب المعرفة هو التزام مبهج وعالمي، حيث أنه يتعامل مع الشّـخص وليس مع ما يملك. ولقد أثرت في مشـاعري بلطـف الكلمات المنتقاة بعناية، ولكني خِفت جداً من التّفكير بأي شـيء عدا الحقيقة بأني أنا نفسي يتوجّب علي التّكلّم بعد ذلك. جاءت اللحظة المحتومة، وجلس الرّجل

الصّغير. نهضتُ وأفسدتُ اللغة العربية بأقصر فترة ممكنة. يدرك الشّخص عند نهاية الخطاب بأن انقطاع الألم يعتبر أحد المتع.

التقطنا أنا وأعضاء النّادي من منزل سيد عمر صوراً لبعضنا على الشّرفة، كانوا كلهم متناغمين قدر ما استطاعوا؛ وعادوا بي بواحدة من سياراتهم إلى ما وراء قصر السّلطان، حيث المدفع - وهو شيء مثل تلسكوب بطول يقارب أربعة أقدام - وكان قد وضع جانباً في استعداد للزّفاف التّالي؛ وتركوني عند باب بيتي بنوافذه الملونة، التي كانت تلوّث تألّق السّماء العربية الأبيض مثل تلويث الزّمن للأبدية.

جاء جميع الأشخاص وخاصة أولاد آل الكاف الصّغار لزيارتي، كل واحد مع عبده المرافق - حيث العادة أن يُعطى كل صبي عندما يولد عبداً من عمره تقريباً عندما يولد، وينموان معاً بإخلاص - أخبرني كل واحد منهم الكثير عن الذي فاتني لعدم رؤيتي المدفع وهو ينفجر. وصنعت لي الخسارة الخير ذاك المساء، وذلك بدعوة إحدى عائلات آل الكاف لرؤية سينماها الخاصّة، ورأيت فيها المدفع ينطلق في دخان أبيض، بمناسبة سابقة وتم التّرحيب به بهتافات من الحضور.

مضينا بعد الغذاء للعرض، على أرض وعرة عبر أعماق أزمنة تَريم من القرون الوسطى في ضوء القمر، وحتى تحت أضواء كهربائية، أسفل أعمدة كورنثية الطّراز، انتقلنا في العالم الحديث جاثمين في القرب على وسائد في غرفة كبيرة مزخرفة.

كانت السّينما هناك على قماشة عند طرف واحد، تَعرض لنا الحياة في تَريم تماماً كالتي رأيناها. جاء السّلطانان يمشيان (على مهل) للدّاخل. لديهما ما يشبه أسلوب لا مبالاة السّلطان في المشي، تنتج دون شك من عادة السّير في المواكب التي لا تعد ولا تُحصى؛ ولكن قام كل شخص بتحيتهما بصيحات من الضّحك، حيث أننا كنا قد رأيناهما للتّوّ يذهبان عبر الحركات ذاتها، في فيلم بطيء. ولقد ضحكا أيضاً؛ إنهما سلطانان فيلسوفان ويتركان لعائلة آل الكاف مشقة الحكومة، وجلسا بلطف إلى جنبنا وشاركا في التّعليق الجاري حول ما رأينا.

كان شـقيق حسـن هنا في زيارة من مكّة، وهو فتى وسيم ذكي يشبه تلميذاً إنكليزياً، ومشـغّل لاسـلكي للملك ابن سـعود، واعتنى مع الشّـباب من آل الكاف بآلة السّينما، واختلط الرّجال الشّبان من جاوة Java، والزّائر من مكة، والعبيد الأثيوبيون، جميعهم بسـهولة ولطـف؛ ولم أر أبـداً رداءة طبع فـي أي تجمع في حضرموت. شـاهدنا صور الوادي ومن ثم عدنا إلى حدائق ومنازل العائلة في سـنغافورة، بمروج بمظهر إنكليزي حيث ركض الأطفال مرتدين عباءات منشّـاة ومكشكشـة من أوروبا. وعندما أُشـعلت الأضواء مرة أخرى، كانت سلمى الصّغيرة ذات العشرة أعوام نائمة بين ذراعَي والدها، بثيابها الخضراء وقلاداتها الذّهبية الخمسـة. عدنا فـي العالم العربي ونادينا في الظّلام خـارج بيتنا. «يـا عبد يا عبد» ليفتح لنا البوابة. قادني إلى غرفتي شـخص نشـيط حافي القدميـن داكن البشـرة معه مصباح عبر الطّرقات والدّرجات مـن أمام الدّيوان بصنادل مختلطـة عنـد عتبته وقرب جلود ماعز معلقة في تيار الهـواء للحفاظ على برودتها عبر الفناء العالي المفتوح في ضوء القمر.

كنت مشغولة في الصّباح التّالي لأني لم أنوي المغادرة إلى أن كانت أفلامي المظهَّرة جافة بما يكفي لتوضيبها. كنت لحُسـن الحـظ قادرة على تطهير كل ما كان لدي تقريباً من أفلام، بوجود الحوض وثرموس مياه الشّرب الباردة، وأصبح حسَن في هذا الوقت خبيراً جداً، حيث استطعت ترك كل شيء في يديه باستثناء قراءة ميزان الحرارة.

بينمـا كانت لُفافات الأفلام الصّغيرة معلّقة لتجف، قمت بزيارة سـريعة للمدرسـة، لا للمدرسـة الدّينيـة (الرّباط)، بل مدرسـة حديثـة لصبيان آل الـكاف الصّغار. كان قد تـم صنـع مقاعد جديدة لهم وهي دون شـك جاهـزة للاسـتخدام الآن، ولكني رأيتهم لا يزالـون يجلسـون في صفوف علـى الأرض بينما وقف ثلاثة رجـال عقلاء مقابلهم يختبرونهـم. يحصل هذا مرة في الأسـبوع، أخبرني حسـن عندما سـألته: بـأن التّعليم «يسـتمرّ طوال حياتهم». وفي تلك الظّروف يمكـن اغتفار الحاجة للتّركيز، لأن لديهم العديـد من السّـنوات أمامهـم والتي فيها سـوف يعوّضونهـا. إنّ تَريم كمـا أظنّ كانت تثبت مكانتها المرموقة كمدينة العلم. نظر الرّجال الحكماء الثّلاثة إلي باسـتنكار؛ وقد

ضعف هذا تدريجياً عندما اكتشفوا بأني علمت أشياء كهذه من الاختلاف بين «الرجل الذي يعمل» و«الرجل الذي يُعمل له»، ويشكلون شيئاً أساسياً بالتّساوي في الحياة والقواعد. ولكن كان وقتنا قصيراً. وتم اختيار ضحية صغيرة نهض وطُلب منه أن يُخبرنا من أين تأتي الكلمات.

قال: «من أبينا آدم، الذي أخبرها لأولاده».

سألتُ الرّجل الحكيم الأقرب: «هل تظن أنها كانت من أبينا آدم؟ في بلدنا يقول البعض بأنّ معظم الكلمات جاءت من أمّنا حواء».

لاح طيف مثقف من ابتسامة على شفتيه. أسفت لأن عليّ أن أذهب لأنه سرعان ما أصبح أنسانياً. وعندما وصلنا لفنائنا، كان هناك ثلاث سيارات جاهزة ممتلئة إلى أقصاها، لأن سيّد أبا بكر كان ينتقل أيضاً لبلدته المفضلة سيئون ورُبط الطّباخ والخدم وكل أشياء المطبخ ونبتة أثيرة على الظّهر تحت مظلة من ذاتها، منضمّة معاً في عملية الرّحيل.

كان الطّباخ هندياً، وقد كُفل من قِبل حُسن وفادة آل الكاف لجعل المسافرين البريطانيين يشعرون أنهم في وطنهم وذلك بأطباقه الخاصة المألوفة. كان قد حضر إلى تَريم مع أنباء من قدومي، ولاحظت كم تحمّلنا من مسؤولية معاً مع إمبراطوريتنا، عندما سمحنا لأشياء مثل صلصات البَلَم (الأنشوفة) وپودينغ التاپيوكا لتنتشر دون سيطرة عبر قارات العالم. وفيما لو أنّ دوپيليكس Dupleix انتصر وأخفق كلايف Clive، فيمكن لشخص أن يأكل عجّة بيض لذيذة في أفريقيا وآسيا اليوم. فإذا كان المبشّرون قد سمحوا للطّيبة أن تفيض من دعواتهم في صنوف الطّبخ لكان أفضل لخلاص الإنسان العادي على المدى الطّويل، الذي كما يمكن أن تقول أيّة زوجة، يميل للخطيئة بسبب عسر الهضم ونادراً ما أنقذته التّقوى منه.

كانت هذه الأفكار قد قاطعتها ارتطامات بنتوءات عدة قنوات مياه بارزة ونحن نتقلب عائدين في رحلتنا إلى سيئون. ولمع الوادي مرة أخرى في الحرّ، وتوسّع ونحن

نلتف الانحناء خلف الطّريق إلى الشّحر. اجتزنا واحدة من سيارتي الأجرة الآتية من تَريم وقد تعطلت في قاع النّهر مع «موسيقى العرفة Urfa'» وفي داخلها أربع سيدات وثلاثة طبول عائدين من الزّفاف. لم نقف لنلقي نظرة على المواقع القديمة، حيث أني أردت أن أدَّخر قوتي لشَبْوة: ولكني خرجت بين بعض البدو المخيمين في الحرّ حول السّقاية، كانت أمتعتهم في الشّمس وجِمالهم ترعى، لا يلقون اهتماماً زائداً لأيّ شخص أو أيّ شيء. لقد كانوا الكثيري من قبيلة السّلطان علي، وتم التقاط صورتي، وراقب حسَن بألم عندما احتشدوا حولي وقد جعلتُهم ينظرون عبر تلسكوبي إلى المنظر.

كنا عند السّاعة الواحدة عائدين بين الجدران المغبرة وحقول الذُّرة ذات الرّائحة الجميلة، وصعدنا الدّرجات البيضاء لدارة عز الدّين مع شعور العودة إلى الوطن، وهي مشمسة وهادئة. واستطعت أن أدرك حب سيد أبو بكر لسيئون. لا بد أنها راحة له هنا، حيث يكون بعيداً عن الشّعور بعدم السّلام والغنى؛ ورؤية البيوت البنّية والبيضاء، وجميع طرقات الخيالات الجميلة، دون أيّة تدخلات أجنبية.

جاء السّلطان للتّوّ، ماشياً بخفّيه، وجلس وراح يتلو أشعاراً عربية في عدم ضرورة الثّروات. وكان جميع الحضور مسرورين.

في برودة المساء اندفعت غيمة مثل سيف، مع نصف شعاع غروب الشّمس خلف حافة الجُرف، حيث لا يرى الغروب بكامله من سيئون، زرت نساء أبي بكر، وكن يستمعن لموسيقا العرفة Urfa'، التي كنا قد تركناها في قاع النّهر. جلست الموسيقيات الأربعة مع طبولهن متصالبات الأرجل عند الجدار، كانت واحدة منهن شابة واثنتان في منتصف العمر، وواحدة مسنّة. كن ذوات أوجه خشنة وقاسية، لأنها ليست مهنة محترمة ولا يظن بهنّ خيراً. يُقال بأن أحد ملوك القرون الوسطى في اليمن قد سمّم نفسه لما أُخذت مدينته من قِبل الأعداء، وذلك عندما أجبر المحتلون محظياته على الرّقص والغناء جهاراً على الجدار.

كانت الموسيقى بدائية مع إيقاع منحدر منخفض، مثل شلال الماء. غنّت النّسوة

فـي أدوار، متابعات القصّـة من واحدة لأخرى، وكنّ يضربن علـى ثلاثة طبول صغيرة بحركة عرضية على الطّبل الأكبر. استمعتُ مفتونة، كشخص يستمع لتكسّر الأمواج.

كان محرق البخور يمرَّر بشـكل مستدير ويُحمل للحظة إلـى صدرنا ليعطّر الثّوب والشّـعر. بالإضافـة إلـى حبّـات قهوة محمّصة، على بسـاط مـن القش لتفـوح رائحته ويمـرّر. وعندمـا جلسـنا هنـاك لمدة قصيرة تـم إحضار ثوبيـن جميلين بحـزام فضي، وجوهرة هلالية فضية للعنق، هدية لي من زوجة السّـيّد، التي علِمت بأني أحببت هذه الأشياء.

وعندما كنا نبدي إعجابنا بها، جاءت الشّريفة Sherifa المتعلّمة أيضاً، لتقول وداعاً، مـع عبارة على شـفتيها قبل أن تصل إلـى عتبة الباب. كانت تجعيداتهـا الجانبية جذابة كما كانت دوماً عندما ظهرت بثوبها الأخضر وخمارها الأسود السّميك. كانت أناملها ملفتـة للنّظر على نحو رائع كما كانت من قبل كي لا تدع أي شـيء بسـيط من الحكمة يتشتت. وتلاشت بعيداً تحت تأثيرها الشّديد ثرثرات نساءنا اليافعات وخمدت. بدأت مباشـرة بفضائل المعرفة الواسعة، وتابعت إلى أحرف الأبجدية والتي هي مقسمة إلى نـار وماء وهواء. قالـت: «أحرف نارية، سـتحفظ الإنسـان دافئاً إذا حـدث أن عانى من البرد». وعلّقت «هذا هو العلم». ولـم أُعط وقتاً كافياً لأوافق، أو لأسأل ماهي الأحـرف التـي تمتلـك تلك الخاصيـة المفيدة جداً، لأنهـا كانت قد أخبرتنا من قبـل بأن الأنواع الثّلاثـة ممّا ينبغـي تعلّمه هي: الدّين والطّب والنّجوم. «وبالنسـبة للغات أيضاً؛ فيوجد ألفـان وسـبعمئة وسـتون لغة في العالـم». ولـم تسـتطع البقاء، وقالت إنّ جمع نسـائها ينتظر، وقد جاءت فقط بناء على لطف أخوي لتتمنّى لي رحلة موفقة. لفَّت نفسـها مرة أخرى وغادرَتنا، مفعمات بالإعجاب ولكن عاجزات عن الكلام.

عندمـا وصلتُ إلـى دارة عز الدّين، كانت ثلاث سـيدات أخريات ينتظرن هناك من قصـر السّـلطان. كان حديثنا هنا في مسـتويات فكرية أقل، حيث أنـه كان لديهن جميع أشـيائي للنّظـر إليها ورشـفات من خليـط السّـعال لتجريبها؛ ووقفن برعـب أمام طبق صابونتـي لأنه لا يوجد أحد في حضرموت، بين النّاس ذوي الطّراز القديم، من يمكن

أن يفكر بالصّابونة في الأيام الحادية والأربعين الأولى بعد الحصبة.

سألن: «ألا تقول الرّائحة أي شيء لك؟ بالنسبة لنا إذا شممتِ أيّة رائحة عندما تكونين مصابة بالحصبة، فستموتين في ذاك اليوم فوراً. تندفع الرّائحة إلى رأسك، وبسبب جفاف الهواء فإنها تنتشر وتنفجر».

«هل هذا هو سبب انتزاع سيدة لطفلها بعيداً عني عندما اقتربتُ وصرخت: «الرائحة، الرّائحة؟»».

أكّدن لي، بشكل فظّ أظنّ: «نعم بالتّأكيد، وغالباً ما نسدّ مناخر الأطفال لحمياتهم من الخطر».

تركنني، مثل فراشات زرقاء يرفرفن أسفل الدّرجات البيضاء.

وفي الصّباح التّالي جاء شقيق السيّد أبو بكر السّلطان، وابن أخيه لتوديعي. كنت آسفة لتركهم كلهم، جلس علي البربري مع حسَن مستعداً في سيارة من مقعدين وكان كبيراً جداً على المقعد الخلفي، وكان مظهره أكثر ابتهاجاً من العادة، نتيجة المجموعة من النّظارات القاتمة مع قبعة ملفتة للانتباه مع شرَّابات كنت اشتريتها لتوّي من زوجة البستاني، وصادرها من أجل الظّل. كانت السّاعة التّاسعة صباحاً؛ وكنا ذاهبين عبر البلدات الصّغيرة من الجانب الجنوبي إلى مسكننا المؤقت في شِبام، ومن هناك في اليوم التّالي بالسيارة إلى وادي عَمد – وهي رحلة اختبارية لمدة ثلاثة أيام لرؤية كيف هي قوتي قبل المحاولة إلى بلوغ شَبْوة.



الفصل الحادي والعشرون

في وادي عَمْد

«جماعات المسافرين المرهقة في مزارات مظلّلة
وسط رمال جزيرة العرب»

(وُردزْوُرث)

غادرت سيئون في الثّاني والعشـرين من فبراير، كان الرّبيع قد بدأ لتوّه يجعل أيامه تمنح الشّعور الدّفء: وكانت الحرارة 88 في الظّل في فترة الظّهيرة.

كانـت الرّقـع مـن اللون الأصفر قد انتشـرت في حقـول الذُّرة، ورجـال هنا وهناك يجثمـون بمِنجل من أجل حصادهم. وبدا المنجل أداةً من نوع رديء، سـكين معقوفة مع إنشـات قليلة من حد منشـار في وسـطها، وعمـل الرّجال في صفـوف من ثلاثة أو أربعة، جالسـين على كعوب أرجلهم. وتركوا بضع إنشـات من بقايا الزّرع بعد الحصد ليتـم قلعها عنـد الجفاف، ومُزِجت مـع الطّين من أجـل الطّوب. وكانت النّسـاء أيضاً يزرعن البصل؛ وظهرن مثل صفوف من السّاحرات، بالتّيجان المستدقة لقبعاتهن على جميع الزّوايا وغطيت وجوههن بالأسـود مع شـق لوزي للعين في الأسفل. كان رجل فـي الحقل يحـرث بثورين، الوحيديـن الذين شـاهدتهما - فهذا العمل فإنـه يتم غالباً باليد. كان جانب الوادي الجنوبي وبلداته خصبة وتعيش في سلام.

هـرول الفلاحـون والمحصـول على حمير ذهابـاً وإيابـاً. وتفوح على المـرء بين الحين

والآخر رائحة جميلة من الذُّرة. وقد بنيت بيوت مؤخراً في اللون الأخضر المغبرّ من بساتين النّخيل، مكشوفة ومفتوحة. ولا تزال ساحة القلعة أسفل جروف تلك البلدات الصّغيرة، التي مضى الآن خمس سنوات من السّلام فيها. ولقد قام كل من سيد أبو بكر والسّلطان علي صاحب سيئون باسترضائهم بسبعة أو ثمانية آلاف طالر، وحصلت هذه الضّاحية الحدائقية على جو من الأمن. واستطاع الرّجال الآن بناء منازل بأمان بين أشجار نخيلهم في السّهل.

لا تزال البلدات ذاتها، مثل غُرفة تعرض علامات الحروب - فمنازلها خاوية حيث بدأت ثقوب الرّمي في الطّابق الثّاني، كل منزل حصّن لنفسه: وامتد من وسطها طريق مغطى، يغور في الأرض وحُجب بمجموعات من الأقواس. يسمح للسّكان الوصول إلى بساتين نخيلهم في السّهل، محميين من نار العدو. وحفر أعداء غُرفة الشّرقيين خندقاً إلى الدّاخل قرب منازلهم بمئتي يارد، وبنوا حصناً صغيراً حيث حُفظ عشرة جنود لإزعاج البلدة بالغارات. كان الجنود ينعزلون في النّهار، ولكن يضاف إليهم جنود أو يتغيّرون عند الليل. واستمرّت الحرب تحت هذه الظّروف عشر سنوات.

لم نتوقف عند غُرفة ولكننا اجتزنا أسفل منها، والتففنا إلى وادي بن علي، حيث قصور عُقدة بيضاء مقابل الجُروف، فوق قمم النّخيل التي تشبه النّافورة. كنت في هذا الوقت أقرأ رواية «موت آرثر» Morte d'Arthur ووجدتها متوافقة - بشكل غريب - مع الحياة في الوادي؛ تغايراتها الفجائية، وروعة قلاعها، وحالة الشّك المنتشرة للأشياء من حولهم، الشّعور المبهج بأن أيّ شيء يمكن أن يحدث في أي مكان ولا يكون مفاجئاً. ويأخذ معدل السّكان في حضرموت الكثير من وجهة النّظر نفسها في الحياة كما فعل فرسان مالوري Malory في مسيرات كورنوول Cornwall أو ويلز Wales، فلدى الغريب تحت شجرة ذات الإمكانيات النّشطة - موضوع ملائم إما لقتال أو لوليمة. ولا بدّ أن أفكار القرن الخامس عشر من النّقاهة في إنكلترة هي نفسها إلى حد كبير مثل تلك التي في جزيرة العرب الآن، حيث تتوقع أن تنهض من فراشك مستعداً لأي شيء، مثل ما كان سير تريسترام Sir Taristram، الذي كان يستلقي مريضاً، فقام أصدقائه بالتّحرّش به ليتبارز معهم.

وعُقدة الآن بفضل سلام خمس سنوات، هي مكان حدائق. ينمو النّخيل غير محاط بسور، في تَرَف مُدغِل وفتي. علِقت سيارتنا بالقرب بالرّمال النّاعمة، ووقفنا تحت القبب البيضاء للقصر الذي بناه قيمٌ على فندق غني من جاوة Java، يقف وحيداً وغير محمي إلا بجدرانه الطّينية الخاصة.

احتشد السّكان في الخارج لتحيتنا، وهم يدعوننا للبقاء. ولكني كنت متلهفة للوصول إلى شِبام، التي هي الآن مرئية في المكان المفتوح لالتقاء الوديان. كنا في اليوم التّالي ذاهبين لرؤية بدو شَبْوة في قصر القَطن، وكنت أعلم بأن عليّ تحمل بعض الصّعوبات في ذلك مع الحاكم في شِبام.

واخترقنا ليس عاجلاً في الواقع، الحدّ المرصوف بالحصى من تلك البلدة وتوقفنا لننظر الحاكم في ظل ما يشبه البرج من منازلها، عندما بدأت الصّعوبة، قفز بدوي صغير، رشيق مثل جرذ، من المكان حيث تمدّد وسط بعض من حمولات جمل: أمسك بيدي وصافحني.

قال: «ثلاثة أيام، وأنا أنتظرك هنا في الغبار. وقد أرسلني سلطان القَطن. لأننا نحن الذين سنأخذك إلى شَبْوة».

تقدّم الحاكم في تلك اللحظة، ملتفاً بأجواخ مثل مركب تحت أشرعتها، حاملاً في مقدمة حضوره المهيب عصاه ذات الرّأس الفضي. وطرد البدوي الصّغير بعيداً.

قال لي: «لا تفكري بأي شيء، يتوجب علينا إرسالك مع أفضل الأشخاص الموجودين. لذا عليك ألّا تخافي».

لم يبدُ مكان السّوق المحتشد المكان الأكثر مناسبة لحلّ تلك المعضلة. استرجعت البدوي الصّغير الذي كان ينظر إلى كل فرد سن فريقنا بالتّعاقب بأعين سريعة ومرتبكة، وقلت له أن يحيّي السّلطان، ويخبره بأنه من المفترض أن أكون في القَطن في اليوم التّالي لتنظيم الأمور. ألحّ حسن علي بلطف للعودة إلى السّيارة وقد ملأته روح القتال بشكل واضح - لأنه كره شِبام وجميع سكانها - وعندما أخذنا أماكننا، دون أن نتورّط

فعلياً بخصومة، اجتزنا جميعنا إلى بنغل خارج البلدة، حيث سيكون سكني.

لقد كان مكاناً ساحراً، خارجاً في انفتاح الوادي، على الرّغم من ارتفاع جدار الجُرف فوقه في الجنوب. وقف وحده، مطوّقاً بحديقتين مسورتين، من الرّمان والنّخيل، إلى جانب بركة من ماء نقي بنيت في صف أعمدة. فتحت غرفة الطّعام هناك بمصاريع خضراء اللون مقابل فروع النّخلة المندفعة. وعلى أية حال فقد صعدنا بتقدم للأعلى إلى غرفة كبيرة ومهوّاة بسبع نوافذ، وشرفة مفتوحة في كل جانب لظل الصّباح أو المساء. كان الطّراز أوروبياً تقريباً، مطلياً بألوان زاهية، ومُلطَّفاً بطلاء كلسي أبيض وأشعة الشّمس. إنه البيت الذي استقرّ فيه سلاح الجوّ الملكي R.A.F. عندما نزلوا في شِبام، وقد استضيفوا بحسن الوفادة؛ وكان قد فُرِش بعناية بكراسي مخملية بلون أخضر وبالعديد من منفضات السّجائر.

دخلنا جميعنا وجلسنا عندما تم العثور هنا على المفتاح، مع يَسلم الخادم الذي كان قد اختفى والمفتاح في حزامه: مضيفاي الاثنان، سعيد وحسين العجم؛ والحاكم، الذي تشبه لحيته الحمراء جداً هالة قد انزلقت بشكل عرضي؛ وباعُبيد الصّغير موظف وكالة A.B. وهو دود ومتلهّف لإسعاد كل شخص، وسيّدان من وادي العَمد علوي وعلي اللذان كانا في طريقهم إلى سيئون، ولكن لدى سماعهما عن نيّتي لزيارة منطقتهما، فقد غيّرا كل خططهما فوراً بحُسن ضيافة حضرموت المعتادة، وذلك ليعودا معي ويستضيفاني. وعندما كنا قد استقرّينا إلى حدّ ما وبعد فاصل من لطف غير محدود، أتينا إلى موضوع شَبْوة الدّقيق.

كان الحاكم خائفاً بأنه لو سمح لي بالذّهاب تحت الرّعاية من سلطان القَطن، فيمكن أن يُلام في المُكلّا. ولقد كان أحد أفراد عوائل الخدم في الأسرة الملكية هناك – ووفقاً لعُرْف جنوبي جزيرة العرب، والتي يعدّ الكثير من الوزراء المشهورين بين عبيدها – فقد أصبح حاكماً قبل سنة خلت، عندما استقال سلطان القَطن. ولا يزال علي سلطان القَطن الرّجل الأكثر سلطة في أعالي حضرموت، وأخبرني حسَن بأنه استقال بسبب أن اثنين من جنوده قُتِلوا من قِبل بدو الجابر عند بوابة شِبام، ولم يُسمح له أن يحضِر

جنوداً وأسلحة لمعاقبتهم كما تمنى أن يفعل، وقد تم العمل من قِبل حكومته للتّخلّص منهم بدفع المال.

والجابر أشخاص متمرّدون، قتلوا رجلاً وأخذوا جملين من قافلة شَبْوة خلال فترة وجودي في الوادي. وكان سلطان القَطن محترماً في بلاده وما خلفها، قادراً على جعل اسم القعيطي محترماً في شِبام - وهو شيء ممتاز على أيّة حال، ولكن القليل من الغرباء من استطاع أن يحققه فعلياً بين القبائل المحافظة. وأما فيما يخصّني، فقد كنت قد توصّلت تماماً إلى قرار بألا أغامر داخل الأراضي الحدودية الغربية دون دعم من أحدٍ ما يحمل اسمه سلطة خلف الحدود من شِبام. وبمعزل عن هذا، فقد أحببت السّلطان الذي كان قد سبق لي أن ربطتُ نفسي به، ولقد شرحت النّقطتين الأخيرتين بالحزم اللازم.

قال باعُبيد متحمساً لاسترضائي: «لا يؤخذ هذا بالحسبان، سوف نرسل رسالة إلى السّلطان لنشرح له، وعندما تأتي القافلة، سوف يرسلك الحاكم من هنا».

قلت: «أنا آسفة، كان من الممكن أن يحدث هذا من قبل، ولكنه الآن متأخر جداً، فقد أعطيت كلمتي لسلطان القَطن. ولا يمكن لي أن أغيّرها حتى لملك إنكلترا نفسه. تُعتبر الكلمة التي أعطيتُها نهائية».

تركَت هذه الآراء صمتاً موجِعاً. وجلست حلقة صغيرة، تنظر إلى الأرض، غير معرِبين عن رأيهم في كلا الاتجاهين. إن استحالة التّعامل مع عناد النّساء بالحجة المجرّدة كان واضحاً للجميع، ونهض الحاكم بجهد وهو يتنهّد. ولم يتمكن من أن يتولى مسؤوليتي، قال إنه يمكن أن يكتب ويقول هذا للحكومة في المُكلّا، ويمكن أن يطلب مني أن أكتب أيضاً، وأخبرهم بأني فعلت هذا من قراري الفردي وعكس نصيحته.

بدا لي هذا مقبولاً. غادر الحاكم؛ وغادرَت الحلقة الصّغيرة أيضاً، مهزومين نوعاً ما. وعندما كان الجميع قد ذهب فُتح الباب وظهر مجدّداً واحد منهم مع تعبير ودّي جداً على وجهه.

قـال: «لقـد كنتِ على حـق، إن السّـلطان هو الرّجـل الأفضل في هذا المـكان. إنه صديق لنا. وفيما يتعلق بالحاكم - الرّجل المسكين - فلا أحد يستمع له، فهو لا يعرف بالتّاريخ».

لذا فقد شعرت بالرّضى، ولو على نحو غير متوقع.

فـي الصّبـاح الثّاني عند الثّامنة والرّبـع، بدأنا رحلتنا إلى حُريضة فـي وادي عَمْد أنا وحسن وعلي البربري، والسّيّدان في المقعد الخلفي.

كان السّـيدان الرّفيقيـن الأكثـر جاذبيـة اللذيـن يتمنّاهمـا المـرء. وقـد صنعـا تبايناً مضحكاً عندما جلسـا في المقعد الخلفي: علوي سـمين، حسن المحيّا وطيّب، ودود وموثـوق للوهلـة الأولى، بينمـا كان صديقه بعمامـة صفراء، فوق عيـن واحدة ووجه عربي معقوف، مسـتعدّ لأيّة نكتة أو أي مغامرة دون تحمّل أية مسـؤولية، وكما قال لي هو بنفسـه، بأنه كان بمنزلة بين الشّـيخ والبدوي. وقد صاحبا كلاً من ڤان دِن مولن M. Van den Meulen وفون ڤيسمان Von Wissmann في زيارتهما لوادي عَمْد وكانا لا يزالان مشبعين بكل الذي كان قد حصل لهما في ذلك الوقت. كان علي البدوي، مليئاً بهذه الذكريات، وبالنسـبة لسـيّد علوي فقد كان لديه ذكريات أخرى، من ثمانية أشـهر قضاهـا فـي إنكلترا، وتحدّث ونحـن نتجه إلى الوادي الغربي عـن المتع في پادينغتون Paddington وفي ووكينغ Woking.

اجتزنـا القَطن وتركنا رسـالة بأننا يمكـن أن نقف في طريق العـودة لننظم اليوم إلى شَـبْوة. وكانـت قافلـة قادمة مـن صنعاء في اليمن تسـير في الـوادي بتثاقـل، مع حمير صغيرة تثب غير محمّلة قرب الجمال الضّخمة. كان الرّجال طوال القامة، لا يشـبهون بدونـا من الجُـول، ملتحين ومعقوفي الأنـف وودودين. وقالوا علـى نحو غير واضح بأنهـم جاؤوا من اتجاه قبلة الصّلاة «قبلي»، كما يدعون الشّـمال الغربي خلف المكان الـذي تقع فيه مكـة. ولقد فرقعوا أصابعهم نحو مسـافاتها التي تغطيها الشّـمس، بينما انتظـرت قافلتهـم التي تحـوي مئة جمل أو أكثـر، والمحمّلة بأكياس مـن الدُّخن، وقد رفعت رؤوسـها البطيئة ورمشـت أعينها في الشّـمس. وتحدّثت عن السّلام الذي كان

منتشراً الآن على طول تلك الحدود الغربية، التي تصل إلى شِبام، «ضفّة» حضرموت، كما سمّاها حسَن. وتريّثت جماعة الرّجال الطّوال الذين تحدثوا وجمعوا الأخبار، كي يشاهدونا نبدأ - يحيط بهم كل الفراغ في صحاريهم.

انعطفنا الآن نحو الجنوب، على طول طريق الوادي الذي جئنا منه قبل أسبوعين - كانت الأراضي الرّأسية معتمة في غشاوات من شمس أمامنا، ولوّحنا لجدران ديار البكري Dhiar al-Buqri حيث يتسكّع العبيد في مراقبتهم، ليظهر بأنه لم يكن لدينا وقت للبقاء؛ ومن ثم انعطفنا غرباً من طريق دَوعَن في وادي عَمْد.

يأتي الشّخص هنا، وبعد امتداد هائل في أرض قاحلة، مرة أخرى إلى قرى وواحات، ولكن من نوعية صحراوية أكثر من الوادي الكبير، وقد نبتت أشجار العِلب أكثر من النّخيل. وهذا في الواقع قرب البداية من تلك البلدة التي يصفها المقريزي، حيث يبذرون الحبوب و«يعتمدون على المطر»، وحيث يوجد «كثير جداً من شجر النّبق (العِلب) حيث تنتج شجرة واحدة حمل خمسة جمال وتباع بعشر مثاقيل من الذّهب، وإذا كان هناك نقص في المطر فإن الأشجار تذبل ولا يبقى بذار...». ويضيف المقريزي، بأنّ لدى هؤلاء الأشخاص القوة الفائقة لتحويل أنفسهم إلى ذئاب.

وفي الحقيقة قد نُسِبت إلى الحضارمة قوى سحرية، ويطير الرّجال من بينهم ليلاً في الهواء من حضرموت ويتحولون إلى هيئة الطّيور مثل الرّخمة والحدأة إلى أن يأتوا إلى الهند»؛ ولذلك فيمكن لقدراتهم في السّفر أن تكون موروثة في المحصّلة. وتقع البلدة التي وصفها المقريزي على هذا النّحو شمال غرب عَمْد ما بين الصّيعر Se'ar: وتمتدّ دون الأحقاف (في الرّمال الصّحراوية الجنوبية) في الخلف أراضٍ «لا توجد فيها مياه أبداً»، ولكن إذا أمطرت فهناك حصاد كثير: «ثم تهبط إليها قبيلةٌ وتبقى هناك مع جمالها ونسائها لمدة أربعة أشهر ولا تحتاج لمياه... ولكنها تعيش على الحليب».

لا يشبه وادي عَمْد أيّ شيء من هذا؛ فلقد بُعثر في قرى صغيرة ومزارع: ولكن فيه القرب من الصّحراء، مع نظافة قاحلة وجفاف. إنه وادي البدو، قسِّم بين قبيلتي نَهد والجعدة تحت سلطة سادة السّادة آل العَطّاس في بلدتهم في حُريضة. ولا بدّ أنه كان

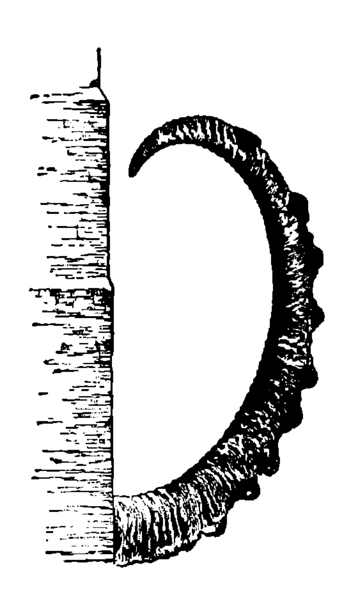
فـي الأيام الماضية أكثر كثافة سـكانية من الآن، حيث عُرفت الحقـول المخربة التّالفة جنـوب حُريضة، ووفقـاً لرواية ڤان دِن مولـن M. Van den Meulen، بأنها الأكبر في حضرمـوت، ومقابـل حُريضة على درجة 18° مـن بوصلتي من منزل سـيدّ علوي تمتد عَنـدَل «البلـدة الأولى في حضرموت». ولا بدّ أن الطّريـق العام للتّجارة قد مرّ من هنا، في كلّ من الأزمنة القديمة وفي العصور الوسطى؛ ويمكن أن يكون وادي عَمْد يستحق اسـتقصاء بعنايـة أكثـر. ولولا السّـادة م. ڤـان دِن مولـن M. Van den Meulen وفون ڤيسـمان Von Wissmann والهِر هِلفريتس Herr Helfritz لكنت اعتقدت أنها لـم تتم زيارتهـا مـن قِبل أوروپيين (حيـث أن وصف فون ڤريـدِه Von Wrede لهذا الجزء من رحلته كان غير أصيل بوضوح).

تريّثنـا عند فتحة الوادي في ظلّ شـجرة عِلب بين كثبان رمليـة. أتت ثلاث راعيات يرتديـن ثياباً سـوداء بأحزمـة فضية، عندما دعاهن سـيّد علوي، لأننا كنـا الآن في بلدة العَطّـاس، وكـنّ يعرفنه. لقد كن فتيات شـابات، لكن كلهن أرامـل، فقد قتل أزواجهن في الحرب ما بين ديار البكري Dhiar al-Buqri والبلدة تحت الجُرف. أخبرني سـيّد علـوي بـأن بلدتهن كانت الأجرأ من بين كل البلدات الصّغيرة المقاتلة، وكان سـكّانها الآن يحفرون خنادق بنشـاط هنـاك، وذلك لتكون جاهزة عند نهايـة الهدنة التي تنتهي في غضون شهرين. وفي غضون ذلك سحبت الأرامل أوراقاً من شجر العِلب بعصيهن الطويلة وقدّمن لنا الثّمار من سـلال صغيرة مسـتديرة. نظرن إلي، مهتمّات وخائفات، لأنهـن لم يشـاهدن أبداً امرأة أوروپية مـن قبل. لكنهن أتين حالاً وجلسـن إلى جانبنا، يتلمسن بأصابعهن بفضول النّسيج الذي صُنعت منه ملابسي.

قال سـيّد علوي، وهو سـعيد بشـكل واضح لكونه عائداً بعد الكماليات الحضارية للـوادي العظيم: «نحن هنـا ديمقراطيّون، ففي وادي حضرمـوت يتوجّب على الرّجل دفع خمسـة آلاف طالر أو أكثر مهراً لزوجته، ولكن هنا في وادي عَمْد فاثنا عشـر طالراً (ثمانية عشر شلناً) هو الحدّ الأقصى».

كانت الشّـمس ترتفـع وتمنّينا أن نصـل إلى حُريضة قبـل الظّهر. غادرنـا الرّاعيات

وتابعنـا غربـاً، مسـتمرّين بين الأنقاض الحجريـة تحت الجُرف، الذي ينتـأ هنا خارجاً مثـل خرطـوم في الوادي ويحوي عند قمته البئر القديم، بير غمدان، في الأسـفل الذي تسـلّقه فون ڤيسـمان Von Wissmann ومرافقنا السّـيّد البدوي. ولقد أخبرني عنه إلى أن أربكتنـا تباينات الطّريق فوقفت المحادثة. اسـتطاع علي البربري أن يجعل السّـيارة تقوم بأي شـيء تقريباً، دخلنا القناة الجافة من نهر وأخذناها مثل موجة، وانحدرت في جانبهـا الأبعد بلدة حُريضـة مقابل الجُرف عند الانعطاف من الـوادي، محاطة بأماكن حجريـة مفتوحة. وتمتدّ مقبرتها أمامها مع بعض القباب البيضاء، ومنزل جيد منحوت وأبيـض اللـون. ارتفعت مئذنتهـا باللون الأبيض برِقـة مقابل الجـدار الصّخري، بينما امتدّت البلدة بنيّة اللون بينها، مقرّحة في ضوء الشّـمس. وأرتنا قرونُ الوعل التي تزيّن أسـطحها وهي منحنية مقابل السّـماء بأننا هنا مرة أخرى في حضرموت قديمة الطّراز، بين تقاليد جزيرة العرب التي ما تزال مستمرّة.



الفصل الثّاني والعشرون

حُريضة في وادي عَمْد

«لـن يمنع حرّاس سـيّد مأرب موتـه، ولن تمنعه المعاقل التي تتحلّق حوله، سـوف يتسلّق الموت إليه بعد نومه في أول الليل بواسطة سلّم كتّاني مجدول بإتقان».

(Alqama، عَلقَمة)

لـم يكن من المتوقع أن يتواجد السّـيد علوي في منزله فـي طرف المدينة. أحيط بنا قدر كبير من الحفاوة والتّرحيب، والسّجاد الذي لفّ في غيابه يجب أن يمدّ ثانية.

أشـغل نفسـه بالتّفكير، حرصاً علـى راحتي، في كل مـا يلزمني لاعتيـاد العيش في مقاطعـة پادينغتون Paddington وقد قام بذلك بكل طيبة قلبه. توفر الكثير من الفواكه المعلبـة والحليب والبسـكويت وأشـياء كهذه، لا بـدّ أن حضرموت من المسـتهلكين الرّئيسـيين لهـا فـي العالم، أما بالنّسـبة لكرم الضّيافـة فحدّث ولا حـرج. قبلتُ ضيافة السّـيد في منزله بامتنان، وراقبته في جهده في التّدبير المنزلي، وكان يتوقّف بين الحين والآخـر مبينـاً كم أن النّسـاء عديمات الفائـدة، وغير قـادرات على تقديـر وفهم ما قد يحاجه الأوروپيون.

لكـن في الواقع كانت «جميلة» عوناً له. فقد اسـتقدمت، وأتـت لتعتني بي، مرتدية الـزّي البـدوي الأسـود حاملةً مفتاحـاً في حزامهـا - وهي امـرأةٌ في منتصـف العمر، تتمتع بعقل مسـتقل ووجه سـاحر - وبفم كبيـر كبير وبعظام الوجنة البـارزة التي يتميّز

بهـا الحضارمة غيـر المختلطين بالقادمين من جاوة Java. تجوّلتْ في المنزل حاسـرة الـرّأس بحرية، وفي الحقيقة فقد كانت صديقـة أكثر من كونها خادمة، وجزءاً لا يتجزأ من نسـيج العائلة متماسـك البنيان، مسـاندةً وداعمة بهدوئها وطريقتها الخاصة، فلقد عدنا إلى البلد الإقطاعي بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

كانـت هندسـة دَوعَن القديمة موجودة هنـا أيضاً، فقد زُيّنت الأبـواب بنوافذ علوية منقوشـة بما يقارب السّـبع ياقات ومزاليجها معصوبةُ بسلسـلة تمتدّ من طابق إلى أخر حتـى أعلـى المنزل. وكسيت الغرف بالمـادة الحضرميّـة ذات اللـون القاتم وحُفرت الأعمـدة بنقـوش حضرمـوت القديمة. اعتذر السّـيد علـوي نيابة عنهـم وجلس على الأرض ليشـرف على نظافة الصّحون والملاعـق التي وُضعت أمامي، وأمر بجلب ماء في جرّة فخار مضمّخة بالبخور لتطهيرها. «إننا نتّسم بالدّيمقراطية هنا في وادي عَمد»، قالها السّيد علوي ثم أضاف: «إنها أفضل من الرّفاهية في حضرموت»، معبّراً عن فخره بواديـه ولقد سُـرّ عندما أخبرته عـن مدى إعجابي به، وعبّر عن سـروره بينما كان يفتح علبة صفيح أخرى.

نظـراً إلـى كل تلك الحفـاوة والمودة التي أُحطـتُ بها، كان علـيّ أن أكون في غاية السّـعادة، ولكـن مرضـي أخذ يـزداد سـوءاً. أوقفت جميلة سـيل السّـيدات الوافدات وتركتنـي بمفردي لأرتـاح. أصابتني أعراض مرضية شـديدة لا توصـف، فبحثت بين جميـع الأمـراض الموصوفـة في أكثـر الكتب قيمـة وهو كتـاب المجتمـع الجغرافي الملكي فصل نصائح للمسـافرين، متسـائلةً عن ماهية مرضي. لا بدّ أنها الملاريا، هذا مـا خلصـت إليه في نهايـة المطاف. لم يذكر الكتاب شـيئاً عن أعـراض تضخّم عضلة القلب، لا شيء غير الملاريا وأعراضها التي تطابقت بأدق جزئياتها مع ما شعرت به.

تمنّيـت أن تكون الملاريا التي أصابتني بسـيطة، والتي كمـا ذكر الكتاب غير مميتة. نظرت إلى حجارة وادي عَمْد الجرداء المشمسة الممتدّة جنوباً، وإلى الطّريق الموغل في القِدم والموصل إلى البحر، راودني الشّـك للمرة الأولى بقدرتي على مغادرة هذه الأرض الصّحراويـة المقفـرة التـي تحتجزنـي. بني المنـزل في مكان مرتفـع؛ جدرانه

الحصينـة كانت بصورة مصغرة تحاكي جدار الصّخـر القابع خلفها. أما المزاريب فقد تجمعت لتصبّ على طرف الهضبة السّفلية، كان تحت كل نافذة هناك مزراب، وذلك مكننـي مـن التّخلّص من مياه الحمـام من غرفة الضّيوف دون تكبّـد عناء فتح مصاريع الباب.

بـدا الوادي لا حياة فيه تحت أشـعة شـمس منتصف النّهار المحرقة، يعمّه السّـلام وبلا أيّ ظل. وصلنا في مثل هذا الوقت السّاعة الحادية عشرة إلى «حُريضة» على بعد ثلاث سـاعات تقريباً من شِـبام. استلقيتُ محاولةً نيل قسـط من الرّاحة؛ ثم شُقّ الباب ببطء وأطلّ منه رأس صغير. تسـلّل مخترقاً حراسـة جميلة سـاعياً لرؤيتي، وبدا متردّداً كالواقـف علـى بـابٍ مفتوح لقفص أسـد في حديقة الحيـوان؛ رآني مبتسـمة، فجلس بجانبي.

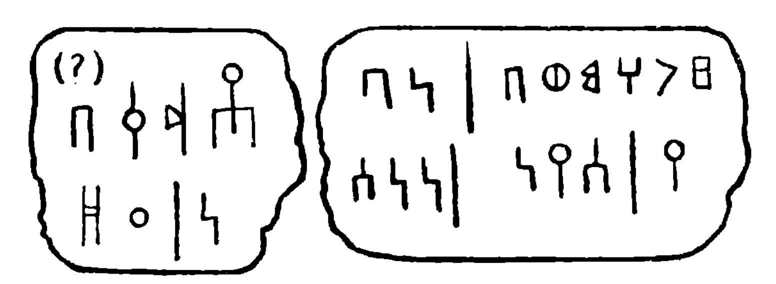
سـألني: «من أين أتوا بك؟» فاتحاً يديه الصّغيرتين ليريني بوضوح كم أنا مميّزة في نظره.

كان اسـمه جعفر، يبلغ من العمر سـبعة أعوام كما يعتقد. ذهـب إلى المدرسة وأدّى دروسـه وواجباته على لوح خشـبي عوضاً عن الدّفتر. واهتم إن كنت نمت لأنه سـمع أصواتاً. كانت جميلة الآن قد أذنت لسـيدات الحريم بالدّخول. ارتدين ملابس محبّبة من نمط ملابس الحجريين، وشالات قطنية سوداء وحمراء حول رؤوسهن ابتعنها من الباعة الهنود المتجوّلين. نشـطت الحركة التّجارية في وادي عَمد بسبب اختفاء ظاهرة الباعة الجوّالين في بير علي ولأن رسـوم الجمارك هناك أقل من تلك في المُكلّا. لكن الأمن في الوادي العلوي ليس كما يجب، لذا فقد تحوّلت معظم التّجارة شرقاً لمنطقة دَوعَـن وأيضاً إلى شِـبام، عبر الجُول بدلاً من الوادي. إنـه برهان إضافي آخر على بقاء طرق التّجارة المريحة والقديمة نفسـها بشكل أساسي على الرّغم من تحوّلها لأسباب أمنية مؤقتة.

لم تكن السّـيدات مكترثات بتلك الأمور. كان جُلّ همّهنّ – وهنّ اللاتي لـم يركبن سـيارةً بحياتهن كلها – السّـماح لهنّ بنزهة قصيرة فيها من أعلى الوادي نزولاً لآخره.

هـذا مـا وُعدن به عنـد وصول السّـيارة إلى حُريضة، لكـنّ أحداً لم يـفِ بذلك الوعد. طُلـب منـي أن أفعل ما بوسـعي لتحقيـق غايتهـن، وأن أطلب ذلك من السّـيد - الذي ابتسـم لذلك بتسامح وسـعة صدر. ولكن في اليوم الثّاني وعند الطّلب ثانيةً، اكتشفتُ أن تلـك الوعود ذهبـت أدراج الرّيـاح. قال السّـيد: «تفاهات، تلك الأمـور التي تفكّر بها النّسـاء». تبادلت نظرات خيبة الأمل مع النّسـوة، ولكننا لـم نتحدث عن الأمر أكثر لإدراكنا لمكانتنا عنده.

لقـد كنـت مريضـةً للغاية لأذهب إلـى حقل الآثـار الـذي زاره فون ڤيسـمان Von Wissmann علـى بعـد ميل أو أكثر مـن المدينة. لكنني تجوّلت عبر شـوارع حُريضة، كانت مسـاجدها الثّـلاث ومكتبتها، وبيوتها البنيّة اللون تتداعـى على حواف الجُرف. المسـجد الأقدم يقع في الأعلى مرتفعاً، وهو ذو مئذنةٍ مربعة مشـابهة لتلك التي تراها فـي الهجرين - ويوجد أسـفل المئذنة، وليس بعيداً عن العتبة لوحان منقوشـان باللغة الحِمْيَرية:



إنـه لأمرٌ مزعج ألا نعرف ما يكفي كحالتنا هذه عن المخطوطة الحِمْيَرية. فأصولها القديمـة غيـر معروفة، على الرّغم مـن أن الأبجدية الأولى كانت واحـدة من بين تلك الأصـول. إن هذا الاكتشـاف وحده بالغ الأهمية، بالفعـل فالماضي في جنوب جزيرة العرب يسـتحق التّحرّي والاستكشـاف. لكن الأيـام الأخيرة للكتابـة الحِمْيَرية وقمع اللغة العربية لها بقيت مجهولة حتى الآن. ثمّة كتابة من القرن الثّاني الميلادي (*Nova Acta Eruditorum* 1773) تذكـر شـخصاً باسـم أولپيوس كاسـتوراس M. Ulpius Castoras «الكتبـي العربـي» *Librarius Arabicus* وتفيـد فـي إثبـات أن النّصـوص

العربية كانت معروفة بشكل من الأشكال في هذا التّاريخ المبكر. لكن الهَمْداني في كتابه، ظل يذكر الحِمْيَرية كلغة محكية في مناطق متعدّدة في القرن السّادس عشر. ذكر كوندر Conder، في كتابة «العربية»، ودون إسناد، أنه «عند ظهور القرآن الكريم المكتوب بالحروف الكوفية، لم يكن باستطاعة قاطني اليمن قراءته». (ص 42)

أثبتت قصة قيسبة بن كلثوم حقيقة أن الكتابة الحِمْيَرية ظلّت معروفة في حضرموت في أوائل الإسلام، وقيسبة هذا أسلم ولعب دوراً مهماً في فتح مصر. وبرواية كتاب «الفَرَج بعد الشِّدّة» (ج 1، ص 130) بإسناد ابن الكلبي، يرد كيف أن بني عقيل قبضوا على قيسبة في طريقه للحجّ قبل الإسلام (على الأغلب بجوار بيشة)، وساقوه أسيراً لديهم لمدة ثلاث سنوات، حتى ظنّ قومه أن الجنّ قد أهلكوه. لكنه نقش بسكينه رسالةً باللغة الحِمْيَرية (المسند) على سرج جمل مسافر، ووصلت الرّسالة بطريقة ما إلى قبيلته في حضرموت. وفي نهاية المطاف أفرج عنه بوساطة وفد من قبائل السّكون وكندة.

* * *

قام عمّ المَنْسَب الحالي (الزعيم الدّيني في المدينة) ببناء المسجد الحديث في حُريضة بصنعة جميلةٍ متقنة، وبمساحة كبيرة مهيبة، وبساقية توزّع الماء على صنابير متعدّدة، وعلى سقفه توجد المكتبة التي تحوي عشرة آلاف مجلد، حُفظت هذه المكتبة كما قالوا لي تحت القبّة البيضاء. ولا يمكن إلا للتّحرّي الدّقيق والمطوّل أن يفصح عن أيّة معلومة ذات قيمة لم تكتشف بعد بين هذه المجلدات الفقهية. زرنا المكتبة، عند انصراف أطفال حُريضة من المدرسة الذين تجمّعوا خارجاً عند الباب. لقد كانوا في غاية الودّ واللطف، كان جعفر من أصغرهم حجماً ولكنه كان مؤثراً فيهم بشدة. وبالتّأكيد أخبرهم عن كوني إنسانة مثلهم ولكنهم أرادوا رؤيتي كلما سنحت لهم الفرصة بذلك. كان النّزول للشّارع بينهم يشبه النّزول لحلبة المصارعة مع السّيد البدوي بعصاه لاعباً دور المُجالد، وأنا في دور الشّهيد المسيحي. لقد سعدنا بالعود لمنزلنا، الذي بدت الآن وبكل وضوح تعرّجات متاريسه وقرون الوعل المعقوفة تحت أشعة الشّمس العصر.

ارتكبتُ غلطة في حُريضة وعليّ البقاء هناك مع المَنْصَب، السّيد محمّد بن سليم العَطّاس. رأينا بيته يعاد تنظيم هندسته في البلدة السّفلى، بأيدي البنّائين الذين تدلّوا من منصّة بحذاء جدرانه الخارجية، يصنعون بأدواتهم نوافذ صغيرة حول السّطح والتي من خلالها تنظر نساء الحريم إلى الشّارع. لم يخبرني أحد أن سيد حُريضة كان هُنا، حتى زارني كل من السّيد محمّد وأخوه. كان هناك بعض الحساسية حول الأمر، ليس من جانبي ولكن من جانب مضيفي، فحسب رأيهم على الضّيف الذّهاب إلى شيخ العشيرة. لكن إجهادي كان سبباً كافياً للسّماح لي بالبقاء تلك الليلة حيث كنت. جلس الأخوان وتحدثا لمدة حول الكتب، كانا ودودين وذوا طلّة ساحرة حتى أنّ شكليهما يشبهان صورة ڤان ديك Van Dyck، كانا نبيلين ولهما وجهان نحيلان وطويلان. إنهما من ارستقراطيي حضرموت القدماء، سليلا السّيد أحمد بن عيسى القادم من البصرة، وقبره هو ذاك الذي رأيناه في الطّريق إلى تَريم. وعدتهما بتناول الغداء معهما في اليوم التّالي، ثم غادرا وأرسلا لي فراشاً من منزلهما لزيادة راحتي في الليل.

عند مغادرتهما أتت الحريم مرةً أخرى مع نساء أخريات من البلدة. جلبن دفّاً لتسليتي بأنغام الموسيقا، وطلبن مني غناء بعض الأغنيات الإفرنجية. كل ما تمنّيته تلك الليلة الموت سريعاً وبمفردي إن أمكن وكان ذلك قدري - ولكن كوني المرأة الأوروبية الأولى التي رأينها في حياتهن فكان عليّ الاستجابة بشكل ما لكل الجهد المبذول. غنّيتُ ما تذكّرت من أغاني الطّفولة والتي أثارت إعجاب السّيدات، اللاتي تبادلن مواقعهن لرؤيتي من زوايا مختلفة.

فجأة تركت طفلةٌ صغيرةٌ أمّها ورمت بجسدها الصّغير في أحضاني؛ ارتدت تلك الطّفلة ملابس زاهية: ثوباً حريرياً وتنورة خضراء من طراز الملابس في جاوة، رُبطت بدبوس أمان؛ وحيث أننا لم نعتمد على لغة الكلمات في التّواصل بيننا، فقد خفّف تواصلي مع ذلك المخلوق الحنون من بؤسي وتعاستي. كانت امرأةٌ مسنّة حاضرة أيضاً بشعرها الأصفر المحنّى؛ بدت طاعنة في السّنّ، دون أسنان وبعيون زرقاء نادرة في ذلك البلد، فاتحة وضعيفة من جرّاء تقدّم العمر، امتلأتا بلطف ومحبّة كبيرة عندما

أمسكت بيدي وحدّقت بي، لقد بادلتني الشّعور ذاته، كما تسلّل شعورٌ من الرّاحة إلى قلبي؛ ولكن بسبب مرضي الشّديد، وتحديق الجميع بي كأني مخلوق في حديقة الحيوان، جعلني هذا أشعر بوحدةٍ مريعة. دخل للتَّوّ السّيد علوي المضياف والقلق، وطرد السّيدات ودفوفهن بإشارةٍ من يده - ثم غادر لأنال أكبر قسط ممكن من الرّاحة في الفراش الذي قدّمه المَنْسَب في زاوية من زوايا الغرفة المزخرفة المليئة بالأعمدة.

لقد آتت راحتي في تلك الليلة أكُلها، فاستيقظتُ صباح اليوم التّالي بشجاعة متجدّدة، ولكن مهزوزة، وبقناعة بأنه في حال كان مرضي الملاريا، فعليّ البقاء ليوم أو يومين لأرتاح ثم لأعود إلى شِبام قبل موعد الهجمة التّالية. شعرت أن ما فعلته هو الصّواب على الرّغم من رغبتي بالبقاء في حُريضة مدة أطول، وربما استعدت عافيتي بهوائها النّقي وبأشعة شمسها الدّافئة. قال السّيد علوي: «لا مرض هنا؛ فنحن إما أصحّاء أو موتى».

شربت حليب النّاقة ذا الرّغوة الذي قدّمه السّيد في كأس، ثم صعدت لسطح المنزل لأخذ اتجاه قرية عَندَل على البوصلة. لكل سيدة من نساء الحريم شقتها الخاصة بها والتي أقفلتها بمفتاح خشبي تحفظه في حزامها، وكل واحد من هذه الأوتاد الخشبية يناسب فتحة معينة، إنها مسألة وقت فقط للتّنقل من طابق لآخر للوصول لسطح المنزل الأبيض حيث قرون الوعل المعقوفة تطلّ باتجاه البلدة في الأسفل.

ها هو ذا السّيد علوي مرتدياً العباءة متجولاً تحت أشعة شمس الصّباح. أما الماعز فشكلت خطوطاً بيضاء وسوداء في مسيرها نحو مراعيها؛ تلتف ذيولها الصّغيرة بمرح حول أردافها، وتخطو أرجلها ذوات الكواحل الأنيقة بثقة نحو المراعي الممتدّة خلف الوادي، وامتدّ الوادي خلفها مفتوحاً ضحلاً وبنيّاً. كلما اتجهنا جنوباً تتضاءل سلطة السّيد، وعلى الرّغم من قوتها في القرى الصّغيرة، يحاول البدو تقويضها، بالإضافة إلى تقدّم الحزب المعادي للسّيد، جماعة الإرشاد من جاوة الذين ينشرون دعاية مغرضة ضد السّيد بين رجال القبائل.

هذا الموضوع هو الشّغل الشّاغل في وادي عَمد، ففي الطّريق إلى تَريم سمعت

حول جماعة الإرشاد، عند جلوسي مع المَنْسَب وأخيه بعد زيارة مدرستهما، أخبراني عن تاريخ عائلتهم. جدّهما هو الفقيه المقدّم محمّد علي، والذي ينحدر مثل كل أسياد حضرموت من فقيه البصرة أحمد بن عيسى، الذي وضع القانون الذي يمنع الأسياد من حيازة السّلاح. بعده بحوالي 300 عام مضت، أتى السّيد عمر عبد الرّحمن العَطّاس إلى حُريضة وبنى فيها أول مسجد هناك - بنى حوالي الأربعة عشر مسجداً - وتوفّي سنة 1074 هجرية الموافقة لعام 1663-1664 للميلاد، بعد التوصّل لسبعة عشرة معاهدة سلام مع القبائل المحيطة. ومن السّيد عمر وأبنائه الثّلاثة تحدّر آل العطّاس في حُريضة. وأحدهم وهو علي بن حسن استقرّ في المَشهَد في العام 1172 هجري الموافق 1758-1759 ميلادي، ولا تزال الصّلات العائلية قائمة حتى الآن؛ وأصبح ابنٌ آخر ملكاً في الملايو Malay.

بقيت هذه العائلة في وادي عَمْد، وتجمّعت وحُميت عبر التّقلبات العديدة التي مرّت بجميع الحضارات التي حواها الوادي. كذلك الحال في العصور الأوروبية المظلمة، عندما خبا نور التّعليم - نور ضعيف، ولكنه كافٍ ليضيء نوراً أكبر وذلك عند بزوغ النّهضة التي أرشدت العالم الحديث الآن. كم من البطولات التي لم تُعرف، وكم من الصّبر الذي لا يُحتمل والأمل الذي بُذل خلال تلك العصور الدّموية لحمل هذا الكنز النّادر من الحكمة!

لقد مللنا سماع علماء النّفس يكرّرون مراراً نظريتهم القائلة بأن الدّافع الجنسي هو المحرّك الأساسي في العالم. ولكنّ هناك دافعين أقوى من الشّهوة، وأعمق من الحب بين الرّجل المرأة، ومستقلان عنهما - إنه النّهم البشري للحقيقة والتّحرّر. في سبيل هذين الدّافعين، قُدّمت تضحيات أعظم من تلك التي قُدّمت في سبيل الحب للأشخاص؛ ولن يسود ضدهما شيء، فلقد أثبت الحب والحياة خفّتهما في الميزان؛ وأن المخلوق الإنساني جاهز دائماً ليدحض فكرة المذهب الواقعي وإحصاءاته، وليضحّي بكل ما يملك في سبيل فكرة مجرّدة من الحكمة أو الحرّية، غير الرّابحة في كل مقياس مادّي.

ماهي المحاضرات الشّعبية والأوامر الإلزامية والمعتقد الذي يتعلّمه المرء إن كان باستطاعته القراءة والكتابة، ننسى في بعض الأحيان في غمرة المحاضرات العامة والإرشادات الجبرية والمعتقدات التي نتلقاها، وجود هذا النّهم في أرواحنا. ولكن في وادي عَمْد يصعب إرضاء هذا النّهم، فهنا إدراك حاضره أسهل، ولهذا السّبب لم يتفاجأ السّيدان برغبتي في السّفر من أوروبا لحضرموت للسّعي وراء علمهم القديم. كانا ينتظرانني عند العتبة، واضعين الشّال الصّوفي على كتفيهما، مرتدين عباءتيهما البيضاوين النّاصعتين. قاداني عبر درج جامعهم إلى المكان الذي ترقد فيه بسلام عشرة آلاف مجلد تحت القبّة البيضاء. قال السّيدان: «كان عليكِ القدوم لهذا المكان منذ أشهر، للبحث والدّراسة».

كان أطفال حُريضة في المدرسة بالغرفة المجاورة، تواجد حوالي أربعين طالباً من أصل ثمانين. جلسوا على حُصرٍ في صفوف منتظمة. إنهم بدو يتمتعون بروح عالية وبعيون أكثر بريقاً وبسلوك أقلٍ خضوعاً من أمثالهم في مدارس المُكلّا. انعكست أشعة الشّمس عليهم وعلى السّبورة السّوداء في نهاية الغرفة. أعطى شقيق السّيد محمّد، الذي يعمل مدرّساً في هذه المدرسة، القصيدة التّالية لأحد الطّلاب الصّغار، والذي بدوره قرأها بصوت شعري معبّر، بينما ثبّت أصدقاؤه أعينهم البنيّة علي وأبقوها مفتوحة دون أن ترمش خلال فترة الاحتفال:

القصيدة

«السّلام عليك ورحمة الله وبركاته. أما بعد: فبمناسبة وصول المحترمة الحرّة وبمناسبة تشريفها فناء مدرستنا الغرّاء، أنهض الآن لأرحّب بزيارتها السّعيدة لمنزل الشّرفاء النّبلاء ولبلد الأحقاف، ولمكان إقامة أسلافنا المبجّلين ولمكان ولادتهم. لقد أظهرت روحها وشجاعتها الرّاسخة بزيارتها هذه، فهي المرأة الأولى التي قامت وبمفردها بزيارة منطقة حضرموت دون أيّة رفقة من الإناث، ودون أيّة مساعدة من قومها، وتجوّلت وانتقلت من مكان لآخر وسافرت كل هذا السّفر بمفردها.

لـم يخبرنا التّاريـخ يوماً، بقدوم امرأة من الغرب بهـذه الطّريقة لأرض حضرموت، فهي المرأة الأولى التي داست هذه الأرض ونجحت في السّفر. لذلك فإننا نحيّي الأمة التـي أنجبت هذه السّـيدة النّبيلة، والتي أسـهمت فـي تكوين هذه النّفـس الزّكية وهذه الرّوح الملهمة.

وأنـا، الكاتـب، أقف هاهنا لأمثـل إخواني طلاب هذه المدرسـة التّعليمية، سـائلاً الله عزّ وجل أن تحظى برحلة سـعيدة وبعودة مظفرة وأن ترافقها السّـلامة أينما حطّت وحلّت، وختاماً أقدّم أحرّ تحيّاتي القلبية».

عند نهاية القصيدة، غنّى الجميع، وكاد يوقعني الهجوم المفاجئ تماماً فقد أخبرهم السّيد للتَّوّ، بما أني المرأة الفرنجية الأولى التي قدمت حُريضة، فإن نصف يوم العطلة سـتخصّص لهذه المناسبة، ولذلك، على الأغلب، فقد تسللت إلى أغانيهم قوة خاصة لحمـاس كبير. فقد حفظوا هـذا الصّباح عن ظهر قلب، الطّـرق الأربعة المختلفة التي تسـمح للمرء بتنظيف نفسـه – موضوع ضروري ولكنه غير جـذاب؛ أما الآن فقد كان هناك إغلاق رائع للكتب؛ وتوقف للصّور؛ وكتب أخو السّيد بيتين من الشّعر ترحيبين على السّبورة:

«بوصولـك، قـرّت أعيننا وتحققـت أمانينا، فريا سـتارك أهلاً بك فـي منزلك، لك تحياتنا!

هذان السّطران لك من مدير المدرسة التّعليمية والتّثقيفية في حُريضة!».

بالفعل إنه شاعر مبدع، فقد ارتجل هذين البيتين للتَّوّ؛ اندفع طلاب مدرسة حُريضة في هذه الأثناء، وبصيحاتٍ مرحة للاستراحة تحت أشعة الشّمس الدّافئة، وسيتعفّرون فـي مـدّة وجيزة بالغبار ويطبّقـون ما تعلّموه من قواعد الوضوء. أما أنا والسّـيد فرجعنا للغداء ببيت المَنْسَب.

يـا له من بيت جميل مـن الدّاخل، بلونه الأبيض وبريقه ونظافته. وقد امتلأ الدّيوان في الطّابق السّـفلي مثل المَشهَد بالدّفوف والدّعامات المعتادة وبنباتات الزّينة المورقة

التـي تسـتعمل عادة في المواكب. جلسـنا في الطّابق العلوي فـي الغرفة ذات الأعمدة الممدودة بالسّجاد، ونظرنا إلى الكتب الموغلة في القدم، ثم ناقشنا الرّحلة إلى شَبْوة، تلك التي وضع عم المَنْسَـب خطةً للسّـير إليها اختلفتْ مـع كل الرّوايات التي رأيتُها، ولكننـي مع ذلك نسـختُها فـي نهاية هذا المجلد. حـوت تلك الكتب أيضـاً مخطوطةً متقنة فريدة عن أنساب أسياد عَمْد كتبت بخط جميل من قِبل المَنْسَب نفسه.

قال لي: «هنا، سترين كيف كتب إمام اليمن، والجامـع الأزهر في القاهرة ليؤكدوا ألقابنـا: ولكـن يحاول هؤلاء اليافعيّون في جاوة Java سـلبنا إياها، فمن وجهة نظرهـم أيّ إنسـان سـيُلقبُ بالسّـيد أو بالشّـريفة (إذا كانت إمرأة) أو بالحبيب (إذا كان طفلاً)، بغض النّظر عمّا إذا نُسـب إلى الرّسـول أم لا. ولكننا هاهنا نملك البرهان أنها وصلت إلينا بحق الانحدار من سلالته بأنا من سلالة النّبي وجميع المراجع تؤيد ذلك».

لقد بدأ نزاع الإرشـاد لليافعيين في جاوة في عام 1918 حول مدرسة في سنغافورة، والتـي وقفها الأسـياد لعامة المسـلمين واقترحوا بأن يسـاهم الجميـع بدعمها. ولكن الاقتراح رُفض، فقرّروا إبقاء المدرسة للأسياد فقط، ومن هنا بدأت العداوة. جاء اسم الإرشـاد من اسـم صحيفة كان الأسـياد يُهاجَمون من خلالها من قبل العالم محمّد بن عقش، صديق إمام اليمن، واسـع النّفوذ والمعادي للبريطانيين والذي - وفقاً لحسَـن، يزوّدنا بكل هذه المعلومات - وإذا قدّر له أن يحيى، فلن ترى معاهدة اليمن النّور.

تلك التي أيّدها الأسـياد، ونشروا أمامي مستنداتها الممهورة بأختامهم وبتواقيعهم، والكتاب الذي يحوي أسـماء الأسـياد مكتوباً بالأسـود والأحمر. رحلوا في الماضي البعيد - دون أيّ شـك بنفس وجوههم الطّويلة والدّقيقة، وبالحواجب البنّية المرتفعة قليـلاً عنـد الصّدغيـن، وبأعينهـم السّـاحرة النّاعمة، وبشـفاههم المكتنزة الحساسـة، وبأصابعهـم الطّويلـة وبلحاتهم الصّغيرة أسـفل الذّقن، كما كانوا ربمـا عندما توجهوا كنبلاء قبيلة قريش للالتحاق براية النّبي.

قـال المَنْسَـب: «سـلطتنا تُهدد الآن، ولكن من سـيحلّ محلنا في هـذا الوادي؟ من سيسـتطيع العيش بين البدو دون سـلاح مثلنا؟ وماذا سـيحدث عندما تقع كل السّـلطة

في أيديهم؟ هل سيعتنون بمدارسنا وكتبنا؟ كل ذلك سيصرف في الحرب واحداً ضد الآخر». وبالفعل فإن وادي عَمْد، والذي يعيش تقريباً مثل الحياة في انكلترا في عهد ألفرِد Alfred، لم ينضج بما يكفي ليخضع لسيطرة الأديرة.

لم نتحرّك بعد على الرّغم من تناولنا الغداء. أردت أن أمرّ بعَندَل قبل العودة لشِبام مهما كان وضع صحّتي سواء أكنت مريضة أم صحيحة، وأدركت أن ما يبدأ في فترة ما بعد الظّهيرة في المنطقة العربية من الصّعب انتهاؤه في نفس اليوم. جلس حَسَن على السّجادة المقابلة بهدوء أولمبي ثقيل، مجيباً على جميع التّساؤلات حول السّيارة قائلًا: «ستصل»، ولكنه لم يفعل أي شيء. أما السّيد علوي، الذي عاد معنا، فعليه تسوية بعض الأمور في منزله، وعلى السّيّد البدوي الآتي أيضاً، توديع إحدى زوجاته قبل الرّحيل.

«سأذهب معكم إلى شَبْوة»، هذا ما قاله.

برّر لنا: «يستهويني أيّ شيء جديد، ولن ندع سيدة مثلك - تسافر في بلدنا - تذهب بمفردها. أعرف البدو، ولذلك سآتي».

كان هو من جلب السّيارة أخيراً. أقلني مع المَنْسَب وأخيه بالسّيارة عند فناء بيتهم. أحضرا لي عباءة مطرّزة، بعد أن أخبرهم حسن عن مدى حبّي لهذه الأزياء، كما أحضرا ستة أوعية فخارية للسّيدين في المقعد الخلفي. وكرّس أطفال حُريضة هذا الجزء من نصف عطلتهم لتحيتنا بالهتاف والرّقصات. وعندما كنا نبدأ بالمسير تماماً، طلب مني أخو المَنْسَب طلباً أخيراً - إن كان باستطاعتي إرسال الرّسائل المكتوبة باللغة الحِمْيَرية مع ترجمتها للعربية، ليتسنّى له قراءة الألواح الحجرية التي وجدوها في الجوار؟ لقد وعدته بذلك، متأثرة ومسرورة، عندها مرّ ببالي رهبان «جارو» Jarrow الذين نسخوا مخطوطاتهم لتصل لإخوانهم البعيدين عنهم في ظل عهد الظّلمة الإنكليزي. وأيضاً فكّرت بملك اليمن، في القرن الرّابع عشر، الذي أرسل مبعوثين لأفغانستان كمقرئين ومعلمين للقرآن. كانت هذه عادات المنسوبين في حُريضة.

بعـد انطلاقنـا بمـدة وجيزة، نظـرت إلـى بلدتهـم الصّغيـرة ذات البـدو وبجروفها الصّخريـة مثـل سـيف داموكليـس Damocles فوقهـا وحقولهـا خاوية الأشـجار في الأسفل، بدت كأنها رمزٌ وقورٌ للتّعليم - هذه البقعة البنيّة اللون التي ستستمرّ بالعمران في المستقبل، المحاطة بالصّحراء والحرب من كل جانب، تعيش إيماناً نزيهاً أكثر من معظم الدّيانات وبحبّ سامٍ راقٍ يفوق أيّ حب دنيوي.



الفصل الثّالث والعشرون

عَندَل

«بنو كوش... شبا وحويلة وسبتة (شبوة)... ويقطان ولد... حضرموت ويارح، وهَدورام وأوزال (اسم صنعاء القديم)... وشبا وأوفير وحويلة... وكان مسكنهم من ميشا عندما تذهب إلى سَفار (ظَفار؟) جبل المشرق»

(سفر التّكوين، 10: 6-30)

رأينا عند مرورنا عبر رأس بير غمدان، حيث يلتف وادي عَمْد إلى الشّرق، شريطاً من الكثبان الرّملية يفصلنا عن عَندَل على المنحدر الشّمالي، على بعد حوالي ميل ونصف الميل خلف قرية تدعى القحوم Lakhûm. لم يكن لدى أيّ من فريقي أدنى رغبة بالذّهاب هناك، وتمنّوا دون شك، نظراً لتأخر الوقت، أن تمحى هذه الفكرة من فكري: ولكنهم لم يُبدوا أيّ احتجاج، وتساءلت إن كان بمقدور أي سائق انكليزي توجيه عجلة سيارته إلى المجهول بهذه البساطة دون اعتراض وتذمّر.

على أيّ حال، علي البربري يهوى ركوب الأخطار، مضيفاً إليها خطر احتفاظه ببندقيّته المحشوة بجانبه، والقابلة للانفجار بطلقاتها السّت تحتنا فيما لو ارتطمنا بأيّ شيء. كانت بندقيّة أميركيّة الصّنع - تُسمّى كما أظن رِمِنغتون[1] Remington متعدّدة الطلقات. كانت تُعامَل بلطف أكثر من معاملة معظم الأطفال، وهي دائماً آخر

(1) رِمِنغتون علامة مشهورة لأسلحة ناريّة أميركيّة تصنع في مدينة ماديسون بولاية نورث كارولاينا.

مـن يركب السّيارة وأول من يترجّل منها؛ وعلى الرّغم مـن أنّ عليّاً البربري كان رجلاً صامتـاً، لا يتحدث أبداً إلا عند تزويدنا بالمعلومات، ولا يمكن معرفة مشـاعره، فإنك ترى الرّقي في وجهه عند تعامله مع الأشياء الثّمينة.

ها هو ذا ينظر الآن إلى الرّمل الأملس أمامنا، الذي لم تدُسـه سـيارة من قبل، ويتجه نحـوه مباشـرة. إذا كان باسـتطاعتنا الوصـول إلـى الطّرف الأخـر من الـوادي، مارّين بالرّمال النّاعمة الطّرية في منتصف الطّريق، فكل شـيء بعده سـهل. قاد علي السّـيارة كخبير، مستفيداً من كل حافة صلبه ومارّاً بسرعة فوق الرّمال الهشّة الصّفراء. كان علينا التوقـف مـرةً وتوقع الاتجاه، ولكن لم تحدث حوادث مؤسـفة معنـا، وما زال الوقت باكراً في الظّهيرة عندما وصلنا لبضعة أكواخ طينية آلت إليها اليوم عَندَل «البلدة الأولى في حضرموت».

يقع القسـم القديم في شـرقي البلدة الحالية وقد ملأت أطلالـه الخليج الواقع على الجُرف؛ وامتد على روابٍ من الحجارة لحوالي خمسة فدادين أو ما يساويها. اعتبرها شـپرِنغر Sprenger موطن Antidal المذكور من قِبل پلينيوس Pliny. وقد أشـار إليها كلّ من البكري وياقوت (وكلاهما اقتبس من الهَمداني)؛ وابن خُردادِبه، الذي وصفها بأنها على تسـع مراحل من مأرب؛ وربمـا ذكرها ابن المُجاوِر الذي تحدّث عن عنترة، على بعد تسـعة فراسخ من شِبام على الطّريق الموصل لعدن، على أنها «المكان الذي سُـكن وازدهـر في الأيام الخوالـي، وأصبحت الآن قفراً». كما شـهد هنا امرؤ القيس، أمير كندة، العديد من الغارات، كما رأينا.

إن قاطنيها الآن من بدو باجابر، من قبيلة «المشايخ»، والتي كما يقال، لا تحمل السّلاح. اندفعـوا نحونا من أكواخهم المنخفضة، من دون ملابس تسـتر جسـدهم تقريباً. بدا الكثير منهـم كمـا لو أنهـم ينتمون للعـرق الدّاكن في الجنوب، مختلفين بشـكل كبيـر عن العرب السّـاميين. لُوحظ التّباين بينهم بطريقة طريفة من قِبل رجال كندة في الأيام الأولى للإسلام كمـا أخبرنـا المـؤرخ الطّبـري (ص 1220). فقد قاتـل أربعمئة رجل من السّـكون Sakun (قبيلـه من كندة) في الحـرب ضد الفُرس تحت لواء قائدهم معاوية بن حُديج وحسـين بن

نميـر في جيش سـعد بن وقاص. وعند اسـتعراض الخليفة عمر الجيـش وكما قال المؤرخ «لاحظ وجود شباب سود البشرة ذوي شعر سبط تحت راية معاوية بن حُديج، فتولّى عنهم الخليفـة مـرة تلو الأخرى، وعند سـؤاله: «ما لديك ضدّ هؤلاء النّـاس؟» قال: «لديّ بعض الشّـك حولهم، وليس في العرب من لا يروقني مثلهـم». (تظهر هذه الحادثة وأمور أخرى قله التّعامل والاتصال بين مكة وحضرموت في تلك الأيام).

قصـة أخرى عن قيس بن كليب، حاجب عمرو بن العاص فاتح مصر. الذي سـخر منه الشّاعر أبو المصعب البلوي قائلاً:

ولـيـسَ بـمـاجِـدِ الـجـدّات قيسٌ ولــكــنْ حـضـرمـيـاتٌ قـمـاءُ

ولاختتـام هـذه المادة، سـنورد ما قالـه المقدسـي (Bib. Geog. Ar. III, 87 and 103)، الذي ذكر ولع رجال حضرموت بالعلم وبشدّة تعصّبهم ولونهم الدّاكن.

لكـن نعود الآن إلى رجـال عَندَل؛ اندفعوا الآن باتجاه سـيارتنا، ورحّبـوا بنا بهدوء واتّزان، وذلك لأن معظمهم سـافر عبر الأراضي الصّومالية والإريترية ورأى أوروبيين من قبل. لم تكن النّسـوة كذلك، فقد تجمعن بزيّهن الأسـود وبعثن برسـول ليسأل عن إمكانية قدومي إليهن والسّـماح لهن برؤيتي. اقتربت واحدة منهن إلى السّـيارة، ورأت انعكاس صورتها عبر الطّلاء اللمّاع فهربت صارخة: «توجد امرأة منقّبة هنا».

قدِم إلينا قائدهم؛ أظهر وقاره بين سرب الرّجال أنصاف العراة بلباسه التّام وعمامته الصّفـراء، كان ذا لحية بيضاء خفيفة وعينين قاسـيتين لاذعتيـن جعدتين. بحث جاهداً ليجد ما يغطّي به يده كي لا يلوّثها عند تماسها مع يدي عند المصافحة؛ فأمسك بأقرب مئزر - وجده غير كافية - وقام بأفضل ما يسـتطيع من عمل سـيء، فصافحني وابتسم. أخذنا البدو بموكب صغير من بين بيوتهم التي تقارب العشـرين منزلاً إلى الآثار، التي تقـع علـى ثلاث هضاب صغيرة، لم يكن هناك الكثير ليرى سـوى قطعة أو قطعتين من جدار، وحوض صغير، ثلاثة بخمسـة أقدام، وثلاثة آبار كتلك التي في المَشـَهد ولكن أصغر حجماً، واحد في الجوف قرب البلدة والاثنان الآخران على الرّابيتين القريبتين. أما الرّابية الثّالثة البعيدة فلم تحوِ أي بئر.

أخبرني البدو عن جرّةٍ مملوءة بالذّهب والمجوهرات اكتشفوها عند حفرهم تحت الجدران الأثرية في الرّابية القريبة، وباعوها في دَوعَن: وقد عثروا عليها وهم يحفرون أسفل الجدار المهدّم. كُسي المكان بأكمله بقطع وأجزاء من الفخار، أغلبها خشن للغاية ومن الصّعب تحديد زمنه. وجد سير أوريل ستاين Sir Aurel Stein في ساحل مَكران Makran كسرتين صغيرتين ترجعان إلى القرن التّاسع أو العاشر مطليتين بطلاء أخضر يشبه ناتج الأفران. تبعثرت العديد من القطع الزّجاجية الخضراء هنا وهناك، ولا يوجد أي أثر يدل بشكل قطعي على ما قبل العصور الوسطى الإسلامية؛ تتناسب حقول الآثار مع ما اقترحته مراجع الأدب الشّحيحة - بازدهار بلدةٍ إسلامية في مكان ما في القرن التّاسع أو العاشر الميلادي. قطعة طينية وحيدة ترجع للقرن الخامس عشر - وهو دليل ضعيف للسّعي والبحث وراءه[1]. وجدت خرزة من العقيق ولؤلؤة صغيرة لها تجويف لتعقد من خلاله، كالتي ترتديها الفتيات في حلق أنوفهن. لكن يوجد هناك قليل من المزيد؛ وما يحمله كنز عَندَل لا بدّ أن يكون مدفوناً تحت الأرض، بينما تكاد فترة ما بعد الظّهير تنقضي.

شكرت الزّعيم العجوز.

قال لي: «عليكِ أن تأتي ثانية، عليك المجيء والبقاء وسنحفر من أجلك».

قلت له: «وإذا وجدتم الذّهب فهو لكم، وإذا وجدتم نحاساً تعطوني إياه».

لاقى اقتراحي ترحيباً وحماساً كبيرين. وغادرنا عَندَل باتجاه الشّرق عبر شاطئ الوادي الشّمالي، تجاه اتساع وادي حضرموت.

كان الوقت متأخراً للوصول إلى شِبام، فقرّرنا قضاء الليله في بلدة هينن القديمة في الجانب الشّمالي من الوادي الكبير. عاش الأخوان ابن مرتق Ibn Martak، هناك ودعواني فيما مضى. لقد قاما قبل يوم أو يومين بزيارة عَندَل بالسّيارة، وها نحن نقتفي آثار عربتهم موفرين على أنفسنا متاعب كثيرة.

---

(1) هذا التاريخ وفقاً لاعتبار السّيد هوبسون Hobson في المتحف البريطاني.

عبرنا الزّاوية الشّمالية الغربية من الوادي، باتجاه الاتساع في وادي حضرموت، تحت جدران لخماس وشِريوف، «البلدتان الأكثر شهرة بين البلدات المتناحرة» كما أخبرني السّيد علوي. تم حفر الخنادق هنا، فهدنة الثّمانية أشهر التي عقدت على شرف زيارة سلطان المُكلّا تكاد تنقضي، والكل مشغولون بالتّحضير للحرب القادمة. ظهرت لخماس بطرقها المغطاة وبأبراجها المبنية حديثاً كلوحة قديمة لبلدة من العصور الوسطى. كان في الكثبان التي حولنا أبراج مراقبة وخنادق، إنهم رجال لخماس الذين قتلوا أزواج الرّاعيات الثّلاث الجميلات اللاتي قدّمن لنا ثمار شجر العِلب في طريق مغادرتنا. ابتسم السّيد علوي بهدوء قائلاً: «دون جنود، ولا سلاح، ماذا باستطاعتنا فعله إزاء ذلك؟» كان فيلسوفاً لم يؤرّق الأمر المحتوم مزاجه الهادئ اللطيف.

غادرنا ديار البكري Dhiar al-Buqri وأصدقاؤنا من جاوة Java عن يميننا، وسرنا بينهم وبين أعدائهم تحت الجُرف الصّخري نحو الكثبان الرّملية المفتوحة لوادي حضرموت. عندما سلك علي البربري طريقاً جانبية منحدرة صفراء على عجلتين، انفتح باب السّيارة ورماني بلطف على الأرض. اعتقدت أنّ السّيارة ستنقلب فوقي فزحفت مستجمعة أفكاري للنّجاة. وعند وقوفي كان علي البربري قد استعاد التوازن وأوقف السّيارة. أما حسَن فقد وثب خارج السّيارة لمؤازرتي بذراعيه، فيما حاول السّيدان الهائجان والعالقان في المقعد الخلفي الخروج.

كان الضّرر الوحيد الحادث ضياع لؤلؤة عَندَل، التي كنت أمسكها بيدي لحفظها ولكنها أفلتت عند سقوطي، هذا بالإضافة إلى الصّدمة الحادّة لشعور كل مهتم منهم إلا شعوري. تأسّف كل من السّيد البدوي وحسن لضياع اللؤلؤة، وعجبا من هدوئي ومن الطّريقة المحترفة التي سقطتُ فيها من السّيارة، عبّرا عن ذلك أثناء تلمسهما للأرض بحثاً عن اللؤلؤة؛ لكن السّيد علوي وبعد هذه المغامرة الأولى، استعاد رباطة جأشه واقترح بأن نعتبر اللؤلؤة بمثابة فدية وأن نتركها لجنّ الكثبان الرّملية. نثر المساء بعباءة من الضّوء الأصفر فوقنا؛ وبدت حواف الجُرف الصّخرية واضحة حادّة تحت أشعة شمس الغروب. صعدنا ثانية للسّيارة واقتفينا أثر عربة ابن مرتق Martaks نحو بلدته هينن، تحت الجدار الشّمالي.

خيّمت في هذا المكان تحت ضوء المساء قافة من شَبْوة، بركت جمالها قبالة المنازل على الرّمال. خيّمت سكِينة الصّحراء على كثبان الوادي، وهينن هي البلدة ما قبل الأخيرة تجاه الغرب، وحول منازلها المعدودة وأشجار نخلها الباسقة يراودك شعور بأماكن أوسع وقوى أكبر من تلك التي تمتلكها. تتضاءل مع مرور الأيام جرُفها الغربية في المسافات، وتضمحلّ تحت حرارة السّماء. تقع البلدة القديمة وجزء من الحديثة أيضاً على خليج الجُرف الخلفي، ولكن يقع منزلا ابن مرتق المربعّان وحدهما تحت جرفهما الصّخري الذي يبرز عمودياً ويزداد منظره غرابة في ظلمة الليل خلف واجهات المباني المضاءة تحت شعاع المصباح الكهربائي فوق باب آل مرتق.

كان أبناء مرتق Martak هؤلاء أربعة إخوة، وقد كسبوا ثروتهم من باتاڤيا[1] Batavia. يقيم اثنان منهم بعيداً هناك، بينما بقي اثنان منهم في أرض الوطن، ورحّب بنا هذان بحرارة هنا، وأدخلاني غرفة الضّيوف ذات الخمس نوافذ وبابين والمدهونة بألوان متعدّدة على طراز باتاڤيا. كان لديهم عدد كبير من الضّيوف، فسّرا ذلك، في هذه المحطة من الطّريق الغربي، بأنهما بنيا هذا المنزل لهذا الهدف، وأبقيا حريمهما في البناء المربع الآخر القريب منه.

سألا أصدقائي آل السّيد عني: «هل ستمانع، النّزول إلى الدّيوان ؟ فالبدو يودّون رؤيتها».

قال حسَن عند ارتدائي حذائي: «إنهما يمرّان بوقت عصيب، إن أبناء مرتق هم الأغنياء الوحيدون هنا، وجميع البدو من حولهم. يستطيعون في أي وقت الهجوم عليهم وسرقتهم، فما بوسع أبناء مرتق سوى شرائهم عن طريق الهدايا ومعاملتهم بلطف دائماً حتى ولو لم يرغبوا بذلك».

بالفعل، عند نزولي للدّيوان، وتمنّيت السّلام لرجال القبائل الجالسين حول جدران الدّيوان الثّلاث الواضعين رجلاً على رجل، لم أستطع منع شعوري الذي يحدّثني

---

(1) باتاڤيا هي مدينة جاكرتا الحالية عاصمة إندونيسيا، وكانت تسمّى باتاڤيا إبّان الاحتلال الهولندي لجزر إندونيسيا.

بأن هذه المناسبة واحدة من تلك التي ربما لن يفضل فيها الشّابان المرحان التّصرّف بلباقة وأدب. ينتمي البدو لقبيلة نَهد، الذين عاشوا بروح من الوحشية وباختلاف كبير عن استقبال باصُرّة في دَوعَن. لا يوجد هنا شخص يمثلّ السّلطة - كانت الهاوية التي فرّقت البدو عن رجال القرى ظاهرة للجميع. يشبه هذا التّجمّع، كما فكرت، التّجمّع في قصر في أيام الثّورة الفرنسية مع صاحب المنزل الغاضب.

رفع النّهدي المتفاخر نفسه وجاء للجلوس بجانبي. كان وجهه كريهاً ومليئاً بالبثور، وبدا الخنجر الذي في حزامه مؤثراً في معدته الضّخمة العارية، وراح يتحدّث بصوت عالٍ وأجشّ، بشكل مختلف عن كياسة رجال القبائل. لم يعجبني، وبدأت بالتّفكير أنني، ومهما جرى، لن أكون مهذّبة معه، خصوصاً بعد تباهيه ومحاولة التّذاكي عليّ بأسئلته أمام الحاضرين من قبيلته.

سألتُه: «هل أنت أمير ؟».. عندما فكرت بأنّ لدي إجابات وافية لسؤالي هذا. تراجع للحظة، كونه نصف عبد، وضحك بعض المستمعين.

قال: «لماذا تسألين هذا السّؤال».

«دخلتَ وكأنّ البيت بيتك، وقدمتَ وجلست بجانبي - فحسبتُ أنك إما أمير أو ملك، أو ربما فرد من بيت ملوك كِندة ؟».

عمّ الضّحك الآن، وغادرتُ المجلس بعد أن كسبت عدواً واحداً، وأدّبته بذلك. أعادني مضيفي الشّاب لغرفتي بعد أن تنفّستُ الصّعداء.

إنه العريس نفسه الذي قابلته في الهجرين عندما مررت هناك، وزوجته معه الآن في البيت المجاور. لقد أتت على ظهر الجمل، حسب عادة الزّواج، ولكنه قدم بالسّيارة. صعدتُ للأعلى لرؤيتها، ووجدت طفلة جميلة في الرّابعة عشرة، زيّنت زينة عروس بكل قلائدها وحلقها ومتألقة ومتميّزة بين باقي السّيدات الأخرى.

قلتُ لمضيفي عند ابتعادنا: «إنها عروس ساحرة الجمال».

تبسّم وهز قليلاً بكتفيه.

قال لي: «ماذا باستطاعتك عمله معهن بعمر صغير كهذا؟ نساؤنا لا يتركوننا بسلام حتى نتزوّج».

قال لي بعد العشاء، إننا هنا نستمع للرّاديو الوحيد في حضرموت، ونسمع أخبار إذاعة لندن.

جلسنا في التّراس المطلّ على غرفتي وجهزنا الرّاديو. كان البدو، الذين سُمح لهم بالدّخول لرغبتهم بالاستماع، يجلسون القرفصاء مشكّلين حلقة دائرية عندما خرجت. بالكاد ترى أكتافهم الدّاكنة في ظلمة الليل - تلمع هنا وهناك بعض الأساور والخناجر. حاول الأخوان التقاط موجة إذاعة لندن بين ضجة الإذاعات المتنقلة في العالم. كان تحتنا لطخات الجمر وغرغرة جمل ضعيفة دلّت على مكان مبيت قافلة شبوة.

كسر الصّوت القادم من لندن الصّمت العربي. وبما أنها ليلة الأحد، كانت الإذاعة في نقل حي من كنيسة أو كتدرائية. جملة مبهمة، جاءت بعدها كلمات مقدّسة وواضحة. «حفظك الله، ورعاك في جسدك وروحك». هذا كل ما سمعته، ثم ابتلعت ضجة غريبة كل شيء، وتركت صوت مبهم للصّلاة. ولكنني جلست اهتزّ، حرّكت مشاعري راحة تلك الكلمات وملأني الشّعور بالوحدة. وفي جناح الظّلمة، استنفدت قواي، وبكيت. استمرّ الرّاديو ببث تلك الضّجة.

قال أحد البدو: «إن كانت هذه هي صلاتهم، فصلاتنا أفضل».

حرّك ابن مرتق Ibn Martak إبرة الرّاديو باحثاً عن إذاعة عاصمة أوروپية أخرى: صدعت خلافات رهيبة هذه الليلة العربية. رجوته بأن يتوقف، ثم رجعت لغرفتي المليئة بالزّخارف الجميلة المبهجة. توقفت مولدة الكهرباء بعد ذلك فوراً، وأنا أفتح شباك واحدة من النّوافذ الخمس المضادة للرّصاص، وغرقت واجهة مبنى الحريم المضاءة في الظّلمة مع الجُرف خلفها. استلقت الجمال النّائمة تحت النّجوم، مشكّلة دائرة بنيّة وهبّت خلفها أمواج بنيّة من الرّمال بفعل رياح الصّحراء العاتية.

* * *

الفصل الرّابع والعشرون

الانهيار في شِبام

نـزلـتُ على آل المهلّب شاتياً غريباً عن الأوطان في زمن المَحل

فما زال بي إكرامهم واقتفاؤهم وإلطافهم حتى حسبتهم أهلي

(ديوان الحماسة)

لـم يكترث مضيفاي المرحان والسّعيدان بمشكلة البدو، بل هما يعيشان بابتهاج وفرح كما يعيش قاطنو المناطق المجاورة للبراكين أو المناطق القابلة للانفجار بأي وقت. طلبا مني العودة، فقلت لهما إني سأنام هنا في طريقي إلى شَبْوة، وذلك لأني مازلت أعتقد أنّ مرضي هو الملاريا، وآمل في التّحسّن. دعانا الرّجل الهزيل النّحيل النّموذج التّقليدي للحضرمي صاحب النّادي، إلى قريته القريبة. أحبَّ هذا الرّجل التّكلّم عن الأشياء التي تعلّمها وكان يجمع، كما أخبرني، الأسماء الإنكليزية للأمراض، وهو ما بدا لي نموذج بحث مملّ وغريب، واكتشفت أنه لا يملك أية فكرة أنّ مادة الكينين جيدة لمرض الملاريا، فاهتمامه لا يشمل أي شيءٍ عن العلاج.

غادرنا في السّاعة الثّامنة صباحاً، واتجهنا شرقاً عبر الكثبان الرّملية على طول حافّة الوادي. ملأتْ أشجار النّخيل هذا المكان قبل ستين عاماً، ولكن الرّمال، مع المعارك المحلية في الماضي، لم تبق لها أي أثر. تلك الرّمال التي جاءت للوادي من الصّحراء الغربية كأمواج المدّ والجزر بلونها الضّارب للحمرة وبملمسها النّاعم والذي يفوق بنعومته كل رمل شاهدته من قبل، فلا تشعر بخشونة حبيباته بين أصابع يدك، دُفن

حصن قبيلة نهد تحته حتى كوى الإطلاق، وبدت أوراق أشجار العِلب الممزقة والمشوّهة ميتة عند حوافه.

بدت في النّهاية أغصانها الصّفراء النّظيفة أكثر صلابة، ونمت عليها شجيرات الحَمض (*Salvadora Persica*) ونبتة الأراك الخضراء اللماعة الجيدة للجِمال؛ تجمع كل أجمة تحتها الرّمال مشكّلة رابية خاصة بها. وتُقطع أغصان هذه الشّجيرات، وتفرّق عند نهايتها وتستعمل كفرشاة للأسنان. تختبئ بهدوء في مخبأ واحدة من هذه الأجمات، ثلاثة طيور على أرجلها الطّويلة تدعى طيور السّمان، ولكنها بدت لي من نوع طيور الزّقزاق، ولكن عندما سحب علي البربري بارودته طارت في الحال بأجنحتها المرقطة.

«أغانيها» قال السّيد علوي: «تغريدها، أجمل من أي طائر آخر في حضرموت».

واجهنا بعض المشاكل مع محرّك السّيارة، وعند محاولة علي البربري إصلاحه تجوّلت حول بيت وحيد بحديقة نخيل مسوّرة. دخلت عبر أحد الجدران المتهدّمة. بدت أشجار النّخيل فتيّة ومبهجة، تطعنها أشعة الشّمس كالسّيوف. كان البيت نفسه حصناً، بنوافذ وفتحات إطلاق مرتفعة وبدعامات عند كل زاوية، ويوجد بالقرب منه بناء آخر مشابه ولكن كلاهما كان مغلقاً بجدار.

قدِم حسَن الآن غاضباً. وقال لي بروح من النّضج يجب علينا ألا نلعب بالنّار، مؤكداً عدم وجود أي ثغرة للدّخول، ولكنني قد وجدت لتوّي باباً خلفياً صغيراً، دخلت عبره لالتقاط بعض الصّور.

أطلّت رؤوس من النّافذة مثل عفاريت العُلب عند شبكية النّوافذ صارخة: «اصعدي إلى الأعلى».

تردّدتُ قليلاً عندما أتى السّيد بدوي الذي كان غاضباً أيضاً، عبر الباب وصاح بالرّفض بصوت مؤدّب نحو النّافذة العليا، ورجاني بالإسراع لركوب السّيارة. التقينا عند مغادرتنا الحديقة الخارجية، ببدوي عائد، بدا مندهشاً وسألنا عمّا كنا نفعل،

واندهش أكثر عندما مددتُ يدي لمصافحته.

سأل: «هل أتيتِ لأخذ كنوزنا؟»، وبدا مندهشاً ثانيةً لمّا ضحكت.

أخبرته عن التقاطي لبعض الصّور لمنزله.

فقال لي: « عليكِ دفع ثمن ما فعلت».

فعلّقتُ قائلة: «أنت الذي يجب أن تدفع، ألا تدفع للذين سيجعلونك مشهوراً؟».

بدا البدوي مشتتاً. كان بدوي يافع آخر، ذو شعر مسدول على كتفيه العاريتين، يقف بجانب السّيارة التي أعاد علي البربري تشغيلها للتّوّ. وعندما صافحتُه نظر مرةً إلى يده ومرةً أخرى إلي، وأهمل ردّ تحيتي وسلامي. تعتبر هذه إشارة سيئة دوماً، وبدأت أرى حماس رفاقي السّادة يتزايد للرّحيل. ابتعدنا بالسّيارة قبل أن يخلص البدويان لأية نتيجة حولنا.

وبّخني السّيد عند ابتعادنا قائلاً: «كان عليك عدم الدّخول، إن هؤلاء النّاس معروفون بعيشهم على نهب المارّين وحدهم عبر الكثبان الرّملية. وقد استطعتِ الخروج سليمة من هناك، لكوننا معك ولكوننا سيّدين».

اعتقدتُ أن سبب نجاحنا في الخروج هو نتيجة لاندهاش البدويين لشكلي ولمصافحتي لهما، فالمصافحة لها وزنها في حضرموت، فهي إجراء تمهيدي لإنشاء علاقة ودّية. ولكنني لم أناقشهم بوجهة نظري، أما علي البربري فقد أسهم بنظرية ثالثة: كان البيتان المتجاوران، جزءاً من حصن واحد، ولكن دبّت خلافات بينهم، والآن كل حصن مشغول بالتّحضير لمحاصرة الآخر، فلا وقت للغرباء المارين. جوا Juwa هو اسم المكان.

سألتهم: «ماذا كان حدث لو دخلنا هناك ؟».

قال السّيدان: «سيأخذون أموالنا. ولكن ليس الكثير جداً».

سلكنا الآن طريقاً مختصراً عبر الكثبان الرّملية حتى وصلنا القَطن في الجانب

الجنوبي، دون حوادث أخرى سوى لقائنا مع ساعٍ حافي القدمين ثبّت مئزره، ويمسك عصاً بيده ورسالة باليد الأخرى. لم تكن الرّسالة موجهة إلينا، بل إلى هينن. ذهب الرّجل ذو الكتفين ذواتي اللون الأرجواني المتلألئ تحت أشعة الشّمس. بهذه الطّريقة، يُرسَل البريد عبر المقاطعات، ولم أسمع أبداً عن أيّة رسالة أخطأت هدفها - على الرّغم من صعوبة الحفاظ على السّرية بهذه الوسائل. بعد مضي السّاعي في طريقه، أمضينا وقتاً طويلاً نتساءل لماذا على سيئون أن تكتب إلى هينن، وما هي فحوى الرّسالة؟

لقينا ترحيباً حاراً عند وصولنا للقَطن.

«آنستُم anistu، لقد أسعدتمونا بقدومكم».

ابتسم لنا مدير التّنظيم؛ ووقف لنا خادم ليصافحنا كلّما نزلنا بمكان؛ حتى السّلطان نفسه حيّانا بتحية جليلة خجلة. أما علي البربري فقد رافقنا، بعد أن ركن السّيارة، وقبّل يده.

قال السّلطان إنّ البدو جاهزون للرّحيل لشَبْوة. كان عليهم الانتظار لخمسة أيام حتى شعرتُ بتحسن؛ كانوا يطلبون الكثير من المال، الذي يشعرهم بتحسّن كي يلتزموا معنا وللتصرّف بعقلانية. قال سلطان القَطن، أنهم سيأخذونني من شَبْوة إما إلى اليمن أو إلى عدن حسب رغبتي - رحلة تستغرق بمجموعها حوالي الشّهر. فاقترحتُ اتّباع الطّريق الشّمالي إلى نَجران؛ وصلتْ للتّوّ رسالة للسّلطان من وكيل ابن سعود قائلة إنه كان آمناً، ويمتد هذا الأمان عبر بلدان غير معروفة لي. يخضع البدو هناك تارة لابن سعود، وتارة إلى إمام اليمن، ولم يجلب الهدوء لطرق الصّحراء سوى السّلام الحالي.

قال السّلطان: «يبقى لدينا بعض الخوف، لا يمكنك الذّهاب هناك».

بهدوء وودّ، كانت كلمته نهائية لا رجعة فيها، وتساءلت عن ماهية هبة السّلطة، والتي تجعل كلمات رجل ما تعني أكثر من كلمات رجل آخر. ربما الحزم الدّاخلي والشّجاعة لمواجهة وتحمل المسؤوليات والقدرة على اتخاذ القرارات باستقلالية؟ إنها مزيّة تقبلها حتى الحيوانات وترضخ لها. تركنا أمر الطّريق ما وراء شَبْوة وتحدثنا

نظرياً فقط عن تلك الرّمال الغربية.

قال لي السّلطان، سنجد خليطاً عظيماً من الأديان بين القبائل بين حضرموت ونجران. يقبع بعض الجعفريين أو الإسماعيليين هناك - من بقايا الزّمن الذي أرسل فيه رئيس الحشّاشين، شيخ الجبل، دعاة الضّلالة إلى اليمن. كما لا يزال هناك جماعة الإباضية المتشدّدين.

إنّ للإباضيين تاريخهم في حضرموت. اشتُقّ اسمهم من الرّجل الغامض في القرن التّاسع عبد الله بن إباض، وطائفتهم موجودة بشكل رئيسي في شمال أفريقيا وعُمان، وهم متزمّتون باعتدال ويرتبطون كما يبدو بعقيدة الخوارج. في القرن الثّامن، سنة 129 للهجرة أخذ أحد أتباعهم، والمؤمِن بأن لديه رسالة، بمشورة رؤساء الطّائفة في البصرة، وقدِم إلى حضرموت. كان اسمه عبد الله بن يحيى ويُعروف بطالب الحق، امتلك هو ونائبه أبو حمزة الجنوب الغربي لجزيرة العرب حتى المدينة ووادي القرى، حيث خاضوا معركة وهُزموا فيها أمام أربعة آلاف رجل تحت لواء ابن عطيّة[1]، المرسَل من قِبل الخليفة مروان. قُتل طالب الحق وأبو حمزة في المعركة، ولوحِق وذُبح العديد من اتباعه الإباضيين، واستطاع بعضهم الهرب إلى حضرموت ولجأوا إلى عامل طالب الحق، المحتفظ بالسّلطة في ذلك الوقت. ولكن ابن عطيّة طاردهم، فخرج المتمرّدون لملاقاته على بعد أربع مراحل من حضرموت، على الأغلب غير بعيد عن شَبْوة، لكونه الطّريق الرّئيسي؛ لكن ابن عطيّة زحف ليلاً وطوّقهم واستولى على شِبام من خلفهم، وعلى جميع مخازنهم. كان همّه الأكبر وشغله الشّاغل تهدئة أمور المقاطعة، حتى أتاه أمرٌ ملحٌّ من الخليفة أجبره على الاتجاه شمالاً وبسرعة مع قليل من الجُند، فقتله بعض أفراد قبيلة مُراد في الجوف، الذين بقوا يجوبون الأرض المدمّرة، انتقاماً لموت أحد أقاربهم.

لا بدّ أن الإباضيين الذين ذكرهم سلطان القَطن قد انحدروا ربما من أولئك المتمرّدين قبل ألف ومئتي عام، والذين بسببهم بقي هذا الجمود غير العادي في هذه الأرض العربية. التي لم تتغير بدخول السّيارات إليها بعد، ولا تزال خرائط الجغرافيين القدماء أكثر كفاءة

(1) هو عبد الملك بن محمّد بن عطيّة السّعدي، قائد جيش الخليفة الأموي مروان بن محمّد.

من تلك التي وضعها المعاصرون. أمضى الأخوان مرتق Martak ليلتهما في هينن بالنّسخ مـن كتاب الهَمْداني خاصتي كمرجـع لعائلتهم يعود لما يقارب الألف عام مضت. أخبرني سلطان القَطن أنّ أجداده عندما قدموا من مرتفعات قبيلة اليافعي قبل أربعمئة عام، استقرّوا فـي البداية فـي القحوم Lakhûm القريبة مـن عَندَل ولذلك عاملوا عَنـدَل «كالبلدة الأولى لحضرمـوت»، كمـا فعل أجدادهم من قبلهم. كما أخبرني عـن قبيلة جعدة التي تقطن الآن وادي عَمْد، بأنها قبيلة متحضّرة للغاية ولقد قدِمت من اليمن قبل قرنين فقط.

غادرتُ السّلطان على أمل العودة في غضون خمسة أيام. قال لي حسَن: «سيذهب عنك مرضك الآن، فلا شيء أفضل للحمّى من صدمة مفاجئة كالسّقوط من سيارة».

لاحظْـت أن الحـادث لم يُذكر أبداً خـارج أفراد مجموعتنا. لقـد اعترفت بخطأي، بعدم الانتباه بشـكل كاف للباب، وهذا ما أمتعهم، وأشـار إليه السّـيّد البدوي بتعجّب مـراراً - ولكـن فقط عند اجتماعنا لوحدنا؛ فقد احتفظنا بسـر تأسـفي فيمـا بيننا. على الرّغم من سقوطي وقيمته الدّوائية فقد انهرت حالما وصلت شِبام.

تركنـي حسَـن هناك. إنه ينتمـي لقبيلة الكثيـري، وكل دقيقة يمضيها وسـط أراضي وضيافـة منافسـيهم قبيلـة القعيطي تسـبب ألماً له. نظر حـول البنغل الهـادئ والمفعم بالهواء المنعش وكأنه كمين. «غير متحضّر»، هذا ما قاله وانتزع منشـفة وجهي ليمسح بها كأسي. أمّا مضيفاي، حسين وسعيد الهادئان والودودان، فقد تحمّلاه بصمت. وقرّر صديقاي السّيدان قبل أن يتسبّب بأية مشاكل أخذه إلى سيئون. سيعودون جميعهم في غضون بضعة أيام. لقد غادروا وكتبوا لي من سيئون شهادة ودودة، أقدّرها للغاية:

«هذه شـهادة للآنسـة فريا سـتارك، الإنكليزية والمسـافرة في حضرموت، المطّلعة على القانون والمهتدية بالدّين، والمتربية في منزل شريف، المرأة الأولى التي سافرت وحدهـا مـن إنكلتـرا إلى حضرمـوت - وهي سـيّدة التّحمّـل والثّبات في السّـفر وفي المعاناة من الرّعب والخطر. نشكرها شكراً جزيلاً».

«سيّد علي العَطّاس البدوي»

في هذه الأثناء، كان كلٌّ من حسين وسعيد، يحيطانني بكل مودّة ولطف. «ألسنا نحن بريطانيين؟» هذا ما كانا يقولانه كلّما شكرتهم. «لقد ولدنا في سنغافورة. ملِكُك هو نفسه ملكنا».

كانا يأتيان كل يوم لرؤيتي في منزلي أحادي الطّابق (البنغَل)، حيث أرقد مع مرضي المتزايد سوءاً. اكتشفت أخيراً أن مرضي لم يكن الملاريا بل كان هذا الشّيء خللاً متعلّقاً بالقلب. عالجته بين الفينة والأخرى بحقن الكورامين، فكنت أستلقي بعدها بهدوء؛ ولكنّ تأثيرها بدأ يضعف تدريجياً.

قدّم لي مضيفي خادم حسين الشّخصي، يَسلم Iuslim. لقد تربّيا سوياً كما هو متعارف عليه في حضرموت، وكان حتى عند تحدّثه عما شاهد أو فعل فلا مكان لكلمة «أنا» ولكن دائماً يقول «أنا وحسين». إنه مكرّس له، كما أنه كان مرِحاً، محبّاً، وحنوناً ولا يعتمد عليه وفاتن؛ بني اللون وذا حركات جميلة وسريعة كقط، وفم كبير ويضع رأسه بجانب واحد منه عندما يتكلم، وله عينان ناعمتان تلمعان عند سماع طلقة أو صراخ في الوادي؛ عندها يندفع إلى الشّرفة ويأمل بنشوب معركة. له صوت جميل، أيضاً، يشبه الأوروپيين أكثر من العرب، ويغنّي عند استحمامه أوعند غسيل أطباقي في الحوض أسفل نافذتي.

أخبرني بأنه يخدم الضّيوف في البنغَل والطّيارين البريطانيين الذين غالباً ما يحطّون بطائراتهم في شِبام. استحسنهم على الرّغم من أنهم «لا يتكلمون بشكل لائق عند ذكر النّبي أو رسول الله (محمّد)».

فقلت له «أحياناً، ربما لم يتربّوا تربية دينية جيدة».

قال يَسلم: «الأمر كذلك، عَنبَر، العبد الأسود أسفل الدّرج، يتوارى عن أنظارهم عند قدومهم، خوفاً من خسارة دينه. ولكنه لا يمانع وجودَك»، أضاف قائلاً: «فأنت لا تشربين ولا تدخّنين، ولا تذكرين رسول الله دون قول «صلّى الله عليه وسلّم» ».

في اليوم الثّالث، عند اشتداد مرضي، أُرسل خادم أخر يدعى سالم للمساعدة.

لقد استلقيا وهما يتدثران بالبطانيات خارج باب منزلي، وقدّما لي القهوة بين الفينة والأخرى خلال الليل.

كنت أفقد قواي شيئاً فشيئاً. لم يكن بمقدوري رؤية السّاعة، ولكني اسَتمع إلى النّبضات الضّعيفة في أذني كموجة حياةٍ تتكسّر على شاطئ مجهول، وانتظرها حتى تتوقف.. عندها، لن أكون هنا لأعلم ذلك. الفكرة بحدّ ذاتها كانت مرعبة وغريبة، كما يجب أن تكون كل مغامرة جديدة. لم تكن ذنوبي تلك التي ندمتُ عليها في ذلك الوقت؛ بل عدم إنجاز أمور عدّة – حتى تلك الحماقات التي ربما اقترفها المرء ولم يكن عليه ذلك. لم أتجشّم عناء التوبة أو الأسى، ولكن بدلاً من ذلك، انشغلت بضوء هادئ، رأيت من خلاله خريطة حياتي كما هي، وجمال بعض لحظاتها الصّغيرة المنسية:

الشاي على مرج إنكليزي في الصّيف، وزهور الجنطيانا في الهضاب، والرّوائح العطرة الجميلة لغابات الصّنوبر في الجنوب – كل الأشياء الحميمة والصّغيرة التي تنتمي بحلاوتها وجمالها لهذا العالم. حاولت التّفكير بها لأحافظ قدر الإمكان على صفاء عقلي وهدوئه. يرفع سالم بين الفينة والأخرى رأسي لإطعامي، وبقدر كبير من اللطف كأي ممرّض متمرّس؛ كان خادماً مثالياً، مخلصاً ومتفهماً. لديه وجه دميم ساحر، طويل بذقن ضيق، والفم الكبير الحسّاس الشّائع في حضرموت، وجبهة عريضة جعلتها قبعته البيضاء المنزلقة للخلف لأبعد نقطة من رأسه الحليق، تبدو أكثر عرضاً. كان ينظر إليّ بحنان لا محدود ويتحرّك بهدوء.

ظننت أنه لم يبقَ لي على قيد الحياة إلا القليل. كنت خائفة أيضاً من الغيبوبة وأن أدفن وأنا على قيد الحياة. يحدث هذا أحياناً، هذا ما شرحه لي يَسلم؛ فمنذ مدّة وجيزة تعرّض واحد من الملالي لنوبة إغماء ودُفن؛ لم يكن خادمه الخاص موجوداً حينها، وعندما عاد ووجد أنّ سيده قد أصبح لتوه تحت الأرض، أصرّ على فتح القبر، واكتشف أنّ الملّا جالساً داخله؛ فقبر المسلمين فيه متسع، إذ يأتي ملكان ويُجلسان الميت بعد دخوله القبر مباشرة ليسألاه، ولكن لن تكون جلسة سعيدة حسب اعتقادي.

أخبرتُ يَسلم أن يتحقق بأنهم انتظروا نصف يوم قبل فعل أيّ شيء بي، وعلّمته كيفية حقن الكورامين في حالة إصابتي بالإغماء؛ فلم يكن بمقدوري فعلها بنفسي بعد الآن.

كان ذلك أداءً مؤلماً، استمتع به يَسلم وحده. علّق ساخراً: «الآن»، بعد وخزي بما يشبه سيخ شوي كما شعرت به في ذراعي «ربما أستطيع القول إنني مثل طبيب».

أمسك بكراستي لي ووجّه يدي من سطر لآخر؛ كتبت ملاحظة قصيرة، وتمدّدت بعدها بعد أن أخذ مني الإرهاق كل مأخذ، ورأيته يحدّق بارتباك.

قال لي: «لقد أعطيتك الجانب الخاطئ، إنها ورقة ملطّخة بالحبر. عليك إعادة الكتابة مرة أخرى». كان كالفراشة فوق سرير الموت، بهيجاً ولكن ليس له علاقة به.

نمت لثلاث ساعات حتى الصّباح، واستيقظت من أحلام سعيدة؛ لقد كنت مع والدي في مدينة ما في البحر المتوسط، مضيئة في بحر من الأوپال؛ قدم إليّ صديقي ضاحكاً في الغرفة ذات الموقد؛ استيقظت ومعي هذه الصّحبة ورأيت أشعة الشّمس على الأوراق الإبرية للنّخيل عبر النّافذة. كان هناك صوت تغريد العصافير وهواء نقي قادم من الحديقة داعب الحصر المفروشة فوق طاولتنا الصّغيرة؛ إنها أول ساعة ساحرة بعد الفجر. ونسيت للحظة أني كنت مريضة؛ وأدركت بعدها بالفعل أنه يومي الأخير، إلا إذا وصل محمود الكيميائي من تَريم مع بعض الأدوية الجديدة. فشلت كل أساليبي وسقطت جميعها واحدة تلو الأخرى؛ قلبي الآن ضعيف للغاية حتى أني لا أشعر بأيّ نبض. بدا الأمر كله غير منطقي، رهيباً، ولا يمكن تجنّبه، مع العالم حولي وعقلي حيّ بسرور؛ لا بدّ أن الأمر يبدو كذلك للنّاس المحكوم عليهم بالموت في يومهم المحدّد.

لقد أنقذني، كما أعتقد، محمود.

إن صعوبات الاتصال بين السّلطانيين وقيام العرس في تَريم ورحيل حسن بغضب، كل ذلك شرح تأخير الأيام الثّلاثة التي كادت تقضي علي، لكن نداء الاستغاثة الأخير جعلهم مدركين كم كانت الحاجة ملحّة. انطلق مضيفي سعيد بنفسه بعد هذه الليله الفظيعة نحو سيئون بسيارته والتقى الفريق المنقذ، وحوالي السّاعة التّاسعة، عندما

تخليت عن كل تفكير بهم جاء يَسلم بعينين لامعتين براقتين ليخبرني عن سماعه لصوت سيارة. وقف عند النّافذة وأخبرني عن رويته لنقطة قريبة نوعاً ما تثير غبار الوادي.

وصلوا بعد فترة وجيزة - مضيفاي وسيّدا عَمْد، وحسن المنتحِب مع محمود. إنه، رجل طيب، تحسّس نبضي وأخبرنا أنها ذبحة صدرية مترافقة مع سوء هضم، تركيبة فاجأتني، وبادر إلى حقن وريدي باللوكونول loconol؛ الذي كان له تأثير ناعم وكأن إكسير الحياة يسري مرة أخرى في قلبي المتعب.

أخذ محمود الأمور على عاتقه، والتي كان ثقلها على كتفي كثقل مرضي، ثم نمت بامتنان. قال مضيفاي بأنهما سيُظهران صداقتهما ببقائهما بالبنغَل حتى تتحسّن صحتي، وأمرا بتحضير وليمة لجميع الأطراف. عمّت حالاً أصوات الفرح المكان وجعلتني أشعر أنني والعالم حولي، مهما كان حالنا، لم نكن بأيّ حال ميتين.



الفصل الخامس والعشرون

الزّوّار

«ربمـا أصل بالرّغم من ذلك بسـرعة إلى المكان الذي تعلّقت فيـه روحي الهائمة، ولكن القدر يقيّد الأوتاد المندفعة ويحشر نفسه بينها».

(أندرو مارفل)

تحسّنتُ ليـوم، وانتكسـت بعـده. كتبت تحـت وطأة الأزمـة لأصدقائي فـي عَدَن وطلبت منهم إرسـال طبيب في حال حطّت طائرة من سـلاح الجـو الملكي في أرض حضرمـوت. من المتوقع كما أخبروني وجود رحلة إلى شِـبام والفرصـة مواتية للغاية لعدم تفويتها.

اقترب العيد الكبير، عيد الأضحى السّـنوي، سيسـتمرّ لأسبوع ولن يذهب أيّ ساعٍ للسّـاحل خـلال ذلك الوقـت. وفي جميع الأحوال سيسـتغرق وصول الرّسـالة لعَدَنٍ بين الأسـبوعين للسّتة أسابيع. اغتنمت الفرصة وكتبت، وأرسل مضيفي - كما علمت بعدهـا - تلغرافـاً على حسـابهم الخاص عن طريق نفس السّـاعي وبرسـالة مختصرة: «الرجاء إرسـال طائرة». لتسلّم لأيّة سفينة فيها لاسلكي قدِّر لها أن تمرّ هناك. أنا ممتنة لأقـول لم تـأت فرصة لإرسـالها، وأعفي الطّيران الجـوي الملكي من مـن أيّة مفاجئة يمكن أن تحدثها.

بينمـا كان محمـود يمرّضني، وأنا مسـتلقية غيـر مبالية، دون أيّ شـيء لأفكر به في

النّهايـة. تصيّد عبر كتابه المليء بكل مرض ممكن أن تتخيله والذي رفضت الاكتراث به. لقد أمضى مع طبيب في عَدَن سـنتين خلال وباء الطّاعون، هذه التّجربة، بالإضافة لطبيعتـه الجادّة وذكاءه الباهر، مكّناه من مسـاعدتي. جلس أسـفل الدّرج طوال الليل، ومن دون نوم، «يدعو» كما أخبرني، «أن يحفظك الله».

في اليوم الثّالث بعد قدومه، أصبحت دون أيّ شك أفضل، وبعد مدّة وجيزة بعدها غادرني للعودة بين الفينة والأخرى من سيئون.

فـي أحد الأيـام بينما كنت مسـتلقية ومريضة للغاية، أتى بدوي مـن القَطن لرؤيتي. دخـل لوحده في فتـرة ما بعد الظّهيرة عبر بابي المفتوح وألقى عليّ تحيّة السّـلام. كان عَولقيّاً طويـلاً من سـكان الهضاب، مرتدياً لباسـاً فضفاضـاً، وحزامـاً للطّلقات حول خصـره، ومتكئـاً علـى بندقيـة. وبغض النّظر عـن هذا كله، كان له شـكل المسـيح في بعض صوره القديمة - بحاجبيه العريضين ولحيته ذات اللون المائل للحمرة، سـمات مباشرة، وعينيه الهادئتين ومشيته النّبيلة.

لمرتيـن لـم يُمنـح الإذن بالدّخول، كما أخبرني، ولكنه انتظر حتـى لم يتبقَّ أيّ أحد بالأسفل، وأتى الآن ليلقي تحية الوداع. فلم يتبقَّ له ولرفاقه المزيد من الوقت للانتظار: فعليهم العودة لبلدهم.

قلت بأسف: «لن أستطيع الذّهاب، أنا مريضة».

«اللـه يعافيـكِ؛ الله يحفظك ويحيطك بكل خير. لا خير إلا مـن عند الله تعالى. له الحمد والشّكر».

يـا لها مـن دعوات جميلـة، قالها بكل إخـلاص، صاحَبها قبول جليـل وجو الحياة الشّجاعة الرّحبة. وحتى عند طلبه هديّة بسبب انتظاره عديم الفائدة، كانت كلمته نبيلة: «إكرام»، شيء «يُعطى للتّكريم».

لـم يكن بإمكاني تقديم أي شيء له، لعدم استطاعتي النّهوض، كما أخبرني مضيفاي أنّ سـلطان القَطن سـوف يفعل ذلك عني وسيعلمني بذلك. ولكن عندما حان الوقت،

لـم يسـمح لـي أبداً بـرد الدّين له، وكل ما استطعت عملـه هو ترك نسـختي من كتاب الهَمداني له. ولكن خلال ذلك الوقت بقيتُ سعيدة ومرتاحة بزيارة البدوي، وفكّرت عند استلقائي أنّ سـحر جزيرة العرب، والذي شعر به الكثيرون، هو ربما نتيجة بشكل أقلّ لأرضها الجافة الجعدة المشمسة من الجمال والنّبل الدّاخلي المتميز لأهلها.

عنـد ذلك الوقت، قبل استطاعتي مغادرة فراشـي، أحضروا لي خبراً عن المسـافر الألماني إلى شَبْوة[1].

كان رجـلاً في مقتبـل العمر زار هذا البلد من قبل، وكتب عنه كتابين، والتقط صوراً جميلـة. ولكنـه كُره بسـبب تقرير ذكر فيه أن بـدو الصّيعَر Se'ar كانوا مـن آكلي لحوم البشـر. هذا، بالطّبع، من الغباء قول شـيء كهذا عن أيّة قبيلة عربية، والذي أثار مشـاعر الامتعـاض فـي الـوادي الذي أحسـن ضيافتـه. ولديه أيضـاً جرائم أخرى يدفـع ثمنها كمسـافر، فقـد وصل فعلياً عند بوابة شَـبْوة، التي طرده البدو عندها، فزاد المسـافة من شِبام لسبعة أيام بدلاً من أربعة؛ وصنّف نفسه كأول أوروبي في دَوعَن في الوقت الذي كان فيـه الوادي بأكمله يتحدّث عـن زيارة ڤان دِن مولن M. Van den Meulen وفون ڤيسـمان Von Wissmann؛ وظهـر وكأنه لم يسـمع أبـداً بالزّوجين بِنـت Bent؛ وبدا وكأنـه هُـدّد بإطلاق النّـار عليه وبالموت مرات عدة بشـكل غير منطقـي حتى مع أكثر السّياح عديمي اللباقة.

عندما قدّم نفسـه، دون توقع، للسّادة الأشـراف آل الكاف في تَريم، كانوا محرجين ليقرّروا ماذا يفعلون به. رغب الشّـباب في الوادي التّعبير عن مشـاعرهم بكل وضوح، وشـاركهم في السّـخط الحزب المتديّن وقديمو الطّراز. وهذا بسـبب إهانته لهم بقوله إن مدرسة الرّباط، مركز التّعليم الدّيني في حضرموت، تُقدّم «آينه فراو» "eine Frau" (أي امرأة بالألمانيّة) لطلابها مع مظاهر متعة أخرى.

كان الكتـاب موجوداً في سيئون، وطُلـب مني أن أترجم المقطـع المُعترَض عليه،

---

(1) تقصد بكلامها هنا الرّحّالة المغامر هانز هِلفريتس Hans Helfritz الذي ذكرناه أعلاه في الفصل التّاسع.

والـذي اسـتمع إليـه الرّجال المتعلّمـون بصمت وبنقمة. سـألوا الشّـاب الألماني عن معنى كلماته تلك عند قدومه؛ فشرح لهم بأن عبارة "eine Frau" في هذه الحالة تعني الفتيات الصّغار اللاتي سُـمح لهن بالحضور للمدرسـة (والحقيقـة تقال، ليس كذلك فلم يكن يُسمح للفتيات بالحضور للمدرسة).

أتى كلٌّ من حسَـن ومحمود بهذا الكتاب بين يديهما ليسـألاني عمّا إذا كان تفسـيره صحيحـاً: ربما، هـذا ما تمنّياه، لم أكن أعرف الألمانية بشـكل جيـد، من المحتمل أن تعني كلمة "Frau" الطّفل الصّغير في سـن العند؟ ولكني رفضت الحنث بقسـمي في سـبيل ألمانـي غير معروف: فقلت، Frau تعني Frau ولا شـيء سـوى Frau. وعندما اسـتعجل مضيفي ودائرة كبيرة من الأسـياد في زيارتي وأخبروني أن الألماني الشّـاب كان في طريقه إلى شَبْوة قبلي، وللتّعبير عن الصّداقة تأملوا بأن يحدث مكروه أو موت مفاجئ له في الطّريق... كانت مشاعري كابتسامتي المجرّدة للفكرة.

أتـى الآن أحدهم جالباً أخباره اليومية، بينما أنا مسـتلقية أستشـيط غيظاً. لقد ذهب إلى سـيئون وبقي عند السّـيد أبي بكر. لن يتحرّك، كما قالوا لي، حتى بعد العيد الكبير، لأنـه الوقـت الـذي يحتفل فيه الجميـع بعقود القـران، يـزوّج البدو بناتهـم خلال هذا الأسـبوع، ولا سـفر عملياً في هذا الوقت. وعند نهاية العيد، سـيكون باستطاعتي على الأغلب السّـير ثانية، وأرسل السّـيد أبو بكر رسالة فحواها أنه يتطلّع لبدئي بداية جليّة. سـيبذل ما بوسـعه ليُبقي الألماني هادئاً. أرحت ضميري بتذكّر خطاياه، وتظاهر يَسـلم ببعثرة الطّعام بأصابعه الطّويلة لكلاب متخيّلة، مفسّـراً بأنّ هذا الذي سـيحصل للرّجل عديم الضّمير إذا زار القاطنين الغاضبين في شِبام. «آكلو لحوم البشر» دمدم بين الحين والآخر، بينما كان يكنس غرفتي بسعفة نخيل.

بعـد حين، وصلت الأخبـار، بعيد وبغير عيد، بدأ الألماني رحلتـه. اختار بدوياً من السّوق في سيئون ورتّب ليأخذه مباشرةً، على الرّغم من جهود السّيد أبي بكر لثنيه عن ذلك. أعجبتُ بتصميمه، ثم سـمعت من محمود أن ذلك كان بسبب حسَن، الذي حثّه على الإسراع، وإلا فإني سأبدأ الرّحلة قبله.

لـم أعـرف ما حـدث بالضّبـط، ومازلت أكـره التّفكير بسـوءٍ تجاه حسـن. لقد كان مخلصـاً ووفياً للغاية قبل أن يرميني المرض تحت رعاية محمود، الذي يكرهه. وربما كرهـه لـه أو ربما مجرد حب الأخـذ والرّد، جعلـه يتكلم. يا لها من حقيقـة محزنة في الشّرق، بأكمله، إنهم مخلصون لكرههم أكثر من حبّهم، حتى الآن سأظنّ به خيراً. دبّ الخلاف في وادي حضرموت، واستلقيتُ بـلا حيلة، كانت رحلتي تنهار كبيوت ورق الكوتشينة حولي؛ وشعرتُ بالخزي أن يكون لديّ مانع إذا وصل الآخرون إلى مدينتي قبلي - بالنّسبة لهذه المسـألة وهي الوصول أولاً لم تكن ذلك الشّـغف المهم. وضع يَسـلم الواثب بخفّة ومرح حول الغرفة، إصبعاً وإبهاماً حول عنقه، وأشار إلى السّقف، وفتـح يده ليُظهر أن كل شـيء قد انتهـى، وبوجهه تلك النّظرة الصّارمـة المعتادة في ما يتعلّق بالعدالة تجاه الآخرين، يرى بأن النّاس الخائنين لأصدقائهم يجب أن يُشنقوا.

وصـل الألماني إلى القَطن واسـتمرّ في التّقدّم. وصلت رسـالة من السّـلطان هناك يقول أنه قد مرّ فيها ولكن البدوي المرافق له، على الرّغم من وصولهما القرية الحديثة، لن يكون باسـتطاعته اصطحابه لموقع المدينة القديمة، على بُعد مسـيرة يوم: اعتبرتُ إرسال رسالة كهذه لطفاً من جانب السّلطان ولكنها أصبحت حقيقة.

وصلتني بعد أشهر، عند وصولي تواً لأوروبا، رسالة من حسين في شِبام:

قال: «عاد الألماني من شَبْوة والتقيناه في القَطن في قصر السّلطان وسألناه عن الآثار هنـاك، فأخبرنـا بوجود منجم ونفط وذهب يجب التّنقيـب عنها، وأحضر صورة لصنم هناك. لم يكن سعيداً، فلقد كان لديه نصف يوم فقط، بسبب القبائل التي هاجمته. وها هو ذا قد أتى وذهب للسّاحل؛ كما مضى لى ضواحي شَبْوة ولكنهم منعوه من دخولها كلها».

كان ظـن السّـلطان في محلّـه، فالمدينة القديمة ومعابدها السّـتّون ما تـزال بانتظار الرّحّالة.

* * *

الفصل السّادس والعشرون

مغادرة شَبْوة

«ماذا لو لم أعد أعيش تلك الأيام الملكية؟
ما تزال لياليها حاضرة معي.
حلمت بأقدامي تسير فوق طرق النّجوم؛
استراح قلبي في الهضبة.
ربما لست نادماً على الأشياء القليلة التي لم تُنجز؛
أمسكت بالعلا، واحتفظت بالأحلام التي ربحتها».

(«أبريل وأمطار» ج. و. يونغ)

حضّرت كل الخطط التي استطعت للوقت الذي ينتهي العيد فيه. قرّرت أن أُحمل على نقالة إلى الشّاطئ، كما فُعل بمضيفي عند مرضه في السّنة الفائتة. ستستغرق ثمانية أيام أو أكثر تبعاً لطول مراحلنا وسيحملني ستة رجال مقابل خمسة عشر طالراً لكل واحد؛ أما مشكلة الطّعام فستحلّ بشراء ثلاثة رؤوس من الماعز، والتي ستتحمّل العبء الأكبر من الرّحلة فستسير معنا وستزودنا بالحليب بين الفينة والأخرى. كان الكلّ متفائلاً حول المشروع، على الرّغم من عدم استطاعتي التوقف عن التّفكير في الصّفحات الأخيرة لكتاب بِنت Bent، والتي انتهت بشكل مأساوي تماماً كرحلةٍ على

نقّالة[1]. لكن الجو الحارّ قادم عمّا قريب، ويجب علي مغادرة الوادي بطريقة ما.

ها أنا ذي الآن مستلقية خلال فترة من الهدوء المملّ، لا يقطعه غير كلام يَسلم يأتي ليثرثر في المساء، بينما سالم يقول القليل وهو يحضن ركبتيه على كرسي من الكراسي المخملية أسفل سريري، مطأطئاً رأسه البنّي من وقت لآخر.

اقترحوا عليّ تجربة طراز الطّب الحضرمي وعرضوا إحضار رجل حكيم لرؤيتي. كنت سأقبل ربما لولا أني أجرّبه حالياً، استمعت لقائمة يَسلم العلاجية القاسية كما هي. يُمزج ويُؤكل العسل والإثمد، كما أخبرني، لعلاج الإسهال. أما الرّيح «والتي تهاجم نصفك الأسفل»، تعالَج بقضاء أسبوعين في الظّلمة الدّامسة، «حيث لا ينمو شيء» - عادة في كهف في الهضاب؛ والطّعام الخفيف فقط مسموح وربما هذا يشرح نجاح العلاج. تعالَج لدغات الأفعى، كما قال، بدائرة من الرّجال يغنّون حول المريض بينما يمتصّ واحد منهم السّم؛ ولدغات العقرب تعالج بالضّغط بالقطعة النّقدية فوق الجرح. «كما للسّعال الذي يأتي بعد الحصبة، أنت محظوظة بالتّخلّص منه، والذي غالباً ما يخنق المرء في حلقه فيموت، أكثر من مئة رجل مات في الشّهرين الأخيرين في شِبام».

أستطيع رؤية شِبام من نافذتي ببيوتها الخمسمئة المتجمّعة كالحصن فوق النّخل. تدوس الجمال فوق حبات الشّعير في الجهة الأمامية. يجرّ الرّجال جذوع النّخل في حلقات دائرية، وكلّما جمعوا القش في حزم غنّوا معاً.

يُصنع كل شيء في حضرموت مع الغناء. تُبنى البيوت بمصاحبة الغناء من أول خلط للطّين والقش لصنع القرميد إلى آخر لمسة من التّكليس والتّبييض. حتى الجمال لها أغانيها الخاصة؛ يدندنها البدوي برفق كلما تمايل للأمام والخلف، وتمشي معها

---

(1) أصيب الرّحّالة البريطاني ثيودور بنت بالملاريا في آخر رحلاته في البحرين وجنوبي اليمن وعُمان وشرقي السّودان وسُقطرى، ثمّ ما لبث أن توفي في بريطانيا بعد أربعة أيام من عودته في شهر مايو 1897، ممّا اضطر زوجته مايبل إلى تدوين وقائع الرّحلة بنفسها. انظر كتاب «جنوبي جزيرة العرب» الذي نشرناه مؤخراً في هذه السّلسلة.

الجمـال وتهز رأسـها برضى من جهة لأخرى. يشـكّل كلاهما صورة للسّـعادة الأليفة كلمـا سـارا خلال عزلـة حياتهما المشمسـة، ولذلـك غالباً ما أتسـاءل: كـم زوجاً من الأزواج يفهمان بعضهم بهذه الحميمية كما يفعل هؤلاء.

كلما استلقيت ونظرت هائمة عبر النّافذة، يأتي يَسلم بأخبار هنا وهناك. أخبرني أنّ شِبام في طريقها للحرب، «مع البيوت القابعة هناك» - بيوت صغيرة وغير عدائية تبدو متواضعة عبر الوادي الذي ستنقضي مدة هدنته بغضون شهر واحد.

تملـك شِـبام حاميه قوامهـا حوالي سـتين جندياً عبـداً، على الرّغم من أن سـلطان القَطن يملك لنفسه العديد من اليافعيين بمعزل عن حكومة المُكلّا. حتى الآن في وقت السّـلام، تغلق بوابات المدينة في السّـاعة الثّامنة مسـاءً حتى الفجر (سـاعتان عربيتان حتـى الفجـر). طلب مني يَسـلم الذي يرغب بحضور عرس في المسـاء بعـد الظّلمة، مصباحي الكهربائي. قاربت عمر البطاريات من نهايتها، فاقترحتُ استخدام الفانوس.

قال يَسلم: «لن يكون له أيّ فائدة، سيطلقون النّار علي».

«من سيطلق النّار؟».

«الجنود عند البوابة».

اعتـادوا إظهـار ضوئين هنـاك عبر الليل، كما يظهر ضوء شـمعة صغيـر وحده عبر الأبنيـة، ولولا ذلك لبدت البلدة كحشـد مـن الظّلال برؤوس مكتظّـة بجانب بعضها، ويقبع سـواد الجـرُف والوادي حولهـا، حتى يطلّ القمـر فوق الجدار الشّـرقي، لتبدو الخطـوط الرّئيسـة للمدينة مخملـيـة وعميقة تحـت جمالها المنعـزل المبهَم. وجاعلاً الأشـواك القاحلـة وأجمات النّخيـل على الرّقـع الرّملية تبدو وديعة كمسـتنقع غربي. عنـد غياب القمـر، يعود الظّلام ليحـلّ كالحبر ثانية، حتى يكسـره الصّباح برفق يخطو سـريعاً فـوق جدران الـوادي من أرض البخور، وحوالي العشـر دقائق هـي المدة التي بين الظّلمة والفجر. يظهر عبر نافذتي الجنوبية، ضوء يشـبه الهالة خلف الجُرف الذي يحملنـا، ويصيب بـرج المراقبة المربع ويُظهـر صخور الجلمود الأربعـة القابعة هناك

لتبدو كرجال الكمين عندما أطلق البدو من الأسفل تجاه شِبام. ومن النّافذة الغربية، تعاود بيوت شِبام الظّهور تحت ضوء الشّمس فوق مصارف مياهها، التي عندها كما قال يَسلم، تُضرب بعض النّساء حليقات الرّأس المُقادات على حمير عبر البلدة.

مبادئ العدالة بسيطة. يوجد بئر قديم وسط المدينة حيث يوضع أسفله أسوأ المجرمين ويُرسل لهم الطّعام من الأعلى. أما بالنّسبة للسّارق، فتقطع يده. إنّ يَسلم من مؤيدي العدالة، وأخبرني بإعجاب كبير قصة قاضي ابن سعود والرّجل الذي أضاع علبة طحين. طالب به الرّجل بعد مضي سنة ووجده في مركز الشّرطة. أمر القاضي بفتحه أمامه؛ وكان أحد الجنود قد أدخل إصبعه في ثقب المفتاح ليرى ما يحويه الصّندوق، وما زال أثرها في الطّحين جلياً للجميع. قيست أصابع الجنود عليها، وعندما عُثر على الأصابع المذنِبة قُطعت.

كان يَسلم نفسه أرقّ من أن يؤذي ذبابة، ولكنه مؤيدٌ لهذه القسوة. ولكن يوجد سبب صغير لها في حضرموت. فالجرائم تُرتكب، ولكن عادةً من قبل البدو، الذين يعودون بسرعة إلى جُولهم بعيد المنال - بالضّبط كالرّجال الذين حملوا حماراً من حديقة ضاحية عُقدة على مرأى من بنغلنا - الحدث الذي كسر رتابة توضيب المنزل وأبقى يَسلم سعيداً ومرحاً لبعض السّاعات.

في بعض الأحيان يلقي البدويون القبض على العبيد عندما تتاح لهم الفرصة، ويبيعونهم لأسياد جدد، ولا يغامر عبيد الوادي حتى عند عتقهم بالذّهاب إلى الجُول وحدهم، لخوفهم من أن يُخطفوا ويأخذوا لمنطقة بعيدة ليباعوا هناك.

أخبرني محمود كيف أغري صبيان من كالكوتا بوعد بالعمل من بحارة عرب من صُور في عُمان. وعند وصولهم البر، باعهم العربي مقابل 700 طالر لبدو صيعَر Se'ar الذين أخذوهم للشّمال الغربي، وأبقوهم هناك ينقلون الماء لسنتين. في النّهاية، حدث أن أحضرهم السّيد لسيئون لقضاء بعض الأعمال فهربوا منه وسألوا رجال البلدة عن وجود رعايا بريطانيين أو هنود هناك. أرسلوا لمحمود الذي بدوره نقل القصة للسّيد أبي بكر، فأرسل وراء السّيد بدوي. هرب أحد العبدين، لكن الأخر باعه السّيد مقابل

500 طالـر (طلـب البدوي 1,100)؛ وأرسـله بعدها إلى وطنه. جرت هـذه القصة قبل عشرة أشهر من قدومي.

يُخطف الأطفال أحياناً ويباعون. اشـترى السّـيد أبو بكر، الذي لا يقصد أحد فضله ويـردّه خائبـاً، أحد هـؤلاء الصّبيان الصّغار مقابـل 400 طالر (30 جنيهـاً). وأخذ عناء البحـث عن مـكان قدومه وكتـب لوالديه البعيدين فـي نجد، ولكن الصّبـي لم يرغب بالرّجوع إليهما، ورأيته بين الذين اعتنوا بي في البيت في تَريم.

بسـماعي لهذه القصص، ومع مرور الأيام بهدوء، بدأ وادينا وحركته يبدو في عينيّ كما في عيون قاطنيه، قرية صغيرة مسالمة وحياة سعيدة.

اعتـدت الاسـتلقاء على فراش في الشّـرفة وقـراءة أعمال ڤِرجيـل Virgil، في ظل ظـروف ممتازة - اسـتمتاعي بالنّصوص الكلاسـيكيّة ضعيـف - وأنا ميّالـة لتركها إذا توفرت أي مادة أكثر سهولة للقراءة في المكان حولي.

يعتبـر ڤِرجيـل Virgil واحداً من أكثر النّصوص الكلاسـيكيّة راحـة لتمرض معها. لا يوجـد شـاعر آخـر أعرفه لديـه هذا الكم مـن صور النّـوم الجميلة، في هـدوء الليل وراحة الأرض. ووجدتُ أيضاً بعض الملهمات العظيمة في لا مبالاته والثّبات الوثني للموت.

مـن ذا الذي لا يتشـجع بمثل هذه الكلمات؟ يـرن ايقاعها الجليل في أذنيّ مع جلبة صرير الآبار النّاعسة، التي يوجد ثلاث منها في الجوار. يعمل واحد أو آخر باستمرار، وبمقدوري النّظر من نافذتي لأرى حوض السّباحة يعاد ملؤه كل يومين تقريباً. أستطيع رؤيـة القرب الجلدية ترتفـع ببطء من أعماقها، تتعلّق للحظـة أو اثنتين، ثم تغوص في الحـوض، تلتوي حـول أطرافها الرّاشـحة الممتلئة، وتصبّ الماء. يسـتمرّ خرير الماء طـوال النّهار، يتضاءل ويتزايد كلما صعـد الدّلو ونزل. تعتبر الآبار أماكن جميلة تحت الأشجار، مرقّطة بالظّلال؛ وتلك هي المياه الجارية الوحيدة في البلد.

نظرت وأنا على فراشي تحت الجدار المبيّض إلى السّماء الزّرقاء بغيومها التي تشبه

ستائر مطوية رقيقة. تنظر إليّ طيور صغيرة من حواف السّطح. بياقات سوداء وبرؤوس سوداء مسطّحة. بينما يتجمّع الهدهد بين أزهار أشجار الرّمان. للرّمان في شِبام ثمار، كبيرة بالحجم، وزهور، في نفس الوقت. لقد لقيت تشجيعاً كبيراً من قائد سرب الطّائرات ريكاردز Rickards الذي علّم يَسلم كيف يشذّبها، والذي كلّما ذكر اسمه مُدح أينما لقي الرّمان الإعجاب. اسمه واسم الكولونيل بوسكاوِن Boscawen هما الاسمان الأكثر محبّة في الوادي. هناك العديد من الطّيور، التي لم أتعرّف منها سوى على طائر الدّعلة، وطائر الحدأة أو النّسر الأبيض والبنّي اللون، وسرب الحمائم في الجروف، التي تملأ المكان بأصواتها النّاعسة، والغربان السّوداء «التي تغدو وتروح بحبّات الذُّرة والبلح».

غربت الشّمس عند إشارة ساعتي للسّاعة الخامسة (لم تعد موثوقة أبداً). تلوّنت السّماء بالأصفر والأخضر كسماء عَدَن. برزت الجُروف تجاه الوادي، توردّت مثل النّار المستعرة؛ ووقفت مثل الأسطول عند الرّسو، واحدة تلو الأخرى، متشابهة ومتطابقة، وكلٌّ منها يلقي بظلّه قطرياً عبر الخلف حتى المسافات البعيدة في الوادي[1].

"Maioresque cadunt altis de montibus umbrae"

بقيت أزهار غامضة خضراء وزرقاء من خلجانها، وحدها عند أطراف الجُول المسطحة نمت وأومضت بفتور وماتت. أمّا نحن فبانتظارنا ليلة طويلة أخرى.



(1) المقطع اللاتيني التالي للشّاعر ڤرجيل، وهو تتمّة لمقطع آخر:

Et iam summa procul uillarum culmina fumant,
Maioresque cadunt altis de montibus umbrae.

ومعناهما: والآن يعلو الدّخان من أسطح دور المزارع البعيدة، واعلى منه ترتفع ظلال الهضاب العالية.

الفصل السّابع والعشرون
مغادرة الوادي جواً

«سأضع حزاماً بعكس الأرض بغضون أربعين دقيقة».

«حلم ليلة منتصف الصّيف»

«فقلت: ليت لي جناحاً كالحمامة، فأطير وأستريح».

مزامير داود، 55

كان العيد أكثر شيء حيّرني في حياتي على الإطلاق.

يحضّر الكلّ له، والكلّ يتحدّث عنه ولكن عند اقتراب بدءه لا يستطيع أحد أن يحدّد بدءه، يقول البعض يومين وآخرون يقولون اثني عشر. ولكن إشارات اقترابه بدأت تتزايد أخيراً. بدأ البدو بإطلاق النّار ببنادقهم مرحّبين عند دنوهم من شِبام – شكّلٌ مُكلف من التّرحيب، فكل أربع طلقات تكلفهم طالراً كاملاً، ومنعت الحكومة هذه التّسلية في الشّوارع الضّيقة للبلدة.

استأذن سالم للغياب. لديه زوجه، دفع ستين طالراً (4 جنيهات و10 شلنات) مهراً لها، لأنها بكر (لولا ذلك لكان مهرها ثلاثين فقط) وصنعته أيضاً جزّار، وسيحتاج لذبح مئات الخراف يوم الجمعة. هذان السّببان كافيان، فغادر سالم ليوم أو يومين، بينما قدم يَسلم بين الفينة والأخرى، وبقي العبد الأسود عنبر يحرس في الأسفل.

بدأ العيد يوم الثّلاثاء، اليومان الأول والثّاني هما يوما الأطفال، يشتري النّاس

الألعاب. اليوم الثّالث هو زلفة الكبار، والتي يؤكل فيها طبق asi'، مزيج من البلح والشّعير وحبّ الحيدوان من الجُول، تطبخ سوياً لخمس ساعات. اليوم الرّابع هو يوم الجمعة، يوم الحج، ويأكلون فيها الهريسة، عصيدة الطّحين واللحم التي تذوّقتها في دَوعَن. في اليوم الخامس، يزورون الحَوطة في شِبام، قبر أحمد بن حسين بن أحمد، خارج المدينة وراء بنغلنا. وفي السّادس، تُزار الشّيخة سلطانة، وهي وليّة خلف سيئون وقد مررنا بقبرها في طريقنا.

سألت يَسلم لماذا هي وليّة، شرح لي بأنها كذلك لعدم زواجها على الإطلاق.

قلت: «بعدئذ، إذا متُّ في اليوم التّالي، ودفنتني كما وعدت بجانب أرض الهبوط تحت القبّة البيضاء، سأكون وليّة أيضاً، وسيكون لي يوم لأزار فيه؟».

لم يُبدِ يَسلم أيّ تعليق.

«من الجيّد أنك لم تموتي»، علّق قائلاً «ماذا يتوجب علينا عمله بأشيائك؟ كل الوقت، عندما كنت شاحبة للغاية، كان هذا ما كنت أتساءل عنه. قرّرت جمع أشيائك كلها، حينها لن يستطيع أحد التّفكير بأني أخذت أي شيء بنفسي».

يعرف يَسلم جميع الأعياد في البلاد، ويوجد العديد منها. واحد من الأعياد الرّئيسة حولنا في القَطن، في الثّاني عشر من شهر ربيع الآخر، ويشمل زيارة خمسة أيام لقبر الحبيب عمر الهدّار. لكن البدوي قال إنهم يعيرون انتباههم فقط للعيد الكبير، وحتى عيد نهاية رمضان، الذي يسمّى هنا شربة الماء، فنادراً ما يحتفلون به.

في الرّابع عشر من مارس، اليوم الثّالث من العيد، عندما كنت مستلقية لمدة أسبوعين في غرفتين حسبت أني شعرت بقوة كافية لأمشي قليلاً تحت أشعة الشّمس. لم يوجد أحد حول البنغَل عدا العبد الأسود عنبر، الذي أتى معي، وكلب نحيل اتخذته صديقاً - نحيل للغاية حتى أن الذّباب حطّت عليه وهي لا تفعل أبداً عندما تكون الكلاب بدينة، قال العبد.

مشينا سوياً برفق وجلسنا عند السّقاية قرب الطّريق تحت النّخل. كانت أشبه بالطّريق

إلى مملكة كاميلوت، وشعرت - بعد سجن أسبوعين - بأني لست مختلفة عن اللّيدي شالوت Shalott ناظرة بعيون غريبة لحركة السّير في الغبار، الفلاحون على الحمير، يجلسون على المنتجات أو مع جلد خروف ممدود عبر السّرج، السّادة ببياضهم النّاصع، البدوي والجمل، النّساء التي ترفرف شالاتهن خلفهن، مع إبريق صغير أو سلال صغيرة متوازنة فوق رؤوسهن، جنود زنوج، عارين تماماً إلا من المئزر مع حزام الطّلقات، أناس يحملون الزّيت أو السّمن في قرب جلدية صغيرة، حمير تكاد لا تُرى تحت حزم القصب الجافة للعلف، وبجانب قبّتنا الصّغيرة توقفت الحيوانات للشّرب، أما سيّاسهم فقد شربوا من الحوض السّطحي الذي تصبّ الماء فيه عبر السّاقية.

أتى النّاس من الحقول المجاورة للتّرحيب والسّؤال، فقد سمعوا بمرضي، وتحدّثوا حول الأسعار كما يفعل أهل المدن. من الصّعب التّجارة في الوادي، فلكل بلدة أوزانها ومقاييسها الخاصة، ففي شِبام الأوقية، وزن طالر واحد، الرّطل، وزن اثني عشر طالراً، والمُصرى، وهي تسعة وعشرون، ولكن في الغرفة «المُصرى» وزنها أكثر، وفي سيئون قيمتها أقل منها في شِبام. والأسعار أيضاً متنوعة مع الأزمة العالمية، فملح سيئون الذي اعتدنا على شراء 60 مصرى منه مقابل طالر قبل أربع سنوات، ارتفع ليصبح أربع مصارٍ مقابل طالر واحد، وانحدر مرة ثانية الآن ليصبح ثلاثين.

قدم الآن سعيد مضيفي على حمار أبيض صغير مُسرج بسجادة، وترجّل عند رؤيتي ومشى معي في طريق العودة للبنغَل. جلب لي عطر خشب الصّندل الهندي وتحدّث عن العنبر، الذي يتواجد حتى الآن في شواطئ الشّحر. عند مغادرته، استلقيتُ على فراشي في ظل التّرّاس ورحت أقرأ ملحمة الإنياذة Aeneid، كنت أفكر بأسى، بأنني استنفدت كل شيء آخر، يجب عليّ الآن البدء بالجزء المملّ، بعد الكتاب السّابع، عندما ظهر صوت أزيز وتزايد تدريجياً، وفي نهاية الأمر لفت انتباهي. كانت في السّماء تحلّق أربع طائرات قاذفة من سلاح الجو الملكي البريطاني، قادمة من الجهة الجنوبية الشّرقية، وتملأ الوادي بأكمله، فيما يشعّ معدنها المكوّن من الألمنيوم تحت الشّمس، أكثر جمالاً في عينيّ من أيّة طائرة أخرى شاهدتها على الإطلاق.

حلّقت بشكل دائري وحطّت شرقي جدران المدينة، توجه للقائها الوجهاء كسرب من النّمل، ومن أحد قمرات الطّائرات ترجّل الدّكتور هايثورن ثوايت Haythorne Thwayte وشق طريقه تجاه بنغَلي.

وجدني مريضة جداً لأُنقل عبر هواء بعد الظّهيرة السّاخن، فانتظرنا حتى الفجر التّالي. في تلك السّاعة الباكرة حزموني بنقالة ووضعوني بسيارة سعيد وساروا بي إلى مهبط الطّائرات القريبة. لم يكن بمقدوري إدارة رأسي، فقد حُزم للأسفل، ولكن كان باستطاعتي رؤية قمة الجُرف، التي بدت كسيف أحمر تحت أشعة الشّمس.

بدت وجوه كل من سعيد وحسين والحاكم العجوز ويَسلم وآخرين، واحداً بعد الآخر فوق أفق قمرتي لتقول وداعاً. كنت في حلم جميل لا يحتمل. أيدٍ قادرة ومسؤولة أخذت عناء اتخاذ القرار عني. لقد ارتفعنا، نأت وتلاشت جدران الوادي وسجن تلك الحجارة الرّملية. عند طيراننا أخبرني الطّبيب عمّا نمرّ فوقه، رأيت في عقلي الجُول وطرقاته المشعّة بحركة السّير فيها، والحدّ الفاصل الطّويل والضّخم لكور سيبان.

أعدنا تعبئة الوقود في فُوّة، ومرّة ثانية هنا صعدت وجوه ودودة قدمت للتّرحيب بي حيث تمدّدت. والملازم الطّيار غِست Guest الذي يقود طائرتنا، أبقاها عالية وثابتة في الهواء العُلوي البارد، وبعد خمس ساعات ونصف بالتّمام والكمال كنّا في عَدَن.

«لم يتسنَّ لها التّجوال

بعيداً عن الرّجال الوقورين

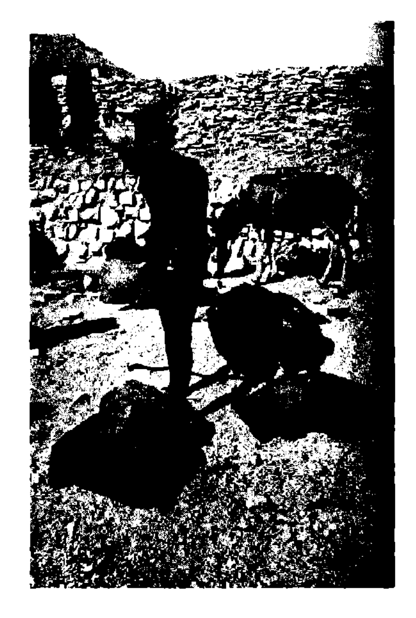
ولكن تلوح هناك جزيرة

في الرّمال إن لم تكن في البحار

فكّرتُ بها مرة ثانية».

* * *

خليج المكلا

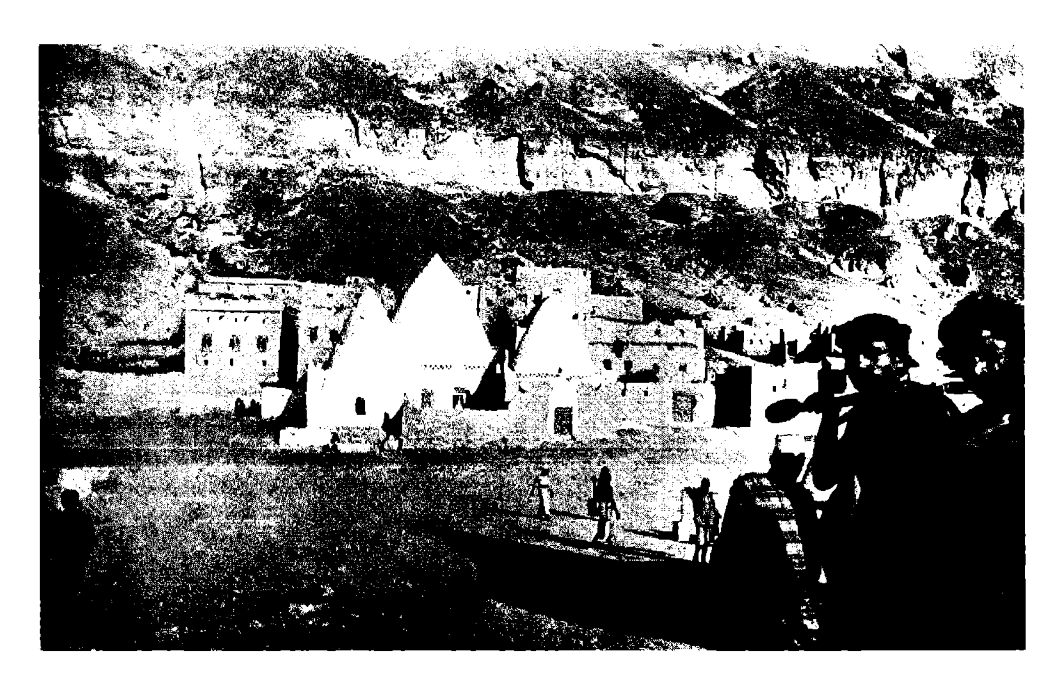


سليم في المخيّم



فرجة بين النّخيل في دَوْعَن

بلدة في وادي دَوْعَن



قباب المَشهَد الثّلاث



شِبام، «ومالت المنازل بعيداً إلى قممها المبيّضة بالكلس»



أرباض سيئون



ساحبو الماء

فهرس الكتاب



البوّابات الجنوبيّة لجزيرة العرب

أبحرت الرحالة البريطانية المثيرة للجدل فريا ستارك في البحر الأحمر في نوفمبر 1934، ونزلت في عَدَن المرفأ الرئيسي للمحمية البريطانية في جنوبي جزيرة العرب. كانت المكتشفة النشيطة الجذابة الصغيرة قد حازت على شهرة، واختارت اليمن وبشكل خاص وادي حضرموت النائي مسرحاً لمغامرتها التالية. ثار جدل كبير حولها في لندن، فتوقعوا أنها ستهبط بطائرتها الخاصة، أو ربما تأتي وهي تقود قافلة جِمال. كان بعضهم على ثقة من أن وصولها لم يعنِ أيّ شيء سوى المتاعب، ولكن مع ذلك احتشد الجميع للقائها في مقرّ الإقامة البريطاني.

كان هدفها أن تجد مدينة "شبوة" الخفية، عاصمة مملكة حضرموت القديمة المسماة في الأسفار (حبس الموت)، وقد سماها بلينيوس سابوتا وهي المدينة التي زوّدت قوافل البخور التي تمر عبرها، وكتب أنها احتوت على ستين معبداً وثروة لا توصف. لم يحصل أن وصل مستكشف أوروبي لتلك الواحة المفقودة منذ عهد بعيد في رمال الصحراء، وكانت نية فريا أن تكون أول من يصل إليها. كانت خطتها أن تتسلق الجول العالي، وهو جرف فسيح يفصل ساحل المحيط الهندي عن وادي حضرموت، وهو الأطول والأخصب في جزيرة العرب، تطوّقه جُروف نمت على جوانبها نباتات البخور. فكانت حصيلة ذلك كله مغامرة ممتعة شائقة، لم يكن أقلّها وقوع فريا في الحب بعَدَن.

السعر 65 درهماً





